

موسوعة الأديان القديمة

معتقدات أسبوية (العراق - فارس - الهند - الصين - اليابان)

د. كامل سَعَفَان



دار النسخ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معتقدات آسيوية

العراق - فارس - الهند

الصين - اليابان

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م

حقوق الطبع محفوظة

ولا يجوز طبع أى جزء من هذا الكتاب أو تخزينه بواسطة أى نظام تخزين المعلومات أو استرجاعها أو نقله على أية هيئة أو بآية وسيلة سواء كانت إلكترونية أم شرائط ممغنطة أم غير ذلك ، أو أية طريقة معلومة أو مجهولة إلا بإذن كتابى صريح من الناشر .

دار الندى

٢٩ عمارات حدائق العبور - صلاح سالم - مدينة نصر

تليفون وفاكس : ٤٠٣٥١٣١

موسوعة الأديان القديمة

مُعْتَقَلُ أَسْيُورِيَا
(العراق-فارس-الهند-الصين-اليابان)
د. كامل سَعَفَان

د. كامل سَعَفَان

دار الندى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عن الموضوعات التي تناولها الكتاب وجدت معلومات كثيرة مبعثرة متناقضة ، اختلطت فيها الحقيقة بالأسطورة ، فكان همى الجمع والتنسيق والنقد والتعليق .

وبما أن أكثر مصادر هذه المعلومات مترجم ، وأكثر المترجمات ليس مباشرة ، ولا يقدم المعلومات كاملة ، ولا يحسن تنسيقها - فقد وجبت المقارنة بين المترجمات وصولاً إلى الحقيقة ، أو إلى ما يطمأن إليه ، إلى حد ما ، مع العناية بالنقد ، أو الحوار مع ما تقدمه هذه المصادر من نصوص .

وقد توخيت فى هذه الدراسة أن أدل على أن التعرف إلى الله قد يكون بمعرفة صفات الكمال ، كما يكون بسلب صفات النقص ، لكن الفلاسفة قد فضلوا سلب صفات النقص ، بحجة أن صفات الكمال نسبية ، وكذلك الشأن مع الأديان ، فلأن تضع صورة الدين فى المرآة فإنك لاتضيف جديداً ، فما أكثر من يفعلون ذلك ، إنما الأكثر تأثيراً وإقناعاً هو مقارنة دين بآخر ، أو هو عرض السلبيات لإظهار الإيجابيات .

وهذا ما قصدت إليه فى الحديث عن معتقدات غير سماوية تعيش فى ساحة انتشار ديانات سماوية .

ثم إن المعتقدات غير السماوية - سواء كانت ترجع إلى جذور سماوية أو لا - أكثر دلالة على الحركة الفكرية ، والانبعاث الحضارى ، لأنها أقرب إلى التخلق الذاتى ، والتحقق الإرادى ، كما أنها أقرب إلى الانحراف ، وأجدر بالاختلاف .

ولو أنك تابعت سير التاريخ أو سيره لعرفت أن هذه المعتقدات - مع ضعف بنيتها ، واعتمادها على الأساطير والخرافات - تتخذ من عوامل الضعف هذه قدرة على البقاء ، كالنبات اللين الذى يتخذ من لينه قدرة على الصمود فى وجه العواصف .

كما أن هذه المعتقدات أشبه بالنباتات المتسلقة التى تستطيع أن تحتوى فى تسلقها نباتات أقوى ، وقد تنسج حولها ستارا يحجب أصالتها ، ويُعطِب ثمارها ، أو يُخفيها .

ولا تزال الشعوب - بسبب من الجهل وسهولته ، وبسبب من الأساطير والأوهام التى تغذى المشاعر ، وتشبع فى الفطرة الإنسانية نزوعا إلى الخيال (السماديرى) وعشق الفناء - حريصة على اتخاذ الخرائب سبيلا إلى العرى ، وإلى الطيش ، وإلى جلد الذات .

ولا يزال الوقوف على الأطلال ، ممثلة فى الآثار المادية ، والذكرىات الإنسانية - أحب إلى النفس من الوقوف عند القدرات الحضارية الحديثة ، لأن الماضى أفعال فى النفس من الحاضر ومن المستقبل ، لأنه يدغدغ مشاعر الفاشلين والمطحونين ، ومن تنكبوا أيسر السبل وأقربها إلى النجاح .

إن أولئك الذين يعملون فى خدمة الموت ، من حفارى القبور المادية والمعنوية ، ومن صنّاع النعوش المادية والمعنوية ، ومن مشيرى الإحن والحروب والأوبئة ، ومن الذين يتغذون على الإحن والحروب والأوبئة ، وأولئك الذين يحتفلون بالموت : جنازات ومآتم وقراءات وتلاوات وقرابين (وأفلام فيديو) وبناء قبور وتشديد أضرحه وإقامة احتفالات لسكان هذه الأضرحة ، وكثرة النذور والأوقاف ، إلى آخره ، إلى آخره - لاشك أنهم الغالبية العظمى من الشعوب ، وأنهم الأقدر على شغل الحياة بالموت .

انظر إلى مايكتبه (الكرام الكاتبون) فى خدمة الموت ، وتتبع إصدارات دور النشر - تجد الكتب الأكثر رواجاً ، والأكثر ربحاً ، هى الكتب التى تخدم الموت : بعثاً وحشراً ، وأشرط الساعة ، وأهوالها ، والتداوى بالجن وبالسحر ،

والتداوى بالنصوص المقدسة ، وعذاب القبر ، وأهمية الحروب فى بناء الحضارات .

وانظر إلى تلك الشعوب التى تنفق أكثر الدخل القومى فى صناعة الأسلحة ، وفى شرائها ، وفى صناعة المخدرات ، وفى شرائها ، وفى إشعال الحروب الكيماوية والبيولوجية والنووية ، أو الاتجار فيها ، وفى احتكار أسلحة الدمار الشامل من أجل ترويج الدمار (العاقل) المقنن الذى لا يصيب إلا الشعوب الأكثر إنجابا ، والأكثر غباء ، والأكثر فقرا .

إن خدمة الموت هم أعداء الحياة ، أعداء الحق والحرية والعدالة والخير والمحبة والمساواة ، أعداء كل القيم التى تجعل من الإنسان خليفة الله فى أرضه .

فإذا استطعت أن أكشف عن سراديب تتسردب من خلالها دعاوى إعلاء شأن الموت ، ودعاوى العدمية وعبثية الحياة ، ودعاوى الكفر بالخالق وبالمخلوق .

وإذا استطعت أن أدل على تلك الجرذان التى لاتزال تقرض الجنود الحضارية ، وتنشر الطاعون الأسود ، وتعيث فسادا (مقدسا) .

وإذا كان حسبى أن أدل على طريقة تفكير كثير من المذهبيين والفلاسفة وأدعياء (التنوير) أو (الاستنارة) - فعسأى أكون قد وضعت شاهدا على الطريق . . وبالله التوفيق .

العراق

آفة التاريخ

يكاد الأستاذ طه باقر أن يكون شيخ مؤرخى التاريخ العراقى القديم ، تتلمذ عليه وعلى كتاباته أكثر المؤرخين العراقيين ، بل إن كتابه (مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة - مجلدان) يكاد يكون بمثابة المرجع الأول لدارسى التاريخ القديم ، والكتاب بحق يجمع من المعلومات - فى مجاله - مايعوز مصادر كثيرة ، لكن مايؤخذ عليه أنه خضع لمؤثرات خضع لمثلها كثير من المؤرخين العرب .

من هذه المؤثرات ارتباط الباحث بتاريخ بلاده ارتباطا عاطفيا ، على حساب الحقيقة العلمية أحيانا . . ومنها ثقة الباحث فى الكلمة المترجمة ، بحيث يغفل وضعها على محك النقد ، والتقييم الصحيح .

وقد شاع بين دارسى الآثار القديمة (من المستشرقين) إشعار الآخرين بمدى الجهد الذى بذلوا ، وبالنسائج التى وصلوا إليها ، فكان أن أعلن المختصون بدراسة الآثار المصرية أن مصر (أم الدنيا) ، أو (فجر الضمير) ، وأنها حازت قصب السبق فى كل شئ ، وأعلن المختصون بآثار (وادى الرافدين) أن حضارة سومروأكد أقدم الحضارات ، وأن قوانين حمورابى أقدم القوانين ، وأن رحلة جليجامش أسبق الملاحم .

ومن المؤثرات أيضاً وقوع الباحث فى أسر ما أتيج له من مصادر ، ومن ثم تتحكم فيه كثرتها ، كما تتحكم فيه قلةتها .

حين عرض الأستاذ باقر للمقارنة بين حضارتى مصر والعراق قال (ص ٢١ مج ١) : تعد الحضارة السومرية (أقدم الحضارات البشرية ، وأول حضارة أصلية لم تشتق من حضارة سابقة لها ، وإنما نمت من الأطوار البدائية فى عصور ما قبل التاريخ فى العراق) .

والقول بالأولية قول غير علمى ، لأنه يقوم على التمايز العرقى ، وصرامة الحكم ، وإغلاق باب المراجعة ، وإذا صح أن الأعراق البشرية متكافئة ، وأن البيئات هى التى تشكل الإنسان ، وأن عوامل التحدى هى التى تحركه وتنشط

ملكاته ومواهبه ، فحيثما اتحدت البهائم أو تشاكلت ، وكلما اتحدت العوامل أو تشابهت - وجدت الحضارة . . وإذا تحقق اتصال حضارة بأخرى كانت القدرة على التطور بخطاً أوسع ، وهذا كله متمثل فى النباتات ، البهائم المتشابهة تخرج نباتات متشابهة ، وتطعيم النباتات أو تخليقها فى بيئة مزودة بمكونات جديدة يساعد على جودة ثمارها ، وكثرة إنتاجها .

ولم يكن هذا ليغيب عن الأستاذ باقر ، لكن (الحذر يؤخذ من مآمنه) كثيرا ، والطرق العريضة كثيرا ماتشغل عن المنحنيات والمزالق الجانبية .

* لهذا يقول الأستاذ المؤرخ (ص ٧٨ مج ١) : (إن فيضان النيل يحدث فى وقت يستفيد منه الناس للزراعة . والواقع أن زراعة القوم تبدأ من بعد الفيضان ، أما الحال فى دجلة والفرات فإن فيضانها يقع فى الوقت الذى يتهاى فيه البشر للحصاد وجنى الغلة ، هذا إلى عنف فيضانها ، والحاجة للسيطرة عليهما إلى قوى وجهود بشرية عظيمة) .

(ولقد أدى هذا الحال إلى أن تتصف الحضارة المصرية بالاعتداد والثقة بالنفس ، الاعتداد بإنجازاتها ، وشعورها بسيطرتها على القوى الطبيعية ، بحيث إنها جعلت رأس المجتمع الذى أنجز هذه السيطرة إلهها ، أى أنها ألهمت ملوكها الفراعنة ، أما الملك فى حضارة الرافدين فلم يصير إلهها ، بل كان بشرا اعتياديا ، يمتاز عن البشر الآخرين بأن الآلهة التى بيدها كل شئ فوضته ليحكم البشر) .

هذا النص قد يتسم بسرعة الحكم ، أو بالخضوع لأحكام دارسى الآثار العراقية من المستشرقين . . وهذا النص كذلك يفند دعاوى السبق الحضارى للعراق ، لأن الحضارة تتبع الاستقرار ، ومادامت مصر أسبق سيطرة على مصدر حضارتها (النيل) ، فهى الأكثر استقرارا ، وهى الأسبق حضارة ، ثم إن النيل فى فيضانه لا يوصف بالوداعة ، فهو شمس جموح ، لكن المصريين تعاونوا على ترويضه ، بتدعيم الجسور ، وإنشاء الترع والقنوات ، والسدود والخزانات ، والمقاييس ، وزرعوا الأرض على مدار العام ، فيما عدا مناطق كانت تروى برى الحياض ، وصورة (الشادوف) الذى ينضح المياه من أسفل إلى أعلى موجودة منذ فجر التاريخ . . وهذا هو السبق الحضارى الذى لا شك فيه ،

لأنه قام على أسس هندسية ورياضية وجغرافية ، وعلى إجادة مسح التربة ، ودراسة صلاحيتها للزراعة ، وكذلك على فن بناء السدود ، ونحت الأحجار ، ونقلها بواسطة هذا النهر العظيم ، وتبع هذا إجادة صناعة السفن ، وإجادة صناعة أدوات البناء ، وأدوات الزراعة ، وأدوات المعيشة ، بل وبناء الأهرامات ، فى رأى من يذهب إلى أن من دواعى بناء الأهرامات فيضان النيل الجامح الذى يغطى مساحة شاسعة تنبهم معالمها ، وتذهب بالحدود الفاصلة ، فكان البناء الهندسى للأهرام الذى غُطيت سطوحه بأحجار جيرية لامعة وسيلة لهداية السفن ، ووسيلة لإعادة تخطيط الأراضى ، ووسيلة فلكية كذلك ، بل وسيلة دفاعية أيضا (انظر كتابى « كنانة الله يافرعون ») ، وتبع هذا التطور الحضارى تدوين آثاره بالرسوم والصور والحروف . . وهذا مايبينه قول الأستاذ باقر : إن الكتابة حين ظهرت فى مصر (دوت بها حوادث تاريخية ، ويكون ظهور الكتابة فى مصر مرادفا لمصطلح العصور التاريخية) - ص ١٤ مج ١ - لأنه وُجد الحافز للتدوين فكانت الكتابة ، أما أن يرى أنه (فى العراق ظهرت الكتابة قبل أن تدون بالكتابة أمور مهمة) ، ليصل إلى أن الكتابة ظهرت فى مصر بعد العراق ، بنحو (ثلاثة قرون) - ص ١٤ مج ١ - فهذا يعد قفزا بين الأشواك !!

ويمضى فى هذا الزعم فيقول : (ذهب كثير من ثقات الباحثين فى أصول الحضارة إلى استنتاج أمور هامة تتعلق بأصول الحضارة المصرية فى أطوارها الأولى ، واقتباسها التأثيرات والحوافز الأولى من حضارة العراق القديم ، كإقتباس فكرة الكتابة ، أو الحافز عليها ، كما أظهر البحوث حديثا) - ص ٥٤ مج ١ - مع أنه يعلم أن الذين يتحدثون عن العميان والفيل يرجعون بهذا المثل إلى أصول مختلفة ، عربية ويونانية ، وقد نجد ما يرجع به إلى أصول فارسية وهندية وصينية ، وهذا المثل ينطبق تمام الانطباق على الباحثين فى الحضارات القديمة ، فكل قبيل بما لديهم فرحون ، معالنون ، مستصرخون .

* أما عن التأليه فأمر يرجع إلى الزهو البشرى ، والرغبة فى مزيد من الاستعلاء ، وإلى طبيعة النفاق التى تدفع الضعيف وذو الحاجة إلى بمالة القوى ومن بيده الصولجان ، وإلى المتسلقين من الكهنة وأحلاس السلطان واللائذين به ، وإذا أدخيت العنان للجواد جمع .

والأستاذ باقر نفسه يقول : (لا يمكن إغفال أن قوة الملك لم تعتمد على انتمائه إلى أصل إلهي فحسب ، وإنما هو نفسه من الآلهة . . كان الحكام يعتبرون آلهة الحماية لبلادهم ، وتمارس طقوس معينة في تأليههم ، وتنحز الذبائح قربانا لهم ، من خلال الإدارة الذاتية . . والجباية ، والواردات من التجارة كلها كانت تصب كثرة ضخمة في قصور ملوك أور) .

والتاريخ المصرى سجل ثورات ومؤامرات ضد الفراعنة ، ولو أن المصريين ظنوا الألوهية بالفراعنة ما بنوا لهم قبورا ، وما نبشوا هذه القبور وسرقوا محتوياتها ، فضلا عن توابيتها وموميائاتها .

وكيف يستطيع المصريون (السيطرة على القوى الطبيعية ، ويلجموا الإله حابى (النيل) ، ثم يؤلهون إنسانا نشأ بينهم ؟

إن هذه الطبيعة التى سيطروا عليها وصفوها بالألوهية ، لأن هذا الوصف لا يعنى أكثر من الإكبار ، والاعتراف بالفضل ، (فقط لا غير) .

وعلى فرض أن لفظ (التآليه) جرى على السنة المصريين فى عهود الاستبداد ، فإنه لا يصور معتقدات ، بدليل أن المهندس (أمحوتب) الذى بنى هرم سقارة لم يؤله إلا بعد موته ، وكان التآليه مجرد إشادة بذكركه ، واعتراف بنبوغه وتفوقه . . وقد حدث مثل هذا مع الملك سنوسرت الذى آلهه تحتمس الثالث ، بسبب ما أقام من حصون جنوبى البلاد ، فى النوبة . . وهذا يعنى أن الألوهية اتسع مفهومها ، بحيث لم تعد مقصورة على القوة العليا الخالقة المسيطرة ، أو أسى نطق لفظها فى لغة (مصورة) .

يقول جفرى بارندر ، مؤلف (المعتقدات الدينية لدى الشعوب - ص ٢٨) : (الغالبية العظمى من نصوص بلاد ما بين النهرين التى تروى عن دور الملك الرسمى فى العبادة ، تقول : إنه مثل الآلهة على الأرض ، وأنه ينوب عنها ، وهى تتوقع منه أن يعامل الناس بالعدل ، وبلا محاباة) .

ويقول كلنجل فى كتابه (حمورابى ملك بابل وعصره - ص ١٠٣ / ١٣١) ، كان الملك ممثلا لرعيته أمام الآلهة . . بل إن (رام - سين) ملك أكد ،

وكذلك خلفاء (أور-نمو) ملك أور ، طالبوا بتأليه أنفسهم ، إذ وضعوا أسماءهم بعد أسماء الآلهة مباشرة ، وظهروا والتاج ذو القرنين على رؤوسهم ، مما يشير إلى الألوهية ، وشيدت لهم المعابد الصغيرة ، وقدمت لهم النذور . . وبعد انهيار سلالة أور الثالثة جاء عدد من صغار الحكام سيطروا على أقاليم صغيرة ، وظهروا أمام رعيته في سمو إلهي تضاعف خلفه الارتباط بطقوس عبادة محلية . . ومثل هذا التأليه دل على مجرد إعلان عن النفوذ ، أو كان وسيلة لتثبيت النفوذ ، أو كان تغطية لضعف من كان يعوزهم النفوذ .

كانت السيطرة على الأنهار والقنوات في يد الملك ، وكان عليه أن يؤكد ذلك الامتياز له على الدوام أمام مختلف التجمعات السكانية ، حتى صيد السمك أظله الامتياز الملكي بمظلته ، إذ تدل الوثائق على أنه كان تحت تصرف الملك في (لارسا) كميات كبيرة من الأسماك ، بسبب احتكاره صيد البحر والنهر والقنوات .

وكان في حوزة القصر قطعان كبيرة من الأغنام والماعز والأبقار ، وسيطرة على تجارة الأصواف .

ويتبين من رسائل حمورابي أنه كان ثمة (مزارع التموين) يشرف عليها موظفون من قبل القصر ، مسئولون مباشرة أمام الملك .

حتى (محكمة هيئة الشيوخ) لم تكن تستطيع العمل إلا من خلال توجيهاته ، وكانت صلاحيات المحاكم المحلية في أضيق الحدود .

وهذا الأستاذ باقر يقول (مج ١ ص ٣٨٤ / ٣٩٥) : إن المآثر العراقية القديمة تنص على أن نظام المملوكية هبط من السماء ، من بعد الطوفان ، و (حين نزلت وظيفة المملوكية وشارات الملك من السماء إلى الأرض ، بحث الإله (إنليل) والإلهة (عشتار) عن راع للبشر ، إذ لم يكن في الأرض ملك ، فنصب الإله إنليل ملكا من البشر) .

وفي شرائع العراق القديم نجد الإله الأعلى ينتخب إله المدينة ، ثم ينتخب هذا ملك المدينة .

وظلت فكر الانتخاب (الإلهي) هذه أهم مبرر للوصول إلى الحكم ، إلى

زمن (قورش) الفارسي الذي برر حكمه لبلاد بابل بقوله : (لقد استعرض الإله مردوخ كل الأقطار ليبحث عن ملك ، وفق رغبات قلبه . . . لقد سمى اسمه «قورش» صاحب الشأن ، وجعله ملكا على الكون) .

وقد بلغ وكلاء الآلهة ونوابهم (الملوك) مكانة مقدسة ، واكتسبوا صفات الآلهة ، وكتب أسماءهم مسبوقة بعلامة التأليه التي تسبق عادة أسماء الآلهة .

كل هذا ويستدرك المؤرخ الكبير قائلا : (لكنهم لم يصيروا آلهة حقيقيين ، كما كان فراعنة مصر ، حيث صار الفراعنة آلهة أو أبناء بالمعنى الحرفي ، أما ملوك العراق فكانوا أبناء آلهة بالتبني ، فقد يتبنى إله ملكا ، وقد تُعنى آلهة ببعض الملوك ، فترضعهم وتسميهم بأسمائهم ، ولذلك كانت وراثة العرش من الأمور المهمة المقدسة) . . ولما لم يكن سرجون الأكدي من صلب الملوك ، فإن الإلهة (عشتار) أحبه ، وقلّدت حكم البشر .

وهناك رسائل من ملوك آشور (إلى الإله آشور) بمثابة تقارير خاصة عن سير العمليات الحربية ، من مرءوس إلى رئيسه ، وكان الملك يتولى تفسير ما يريده الإله ، ويمثل رعيته أمامه ، بالإضافة إلى إدارة المملكة . . ومع أن الكهنة والعرافين كانوا يعينون بأمر الملك ، فإنهم كانوا يتولّون تفسير إرادة الإله . حتى المعابد لم تكن تبني إلا بناء على رغبة الآلهة وتوجيهها .

نجد في مسلة (أور - نمر) مشهد الملك يتسلم أوامر إلهه لبناء معبد القمر وزقورته في أور ، ومشهد الملك يتسلم من الإله أدوات البناء ، مثل الخيط والشاقول والفأس .

وروى الملك الأشوري (أسر حدون) كيفية تعيينه لولاية العهد ، قائلا : (كنت أصغر إخوتي ، لكن والدي كرمني في مجلس إخوتي ، بأمر الآلهة آشور وشمش ومردوخ ونبوعشتار نينوى وعشتار أربيل ، مُصّرّحا بقوله : هذا هو خليفتي) .

* كانوا يعتقدون أن سلامة الملك تقوم عليها سلامة الجماعة ، ولهذا تتخذ إجراءات صارمة لضمان هذا .

ومن هنا ما يقوم به الملك طوال حياته من أعمال تحكمه طقوس دينية واحتفالات تضمن طهارته ، وتحرس شخصه . . وفى حالة ترقب نذير شؤم يوضع على العرش ملك بديل يتلقى الفأل السيئ ، أو الموت إذا كانت النبوءة بذلك .

وهذا كله - دون شك - من (ملاعيب) الكهنة والعرافين ، تقربا إلى الملك ، أو تسلطا عليه ، لأنهم أولا وآخر صناع الآلهة ، وهم الوسطاء بين الملك والآلهة ، وييدهم كسب رضا الآلهة ، وإشعال سخطها .

كان بوسع الكهنة - عن طريق هذه الآلهة (المزعومة) - أن يتحكموا فى كل القوى المهيمنة على اقتصاد البلاد ، وعلى مقدراتها ، بحيث كان المتعبد الثرى (يستطيع بدلا من القيام بنفسه بالصلاة والنواح أن يودع المعبد شيئا مناسبا ، على سبيل الهدية ، تمثالا صغيرا ، بعض الأواني النحاسية ، شاهدا أو حجرا تذكاريا ، خاتما ، قطعة من المجوهرات ، وتوضع هذه الأشياء قريبة من تمثال (الإله) ، لتذكره بصاحب الهدية ، ولتكون تعبيرا عن شكره على نعمه) .

ثم إن الآلهة كالإنسان (تحتاج إلى مؤن منتظمة من الطعام والشراب ، توضع أمامها على الموائد ، فى الصباح والمساء ، واللحوم المفضلة عندها هى لحوم القرابين) .

(ولابد أن يصب الدم أولا فى فناجين ، ثم تختار الأجزاء الممتازة ، كالرئين والكبد ، لمعرفة الطالع ، وتقدم إلى الآلهة الفاكهة والسمك والطيور والعسل والزبد واللبن ، إلى جانب الأطعمة الرئيسية من خبز الشعير والبصل والبلح ، أما الزيت والخمور والبخور فتقدم بسخاء) .

(وكل شئ يسجله الكتبة بدقة شديدة ، ثم تودع تقاريرهم سجلات المعبد) .
(وتحظى التماثيل بزيينات جديدة ، وزخارف حديثة ، فى العيد الخاص بها) .

ويلاحظ أن هذه (الملاعيب) لم تكن وقفا على كهنة (وادی الرافدين) ، فهى صناعة الكهنة فى كل مكان ، وفى كل زمان . (انظر ماكتبته فى «دراسة

فى التوراة والإنجيل» ، و «كنانة اله يافرعون» ، و «مسيحية بلا مسيح» .

* ثم إن التقدم الحضارى - على مستوى العالم - لم يُغفل دعاوى الألوهية ، فالإسكندر الأكبر ادعى أنه ابن الإله ، أو ادعى له (الكهنة) والمستفيدون ، وقد حدث هذا مع كل من حتشبسوت ورمسيس الثانى ، كما حدث مع سرجون الأول الذى روى على لسانه (هأنذا سرجون الملك القوى ، ملك أكاديا ، كانت أمى فقيرة ، وماعرفت أبى قط ، وكان شقيق أبى يعيش بين الجبال ، وقد ولدتنى أمى الفقيرة سرا ، ووضعتنى فى سلة من القصب ، وأغلقت بابها بالقار ، ثم ألقتنى فى النهر ، فلم تبتلعنى لججه ، بل حملتنى مياحه ، حتى أوصلتنى إلى «أكى» الموكل بالرى ، وقد تلقانى «أكى» هذا فى طيب قلبه ، وربانى «أكى» حتى أصبحت غلاما يافعا ، وجعلنى «أكى» بستانيا ، وأدخلت خدماتى السرور على قلب «عشتار» ، وأصبحت بذلك ملكا) - معالم التاريخ الإنسانى مج ٢ ص ٢٨٥ .

وسرجون الأكدي هذا - كما يقول الأستاذ باقر - هو الذى أدخل اسم الملك فى العقود مع أسماء الآلهة - مج ١ ص ١٢٤ .

وفى الدولة الرومانية ادعى أوكتافيوس الألوهية ، وكذلك نيرون وغيرهما من الأباطرة ، ورأى دقلديانوس أن سلطان الإمبراطور يكون أعظم كثيرا ، وتكون حياته أكثر أمنا ، لو أنه أصبح نصف إله ، وأضفى على ألوهيته مظاهر الصديق الخارجية ، بأن ادعى الانتساب إلى المشتري Jupiter ملك الآلهة ، وبذلك يسّر السبيل لدخوله إلى الباشيون الرومانى ، مثوى آلهة الرومان ، واتخذ مكسميان لنفسه جدا محبوبا من الناس ، وإن كان أقل قدرا ، هو هرقل ، وحاول قسطنطيوس ، قيصر الغرب ، أن يمزج عقيدته الميثرائية بعبادة الإمبراطور ، بأن أصبح سليل أبوللو إله الشمس - الحضارة البيزنطية ص ١٧ / ١٨ .

وفى ظل السيطرة المسيحية كتب لاوون الإيسورى إلى البابا يقول : (إنى إمبراطور وقسيس) ، وادّعى أنه الوكيل (الذى أمره الله أن يطعم قطيعه ، كما أطعم بطرس أمير الرسل قطيعه) ، ووافق البابا على ذلك ، مادام الإمبراطور

مقيما على مذهب السلف القويم ، أومادام هذا الإمبراطور لا ينازع البابا سلطانه .

وحصل جستنيان الأول على حق الإمبراطور فى إصدار التصريحات المذهبية الدينية ، وكان من وظيفته أن يرأس مجالس الكنيسة ليثبت سلطانه الدينى والدينى . . ولهذا قال باسيليوس الأول لوريثه لاوون السادس ، (إنك حصلت على التاج من الله عن يدي) .

ومن هنا طمع البابوات فى فرض سلطانهم على الملوك ، وأشعلوا حروبا ضارية للاحتفاظ بحق تنصيب الملوك وتتويجهم ، ونافسوا الملوك فى إصدار القرارات الدينية .

ومازال الحال إلى اليوم تمتد السلطة المدنية لتمسك بزمام السلطة الدينية ، أو تمتد السلطة الدينية لتمسك بزمام السلطة المدنية ، لافرق بين أن يقول جيمس الأول ملك إنجلترا : (لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض الناس على قدرة الله ، فإن من الوقاحة والاحتقار الكبير أن يعترض أحد الرعايا على ما يستطيع الملك فعله ، أو أن يقول إن ملكا لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك) ، وبين أن يقول لويس الرابع عشر ، ملك فرنسا : (أنا الدولة) ، أو أن يصدر أى حاكم دولة (مستجدية) ، القوانين التى تقس ذاتها ، ويعد الكفر بالله أهون من الكفر به ، لأن الكفر بالله تغفره التوبة ، أما الكفر بالحاكم فلا غفران له ، والكفر بالله مقصور إثمه على شخص الكافر ، أما الكفر بالحاكم فيمتد عقابه إلى الآباء والأبناء وذوى الأرحام ، طولا وعرضا .

إنه الطغيان الذى يؤله نفسه ، والاستخذاء والهوان الذى يؤله غيره !!

* يقول الأستاذ باقر : (فى درسنا لأساطير الخليقة ، فى كل من الحضارتين ، نجد نظام الخلق فى حضارة وادى النيل ، قد وجد منذ الأزل ، من جانب الآلهة ، بدون كفاح ، أما الخلق فى حضارة وادى الرافدين فلم يتم إلا بعد صراع واحتراب بين الآلهة التى تمثل قوى الكون المختلفة) - مج ١ ص ٧٩ .

وهذا مرده إلى طبيعة الشعبين ، شعب أسبق إلى التوحد وامتصاص

العناصر الدّخيلة ، وشعب يموج بالسلالات التى تتحرك على أرضه ، مدا وجزرا ، من الشرق والغرب ، والجنوب والشمال ، ولا يزال هذا الشعب - بسبب كثرة الأخطاط والعناصر فيه - لا تستقيم قناته ، إلا بسيف الحجاج أو صدام ، (فاحتراب الآلهة) العراقية صورة من احتراب الملوك ، وتآلف الآلهة المصرية صورة من السلالات الملكية التى توارثت السلطان .

وفى هذا يقول الأستاذ : على حين كانت مصر (إقليما مقفولا تقريبا) ، فقد كان العراق (معرّضا إلى هجرات الأقوام العنيفة ، وإلى غزواتها المتكررة ، واختلاط السكان والحضارات فيه إلى درجة كبيرة) - مج ١ ص ٧٩ .

ويقول : (كان الإنسان القديم يعتمد فى عيشه على جمع قوته ، ولم ينتجه بيده ، إذ لم يتعلم الزراعة ، ولا عرف تدجين الحيوان ، فكان يعيش على الأعشاب والحشائش البرية ، ويستخدم جذور النبات ويجنى أثمارها ، ويطارد الحيوان بآلاته الساذجة القليلة ، ولذلك يصح أن يُطلق على هذا الطور من العصور الحجرية اسم طور جمع القوت) - مج ١ ص ٣١ .

* وفى ص ٢٩ قال : (إن عصور ما قبل التاريخ شغلت أكثر من ٩٩٪ من حياة البشر) .

وهذا القول يستدعى أكثر من سؤال :

ألم يؤد الانتقاء العشبي إلى خبرة طبية ، بالإضافة إلى الخبرة بالنبات ، وكان هذا حسبه لتكثير النبات المفيد ، وكيف لنوح - عليه السلام - أن يهتدى إلى سفينة (ذات ألواح ودسر) ، وكل من الألواح والدسر لا يمكن الحصول عليه بدون أدوات متطورة ؟ أليس هذا دليلا على حضارات خلال زمن الـ ٩٩٪ ؟

ثم ماتلك الرسوم التى خلفها إنسان (العصر الحجري) فى الكهوف والمغارات ، أليست دليلا على قدر من الحضارة اندثر ؟

وهل كانت رسوم الكهوف والمغارات إلا نماذج سجلها إنسان ما قبل الحضارة ، والأبنية (ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد) ، كما يروى القرآن الكريم عن (إرم) قوم عاد الذين سكنوا حدود (الأحقاف) ذات الرمال الناعمة ؟ ليتنا

نقرأ ماكتب الطبرى والنويرى والمقدسى وما جاء فى كتاب « التيجان » من أساطير
عن هذه الأبنية !!

ثم إن التاريخ القريب يحدث بلسان أفلاطون عن (قارة أتلانتيك) ذات
التقدم الحضارى الباهر ، ثم اختفت ، وظن المؤرخون والعلماء بأفلاطون
الظنون ، واليوم تجرى أبحاث جادة للكشف عنها ، وتحديد مكانها بالقرب من
جزر الكاريبى ، و (تسجيل) أكثر من دليل على وجود آثارها . . فهل نستبعد
اختفاء حضارات أخرى خلال التغيرات الجيولوجية التى لاتزال تفعل أفاعيلها
بالقشرة الأرضية ؟

يقولون إن الحضارة بنت التحدى ، وإن الحاجة تفتق الحيلة ، فماذا كان
والإنسان فى مواجهة أكبر التحديات ، حين كانت (الكرة الأرضية) تعاني من
مخاضات التكوين ، ومحاولات الاستقرار برا وبحرا وجوا ؟

كيف لنا أن ننكر سبقا حضاريا زمن الـ ٩٩٪ ، والمؤرخ الكبير يعترف بأنه
(وجدت فى جدران الكهوف التى التجأ إليها الإنسان صور ورسوم ملونة تعد
على نصيب كبير من دقة التعبير والحيوية ، وكان أغلب هذه الصور يمثل الحيوانات
التي كان الإنسان يصطادها لأكلها ، لأنه كان مدفوعا فى فنه بدوافع السحر ،
حيث اعتقد أنه يرسم الحيوانات على سقف الكهف الذى يعيش فيه ، ليتمكن من
السيطرة عليها وهى حية ، ونشأت عند الإنسان فى هذا العصر بعض الأفكار عن
الحياة والموت ، وظهرت أولى بذور الدين ، على هيئة اعتقادات ورسوم بدائية ،
وممارسة للسحر ، كما يظهر ذلك فى الدافع الذى دفع الإنسان على عمل الرسوم
والنقوش فى داخل الكهوف التى عاش فيها ، ويمكننا اعتبار السحر أول محاولة
إنسانية فاشلة للسيطرة على الطبيعة بأعمال السحر) - مح ١ ص ٣٦ .

أليست الدقة فى التصوير والتلوين ، والاستعانة بالسحر ، وسائل
حضارية ؟ ألا نلنا لم نعرف يحق لنا أن نفكر ؟ أليس الأخذ بفضيلة (لا أدرى)
يجنب العثرات ؟

لماذا لم يتحدث المؤرخون عن رسوم خارج الكهوف ؟ طبعاً لأن عوامل
التعرية لم تُبق عليها ، مع أنها الأصل فى السيطرة على الطبيعة ، (فخيال المآة)

يحمى النبات والثمار من الطيور ، ورسوم الحيوانات تجمع الحيوانات المماثلة ، مما يسهل عملية الصيد والتدجين ، أما الرسوم داخل الكهوف فهي وسيلة تسلية فى فترة (الكمون) الجليدى ، وهى مجرد دغدغة لرغبة الامتلاء ، ولا بد من الوقوف عند (الدقة فى الرسم وتلوينه) داخل ظلمة الكهف ، وفى مساحة سقفه ، لأن هذا يتطلب الحصول على إضاءة نقية (غير خائقة) ، ويتطلب أدوات (دافنشى) وهو يرسم أسقف الكنائس ، والتلوين الذى عاش آلاف السنين يحتاج إلى خبرة بخصائص المواد ، وهذا يشير إلى مرحلة حضارية أغفلها المؤرخون ، ولتتنا نعترف أن كل الشعوب النامية وفى مقدمتها كل البلاد العربية تستورد الأحبار والألوان من الخارج ، وهى أحبار وألوان لاتصل فى الجودة إلى ماكان يملكه قدماء المصريين !!

أما عن السحر فيبدأ بالمواجهة ، والاستعانة بالقوى الروحية للتأثير على مايراد إخضاعه ، ولاتكون محاولة التأثير فى حجرة مغلقة إلا إذا وثق الساحر من تجاربه ، فنقلها من العلن إلى الخفاء ، وهذه نقله فكرية أو (علمية) حضارية .

* ويقدم المؤرخ الكبير فى (مج ١ ص ٣٠) نماذج من آلات الصوان التى صنعها الإنسان موحدة فى التاريخ البشرى القديم ، كأنه لا اختلاف فى البيئة ، ولا اختلاف فى طريقة (التصنيع الحجرية) ، مما يشير إلى أن حركة (الوعى) الإنسانى لاتقتصر على مكان دون آخر .

وإذا كنا اليوم نسمع عن طفل عمره ثلاث سنوات مؤهل لدخول الجامعة ، وآخر دخل الجامعة وعمره سبع سنوات ، وموسيقار آخر يحيى حفلات موسيقية وعمره لم يتجاوز السابعة - أفكان هذا النبوغ مقصورا على إنسان العصر الحديث الذى يجمع بين هذا النبوغ والحيوانية المتدنية ؟

قد يقال إن البيئة المتحضرة ساعدت على النبوغ ، وقد يتحدثون عن الهندسة الوراثية والهرمونية . . لكن هذه البيئة المتحضرة لم تساعد الجميع على النبوغ ، فما تزال الفوارق الفردية والمكتسبة تباعد بين الإخوة ، وبين زملاء الدراسة .

وإذا كان عهد سومر يبدأ من ٣٠٠٠ ق.م (مج ١ ص ٢٦) فأين كان

الإنسان قبل ذلك ؟ أكان يعيش فى الكهوف والأحراج والمستنقعات ، حتى إذا كان (العهد السومرى) تحضر !؟

* ويقول المؤرخ الكبير : (إن تدجين الحيوان ظهر بسبب الزراعة ، لانجذاب قطعان الحيوان إلى مزارع الإنسان ، المضمون فيها القوت) - مج ١ ص ٤٥ - وفاته أن التدجين يمكن أن يتم عن طريق عشور الصياد على (أطفال) الحيوانات ، فيعود بها ، وتعمل امرأته على تنميتها لتؤكل ، أو لتستخدم فى وسائل أخرى ، وبخاصة أن من الحيوانات المدجنة ما لا يأكل العشب ، كالكلاب ، وهى من أوائل المدجنات .

ويقول : (الثابت أن الزراعة وتدجين الحيوان قد نشأ بوجه مستقل فى مركزين من العالم ، وهما الصين ، حيث بدأت زراعة الرز ، فى حدود ٣٠٠٠ ق.م ، وفى أمريكا فى حدود ١٠٠٠ ق.م ، حيث بدأت زراعة الذرة) - مج ١ ص ٤٦ .

وهذا وهم لا أساس له ، لأن المعلول يتبع العلة ، وحيث وجدت المياه العذبة وجدت الزراعة ، سواء كانت هذه المياه ناشئة عن البحيرات والأنهار ، أو عن العيون والأمطار ، بل لانستثنى المياه الملحة حيث تكثر غابات النخيل التى تثمر التمر وجوز الهند والباباز والزيوت ، ثم ماعلة الأرز والذرة ؟ لم لا يكون القمح والشعير ؟ ولم لا تكون البقول المختلفة ؟ ولم لا تكون الفواكه المتنوعة ؟ ولم لا تكون الأعشاب بوجه عام ؟!

ويزعم أن (البحث الحديث فى الموازنة بين حضارات الشرق الأدنى - كشف - عن وجود صلات حضارية قوية بين العراق ومصر ، فى أواخر الطور الحجري المعدنى - ما قبل السلالات - وتتضمن هذه الصلات نواحى مهمة من مظاهر الحضارة ، كالأثار المادية والصناعات والاختراعات وبعض الأساليب والأطرزة الفنية ، وهى كلها خاصة بحضارة العراق ، واستمرت فيها) - مج ١ ص ٥٣ .

من أين جاءت هذه الخصوصية ، مع أن الصلات المشتركة تفيد تبادل المعرفة من قبل التواريخ التى سبق أن ذكرها مج ١ ص ٥٢ ؟ ثم إن أحدا لا يستطيع أن

يقيم دليلا على سبق الحضارتين العراقية والمصرية ، قبل الصينية والهندية ، وحضارات المايا والأزتک ، بل وحضارات شمال البحر المتوسط وجُزره ، وإذا كان قد تم الوقوف عند كريت من دون بقية الجزر والشواطئ فإن هذا لا يعنى الأسبقية الحضارية ، بل هو الجهل بغير ماسبق إليه العلم ، ولو أننا أخذنا فى الاعتبار عصور الجليد التى امتدت إلى الدلتا المصرية ، لكان لنا أن نحكم بسبق الحضارة الاستوائية ، وليست المصرية العراقية ، وبخاصة أن آخر ما وصل إليه العلم هو أن آدم نشأ فى وسط أفريقيا أو فى جنوبها ، مع التحرز من الوقوع فى إسار هذه التخرصات ، لأن الحديث عن الإنسان الأول تلجلج عند أصقاع كثيرة من العالم (١) .

(١) طلع علينا طالع فى جريدة الأهرام (أعداد السبت من نوفمبر ١٩٩٨) يعرض أقوال من يدعون أن مهبط آدم كان فى منطقة بحر قزوين التى كانت مغطاة بالجليد إلى ما قبل عشرة آلاف عام ، (وكان آدم عاريا) إلا مما يستر عورته ، ومن يدعون ويؤكدون أن مصر مهبط آدم ، فاعجب !!

آلهة على حدود الرافدين

وتحدث المؤرخ العراقي الكبير عن مآثر العراقيين القدماء بأنهم عرفوا صنع النحاس في العهد المسمى (طور العبيد) ، في حدود ٤٠٠٠ ق.م ، أى قبل أن تنشأ الحضارة السومرية بألف عام ، وعرفوا صناعة البرونز في عهد (جمدة نصر) ، في حدود ٣٢٠٠ ق.م ، أى قبل أن تنشأ الحضارة السومرية بمائتي عام . . . وابتدعوا دولا ب الخزاف ، وصنعوا الآجر ، والأختام الاسطوانية ، والعربة ذات العجلات ، والمحراث الذى حل محل قطعة الحجر التى كانت تستعمل لنش الأرض ، فى العصور الحجرية الحديثة ، واهتدى سكان العراق القدماء إلى صنع السفن الشراعية فى (عهد العبيد) . . . وتوجت هذه الوسائل كلها بابتداع وسيلة للتدوين ، أى الكتابة ، وقد تم ذلك فى العراق قبل غيره من أقطار الدنيا - مج ١ ص ٥٢ .

ولو أن المؤرخ الكبير حذف العبارة الأخيرة لكان عسى ، لأنه ليس من المعقول سبق العراق إلى صناعة السفن قبل سكان الجزر فى البحار والمحيطات ، وهناك جزر متقاربة محتاجة إلى تبادل السلع والمنافع ، وإلى الصراع على السلع والمنافع ، ولا وسيلة إلا لصناعة السفن والتفوق فيها .

زرت سرنجار - فى مقاطعة كشمير - فوجدت تقدما فى صناعة السفن (الخشبية) لم أر مثله فى مكان آخر ، ولم يسعدنى الحظ برؤية مثله فى الأفلام السينمائية .

أما عن صناعة المحراث فالآثار المصرية ترجع به إلى ما قبل (جمدة نصر) بقرون عديدة ، ولا يعقل أن الإنسان ظل يستعمل الحجر فى حرث الأرض ، حتى تم اكتشاف المحراث العراقى ، وتصديره إلى كافة الأنحاء الزراعية فى العالم ، ثم إن صناعة الآجر والخزف تفوقت فيها شعوب أخرى على العراق ، كما أن من العبث القول بسبق تصنيع الحديد والبرونز على المحراث الذى يمكن الاستعانة فى صناعته بوسائل أولية .

إنه مما لاشك فيه أن البيئة العراقية هيأت لظهور الحضارة السومرية ، منذ آلاف السنين ، لكن هناك بيئات أخرى لا تكاد تختلف عن البيئة العراقية قدرة

على (ابتداء) الحضارات ، فى مصر ، وفى حوض البحر المتوسط بعامه ، وفى وسط آسيا ووسط أوروبا ، وفى أفريقيا وأمريكا ، فضلا عن الهند والصين .

وإذا كان العراق لا يشكل عرقا واحدا ، إذ (لم يقتصر تاريخ الأقوام فى العراق - منذ أقدم العصور - على عرق واحد ، وإنما قطنه عدة أقوام ، أهمهم الساميون الذين طغوا على معظم أجزاء الشرق الأدنى ، وقد ثبت وجود هؤلاء منذ أقدم الأزمان ، وأنهم عاشوا مع السومريين) - مج ١ ص ٩١ - فإن هذا الاعتراف ينفى كل المزاعم عن تفوق العرق السومرى ، أو العراقى .

* إن نظرة سريعة إلى طبيعة التكوين الجيولوجى ما بين البحر الأحمر وجبال سليمان من الهندوكوش ، وما بين بحر العرب وبحر قزوين وجبال البرز والبحر الأسود - تفيد أن هذه المنطقة الواسعة التى لعبت فيها إمبراطورية فارس أهم أدوارها ، إنما هى بيئة واحدة تموج بشعوب لا تكف عن الحركة إلى الشمال وإلى الجنوب ، وإلى الشرق وإلى الغرب ، حتى مصر التى زعم الأستاذ باقر أنها كانت فى عزلة لم تنج من حركة المد والجزر لتلك القبائل فى هذه الساحة الواسعة ، كما لم تنج مصر (المنعزلة) من الهجرات الأفريقية من جنوب ومن غرب .

يقول المؤرخ الكبير : (بدأت الهجرات من أزمان موعلة فى القدم ، وكان جزء كبير من المهاجرين قد حلّوا فى وادى الرافدين الأسفل ، وقد ساهم هؤلاء المهاجرون العرب من الشرق والشمال فى إنشاء الحضارة السومرية) - مج ٢ ص ١٩٢ .

ويضيف الدكتور الكسندر ستيتشيفيتش (تاريخ الكتاب ج ١ ص ١١) أنه لم يتوصل إلى أصل السومريين ، ولا إلى الجنس الذى ينتمون إليه ، وهناك من يفترض أنهم - فى الألف الخامسة قبل الميلاد - هبطوا من الشمال ، وربما من منطقة بحر قزوين ، واستوطنوا الجزء الجنوبى للسهول الخصبة بين دجلة والفرات ، وبعد عدة قرون من قدومهم أقاموا حضارة ممتازة ، ومن هذه الحضارة تشربت كل الحضارات الكبرى التى تطورت فى الشرق الأوسط .

وهذا الرجم بالظنون والفروض يعتمد على كثرة الهجرات التى تميزت

بها شعوب هذه الساحة لأسباب اقتصادية أو سياسية .

والمعروف تاريخياً أن الجزيرة العربية كانت مخزونا بشريا ، يتحرك مدّه المستمر - حتى اليوم - إلى أنحاء مختلفة من العالم ، حتى مصر (المنعزلة) أصابها حظٌ موفور من هذا (المخزون) البشرى .

وقد قامت في هذا الجنوب العربى حضارات قديمة ، مثل حضارة (إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد) ، ولعل هناك حضارات أخرى أغفل القرآن الكريم ذكرها ، لأنها لم ترتبط بنبي أو رسول إلهى ، ثم ظهرت حضارات موفورة الصّحة والقوة ، مثل حضارة (معين) التى قال عنها الأستاذ باقر : فى حدود (١٢٠٠ أو ١٣٠٠ إلى ٦٠٠ أو ٧٠٠ ق.م) ازدهرت دولة معين فى جوف اليمن ، بين نجران وحضرموت ، وشملت فى عهد ازدهارها جميع جنوبى الجزيرة تقريبا ، وامتد نفوذها إلى أجزاء الجزيرة الأخرى ، ولا سيما فى الشمال الغربى ، وقد أثر المعينيون فى هذا القسم ، كما تثبت ذلك النقوش الثمودية التى ترد فيها أسماء الآلهة المعينية ، وكما تشير إلى ذلك النقوش المعينية التى وجدت مع نقوش لحياينة فى منطقة العلا الآن (ريدان الواردة فى التوراة) ، وقد وجد الباحثون فى النقوش المعينية ٢٦ ملكا من ملوك معين - مج ٢ ص ١٩٧ .

وأقدم وأشهر آلهة معين (أثثار) ، و (ود) ، و (نكرح) ، وقد وجد حديثا معبد للإله ود (القمر) فى موضع يدعى حريضة فى حضرموت - مج ٢ ص ١٩٨ .

وفى حدود (٩٥٠ - ١١٥ ق.م) قامت دولة سبأ ، فى جنوبى الجزيرة ، فى الزاوية الجنوبية الغربية منها ، وكانوا كالفينيقيين على معرفة تامة بطرق البحر العربى ومسالكه وموانئه ورياحه وتقلباته ، وقد طافوا سواحل الجزيرة ، ولصعوبة الإبحار فى البحر الأحمر التجأ السبئيون إلى طريق برى ، بين اليمن وسوريا ، عن طريق مكة إلى البتراء ، إلى غزة ، ويخرج من حضرموت طريق إلى مأرب ، عاصمة سبأ ، حيث يتصل بطريق الشام .

والمملوك السبئيون عاصروا المتأخرين من ملوك معين ، وورثوا عنهم مملكتهم

وسلطانهم - مج ٢ ص ١٩٣ .

وعاصرت مملكتا قتبان وحضرموت مملكة سبأ ، وكانت عاصمة قتبان (تمنع) ، وعاصمة حضرموت (شبوه) .

وأهم آلهة قتبان (عم) ، وهو من الآلهة السامية الغربية ، ويدخل في أسماء ملوك من السلالة الأمورية ، سلالة بابل الأولى التي اشتهرت بملكها السادس حمورابى ، مثل (عمى صادوقا) ، (عمى ديتانا) ، وحتى اسم حمورابى يدخل فيه اسم هذا الإله .

وقد انتهى أمر دولة سبأ بقيام دولة حمير (١١٥ ق.م - ٣٠٠ م) .

ومما يشير إلى نفوذ السبئيين فى القسم الشمالى من الجزيرة أن اسم مكة مشتق من صيغة سبئية تعنى المزار ، أو المعبد ، وهى (مكورابة ، أو مكراية) ، وهذه الصيغة لها علاقة باسم ملوك السبئيين (مكرب) ، وقد جاء ذكر مكة بهذه الهيئة فى جغرافية بطليموس - مج ٢ ص ٢٠٠ .

* ويبين الأستاذ محمد عبد القادر بافقيه فى (تاريخ اليمن القديم - ص ٢١٢ / ٢١٧) أن الديانة اليمنية القديمة كانت ديانة فلكية ، تقوم على عبادة آلهة تجسدها أجرام سماوية ، يمكن إدراجها تحت ثلوث الزهرة والشمس والقمر .

أما نجم الزهرة فقد ورد فى النقوش باسم عشتار ، ويعتقد أنه كان إلهاً أثيراً لدى متعبيه .

وإله القمر عند المعينيين والأوسانيين هو (ود) ، وعند السبئيين (المقه) ، وعند القتبانيين (عم) ، وعند الحضارمة (سين) .

والشمس كانت عند المعينيين (نكرح) ، وهو اسم يصعب تعليله أو تفسيره ، وعند السبئيين (ذات حميم) ، ، و (ذات بعدن) ، و (ذات غضرن) ، و (ذات برن) ، وعند القتبانيين (ذات صخرن) ، و (ذات رحين) .

أما (إل) ، فإنه يرد بكثرة فى أسماء الأعلام العربية الجنوبية ، فى مثل (يدع إل) ، و (كرب إل) ، و (راب إل) ، ويقابله فى الشمال اسم إسماعيل

وإسرائيل وإسرافيل .

ويلاحظ أن النصب والصور التي تقام عادة للآلهة تكاد تكون مفقودة في الديانة العربية القديمة ، وليس ما يدل على تصوير الآلهة فى أشكال آدمية ، غير أنا نجد رموزا أخرى ذات دلالة دينية ، مثل رسم قرص الشمس والهلال ، وإلى جانب ذلك رسم بعض الحيوانات ، كالثور والوعل والنسر والأفعى .

وهناك نقش نص قديم فى (شبوه) على لوح نحاسى محفوظ بالمتحف البريطانى ، يقول فيه مقدمه : إنه وهب (سين) ذهباً وبخوراً ، ووضع فى رعاية الآلهة روحه وحواسه وأبنائه ومقتنياته .

وقد ارتبط قيام المعابد بقيام طبقة الكهان ذات النفوذ الواسع ، وشهدت العهود القديمة جمعا بين السلطتين الزمنية والروحية فى أشخاص الحكام الذين كانوا يدعون (المكربين) أى المقربين ، وكان الكاهن يؤدى أعمالاً مدنية وعسكرية .

والقرايين كانت دموية ، كما يستدل من وفرة المذابح التى عُثر عليها فى الحفريات ، بالإضافة إلى البخور ، وليس ما يدل على تقديم قرايين بشرية .

وقد احتوت المدافن أوانى ومواد حياتية ، كما هو الحال فى الديانات القديمة بعامة .

ووجد اعتقاد بالأرواح الشريرة ، التى تتمثل فى السحر والحسد ، ولا تزال حتى اليوم تتخذ توائم سنّ الثعلب ، للأطفال ، ويعلق قرنا الوعل والمرّ بالمنازل ، ويشوه وجه الوليد بالمرّ الأسود ، وتحرض النساء على حرق المرّ كل صباح لطرد الشياطين . . وعثر على رسم كفوف آدمية بأصابعها الخمسة ، لعلها وسيلة أيضا لطرد الشياطين .

وكان الملوك يقتسمون غنائم الحروب - بما فيها الأسرى - مع الآلهة ، ويعمدون إلى محو نقوش آلهة العدو .

* وفى شمال بلاد الشام أسّس الفريجيون عاصمتهم فى موضع (أنقرة) ، واتخذوا لعبادتهم الآلهة المحلية التى وجدوها ، واشتهرت من بين آلهتهم الإلهة

(سبيله) ، ولعلها إلهة حثية تمثل الخصب ، مثل الإلهة البابلية عشتار ، وقد روت الأساطير اليونانية أن الفريجيين مارسوا البغاء المقدس في عبادة هذه الإلهة ، وقد اتخذ الرومان الإلهة (سبيله) بين آلهة الدولة الرسمية ، وكان لها زوج حبيب هو (أتيس) الذي وُلد من إلهة عذراء هي (نانا) ، وقد صار الرومان يقيمون المهرجانات الدينية المتصفة بالخلاعة والتهتك في الأعياد الخاصة بهذين الإلهين .

وقد أثبتت الآثار وجود الحوريين في تل العُشانة ، في سهل أنطاكية ، وهي وثائق مهمة يرجع بعضها إلى زمن حمورابي ، وبعضها من عهد العمارنة (القرن الرابع ق.م) ، وكان مركزهم في العراق في (توزي) ، قرب كركوك ، وفي كركوك أيضاً ، وكانت ثقافة الحوريين عنصراً مهماً في ثقافة الهكسوس المتأخرين في سوريا .

وقامت دولة ميتاني في الإقليم الذي تركز فيه الحوريون ، شمالي ما بين النهرين ، وكان سكانها في الدرجة الأولى من الحوريين ، ولكن يؤخذ من أسماء ملوكها أن أصل الطبقة الحاكمة من الأقوام الهندية الأوربية ، وكان يدخل في هذه المملكة جزء من شمالي سوريا وإقليم كركوك ، لكن ما لبثت أن تقلصت حدودها حتى انحصرت في شمالي ما بين النهرين .

وكان الاسكيثيون يعيشون في الشمال من بلاد الأرمن ، على طول سواحل البحر الأسود ، وهي قبائل متنقلة هائلة ، عرفت باسم Scythian ، ويرجح أن تكون خليطاً من القبائل المغولية والقبائل الهندية الأوربية ، وقد اشتهرت هذه القبائل الشرسة القوية بغزواتها المدمرة لدول العالم القديم المتمدنة آنذاك .

وقد وصف هيرودوت هذه القبائل بأنها متوحشة ، يركب أبناؤها الخيول العارية الوحشية ، ويشربون دماء أعدائهم ، ويستعملون جماجمهم للشرب ، ولهم دور كبير مع كل من إيران والهند ، كما صار لهم دور كبير في غزو أوربا فيما بعد (طه باقر مج ٢ ص ٣٥٩ / ٣٦٨) .

* من ناحية الشرق كانت بلاد عيلام ، وهي بلاد السوس القديمة (خوزستان) التي تعد من الناحية الجغرافية امتداداً لسهل ما بين النهرين الأسفل ، لأنها تتألف من الأرض الرسوبية التي كونها نهر كارون في روافده الكثيرة ،

وكان هذا الإقليم أقدم أجزاء إيران في استيطان الإنسان له ، كما ظهرت فيه أقدم الأطوار الحضارية ، وهو إلى ذلك أصلح جزء ليكون مركزا لإدارة الدولة الإيرانية لما اتسعت عبر (زجروس) إلى ماين النهرين ، وإلى آسيا الصغرى ، وهناك سهل آخر في محاذة الجبال المتاخمة لبحر قزوين ، وهى جبال مهمة . من ناحية جذبها الرياح الممطرة الغزيرة . . وهذا السهل يكتسب خصوبة ، وتكثر فيه الغابات والغياض والأحراش ، وينمو الرز والقطن والشاي والتبغ وقصب السكر والبرتقال والليمون والتوت والتين والرمان ، وهو يزود البلاد بثلاث قوت السكان .

وفى الإقليم المسمى إيرانويج Eranuij ، بين سيحون وجيحون ، فى إقليم خوارزم وسمرقند ، أقام الآريون الذين التحم تاريخهم بالتاريخ الإيرانى زمنا طويلا (طه باقر مج ٢ ص ٣٧٥ / ٣٨٩) .

* هذه هى الروابط الحميمة والحدود المشتركة التى أسهمت فى صناعة حضارة واحدة ، اختلفت مسمياتها باختلاف الدول التى قامت على أرضها . . يشهد بهذا قول الأستاذ باقر عن السومريين .

فلا غرو إذا نظرنا إلى هذه المنطقة الشاسعة على أنها تتحرك فى إطار واحد ، وليس أدل على هذا من تلك الآلهة المتعددة التى فرضت سلطانها على تلك المنطقة الممتدة الأذرع ، أو التى وجدت استجابة لعبادتها - بصورة أو بأخرى - عند هذه القبائل التى أخذت تتبادل صحائف التاريخ ، حتى قيام الدولة الإسلامية ، وانتشار حضارة الإسلام .

آلهة وادي الرافدين

يقول الدكتور فاضل عبد الواحد في كتابه (عشتار ومأساة تموز) : إن أبرز الآلهة السامية التي أدخلت عبادتها إلى وادي الرافدين ، في عصر مبكر جدا ، هو (إيا : Ea) إله المياه الأزلية ، الذي يوازيه عند السومريين إنكى Enki إله الأرض ، ثم سن Sin إله القمر الذي يعرف في السومرية باسم نانا Nanna ، ثم شمش Shamash إله الشمس الذي يرادفه الإله أوتو Utu عند السومريين . . على أن من أبرز الآلهة التي كتب لها أن تلعب دورا بارزا في الآداب والفنون هي الإلهة عشتار التي سماها السومريون إنانا Inanna أى سيدة السماء ، وعرفت باسم (عشتار وعشتوريت) في سوريا .

هذا بالإضافة إلى أدد ، وأيا Aia ، وألوم ، وأبسوم Apsum ، وإيلوم ، وإيشوم ، وناروم ، وبادان Padan ، وشيبى ، ومردوخ ، ونابو ، وصربانيتوم ، وآشور .

وحظيت عشتار بقسط وافر من الألقاب والصفات التي تشير إلى الأوجه المختلفة من نشاطها . . ومن أبرز تلك الصفات وأكثرها شهرة كونها إلهة الخصب ، بما فى ذلك من مدلولات من الجنس والحب والتكاثر ، وكونها أيضا إلهة الحرب .

أما الإله السومرى دموزى فمن المستبعد - فى نظر بعض الباحثين - أن يكون فى الأصل شخصية تاريخية ، وبموجب القائمة السومرية للملوك يوجد ملكان حملتا اسم دموزى .

وعن (إنانا) يقول الأستاذ كريم : لقد جسد السومريون كل ما يتعلق بضممان بقاء الإنسان وتكاثره ، من حب ورغبة جنسية ، فى إلهة جميلة ومغرية ، مرهفة وشيقة ، هى إلهة الحب (إنانا) ، التى مركز عبادتها فى الوركاء ، إحدى مدن سومر الرئيسية ، منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد . . وبعد ذلك توصل بعض المفكرين والمبدعين من الكهان وعلماء الدين إلى ابتداع فكرة مفرحة وضامنة لتكاثر الإنسان والحيوان ، ولزيادة الخصب والعطاء فى مظاهر الطبيعة ، وذلك

بجعل ملكهم حبيبا وزوجا لإلهتهم إنانا ، وبهذا أصبح يشاركها الخصب والنفوذ والقوة ، وكذلك الخلود الإلهي .

يقول كسريمير : وعلى هذا النحو ظهرت إلى الوجود طقوس (الزواج المقدس) ، التي تدور حول الإله دموزي الذي ينبغي أن يكون واحدا من مشاهير ملوك الوركاء ، وحول إنانا إلهة الجنس التي كانت تعبد في هذه المدينة .

جاء في ترينمية سومرية على لسان الإلهة إنانا :

(وأنعمت النظر في الناس كلهم / فاخترت من بينهم دموزي لألوهية البلاد / إنه من تعتز به أُمي دائما / ومن يحبه أبي)

وبالغت الأساطير فهبطت بإنانا إلى مستوى البشر ، أو ارتفعت بالبشر إلى مستوى الآلهة ، ومن ثم أحببت إنانا جلجامش ، لكن جلجامش أبي أن يرق لها ، أو أن يخاطبها خطاب إنسان لإله ، بل شمع بأنفه ، وتناول عليها ، فغيرها بأزواج سابقين لم تحسن معاشرتهم :

بعد رجوع جلجامش ظافرا من معركة هواوا Huwawa العفريت الموكل بحراسة غابة الأرز ، خلع ملابسه واغتسل ، ثم ارتدى ثيابا نظيفة ، وتمنطق بالحزام ، ووضع التاج على رأسه ، وأنداك نظرت إليه إنانا ، فسرهما جماله ، وأدهشتها رجولته ، وأعجبت به أشد إعجاب ، ولذلك عرضت عليه أن يتزوجها قائلة :

(تعال يا جلجامش ، وكُن حبيبا لي / تعال وامنحني من ثمرتك / تعال وكن زوجا لي ، وأكون زوجتك / إنني سأعد لك عربة من اللازورد والذهب / عجالاتها من الذهب ، وقرناها من البرنز / وستكون لك شياطين العاصفة لتشد عليها ، بدلا من البغال الضخمة / وستدخل بيتنا على نفحات الأرز / وعندما تدخل البيت ستقبل العتبة والدكة قدميك ، وسيمثل الملوك والحكام والأمراء بين يديك / ليقدموا لك الجزية ، محاصيل الجبال والسهول / وستضع عنزاتك ثلاثا ثلاثا ، ونعاجك التوائم / وسيفوق حمارك في الحمل بغلك / وستكسب خيول عربتك شهرة في السبق / ولن يكون لثورك مثل تحت النير) .

لكن جلجامش رفض هذه الإغراءات ، وأفرط في السباب :
 (ماذا على أن أقدم لك لو تزوجتك ؟ / هل أقدم الزيت والكساء للجسد ؟
 هل أقدم الخبز والطعام ؟) .
 (أى حبيب بقيت على حبه إلى الأبد ؟ / وأى من رعائك طاب لك على
 الدوام ؟ / تعالى أسمى لك عشاقك) .

(أحببت الأسد الكامل فى القوة / ولكن حفرت له سبع حفر وسبعا /
 وأحببت الحصان المشهور فى المعركة / ولكن كتبت عليه السوط والمهمل
 والجلد / وكتبت عليه الجرى سبعة فراسخ مضاعفة ، وكتبت عليه شرب الماء
 العكر / وكتبت على أمه سيليلي Silili البكاء / ومن ثم أحببت راعى القطيع /
 الذى كان يكس لك أرغفة الخبز المحمصة / ويذبح لك الجداء كل يوم / لكنك
 ضربته ، ومسخته ذئبا / ولهذا صار رفاقه فى الرعى يطاردونه / وصارت كلابه
 تعض فخذه) .

أرادت إنانا أن تقضى على جلجامش بالثور السماوى ، لكن جلجامش
 وصديقه أنكىدو تغلبا على الثور ، فلما رأت عشتار ما حل بشورها صاحت :
 (الويل لك يا جلجامش ، لأنك بالغت فى إهانتى بقتلك الثور السماوى) ، فلما
 سمع أنكىدو قولها قطع فخذ الثور ، وقذفه فى وجهها ، قائلاً : (لو نالتك
 يدائى لفعلت بك ما فعلت به ، ولعلقت أحشاءك بأطرافك) .

* وشأن العبادات القديمة جميعا - فيما عدا تلك (الواحات) التى شغلها
 بعض الأنبياء والرسل - كان تأليه الطبيعة فى شتى صورها .

كان معظم الآلهة فى وادى الرافدين تجسيدا لمظاهر الطبيعة المختلفة ،
 وبخاصة النجوم والكواكب ، إذ اعتقد البابليون بأن الشمس تمثل الإله شمس ،
 والقمر الإله سن ، وعطارد الإله نابو ، والزهرة الإلهة عشتار ، والمريخ الإله
 نركال ، والمشتري الإله مردوخ ، وزحل الإله ننورتا . . وتميزت الإلهة عشتار فى
 المنحوتات والأختام برمز نجمة ثمانية ، إشارة إلى نجمة الزهرة ، ألمع النجوم . .
 ولأن عشتار ربة الخصب كانت ترسم جالسة على كومة من الحبوب ، أو تمسك

بالمحراث ، ولأنها ربة الجمال والجنس كانت ترسم شابة ممتلئة ، ذات صدر بارز ، وقوام جميل وعينين مشرقتين .

ويقال فى السومرية لمن هو مقبل على الزواج :

(عسى أن تمنحك إنانا - عشتار - زوجة دافئة الأطراف ، تضطجع لك ، وعسى أن تمنحك أولادا أقوياء السواعد ، وأن تجعل لك منزلاً سعيداً) .

وبمرور الزمن ، ونتيجة لامتزاج المفاهيم السومرية السامية الخاصة بالإلهة إنانا - عشتار - فقد أصبحت توصف تارة بأنها ربة الحب ، وتارة ربة الحرب ، ولذلك نجد أن (إلهة الحرب) أصبحت من الصفات التى لم يقتصر إطلاقها على عشتار فى النصوص الأكديّة ، بل على إنانا فى النصوص السومرية أيضاً .

وقد ادعى الملك السومرى أوئو حيكال (٢١٢٠ / ٢١١٤ ق.م) - فى وثيقة حربته مع الكوتيين - أن الإلهة إنانا (لبؤة الحرب) هى التى أعطته السلاح لسحق الكوتيين وطردهم من البلاد .

أما الإله (إنكى) فيعرف بأنه مالك (النواميس الإلهية) المبدعة لأسباب الرخاء وفنون الحضارة .

وتتحدث أسطورة سومرية عن قيام هذا الإله برحلة حول العالم ، لنشر أسباب الرخاء والتمدن ، وقد كانت سومر أول بلد يباركه الإله . . وتذكر الأسطورة أنه بعد أن انتهى (إنكى) من رحلته بدأ فى تنظيم شئون الأرض والأنهار والبحار ، فملاً دجلة والفرات بالماء العذب وبالأسماء ، وأقام غابات القصب فى الأهوار ، ثم خلق المحراث ليفيد منه الناس فى الزراعة ، وإليه يعزى خلق الفأس والآجر ، ونمو الغابات فى الجبال ، وتكاثر الحيوانات . . وبموجب هذه الأسطورة يكون (إنكى) هو خالق كل ما هو خير .

ولما زارته (إنانا) ، وجلسا يتناولان الشراب ، أكثر إنكى من الشرب ، حتى لعبت الخمر بعقله ، وفى نشوة سكره أخذ يسرف فى تكريم ضيفته ، حتى أهداها كل ما بحوزته من (فنون الحضارة) ، وقبل أن يحل الصباح كانت إنانا فى طريقها إلى مدينتها الوركاء ، على قارب محمل بفنون الحضارة ، وعندما أفاق إنكى

من سكرته أدرك جسامه الخطأ الذى وقع فيه ، إذ لم يبق بحوزته شئ من تلك التواميس .

* وثمة أسطورة تتعلق بخلق الإنسان من صلصال فوق البحر ، إذ تأخذ ، (نمّاح) شيئاً من الصلصال ، فتخلق ستة أنواع مختلفة من الشواذ ، يعطف عليهم إنكى فيعطيههم خبزاً يأكلون ، ويقرر مباشرة عملية الخلق بنفسه ، لكن عملية الخلق الأولى فشلت بسبب ضعف الجسم والروح ، فتصب نمّاح اللعنة على إنكى .

لكن أسطورة أخرى تقول إن إنليل أهم معبودات المجمع الإلهى السومرى (أبا الآلهة) ، وملك السموات والأرض - هو الذى فتق السموات والأرض ، وأثبت (بذرة الأرض) من الأرض ، وكل ما يحتاج إليه .

وكان إنليل - وفق أسطورة (الصيف والشتاء) - هو الذى أخرج كل الأشجار والحبوب ، وأنتج الوفرة والرفاهية فى الأرض ، وعين الشتاء - فلاح الأرض - حارساً على المياه المنتجة للحياة ، ولكل ما ينمو ، وكانت الآلهة جميعاً حريصين على هذه البركة .

إن إنليل هذا هو إله الهواء الذى فصل السماء عن الأرض ، واحتمل الأرض لنفسه ، ثم اتحد بها ، وهياً المسرح لتنظيم الكون - أساطير العالم القديم ص ٧٧ / ٨٣ / ٣٤٢ .

* كان الإله العراقى هو سيد المدينة الحقيقى ، يسكنها مع زوجته وأولاده وخدمه وسدنته ، وكان المعبد مسكنه ، أفخم مساكن المدينة ، وكان للآلهة أملاك خاصة ، وصوامع للغلال ، وعبيد ، وجيوش ، ولم يكن الإله يدير شئون المملكة أو المدينة إلا من خلال ملك يعهد إليه برعاية شئون شعبه ، فكان الملك أو رجل الدين يستغل الشعب باسم إلهه المعبود ، وكثيراً ما كان الملك هو الكاهن الأعظم للإله ، حتى يستقل بكل الثمرات .

ولم يكن تمتع الإله بالزوجة والأولاد والخدم والسدنة إلا من قبيل زيادة أنصبتة فى مال الشعب وخدماته ، ذلك لأنه إله الشعب المستقر ، والاستقرار

يساعد على كثرة الإنتاج ، وكثرة الإنشاء تستدعى كثرة المكوس ، أما آلهة الشعوب الرحّل - كما يقول هـ. ج. ويلزج ١ ص ٢٠٥ - فلم يكن لديهم ميل إلى الزواج ، لأن الكهنة لم يكونوا ليطمعوا في غير مطعم ، والشعوب الرحّل كانت مقاتلة ، والمقاتل طالب غير مطلوب .

وبما أن الكهنة كانوا يستأثرون بالعلوم والمعارف ، وهم من الدهاء بحيث لا يلقنون الناس منها إلا ما يخدم أهدافهم ، وكثيرا ما يقتصر التلقين على الأساطير التي تُحكم سيطرة الكهنة على عقول الناس ومشاعرهم - فقد كان من الغباء تكوين أسرة للإله في قوم لا يملكون قوتهم إلا بقدر كبير من العناء والمشقة .

وكان الكهنة حريصين على الاستئثار بالملك حرصهم على الاستئثار بالإله ، من أجل أن تكون لهم سلطة التنفيذ والقهر .

كانت تلحق بمعظم الهياكل التي يبالغ في كونها أعلى وأعظم مباني المدنية ، لتكون أبلغ تأثرا في النفوس - مدارس يعلم فيها البنون والبنات مبادئ الخط والحساب ، وتغرس في نفوسهم الآداب الاجتماعية والوطنية ، وقد يُعدّ بعضهم للمهنة العليا ، مهنة الكتابة ، وذلك ليكونوا الأداة الطيبة لاستغلال الجماهير ، كما هو شأن الاستعمار اليوم ، سواء أكان في إطاره العسكري القديم ، أو في إطاره الاقتصادي والثقافي الجديد . . ولم تكن المعابد هي المراصد والمكاتب وعيادات المرضى فحسب ، بل كانت فوق ذلك متاحف ودورا للكنوز .

وكان في الهياكل عدد من النساء ، هن خادومات ، وقد يعملن سراري للآلهة ، أو لممثلهم على الأرض .

ولم تكن الفتاة السومرية ترى شيئا من العار أن تخدم الهياكل على هذا النحو ، وبخاصة إذا كانت تخرجت في مدرسة الهيكل ، وكان الآباء يفخرون بأن بناتهم يهن جمالهن وفتنتهن لتخفيف ما يعتري حياة الكهان المقدسة من ملل وسامة ، وكان الأب يحتفل بإدخال ابنته في هذه الخدمة المقدسة ، ويقرب القرابين في هذا الاحتفال ، كما كان يقدم (بائنة) ابنته إلى المعبد الذي تدخله . . ولا شك في أن (البغاء المقدس) كان تطورا لهذه الخدمات الخاصة .

كانت (الأتو) - الكاهنة العظمى - تأتي في المقدمة ، لأنها تعتبر - من الوجهة الدينية - زوجة الإله ، (السيدة الإلهية) ، أو السيدة الأولى ، والكاهنات من هذه الطبقة كن من بنات العائلات المالكة والنبلاء ، حيث جرت العادة أن يكرس الملوك والأمراء بناتهم وأخواتهم لخدمة الآلهة في المعابد . . وخصّصت الشرائع القديمة مواد قانونية لتحديد حقوق والتزامات هذه الطبقة والطبقات الأخرى من كاهنات المعبد ، وفرضت عقوبات صارمة على كل من يأتي بتهمة باطلة ضد كاهنة ، وبالمثل ، ولأهمية مركز (الكاهنة العظمى) في المعبد ، فإن المشرع البابلي فرض عليها عقوبة الموت حرقاً في حالة ترددها على حانة الخمارين ، التي كانت بمثابة الماخور أيضاً ، كما أن اقتراف الكاهنة العظمى للزنى كان يعتبر نذير شؤم للمعبد وللبلاد ، على حد سواء . . وعلى الرغم من ذلك فإن بعض الكاهنات من هذه المرتبة العليا لم يسلمن من الانحراف في (طريق الهوى) ، وكانت أشهر حادثة من هذا النوع في تاريخ المعبد ، في وادي الرافدين ، ما يذكره الملك سرجون الأكدي عن أمه ، وعن أصله غير الشرعي ، فيقول : (كانت أمي كاهنة - أتو - وأنا لا أعرف أبي ، لقد حملتني أمي الكاهنة ، ومن ثم ولدتني سرا ، ووضعتنني في سلة من قش ، ثم أحكمت غطائي بالقار ، وألقتنني في النهر . . .) ، والمفروض في الكاهنة العظمى أن تبقى عذبة ، لأنها كانت مكرسة أصلاً للإله ، لكن يبدو من بعض المواد في القانون البابلي أنه كان يسمح لها بالزواج في ظروف معينة ، بشرط ألا تلد ، ولذلك فإن من المرجح أن السماح بالزواج كان يعطى لها عندما تتم سنوات الخدمة الطويلة في المعبد ، إذ تكون الكاهنة - أتو - قد بلغت سن اليأس ، أو عدم القدرة على الإنجاب ، وقد يكون ثمة سبب آخر خاص بالكاهن الأعظم !!

و (البناء المقدس) كان وثيق الصلة بالإلهة عشتار وبمعابدها ، ولا شك في أن المعبد كان يحصل على نصيب من الأجر الذي كانت تتقاضاه النسوة المكرسات لهذه الممارسة .

يقول **هيرودوت** : (كانت عبادة مخجلة بين هؤلاء الناس - البابليين - إذ كان على كل امرأة من أهل البلد أن تذهب مرة في حياتها لتجلس في معبد أفروديت - عشتار - فتستسلم لرجل غريب ، غير أن كثيراً من النسوة الغنيات ،

من اللواتى يأنفن الاختلاط بعامة الناس ، كن يأتين إلى المعبد بعربات محجبة ، يتبعهم حشد من الخدم ، غير أن أغلب النسوة كن يجلسن فى ساحة المعبد ، وقد وضعت كل واحدة حول رأسها شريطا من خيوط مجدولة ، وكن حشدا كبيرا ، جالسات وقادمات وذهابات ، ومن حولهن عمرات فى اتجاهات مختلفة يسير فيها الرجل ليختار من يشاء ، وعندما كانت المرأة تأخذ مكانها لا يسمح لها بالعودة إلى بيتها إلا بعد أن يلقي أحد الرجال قطعة نقد فى حجرها ، وكان على الرجل أن يقول : باسم الإلهة ماليتا - عشتار ، ولم تكن قيمة النقد ذات أهمية ، إنما حالما تلقى تصبح مقدسة ، ويمنع القانون رفضها ، ولم يكن للمرأة حق الاختيار ، إذ كان عليها أن تذهب مع أول رجل يلقي النقود ، وكان واجبها نحو الإله ينتهى عندما تضاجعه .

ولا ريب فى أن (البغاء المقدس) يمثل أعنف وأعتى تسلط يفرضه الكهنة على شعب أصيب فى بصره وبصيرته ، وأسلم أمره لقيادة مريضة متأمرة (موتورة) !!
جاء فى (غزليّه) من إحدى الكاهنات إلى عريسها شو - سن (٢٠٣٨ - ٢٠٣٠ ق.م) ، رابع ملوك سلالة أور الثالثة :

(أيها العريس العزيز على قلبى / ما ألد وصالك ، حلو كالشهد / أيها الأسد العزيز على قلبى / ما ألد وصالك ، حلو كالشهد / لقد أسرتنى ، فهأنا أقف مرتعشة أمامك / أيها العريس ، ليتك أخذتنى إلى غرفة النوم / لقد أسرتنى ، فهأنا أقف مرتعشة أمامك / أيها العريس ، دعنى أقبلك / فقبلتى العزيزة أحلى من الشهد / وفى غرفة النوم المملوءة شهدا / دعنى اتمتع بجمالك اللطيف / أيها الأسد ، دعنى أقبلك / فقبلتى العزيزة أحلى من الشهد / أيها العريس ، لقد نلت منى رغبتك / فأخبر أُمى ، لكى تعطيك مالد وطاب / وأخبر أبى ، لكى يقدم لك الهدايا / نفسك ، إنى أعرف كيف أدخل السرور إلى نفسك / قلبك ، إنى أعرف كيف أدخل السرور إلى قلبك / أيها الأسد ، تعال ونم فى بيتنا حتى الفجر / وأنت مادمت تحبنى / أتوسل إليك أن أقبلك / ياسيدى الإله ، ياسيدى الحافظ / ياشو - سن ، يامن يدخل السرور إلى قلب إنليل / أتوسل إليك أن أقبلك) - عشتار ومأساة تموز ص ١٥٠ .

فى التراث المصرى القديم غزليات أشد ضراوة ، لكن هذه الغزلية تربط ما بين الشهوة والعبادة ، وقد تفيد أن المرأة لاتبيع نفسها ، إنما تشتري رجلها ، كما تفيد أن هذا (العُرس) ليس إلا لقاء غير مقيد ، بمعنى أنه صورة من البغاء ، لكن صادف أن (وافق شَنّ طبقه) .

* جاء فى (قصة الحضارة مج ١ ج ٢ ص ٢٩ / ٣١) أن العبادة السومرية ظلت مقصورة على الطالب الدنيوية ، فلم تتعلق بالحياة الآخرة ، ومن ثم لم تهتم ببناء القبور ، أو بالحفاظ على الأجساد ، انتظارا ليوم البعث والحساب والثواب أو العقاب ، ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان إلا طمعا فى النعم المادية الملموسة .

المفروض فى الميت أنه ينحدر من القبر إلى عالم الأموات لكن بعض المصادر المسماة تشير إلى وجود بوابات فى الأرض تؤدي إلى هذا العالم ، وتُصورُ السومريون عالم الأموات بأنه عالم مخيف ، له سبع بوابات يحرسها آلهة معينة ، وأن لهذا العالم قواعد خاصة به ، فالذى يدخل إليه ينبغى أن يمر ببواباته السبع ، ولا يستطيع الخروج منه إلا بعد تقديم بديل عنه .

ويظهر من أسطورة جلجامش أن من الواجب على النازل إلى العالم السفلى عدم ارتداء الملابس النظيفة ، أو لبس النعلين ، أو استعمال العطور ، أو حمل السلاح . . وهناك إشارة فى إحدى الأساطير السومرية إلى نهر فى العالم السفلى يبتلع البشر ، وأن على الموتى عبوره فى قارب ينقلهم إلى مقرهم الأخير من عالم الأموات . . وفى هذا شبه كبير بالانتقال إلى العالم الآخر فى التراث المصرى القديم .

وقد حظيت بيوت الآلهة والكهنة بقدر كبير من الاهتمام ، للتأثير فى نفوس الجماهير ، فكانت تستورد لها الحجارة من الأقطار النائية ، وكانت تزين بأعمدة وأفاريز من النحاس ، مطعمة بأحجار كريمة ، وكان هيك (نانا) فى (أور) طرازاً تحتويه أو تتمثله سائر هياكل أرض الجزيرة ، كانت جدرانها مغطاة من الخارج بالقرميد الأزرق الشاحب ، أما من الداخل فكانت مكسوة بألواح من الأخشاب النادرة ، كخشب الأرز والسرو ، تطعم بالرخام والمرمر والذهب

والعقيق الظرارى واليمانى ، وكان أعظم هيكل فى المدينة يقام عادة فوق ربوة ، يعلوه برج من ثلاث طبقات أو أربع ، وقد يصل إلى سبع ، يحيط به سلم لولبى ذو بسطة عند كل مقلب ، وكانت هذه الأبراج أعلى صروح فى المدينة ، أو فى المدائن السومرية ، وكان بوسع الحكومة أن تجد فيها آخر حصن طبيعى روحى ، يعصمها من الثوار أو الغزاة .

وكانت الهياكل تزين أحيانا بتمائيل للآلهة وللحيوان وللأبطال من بنى الإنسان ، وكانت هذه التماثيل ساذجة غير جميلة فى صناعتها ، وإن كانت تمثل القدرة والعظمة ، لكن ينقصها الصقل والأناقة والدقة الفنية . . ومعظم مابقى منها يمثل الملك (جوديا) ، وهى منحوتة من حجر الديوريت الصلب ، نحتاً واضح المعارف ، لكنه فج ساذج .

وقد عثر فى خرائب تنتمى إلى العهد السومرى الأول على تمثال صغير من النحاس على شكل ثور ، عدا عليه الدهر ، لكنه لا يزال يفيض حيوية .

وفى مدينة (أور) عثر المنقبون على رأس بقرة مصنوع من الفضة ، فى قبر الملكة (شب - آد) ، وهو آية فنية تشهد بما وصل إليه الفن من رقى .

* وقد أدى إسراف الكهنة - فى ابتزاز أموال الناس - إلى أن ثار (أوروكاجينا) ، ملك لكش ، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم ، ويتهممهم بالرشوة فى توزيع العدالة ، وبالإجحاف فيما يفرضون من ضرائب تستنفد ثمرة كد الزراع والصيادين والتجار ، وأفلح الملك - إلى حد ما - فى تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين ، وسنَّ قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التى تودى للمعابد ، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز ، ووضع الشرائع التى تحول دون اغتصاب الأموال والأموال . . وقد نص أحد المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب (ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ، ويأخذ منها الخشب ، أو يستولى على ضريبة من الفاكهة) ، كما حرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم مايقربه الناس للآلهة ، من أموال أو ماشية ، وكان الملك يباهى بأنه (وهب شعبه الحرية) .

واستعاد الكهنة سلطانهم ، بعد موت (أوروكاجينا) ، كما استعادوا

سلطانهم فى مصر بعد موت أخناتون ، ذلك أن الناس لا يترددون فى أن يؤدوا أغلى الأثمان ، لكى يعودوا إلى ما خطته لهم أساطيرهم .

ولأن هذه الساحة الكبيرة تحرثها القبائل المهاجرة - جنوباً وشمالاً ، وشرقاً وغرباً - فإن ماجاء فى الأساطير الكنعانية يدل على منازل بالشعوب غير الكنعانية (فى تلك الساحة) من مطاعم الكهنة ، وعنفس إسرائفهم وعنتهم ، تقول ترنيمة كنعانية : (اعلم يابعل / إنى آتيتك بالبشائر / بيت لك سوف بينى كإخوتك / بل وبلاط أقربائك / ادع . . . إلى بيتك / . . . وسط قصرك / حتى تأتيتك الجبال بالفضة الكثيرة / والتلال بأحسن الذهب / وتبنى بيتا من الفضة والذهب / بيتا من واهر اللازورد) .

(فرح عليان بعل / لقد بنيت بيتى من الفضة / نعم ، صنعت قصرى من الذهب) - أساطير العالم القديم - ص ١٨٢ / ١٨٣ .

* حاول المؤرخون الكهنة فى هذه الأثناء أن يخلقوا ماضيا يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومرية ، فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ، ورجعوا بالأسر المالكة التى حكمت قبل الطوفان إلى ٤٣٢ ألف عام ، ولعل اليهود فى صناعة تاريخهم (التوراتى) استفادوا من هذا المنهج .

يقول الأستاذ طه باقر (مج ١ ص ١٠٥) : ذكرت (جداول الملوك) أسماء ثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان ، فى خمس مدن قديمة ، منها (سبار) ، و (شروباك) ، وتعرف خرائبها اليوم بـ (أبو حبه) ، و (فاره) ، وقد خصص لهؤلاء الملوك عدد كبير من السنين لا يقبله العقل ، وهو رقم ٢٤١ ألف سنة لمجموع حكمهم .

وروا عن اثنين من هؤلاء الحكام ، هما تموز (دموزى) ، و (جلجامش) ، من القصص المؤثرة ما جعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة ، وترتبط بقصة جلجامش أسطورة تتحدث عن أن الآلهة خلقت الإنسان منعما سعيدا ، لكنه أذنب وارتكب الخطايا بإرادته الحرة ، فأرسل عليه طوفان عظيم ، عقابا له على فعله ، فأهلك الناس كاملة . ولم ينج منهم إلا رجل واحد ، هو (نحتوج) الحائك ،

وقد خسر (تحتج) هذا الحياة الخالدة التي تتناولها ملحمة جلجامش ، بديلا من الحياة الآخرة التي لم تعرفها السومرية .

وبعد عام ٣٠٠٠ ق.م تروى السجلات الحكومية من ألواح الطين التي كان الكهنة يحتفظون بها ، والتي وجدت في خرائب أور ، ولكش ، وأرك ، وما إليها ، وما أغرب ماتروى . . إنها شنشنة عرف بها المؤرخون في عهود كثيرة .

* ولما أخضع (أور - أنجور) جميع بلاد آسيا الغربية ، ونشر فيها لواء السلام - أعلن في جميع البلاد السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون في تاريخ العالم ، وفي ذلك يقول : (لقد أخذت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمس الصالحة العادلة) .

ومن قوانين (أور - أنجور) استمد حمورابى شريعته ذائعة الصيت .

والقانون السومرى يشمل العلاقات التجارية ، والعلاقات الزوجية والجنسية ، بوجه عام ، وينظم شئون القروض والعقود ، والبيع والشراء ، والتبني ، والوصية بكافة أنواعها ، (مما يوحى بقدر مستمد من شرائع سماوية سابقة) .

والعبارة (بين القوسين) تمثل وعيا من (ديورانت ، صاحب قصة الحضارة) ، لم يحظَ بمثله مؤرخون متدينون بديانات سماوية ، مع أن هودا كان رسول عاد ، جنوبى الدولة السومرية وكان صالح رسولا إلى قوم ثمود فى الشمال الغربى ، فيما يسمى اليوم (ديار صالح) ، ومع أن إبراهيم - فيما بعد - كان ابن (أور) ، عاصمة سومر ، وكان لوط رسولا فى شمال غرب وادى الرافدين ، مما يؤكد أن حضارات هذه الساحة الكبيرة تنفست أنفاسا سماوية ، وإن بعد بها العهد .

وكانت المحاكم تعقد جلساتها فى المعابد ، وكان معظم قضاتها من رجال الدين .

وكل نزاع كان يعرض أولا على محكم عام ، واجب أن يسوى بين المتخاصمين بطريقة ودية ، دون اللجوء إلى القضاء ، وهذا يعنى أن أفقا أرقى كان يتمتع به أبناء هذا الزمان .

ومن هذا الأفق الأرقى مايعبر عنه دعاء الملك (جوديا) للإلهة (بو) ، راعية
لكش ونصيرتها :

(أى ملكتى ، أيتها الأم التى شيدت لكش / إن الذين تلحظينهم بعينيك
ينالون العزة والسلطان / والعابد الذى تنظرين إليه تطول حياته / أنا ليس لى أم ،
فأنت أُمى / وليس لى أب ، فأنت أبى / أى إلهتى بو ، إن عندك علم الخير /
وأنت التى وهبتنى أنفاس الحياة / وسأقيم فى كنفك أعظمك وأمجدك /
وأحتمى بحماك يا أماه) .

الحضارة السومرية

إن أقدم الشواهد على الكتابة السومرية هي تلك الرقم الطينية الصغيرة التي نقش عليها الكتابة التصويرية التي تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد ، وربما يكون السومريون قد بدءوا الكتابة قبل هذا التاريخ ، على مواد أخرى ذات تركيبة عضوية ، وأن تكون هذه المواد قد تحللت وتلاشت . . ومن المحتمل ألا يكون السومريون هم أول من توصل إلى تطوير الكتابة ، كوسيلة جديدة للتواصل ، أى أن يكونوا قد أخذوا هذا من شعب غير معروف كان يعيش قبلهم في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين ، أو كانت لهم به صلات تجارية . . ويقال إن السومريين قد تعلموا الكتابة من أحد الشعوب الذي كان على ضفاف نهر الدانوب ، ولكنهم قاموا بتطوير هذه الكتابة ، وقد أصبحت هذه الفرضية مقبولة أكثر منذ أن تم العثور في سنة ١٩٦١م على الرقم الطينية التي تعود إلى العصر الحجري في منطقة (تارتاريا) برومانيا ، فالتشابه بين الإشارات الواردة في هذه الألواح وبين أقدم الكتابات التي خلفها السومريون واضح للغاية . . وقد أدت نتائج التحاليل الراديوكربونية لهذه الآثار الدانوبية إلى أنها أقدم بمئات السنين من أقدم الرقم السومرية .

(وهناك حقيقة يمكن أن نؤكدها فوراً ، ألا وهي أن السومريين هم أول من ابتدع الكتابة التصويرية ، ثم طوروها ، إلى أن حولوها إلى نظام كتابي تغطي عليه السمات الصوتية) - تاريخ الكتاب ج ١ ص ١٢ .

ولا أدري كيف للبروفيسور اليوغسلافي ستيتشيفيتش أن (يؤكد فوراً) ما يناقض (التحاليل الراديوكربونية لهذه الآثار الدانوبية) ؟

وفي الوقت نفسه كيف له يؤكد أن الأعمال الأدبية المصرية بقيت ، تتردد على أفواه الناس مئات وآلاف السنين ، دون أن يلتفت إليها أحد الكتاب لتدوينها (ج ١ ص ٣٧) ، مع أن نصوص الأهرام ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ؟

وقد أكد جتتريد المدير المساعد لمعهد الآثار في القاهرة أن الكتابة الهيروغليفية قد تكون أقدم كتابة ابتكرها البشر في التاريخ ، وذلك استناداً إلى كتابات عثر عليها فريق ألماني في مصر مؤخراً . . وقال ريد في تصريحات لوكالة

الأبناء الفرنسية أن علماء الآثار كانوا يعتقدون حتى الآن أن الكتابة الهيروغليفية ظهرت في حوالى بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، بعد ظهور الكتابة المسمارية ، في بلاد ما بين النهرين ، إلا أن الدراسة الجديدة تعود بالكتابة إلى ١٥٠ عاما قبل ذلك التاريخ ، وهى متطورة بشكل كاف ، مما يؤكد بلاشك أن المصريين اخترعوا هذه الكتابة قبل ذلك التاريخ أيضاً .

وقال الباحث الألماني ، إن الكتابة التى عشر عليها منقوشة على قطع فخارية ، وعلى أجزاء من العظام كانت فى قبر اكتشفه فريق ألماني فى ١٩٨٩ فى أبيدوس ، حيث توجد أقدم مقبرة ملكية فى مصر ، وأشار إلى أنه عثر أيضاً ، فى قبر مجاور ، على كتابات يعتقد أنها سابقة على الكتابات التى عشر عليها حديثاً بمائة عام ، وأنه فى حالة ثبوت ذلك فإنه يعنى أن الكتابة الهيروغليفية كانت قبل التاريخ المعروف حتى الآن بـ ٢٥٠ عاماً ، ولكن ريد قال : إنه لا يستطيع تأكيد ما إذا كانت هذه الاكتشافات ستؤدى إلى اعتبار الهيروغليفية أقدم كتابة فى التاريخ ، لأن التاريخ الدقيق لظهور المسمارية التى استخدمها السومريون فى العراق قديماً لا يزال موضع جدل ، وأضاف أن هناك أدلة تثبت وجود اتصالات بين الحضارتين القديمتين ، ولكن لا يوجد بعد ما يؤكد أن إحداهما أدخلت الكتابة إلى الأخرى ، رغم وجود ما يؤكد أن كلا منهما طورت كتابتها بشكل مستقل ، ولأسباب اقتصادية ، تتعلق بالتبادل التجارى والضرائب ، وليس لأسباب دينية ، على حد قوله - جريدة الأهرام فى ١٠ أكتوبر ١٩٩٥ .

والاختلاف حول الأقدمية ، مع التركيز على آثار نهر الدانوب ، يؤكد ما سبق أن أشرت إليه من عبث القول بالأقدمية ، وعبث القول باستقلال الحضارات ، وبخاصة فى المناطق المفتوحة ، مثل وادى الرافدين الذى نسب فيه السومريون إلى الهجرات من الجنوب ، وإلى الهجرات من الشمال ، وإلى الهجرات من الشرق .

* وقد كشفت الكتابة المسمارية على الرقم الطينية أن السومريين كان لهم أدب غنى ومتطور ، وكانوا يعرفون أسس الكثير من المعارف الطبية ، بالإضافة إلى أنهم كانوا يتمتعون بميثولوجيا غنية جداً ، وفى هذه الميثولوجيا يمكن أن نرى

الكثير من (الموتيفات) التى استحوذت عليها لاحقا كل الشعوب فى الشرق الأوسط ، والتى عايشت كل التغيرات التاريخية ، لتصل إلى وقتنا هذا .

وقد كشفت عن أن أحد النصوص المدونة على رقم طينى فى المتحف الجامعى فى فيلادلفيا ، بالولايات المتحدة - ماهو إلا فهرس لإحدى المكتبات ، وهذا الرقم الطينى يعود إلى حوالى ٢٠٠٠ ق . م ، وقد تم العثور عليه فى بقايا مدينة نيبور ، المركز الدينى والثقافى للسومريين .

ومن نيبور لدينا رقم آخر محفوظ فى متحف اللوفر بباريس ، نجد فيه بعض عناوين الكتب التى دوت فى الرقم المحفوظ فى فيلادلفيا .

ولقد سادت الثقافة السومرية فى بلاد الرافدين فترة طويلة تزيد عن ١٥٠٠ سنة ، أى من منتصف الألف الرابع ق . م . إلى بداية الثانى ق . م . وخلال هذه الفترة الطويلة تمكن الكتاب السومريون من تدوين عدد كبير من النصوص ، فى موضوعات مختلفة ، وفى نسخ متعددة ، فبعض الحكايات الشائعة - كما هو الأمر مع البطل جلجامش - حفظت فى نسخ كثيرة ، وروايات متعددة .

وقد كان السومريون أول من نسخ هذه الحكاية ، ثم قام بتدوينها بعدهم الشعوب الكثيرة الأخرى التى توارثت أو توازت حضارتهم فى تلك المنطقة .

ودون السومريون أيضاً المعاجم والنصوص المتعلقة بالبيطرة والرياضيات .

وفى منتصف الألف الثالث ق . م . أخذ الأكديون الساميون ينتشرون فى بلاد الرافدين ، ويفرضون وجودهم ، وجاء الأموريون الساميون ليدمروا مقر دولتهم (أور) ، وليخضعوا أراضي السومريين لحكمهم - تاريخ الكتاب ج ١ ص ١٤ / ١٦ .

* يقول الأستاذ طه باقر فى (ملحمة جلجامش ص ٨) : إن أروع وأعجب مايجده الفاحص لأدب وادى الرافدين هو أنه - مع إيغاله فى القدم ، وسبقه جميع الآداب العالمية - يتسم بالصفات الأساسية التى تميز الآداب العالمية الناضجة ، سواء أكان ذلك من ناحية الأساليب وطرق التعبير ، أم من ناحية الموضوع والمحتوى ، أم من ناحية الأخیلة والصور الفنية .

وعلى الرغم من أن معظم الألواح المدونة بالأدب السومري والبابلي لايتجاوز عهد تدوينه ، أواخر الألف الثالث ، وبداية الألف الثاني قبل الميلاد - فإن هذه الآداب قد تم إبداعها ونضجها في الألف الثالث ق.م ، وبهذا (تسبق جميع ما أنتجه الفكر البشرى) .

ومع التجاوز عن العبارة الأخيرة التي هي (شنشنة) المؤرخ العراقي الكبير ، فإن ملحمة جلجامش موضع التقدير على المستوى العالمى ، بدون وقوف عند الأولية أو الأفضلية التي تخضع للمذاهب الفردية والعصبية العرقية .

وجلجامش هذا - كما يقول المؤرخون - قد عاش في الحقيقة والواقع ، على الرغم من تأليه الكهنوت السومري له في زمن مبكر ، شأنه في ذلك شأن ملوك سومر الذين جمعوا بين السلطتين الدينية والزمنية .

يذكر ثبت الملوك السومريين المدون في بداية الألف الثاني ق.م . أنه الملك الخامس في ترتيب حكام مدينة (أوروك) التي كانت من أهم المدن السومرية التي (نزلت عليها نظم الملكية من السماء) بعد الطوفان ، آلت إليها السيادة على سائر المدن السومرية ، وقد نسب إليه بناء سورها العظيم التي أشادت به الملحمة في بدايتها وخاتمتها .

وقد رجح العلماء - بعد فحص الأطلال الباقية من هذا السور ، والاطلاع على المأثور الفنى عن شخصية جلجامش - أنه قد عاش بين سنتى ٢٧٥٠ - ٢٦٠٠ ق.م تقريبا .

ويعزى هذا النص إلى شاعر موهوب عاش حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م ، أو إلى كاهن بابلي يدعى (سن ليكى) ، أو (نينى) ، حوالى سنة ١١٠٠ ق.م .

ويضيف الدكتور عبد الغفار مكاوى إلى ما سبق أن هذه الملحمة أقدم ملحمة فى التاريخ ، جرت أساطيرها وحكايتها على ألسنة الناس منذ الألف الرابع ق.م ، وبدأ تدوينها فى العصر البابلي القديم ، على عهد حمورابى الذى حكم من ١٧٩٢ إلى ١٧٥٠ ق.م - محاكمة جلجامش ص ٨ / ٥٠ .

ومن واجبا ألا نقف عند اختلاف الأرقام التاريخية ، حتى لانفقد كثيراً من

أهمية أو حلاوة مذاق موروثاتنا الأدبية ، فما أكثر التواريخ التي أصابت هذه الملحمة تأليفاً وتدويناً .

وقد أخذت هذه الملحمة طابع الروايات الشعبية المتوارثة ، فى صورة قصص سومرية متفرقة تدور حول مآثر جلجامش ملك الوركاء (أوروك) ، ومع أنها تدور حول شخص واحد فإنها لم تشكل تأليفاً واحداً مترابطاً .

وجاء الساميون فجعلوا مما كان متداولاً ملحمة ذات طابع إنسانى ، مع المحافظة على الخطوط الهامة لما كان متداولاً - عشتار ومأساة تموز ص ٧١ / ٧٢ .

وأحدث نسخ لنصوص الملحمة جاءتنا من القرن السابع ق. م . وهو العهد الذى يرجع إليه القسم الأعظم من نصوصها - ملحمة جلجامش ص ٣٨ .

وقد كان لهذه الملحمة - بحكم الهجرات ، وتبادل الاتصالات العسكرية والسياسية والثقافية - أثرها فى أنحاء مختلفة من العالم القديم ، وبخاصة فى العمل الملحمى اليونانى ، إذ إن أسس قصص هرقل تستند - فى الدرجة الأولى - إلى أصول مُستقاة من ملحمة جلجامش وصلت إلى بلاد اليونان عن طريق الفينيقيين ، فكلما البطليين من أصل إلهى ، وكلاهما اتخذ صاحباً وصديقاً حميماً ، أنكىدو بالنسبة إلى جلجامش ، ويوليوس بالنسبة إلى هرقل ، وكان السبب فى جلب الكوارث إلى كل منهما امرأة إلهة ، عشتار فى حالة جلجامش ، وهيرا فى حالة هرقل ، وكلاهما قتل الأسود وتغلب على الثور الإلهى المقدس ، ووجد هرقل العشب السحري للخلود ، كما فعل جلجامش ، وزار هرقل جزيرة الموت ، كما أبحر جلجامش عبر بحر الموت ، واكتسى كل منهما بجلود الأسود الضارية .

ويرى روبرت جريفز أن هوميروس استقى الكثير من حوادث ملحمة جلجامش ، حيث يضاهى صاحب أخيل بتركولوس صاحب جلجامش أنكىدو ، وأم أخيل الإلهة ثيتس Thetis تضاهى الإلهة ننسون أم جلجامش - ملحمة جلجامش - ص ٢٧ .

ويتناول الروسيان دياكونوف وترافيموف (جمالية ملحمة جلجامش ص ٦٨) ملحمة جلجامش من جانب رمزي ، إذ إن الرحلة هي رحلة الشمس في العالم السفلي ، ويجري التأكيد دائماً على أن (شَمش) هو الوحيد الذي سار في هذه الطريق ، فإذا كان شمش ملك السموات والأرضين فإن جلجامش - ميثولوجيا - ملك العالم السفلي ، ومن ثم فبراءة الإنسان الأول في الحياة مع الحيوانات في السهوب ، وتكون المعصية في الطوفان ونزال الوحش الذي يحرس شجرة الحياة .

ويحاول الدكتور عبد الغفار مكاوي أن يصنع من الملحمة دروساً تربوية - (محاكمة جلجامش ص ٤٥) - إذ إن هناك تحولات من الأنا إلى النحن ، ومن التسلط إلى التطهر ، ومن الذعر من الموت إلى الإيمان باللحظة الراهنة ، لحظة الوعي الحر ، والعمل الخلاق من أجل الآخرين ، ومن ثم تصبح الملحمة - على نحو ما - لونا من ألوان الرواية التعليمية التي تتبع تطور البطل في معرفته بنفسه وبالعالم وبالمجتمع ، وتحوله من الحلم المستحيل إلى واقع المشكلات التي تؤرق الناس في حياتهم .

وهذا التناول ، أو الاستيحاء الحديث للأسطورة القديمة تساعد عليه أن الأساطير إنما تضع الخطوط العريضة فقط ، أو الهيكل العظمى ، بحيث يسهل على الآخرين ملء الفراغات ، على طريقة كراسات (ارسم لون) . . ويمكن الإشارة إلى الطريقة (الحديثة) في الدراسة والنقد التي تمنح كلا من الدارس والناقد رخصة تحويل النص إلى قفاز يضعه الدارس أو الناقد في يديه ثم يمسك قلمه ليرسم ما يشاء ، ويلون ما يشاء ، وحسبه أن القفاز في يديه ، وقد يجعل النص مجرد منظر يطل من خلاله على صور ورسوم من خياله . . (وربك يخلق ما يشاء ويختار) !!

الماشية / ومع الظباء يأكل العشب / ويتدافع مع الوحش عند موارد الماء) .

رأى تسياد « أنكيدو » ، فرجع مذعوراً ، وأخبر أباه ، فقال أبوه :

(أذهب إلى أوروك ، وولّ وجهك شطرها / وأنبئ جلجامش عن بأس هذا الرجل / وليعطك بغياً مومساً تصحبها معك أيها الصياد / دعها تسيطر عليه وتروضه / وحينما يأتي ليستقى مع الحيوان من مورد الماء / دعها نخلع ثيابها ، وتكشف عن عورتها ومفاتيح جسمها / فحالما يراها فإنه سيقرب منها ، وينجذب إليها / وعندئذ ستنكره حيواناته التي ربيت معه في البرية) .

(لبث أنكيدو يتصل بالبغي ستة أيام وسبع ليال / وبعد أن شبع من مفاتها / وجه وجهه إلى إلفه من حيوان الصحراء / فما إن رأت الظباء أنكيدو حتى ولّت عنه هاربة / وهربت من قربه وحوش الصحراء) .

(ذعر أنكيدو ، ووهنت قواه / خذلته ركبتاه لما أراد اللّحاق بحيواناته / أضحى أنكيدو خائر القوى ، لا يطيق العدو ، كما كان يفعل من قبل / ولكنه تنار فطنا واسع الحس والفهم) .

قالت البغي : (فعلام تجول في الصحراء مع الحيوان ؟ / تعال آخذك إلى أوروك ذات الأسوار / إلى البيت المقدس ، مسكن أنو وعشتار / حيث يعيش جلجامش الكامل الحول والقوة / المتسلط على الناس كالثور الوحشى) .

ذهب معها أنكيدو ، (ولما وضعوا أمامه خبزاً تحير واضطرب / وصار يطيل النظر إليه / أجل ، لا يعرف أنكيدو كيف يؤكل الخبز / لأنه شب على رضاع لبن حيوان البر / ولم يعلم كيف يشرب الشراب القوى / ففتحت البغي فاهها ، وخاطبت أنكيدو / كل الطعام يا أنكيدو ، فإنه مادة الحياة / واشرب من الشراب القوى ، فهذه عادة البلاد / فأكل أنكيدو من الخبز حتى شبع / وشرب من الشراب القوى سبعة أقداح / فانطلقت روحه ، وانشرح صدره ، وطرب لبه ، ونور وجهه / نظّف جسده المشعر ، ومسحه بالزيت ، وأضحى إنساناً ، لبس اللباس ، وصار كالعريس / أخذ سلاحه ، وانطلق يطارد الأسود ، ليريح الرعاة في المساء / اصطاد الذئب ، وقهر الأسود / فاستطاع الرعاة أن يهجعوا في الليل

مطمئنين / صار أنكىدو حارسهم وناصرهم / إنه الرجل القوى ، والبطل الأوحـد) .

(فرح الأبطال ، وهللوا قائلين / لقد ظهر بطل ند وكفء للبطل الجميل / أجل ، ظهر لجلجامش ، الشبيه بالإله ، نظيرُهُ / ولما هيئ الفراش « لأشخارا » - من آلهة الحب - / واقترب جلجامش ليتصل بالإلهة مساء / وقف أنكىدو فى الدرب يسدّ الطريق بوجهه) .

تصارع البطلان كثورين وحشيين ، ثم هدأت سورة غضب جلجامش ، فقال أنكىدو :

(إنك الرجل الأوحـد ، أنت الذى ولدتك أمك . ولدتك أمك « ننسوتا » ، البقرة الوحشية المقدسة / ورفع إنليل رأسك عاليًا على الناس / وقدر لك الملوكة على البشر) .

* أراد جلجامش أن يرفه عن صديقه أنكىدو ، فصحبه فى أسفار بعيدة .

قال جلجامش : (يسكن فى الغابة « خُمبابا » الرهيب / فلنقتله كلانا ، أنا وأنت / لكى نزيل الشر عن الأرض) .

قال أنكىدو : (إن الغابة تمتد مسافة عشرة آلاف ساعة فى كل جهة / فمن يجروُ على الإيغال فى داخلها ؟ / وخمبابا زئيره عباب الطوفان / تنبعث من فمه النار ، ونفّسه الموت الزؤام / فعلام ترغب فى القيام بهذا الأمر ؟) .

لام جلجامش صديقه على موقفه المتخاذل ، ثم :

(صدرت الأوامر إلى صانعى السلاح ، فاجتمعوا وتشاوروا / صنعوا أسلحة عظيمة ، سبكوا فئوسًا تزن كل منها ثلاث ووزنات - الوزنة ٣٠ كج تقريبًا - / وسبكوا سيوفًا كبيرة نصل كل منها ووزنتان ، وقبضاتها ثلاثون منّا / وسيوفًا أعمادها من ذهب ، يزن الواحد منها ثلاثين منّا / وتسليح جلجامش وأنكىدو بأسلحة زنتها عشر ووزنات) .

(ثم سجد جلجامش للإله شَمش ، ودعا قائلًا / إننى ذاهب ياشمش ، وإليك أرفع يدي بالدعاء / أرجعنى سالمًا إلى ميناء أوروك / عسى أن تنال روحى

الخير والبركة / وانشر على ظلك ، واشملنى بحمايتك) .

(ثم انطلقا سائرين خمسين ساعة مضاعفة أثناء النهار / وقطعا مدى سفر شهر ونصف الشهر فى ثلاثة أيام) .

(وبعد أن قطعنا تلك المسافة الطويلة شارفا مدخل الغابة / وكان مدخلا عجيبا ، بهرهما مشهده ، إنهما لم يصلا بعد إلى الغابة / ولكن أشجار الأرض فى المدخل كان منظرها عجيبا / فكان علوها اثنتين وسبعين ذراعاً ، وعرض المدخل أربعاً وعشرين ذراعاً / ووجدنا عنده عفريتاً عيَّنه « خمبابا » ليحرسه / فشجع أنكىدو وصديقه جلعامش أن يتقدم / ليأسر الحارس قبل أن يأخذ سلاحه / فتشجع جلعامش ، وأسرع الصديقان ، وهجما عليه ، وقتلاه / ولكن ، لما أراد أنكىدو الدخول إلى الغابة شُلت قواه / بتأثير الباب المسحور ، فنادى جلعامش وحذّره من الدخول / ولكن جلعامش شجع صديقه قائلاً / أبعد أن عانينا هذه الصعاب / وقطعنا هذا السفر البعيد نعود من حيث أتينا خائبين ؟) .

استطاع البطلان أن يجتازان مدخل الغابة ، ووصلا إلى قلبها ، فأبصرَا الجبال الخضراء ، وذهلاً من مشهد غابة الأرض ، وسحر جمالها ، ثم تتبعا المسالك التى يسير فيها عفريت الغابة « خمبابا » ، وشاهدا جبل أرز خاص بالآلهة ، حيث أقيم عرش الإلهة أرنيى (عشتار) ، وحيث تتعالى أشجار الأرض أمام ذلك الجبل بظلالها الوارفة التى تبعث البهجة والسرور ، وعند غروب الشمس حفر جلعامش بئراً ، وقرب منها ، وارتقى الجبل ، وسكب الماء المقدس ، وقرب الطعام ، ودعا الجبل أن يريه حلمًا يبشره بالفرح .

ودنت ساعة اللقاء الحاسمة لما بدأ جلعامش يقطع أشجار الأرض بفأسه ، إذ سمع « خمبابا » الصوت ، فغضب وهاج ، وزمجر صائحاً ، من الداخل المتطفل / الذى كدر صفو الغابة وأشجارها النامية فى جبلى ؟ / ومن الذى قطع أشجار الأرض ؟ / وتهياً « خمبابا » للهجوم على الصديقين اللذين استحوز عليهما الرعب / وندما على هذه المغامرة ، ودخول غابة الأرض / وأخذوا يتضرعان إلى الإله شَمَش ، ليعينهما على الخلاص من الهلاك / فاستجاب لهما الإله ، وانقلبت الآية / حيث أهاج شمس الرياح العاتية ، وساقها على « خمبابا » /

فمسكت به ، وشلت حركته ، فاستسلم لهما / وأخذ يتضرع لهما أن يُبقيا عليه ، ويأسراه ، فيكون خادماً لجلجامش / ويجعل الغابة المسحورة وأشجارها ملك يديه / فرق قلب جلجامش ، وكاد أن يبقى عليه ، لكن صديقه أنكيدو / حرضه على قتله ، فقتلاه وقطعا رأسه) .

(ولما أن تكلل جلجامش بتاجه / رفعت عشتار الجميلة عينيها / ورمقت جمال جلجامش ، فنادته / تعال يا جلجامش ، وكن عريسي الذي اخترت / امنحني ثمرتك - بذرتك - أمتع بها / ستكون أنت زوجي ، وأكون زوجك / سأعد لك مركبات من حجر اللازورد والذهب / عجلاتها من الذهب ، وقرونها من البرنز / وستربط لجرها شياطين الصاعقة ، بدلاً من البغال الضخمة / وفي بيتنا ستجد شذا الأرض يعبق فيه إذا مادخلته) .

* ذكرها جلجامش بما فعلت بأزواجها السابقين ، قائلاً : (إذا أحببتني فستجعلين مصيري مثل هؤلاء) .

استشاطت عشتار غضباً ، وشكت إلى أبيها أنو ، في حضرة أمها أنتم ، قائلة : (اخلق لى يأبث ثوراً سماوياً ، ليغلب جلجامش ويهلكه / وإذا لم تعطني الثور السماوى / فلأحطمن باب العالم السفلى / وأفتح على مصراعيه / وأدع الموتى يقومون فيأكلون كالأحياء / ويصبح الموتى أكثر عدداً من الأحياء) .

(هبط الثور السماوى . وأخذ ينشر الرعب والفزع / وقضى فى أول خوار له على مائة رجل ، ثم مائتين ، وثلاثمائة / وقتل فى خواره الثانى مائة ، ومائتين ، وثلاثمائة / وفى خواره الثالث هجم على أنكيدو / لكن أنكيدو صد هجومه / فقفز أنكيدو ، وأمسك الثور السماوى من قرنيه / فرشق الثور السماوى وجهه بزبده ورغائه ، وقذفه بالروث بذيله) .

(وبعد أن أجهزاً على الثور السماوى اقتلعا قلبه / وقرباه إلى الإله شمش ، وسجدا له) .

* مات أنكيدو ، فحزن عليه جلجامش أشد الحزن ، وصار يرثيه ويندبه ليل

نهار ، ثم قام برحلته البعيدة ، قاصداً جده (أوتو - نيشتم) ، ليسأله عن الخلود .
(إلى أين النازلة التى نزلت بصاحبى تُقضى مضجعى / آه ، لقد غداً
صاحبى الذى أحببته تراباً / وأنا سأضطجع مثله ، فلا أقوم أبداً بالدين /
فيا صاحبة الحانة ، وأنا أنظر إلى وجهك / أأكون فى وسعى ألا أرى الموت الذى
أخشاه وأرهبه ؟) .

قالت صاحبة الحانة :

(أين تسعى يا جلجامش ؟ / إن الحياة التى تبغى لن تجد / حينما خلقت
الآلهة العظام البشر / قدّرت الموت على البشرية / واستأثرت هى بالحياة / أما
أنت يا جلجامش ، فليكن كرشك مملوءاً على الدوام / وكن فرحاً مبتهجاً مساءً /
وأقم الأفراح فى كل يوم من أيامك / وارقص والعب مساءً نهاراً / واجعل
ثيابك نظيفة زاهية / واغسل رأسك ، واستحم فى الماء / ودلل الصغير الذى
يمسك بيدك / وأفرح الزوجة التى بين أحضانك / وهذا نصيب البشرية) .

* لما وصل جلجامش إلى جده (أوتو - نيشتم) ، بعد طول معاناة ، قال له
جده :

(لقد جئت يا جلجامش إلى هنا ، وقاسيت التعب / فما عسأى أن أعطيك
حتى تعود إلى بلادك ؟ / سأفتح لك ، يا جلجامش ، سرّاً خفياً / أجل ،
سأكشف لك عن سر من أسرار الآلهة / يوجد نبات مثل الشوك ينبت فى المياه /
وشوكة يخزُ يدك ، كما يفعل الورد / فإذا ما حصلت يدك على هذا النبات
وجدت الحياة الجديدة) .

حصل جلجامش على النبات :

(وأبصر جلجامش بئراً باردة الماء / فوردتها ليغتسل فى مائها / فشمت الحية
شذى النبات / فتسلّلت ، واختطفت النبات / ثم نزعته عنها غلاف جلدها) .

وعاد جلجامش صفر اليدين ، خائر العزم ، لا يملك حتى الضياع !!

آلهة بابل واشور

لم تكن سلطة الملك فى بابل يقيدھا القانون وحده ، ولا الأعيان وحدهم ، بل كان يقيدھا الكهنة أيضاً ، ذلك أن الملك من الوجهة القانونية لم يكن إلا وكيلاً للإله المدينة ، ومن أجل هذا كانت الضرائب تفرض باسم الإله ، وكانت تأخذ سبيلها إلى خزائن الهياكل ، إما مباشرة ، وإما بشتى الوسائل والحيل .

ولم يكن الملك بحق - فى أعين الشعب - إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية ، أو أخذ بيد (بل) ، واخترق شوارع المدينة فى موكب مهيب ، ممسكاً صورة (مردوخ) . . وكان الملك فى هذه الاحتفالات يلبس زى كاهن .

حتى حمورابى نفسه تلقى قوانينه من الإله .

وقد ظلت بلاد بابل - فى واقع الأمر - دولة دينية ، (خاضعة لأمر الكهنة ، على الدوام ، إلى يوم تتويج بُوخَد نَصْر) .

وزادت ثروة الهياكل جيلاً بعد جيل ، بفضل اقتسام الأثرياء (المذنبين) أرباحهم مع الآلهة ، وكان الملوك يشعرون بشدة الحاجة إلى غفران الآلهة ، حماية لهم ولسلطانهم ، فشادوا الهياكل ، وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد ، ووقفوا عليها مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ، وخصوها بقسط من إيراد الدولة يؤدى إليها فى كل عام ، فإذا غنم الجيش واقعة حربية كان أول سهم من الغنائم ومن الأسرى من نصيب الهياكل ، وإذا أصاب الملك مغنماً قدمت الهدايا العظيمة للآلهة .

وكان يفرض على بعض الأراضى أن تؤدى للهياكل ضريبة سنوية من التمر والحبوب والفاكهة ، فإذا لم تؤدها نزع الهياكل ملكيتها ، وانتقلت للكهنة أنفسهم .

وكان الفقراء والأغنياء على السواء يخصصون للهياكل من مكاسبهم اليومية قدرًا يتفق ومدى تقدير دور الآلهة .

وبذلك كله تكدست فى خزائن الهياكل مقادير هائلة من الذهب والفضة

والنحاس واللازورد والجواهر والأخشاب النفيسة والعطور والتوابل بالإضافة إلى مخازن الطعام .

ولما لم يكن فى مقدور الكهنة أن يستخدموا هذه الثروة كلها ، فقد حولوها إلى رأس مال مستثمر ، وأصبحوا بذلك أكبر القوامين على الشئون الزراعية والصناعية والمالية ، على مستوى الدولة . . بل كانوا - بسبب كثرة العبيد التى تتبع الهياكل - أكثر قدرة على التحكم فى سوق المال والأعمال . . وبهذا اتسع نفوذهم ، وتحكموا فى مقدرات الدولة ، حكومة وأفراداً .

وساعد على هذا أن الألهة كانوا يعيشون على الأرض ، فى الهياكل ، يأكلون بشهية الكهنة ، ويزورون الصالحات من النساء أثناء الليل ، فى ثياب الكهنة ، فيستولدوهن أطفالاً لم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا لهم .

وكان الطعام والشراب أكثر ما يقرب من القرابين ، وأكثر ما كان يختار بعناية من الضأن والفاكهة والشراب القوى .

ولقد وصلت إلينا رقية بابلية هى سابقة عجيبة لكبش الفداء عند اليهود والمسيحيين ، تقول : (الكبش فداء الإنسان ، الكبش الذى يفتدى به حياته) ، وهى صورة من الرقية السومرية ، والعلة واحدة .

وكان تقريب القرابين من الطقوس المعقدة التى تتطلب خدمات كاهن بشئونها .

ولئن كان أساس الكهانة الاعتقاد بأن ما يحدث فى هذا العالم إنما هو مقدر من الآلهة - فقد بنى الكهنة على ذلك أنه لو عرف الإنسان إرادة الآلهة لاستطاع أن يقف على نتيجة أعماله ، وقد رأوا أن معرفة إرادة الآلهة أمر ممكن لمن يستطيع أن يقف على مشيئة الله فى الظواهر السماوية ، وفى حركات الأجرام السماوية ، وفى الرؤى والأحلام ، وفى المخلوقات الشاذة ، وفى الأمارات التى تظهر فى كبد الحيوان المضحى به . . الخ .

كان البابليون يعتقدون فى وجود علاقة بين الإله الذى يقرب إليه الحيوان

المضحى به والحيوان نفسه ، إذ عندما يضحى بالحيوان فإنه يكون جزءاً من الإله ، كما يكون جزءاً من أجسام الناس الذين يأكلونه ، فتكون روح الإله أو نفسه روح الذبيحة أو نفسها ، أو أن روح الحيوان تتمثل بروح الإله ، وعلى ذلك فمن الممكن للبشر أن يتطلعوا إلى روح الإله ، ومن ثم معرفة إرادته بدرس روح الذبيحة ، ولكن أين توجد الذبيحة التي تتمثل بروح الإله ؟ أو فى أى عضو من أعضاء الذبيحة يمكن ملاحظتها ؟ الجواب أن البابليين عدوا الكبد ذا علاقة وثقى بالروح والحياة ، لأنهم رأوا أن فى الدم الحياة نفسها ، والكبد مستودع الدم .

والإله شَمَش هو الذى يسطر على كبد الذبيحة علامات التنبؤ وكشف الغيب .

وقد خلّف البابليون والآشوريون والحثيون ألواحاً من الطين فيها صور الكبد وأسماء أجزائه ، وتعاليم وإرشادات يتم بها التنبؤ .

وسمى البابليون أجزاء الكبد بأسماء متخيّلة ، مثل الإصبع والفم والطريق والباب والقصر والعرش . . الخ ، وبعد انتخاب الذبيحة الصالحة من الوجهة الدينية ، يتقدم العراف أمام صنم الإله ، ومعه موقد ومنضدة وقنان من الخمر وشئ من الخبز ومزيج من الزيد والعسل والملح ، ثم يأخذ بيد السائل المقرب ، ويتلو بعض التعاويذ والأدعية ، مخاطباً الإله ، مستأذناً منه فى تقريب الذبيحة إليه ، ثم تنحر الذبيحة ، ويخصص للإله أحسن أجزائها ، ثم يفحص العراف الكبد ، فيشاهد أجزائه ، وما تظهر فيها من علامات ، كالفقايع والخطوط والتشققات ، ووضع القنوات التى تربط المرة الصفراء ، وفى أجزاء الكبد علامات صالحة وأخرى غير صالحة ، وقد تربو الصالحة على غير الصالحة ، فتكون هى المعبرة ، وإذا تساوتا يعاد الفأل بفحص ثان وثالث .

* وكان أهم ما يعمل به البابلى التقى المتمسك بدينه أن يشترك فى المواكب الطويلة المهيبة ، كالمواكب التى كان الكهنة ينقلون فيها صورة (مردوك) من هيكلى إلى هيكلى ، ويمثلون فيها مسرحية موته وبعثه المقدسة ، كما يفعل اليوم فى عراق (الحُسَيْن) ، إحياء لمعركة كربلاء ، ويبدو أن هذه التمثيليات كانت وسيلة تأثير على الجماهير ، وإذكاء لروح (التضحية) فى نفوسهم ، ومن أجل مزيد من

الاستيلاء على ما يملكون من خيرات ، بدليل أن الأمر لم يقتصر على معابد دون أخرى ، أو ديانة دون أخرى ، وبدليل أن جميع الفنون - موسيقى وتمثيل ورقصاً ونحتاً وتصويراً - استخدمت في هذا المجال .

ولم يكن ملك يجروء على شنّ حرب ، أو الاشتباك في واقعة ، ولم يكن بابلي يجروء على البت في أمر من الأمور ، أو الإقدام على مشروع خطير - إلا إذا استعان بكاهن أو عراف ، ليقرأ له طالع ، بطريقة من الطرق الخفية .

وترتب على هذه السيطرة توسع في مفهوم (الخطيئة) التي تبيح للكهنة أكثر من نافذة للدخول إلى أعماق القلوب والعقول والجيوب ، ولم تعد مجرد حالة معنوية من حالات النفس ، بل صارت (مرضاً) ينشأ من سيطرة شيطان على الجسم ، في مقدوره أن يهلكه ، وكانت الصلاة بمثابة رقية تخرج الروح الشرير الذي تلبس به .

وهناك نصوص من التعاويذ تصف الآثم بأنه ذلك الذي يأكل ما حرمه على إلهه أو آلهته ، وهو من يقول (لا) ، بدلاً من أن يقول (نعم) ، أو يقول (نعم) بدلاً من أن يقول (لا) ، وهو من يشير بإصبعه إلى مواطن باتهام باطل ، وهو الذي يقول ما لا يجوز ، وهو الذي يحتقر إلهه ، أو يسخر من آلهته ، وهو الذي ينطق بالباطل ولا يحكم بالحق ، وهو الذي يظلم الضعيف ، ويباعد بين الابن وأبيه ، وبين الصديق وصديقه ، ولا يعتق الأسير .

وكانوا يعتقدون أن الشياطين تترصد للناس في كل مكان ، وكان من المستطاع اتقاء خطرهما باستعمال التمايم والطلاسم وما إليها من صناعة الكهنة .

ومن الطقوس السحرية التي تخرج الشيطان من الجسم رشّه بالماء المحمول من أحد المجارى المقدسة ، كدجلة والفرات ، أو عمل صورة للشيطان ، ووضعها في قارب ، وإلقاؤها في الماء ، بعد أن تتلى تعويذة خاصة .

وكانت أكثر الكتابات البابلية التي وجدت في مكتبة آشور بانيبال هي الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين ، واتقاء أذاها ، والتنبؤ بالغيب .

ومن هذه الكتابات كتب فى التنجيم ، ومنها قوائم فى الفأل السماوى والأرضى ، وإرشادات تهدى إلى قراءتها ، وبحوث فى تفسير الأحلام لاتقل براعة عما وصلت إليه بحوث علم النفس الحديث .

وكان من أقوى التماثم أثراً قلادة من حجارة صغيرة تسلك فى خيط أو سلك ، وتعلق فى العنق ، على أن تكون الحجارة من النوع الذى يجلب الحظ الحسن ، وأن يكون الخيط أبيض أو أسود أو أحمر ، حسب الغرض الذى يراد منه .

* يقول الأستاذ العقاد (الله ص ٩٠ / ٩٣) : الأرباب البابلية أوفر عدداً من أن يتنظمها اتفاق بين قومين مختلفين ، لأنهم ارتفعوا بعددها إلى أربعة آلاف ، وقرنوا بها أنداداً لها من الشياطين والعفاريت تبلغ هذا العدد أو تزيد .

ولم ينقض على هذه الأرباب وقت كاف لإدماج صغارها فى كبارها ، ثم فنائها جميعاً فى أكبر الأرباب المشرفة على الكون ، أو فى رب واحد ينفرد بهذا الإشراف .

لكن البابليين وقد ورثوا آلهة سومر وأكد استطاعوا أن يضيفوا إلى الآلهة الموروثة من الصفات الكمالية مالم يكن معروفاً أو محدوداً ، كما صنعوا بين بعض الآلهة علاقات ، وبخاصة بعد انتقال السلطة من المدينة إلى الدولة ، كما أضافوا آلهة لم تكن معروفة من قبل .

يقول الأستاذ طه باقر فى (مقدمته) - ج ١ ص ٢٤٧ / ٢٥٤ - إن :

أنو : نعتوه بأبى الآلهة ، وملك الآلهة ، ويقتسم هذا الإله - مع الإلهين إنليل وإيا - الكون فيما بينهم ، فيحكم أنو السماء ، وإنليل الهواء ، وإيا الأرض والماء . . وقد عُبد أنو فى جميع أنحاء العراق ، وفى جميع الأدوار التاريخية ، وخصّصت لعبادته مدن شيدت فيها معابده ، أهمها مدينة نمر وأور والوركاء .

إنليل : يلقب مثل أنو بأبى الآلهة ، ويلقب بسيد البلدان أو الأرضين ، وقد صار اسمه يعنى (الرب) أو (السيد) ، حتى إنهم اشتقوا من اسمه صفة الربوبية

والألوهية (إيلوتو) ، وقد فرض شريعته على جميع سكان العالم ، وله شبكة مقدسة يحبس فيها كل من يحلف زوراً أو يحنث بقسمه ، وكانت أقضيته وأحكامه لامرد لها ، وهو الذى يعاقب الملوك على آثامهم وظلمهم ، ويوصف بوجه عام بقوته وشدته ، فهو الذى أحدث الطوفان بعد ما قررت الآلهة إفناء البشر ، كما جاء فى قصة جلجامش . . وقرنوا به إلهة مونثة هى (ننليل) ، وجعلوها زوجة له ، ومن أبنائه (ننجرسو) إله مدينة لجش ، وكذلك (نتورتا) إله الحرب والصيد . . ومن وظائف ننليل المهمة أنه عهد إليه بالمحافظة على ألواح القدر الذى يكون من يحوز عليها قادراً على التحكم فى مصير الأشياء .

إيا أو إنكى : إله الحكمة والمعرفة ، بيده أسرار السحر المقدس و (التعزيم) ، وهو الذى علم البشر الكتابة و (الصنائع) - كذا - والفنون وأصول العمران ، واشتهر بحبه البشر ، فهو الذى أفشى سر الآلهة حين عزمت على إفناء البشر بالطوفان . . ونسب البابليون إليه زوجة اشتقوا اسمها من اسمه ، وهى (نن كى) ، أى سيدة الأرض . . ويروى أن سنحاريب فى حملته على عيلام قدم إليه قارباً وسمكة من الذهب ، ورماهما فى ماء الخليج ، قرب البصرة ، حيث معبده الأصلي .

مردوخ : ابن إيا ، وهو إله بابل العظيم ، وكان فى أول الأمر إلهاً خاصاً ببابل ، ولكن عندما عظم مكانة هذه المدينة - زمن حمورابى ، وأصبحت عاصمة الإمبراطورية البابلية - ارتفع شأن مردوخ ، وصار مقدساً فى جميع البلاد .

نبو : ابن مردوخ البكر ، عدّه البابليون إله الكتابة والقلم ، والمعرفة والحكمة ، وسكرتير الآلهة فى مجالسها المقدسة .

يأتى بعد الثالث الأول المكون من الآلهة (أنو) و (إنليل) و (إيا) ثالث وآخر مكون من إله القمر وإله الشمس و (أدد) :

سين : إله القمر ، سماه عرب الجنوب (وَدَّ) ، وهو عند الآراميين (شهر) ، وعند الأمهريين (ورخ) ، وشيّد له معبد فى (أور) منذ زمن قديم . . اشتهر بالحكمة . . وهو يشترك مع الإله (شمش) فى إدارة شئون العدالة ، وكان

خسوف القمر يتطير منه البابليون . . جاء فى الكتابة السحرية أن خسوف القمر يحدث بهجوم سبعة شياطين ، أو أرواح شريرة عليه ، وكانوا يصلون عند الخسوف للإله ، ويقربون القرابين ، حتى يتم قهر الشياطين^(١) . . وخصّوه بزوجة عبدت معه فى معبده بأور ، وهى الإلهة (نجال) .

وقد سجل بريستيد فى (فجر الضمير ص ٣٦٣ / ٣٦٤) أنشودة ، عزا فيها مؤلفها الكاهن إلى القمر إدارة الشئون البشرية ، وتأسيس كل النظم ، بما فى ذلك المدنية والدينية :

(مَنْ المَعظم فى السماء ؟ / إنك أنت وحدك المَعظم / ومن المَعظم فوق الأرض ؟ / إنك أنت وحدك المَعظم / وحينما يتردد صدى كلماتك فى السماء ، فإن آلهة العالم العلوى يسجدون لك / وحينما يتردد صدى كلماتك فوق الأرض ، فإن آلهة العالم الدنىوى يقبلون الأرض لك / وحينما ترتفع كلماتك إلى عليين كالهواء ، فإنها تجعل المراعى تنمو ، وعيون الماء تَغزُر / وحينما تنزل كلماتك إلى الأرض ، فإن الكلا يخرج شَطَّاه / وكلماتك تصير الحظائر بما فيها من قطعان سميئة / وتنشر المخلوقات الحية / كلماتك يتولد منها الصدق والعدل / كلماتك السماء العليا ، والأرض المستورة التى لا يخترق حجبها نظر / من يفهم كلماتك ؟ ومن يضارعها / اشمَل بنظرك بيتك ، انظر إلى مدينتك ، انظر إلى أور) .

شمس : الإله الشمس ، هو عند البابليين والعبرانيين (شمش) ، وعند العرب (شمس) ، وعند الفينيقيين (شفش) ، وعند السومريين (أوتو = الضوء) ، و(بيار = النير) . . وكثيراً ما مثل برمز قرص ذى أربعة خطوط تنبعث منها حُزم الأشعة ، كما صور بهيئة ملك جالس على عرشه ، ويحمل فى يده اليمنى الصولجان والحلقة ، وهما رمز السلطة ، وتاجه مزين بأربعة أزواج من القرون ، زى لباس الرأس عند الآلهة ، وله حية طويلة كالإله القمر ، وتنبعث من كتفيه حزم الأشعة . . ولأنه ينير الظلمات فهو إله العدل والحق والشرائع ،

(١) إلى عهد قريب كان المصريون يخرجون ليلة الخسوف يدقون الطبول احتجاجاً على هذا الاعتداء ، وينشدون : (ياسيدنا يا عمر فكّ خنقة القمر ، ياسيدنا يا بلال فكّ خنقة الهلال) .

وهو الذى ألقى على حمورابى شريعته المقدسة ، وهو القاضى الأعظم ، وسيد الكهانة والعرافة ، قدسه الآشوريون ، وشيدوا له معابد ، وعبدت معه زوجته الإلهة (أى) . . وقد عثر على أنشودة سجلها بريستيد فى (فجر الضمير ص ٣٦٦) تقول : (يا شمش ، أنت الذى لا يفلت من شباكك شرير / ولا يفر من فخك خاطئ / أما من يحنث فى يمينه فإنك تعجل له العقاب / ومن لا يحترم كل مقدس فلن يستطيع الفرار منك / شباكك العريضة مطروحة لمن يقتترف الشر / ولن يرفع بصره إلى زوجة رفيقة / إذا أشهرت سلاحك عليه فامنحى له / فإذا وقف أمام المحكمة فليس فى استطاعة أحد مساعدته ، ولو كان والده / وليس هناك من يعارض كلمة القاضى ، حتى إخوته / فهو يحبس فى فخ نحاسى لامناص له منه / وأما من يضر شرا فإنك تحطم قرنه / ومن يتحيز إلى المسئ ، فإن الأرض التى تحث قدميه تميد به) .

أدد : (إله خاص بالجو والمناخ ، ولا سيما الأمطار والرعود والفيضان . . قدسه كذلك الآشوريون وعبدوه .

وهناك ثالث آخر له سمات خاصة :

عشتار : إلهة الحب والحرب ، تتمثل فى كوكب الزهرة ، وهى ابنة الإله القمر ، خصها الآشوريون بالتقديس ، لأنها عندهم إلهة الحرب والطعان ، سارت مع بعض ملوكهم فى طليعة الجيوش وأحرزت النصر ، وقد نعتت باللبؤة الضارية . . اتخذها (تموز) زوجة له ، لكن حبها قضى عليه ، ولذلك كانت تندبه ، وتمثل تموز فى خضرة الربيع .

نرجال : فى الأرض السفلى ، مقر أرواح الموتى ، يحكم الإله (نرجال) ، ومعه زوجته (إيرشكيجال) ، ويساعدهما مجموعة من الآلهة الصغيرة ، وعدد من الشياطين والعفاريت . . وقد شيد له الملك سنحاريب معابد فى شمال العراق ، ووصلت عبادته إلى بعض المدن السورية .

آشور : خصه الآشوريون بالتعظيم ، إلى جوار عبادتهم الآلهة السومرية البابلية . . كان إله مدينة آشور ، ولما اتسع سلطان الآشوريين عظم شأنه ، وصار

على رأس الآلهة البابلية . . وهو يُمثَّل عادة بإنسان يطير بجناحين ، وييده القوس والسهم ، والجناحان تنبعثان من قرص الشمس ، وأخذ الفرس الأخمينيون هذا الرمز للإله أهورا مزدا .

* كانت سياسة الكون - كما تخيلوها في الأدوار الأولى - أشبه بالجمهورية ، بل المشيخة القبلية ، فكانوا يرون أن الأرباب تجمع كل سنة ، في يوم الاعتدال الخريفي ، لتنظر مقادير السنة كلها ، وتكتبها في لوح محفوظ لا يمحي قبل نهاية العام .

ولم يؤثر عنهم - في عهد الشمرين - إيمان بعالم آخر ، أو بيوم الحساب والجزاء ، فمن اجترأ على فعل محرم ، أو قصر في الصلوات والقرايين ، فالآلهة تجزيه على ذنبه بمرض لا يشفيه منه غير كاهن المعبد بعد التوبة والتكفير ، وإن لم يكن الجزاء مرضاً فهو خسارة في المال أو العيال أو ذوى القربى والأعزاء .

وقد تعم الذنوب فيعم العقاب ، وترسل الآلهة على الأرض طوفاناً أو وباءً يأخذ البرئ بذنب المسىء ، لكنها تنذر الناس قبل حلول العقاب ، وتلهم الكهان وحدهم تفسير هذا النذير .

ولم تكن الصلاة في طلب ثواب الجنة ، بل في طلب متسع من الأرض يستثمره ، أو في نجاح تجارى ، أو انتصار على عدو ، أو تجنب كارثة .

وقد خلّف سكان العراق الأقدمون مجاميع من الصلوات والأدعية والتراتيل الدينية ، كانوا يتلونونها في المعابد .

وأنواع الصلوات كثيرة ، منها ما يقوم به الفرد بنفسه ، بدون وساطة الكهنة ، وكانوا إلى جانب الدعاء في الصلوات يقومون ببعض الإشارات ، منها رفع اليد مع الدعاء . . وثمة صلاة للتوبة والاستغفار . . وقد مثلت أوضاع بعض المصلين وهم بهيئة الركوع أمام التماثيل .

ومن المناسك ما يقوم به الكهنة ، كذبج القرايين ، وما يتبع ذلك من رسوم وصلاة وتجمير البخور وسكب السوائل المقدسة .

* كان الموت عندهم من طبيعة الإنسان وتركيبه ، فالإنسان خلق ومعه حياته

وموته ، ولا توجد أدلة كتابية تثبت اعتقاد البابليين برجوع الروح إلى الجسد في القبر ، كما هو عند المصريين ، وإن انتشرت في جميع عهود العراق عادةً وضع ما يحتاج إليه الميت في قبره ، وهي ترجع في أساسها إلى الأطوار الهمجية من حياة البشر ، في العصور الحجرية القديمة .

وهذا تعليل من الأستاذ باقر (المقدمة مج ١ ص ٢٣٠ / ٢٣٤) يحتاج إلى تعليل ، وبخاصة أنه يتحدث عن عالم الأرواح بما يعنى خلود الروح ، إذ كانوا يعتقدون (أن راحة الروح في عالم الأرواح تتوقف على العناية التي يبذلها الأحياء في دفن الجسم . وفق الطرق والسنن الدينية ، وعلى ما يودع في القبر من زاد وأثاث) .

وقد وصفوا موطن الأرواح في العالم السفلى بأنه عالم مخيف ، بهيئة مدينة مُسورة بسبعة أسوار ، يحرسها مردة الشياطين ، وسموه بأسماء مختلفة ، منها (كيغال) ، و (الأرض التي لارجعة منها) . . وتسكن هذه المدينة وتحكمها إلهة شديدة قاسية ، هي (إيرش كيغال) - ملكة العالم السفلى - تساعد مجموعة من الآلهة والشياطين والكتاب لتسجيل الموتى . . وهذا العالم يتساوى فيه الموتى ، ولا رجعة منه . . وجاء في ملحمة جلجامش (اللوح الثاني عشر) أن بعض الموتى الذين خلفوا المآثر الصالحة ، أو ماتوا عن أولاد ذكور ، أو من قدمت لهم القرابين ، على الدوام - يعيشون في هذا العالم إلى حتما ، (إذ يمنحون الماء والطعام) .

ويضيف الأستاذ باقر أن عقائد العبرانيين في موطن الأموات تشبه - من وجوه كثيرة - عقائد البابليين ، إذ يستنتج من التوراة أن عالم الأرواح ، أو عالم الموتى ، في أعماق أجزاء الأرض السفلى ، تحت البحر ، وأن لهذا العالم مداخل وأبواباً .

* ولقد استفاد البابليون من معارف السابقين ، أو من أساطيرهم ، عن (نشأة الكون) ، وعن الحياة الإنسانية الأولى ، فطوروا هذه الموارث حتى صارت الهيكل الرئيسي لكتابات التوراة في الأسر البابلي .

قالوا : كان أول الأمر عماء (ففي الوقت الذي لم يكن فيه شيء عال يسمى

السماء ، ولم يكن شئ وطىء يسمى الأرض ، جاء « أبو المحيط » ، وكان أبا الأشياء أول الأمر ، و « تيامات » العماء ، التى ولدتها كلها ، وخلطتا ماءهما معاً .

وبدأت الأشياء تنمو على مهل ، وتتخذ لها أشكالاً ، لكن (تيامات) الإلهة الهولة شرعت تبعد كل الآلهة الآخرين ، لتجعل نفسها - العماء - صاحبة المقام الأعلى ، وأعقبت هذا ثورة عنيفة اضطرب معها نظام الكون ، ثم جاء إله آخر ، هو (مردوك) ، وقتل تيامات ، بأن دفع فى فمها ريحاً عاصفة ، حين فتحتة لتبتلعه ، ثم طعنها برمح فى بطنها الذى انتفخ بما دخله من الريح ، فانفجرت إلهة العماء .

وعاد (مردوك) إلى هدوئه ، ثم قسم (تيامات) قسمين مستطيلين (كما يقسم الإنسان السمكة ليصففها) ، ورفع أحد النصفين إلى أعلى ، فكان هو السماء ، وبسط النصف الآخر تحت قدميه فكان الأرض .

ولما فتق (مردوك) السماء والأرض ، ووضعها فى مكانيهما ، شرع يعجن الأرض بدمائه ، ويصنع الناس لخدمة الآلهة .

وتختلف القصص البابلية فى وصف الطريقة الدقيقة التى تم بها صنع الإنسان ، وإن كانت تتفق بوجه عام فى القول بأن الإنسان صنعه الإله من الطين ، وهى لا تصفه بأنه كان يعيش أولاً فى جنة ، بل تقول إنه كان يعيش حياة حيوانية ، فى جهل وبسطة ، حتى جاء وحش مهول يدعى (أوئس) ، نصفه سمكة ، ونصفه فيلسوف ، وعلمه - الإنسان - الفنون والعلوم وتخطيط المدن ومبادئ القانون ، ولما علمه إياها نزل إلى البحر ، وكتب كتاباً فى تاريخ الحضارة . . غير أن الآلهة لم تلبث أن غضبت على الناس الذين خلقتهم ، وأرسلت عليهم طوفاناً عارماً لتهلكهم ، وتمحو سبب أعمالهم .

أشفق (إى) إله الحكمة على البشر واعتزم أن ينجى منهم على الأقل رجلاً واحداً (شمش - نبشتين) وزوجته ، (وظل الطوفان مهتاجاً ، وغُصَّ البحر بالبشر كأنهم سرء السمك) .

ثم بكى الآلهة على حين غفلة ، وعضت بنان الندم على غفلتها وسوء

تدبيرها ، وتساءلت عن سيقرب لها القربان المعتاد ، لكن (شمش - نبشتين) كان قد بنى فلکًا ، ونجا من الطوفان ، وحط على جبل نذير ، وأرسل يمامة تستطلع ، ثم قرر أن يقرب القربان للآلهة ، وقبلت الآلهة قربانه ، وهى مندهشة شاكرة ، (شمت الآلهة الرائحة الذكية ، واجتمعت كالذباب فوق القربان) .

* تأكد لدى البابليين أن مصير البشر والكون بيد الآلهة : إذ هى التى تدير شئون الكون ، وتقدر أقداره ، ولها حق الحفاظ عليه ، أو القضاء عليه ، وتأكد لدى البابليين أن فى الإمكان إرضاء الآلهة ، وكسب محبتهم ، وذلك بالعناية ببناء المعابد ، بحيث تكون أفخم الأبنية ، وبالعناية بتوفير أسباب سعادة الكهان ، والإغداق عليهم ، وبالعناية بانتقاء ما يقدمون من قربان وتعاويز وصلوات .

كان البابليون ينسبون إلى آلهتهم صفات البشر ، الروحية والمادية ، كالصورة أو الأعضاء ، والفكر ، والعواطف ، ونسبوا إلى الآلهة ألوانًا من النشاط السياسى ، فى صورة مجالس الشورى المقدسة ، وإعلان الحرب ، وإيثار السلام ، ومناصرة فريق من الناس دون فريق . . وكان لكل إله زوجة وسرارى وأولاد وحاشية ، فالآلهة تأكل وتمارس كل ما يمارسه البشر ، ولا تكاد تتميز إلا بصفة الخلود .

وخوفًا من الآلهة ، وطمعًا فى حماهم ، صار لكل فرد إله خاص ، هو الحامى الشفيع ، عدا ولائته لبقية الآلهة ، وكذلك كان الشأن بين الملوك والآلهة . ومن ثم كان حرص الملوك على إرضاء الآلهة ، حتى لا يعرض الملك نفسه ومملكته للخراب ، وحتى لا تسلط عليه وعلى مملكته الشياطين والأرواح الخبيثة .

لذلك كان من الناس إذا نزلت به نازلة كتب إلى إلهه أو آلهته رسائل رجاء وتوسل ، بالإضافة إلى القرايين والصلوات . . جاء فى رسالة : (إلى الإله ، أبى ، قل : هكذا يقول « أبل - أدد » ، خادمك : لماذا أهملتني هكذا ؟ من سيزودك شخصًا آخر يحل محلى ؟ اكتب إلى الإله « مردوخ » الذى يحبك ، لكى يزيل عني علتى ، وعندئذ سأرى وجهك ، وأقبل قدميك ، راع أيضًا عائلتى ، الكبار والأطفال ، فارحمنى من أجلهم ، ودع عونك يصلنى) .

* ويقول جفرى بارندر (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٣ / ٣٤) :
كانت تقام احتفالات خاصة ، وتقدم القرابين فى الأيام المقدسة عند إله معين ،
بالإضافة إلى الأعياد الشهرية المنتظمة ، فى اليوم الأول من الشهر القمري ، وفى
اليوم السابع ، وكذلك يوم اكتمال القمر ، ويوم اختفائه ، عدا أعياد الحصاد .

أما العيد الرئيسى فهو عيد السنة الجديدة Akita ، ويحتفل به فى بابل
وأوروك ، وآشور ، بدعوة جميع آلهة المناطق المحيطة للحضور .

ويحدثنا الأستاذ طه باقر (المقدمة مج ١ ص ٢٥٧ / ٢٥٩) بأنه فى الأعياد
العامة والمهرجانات الدينية كان موكب كبير الآلهة يمر بالشارع الرئيسى ببابل ،
عابراً باب عشتار ، وهو يعد أفخم مابقى من آثار بابل ، ومنه يسير إلى معبد قرب
نهر الفرات ، كأنهم كانوا يمثلون قصة الخليقة البابلية ، التى نظمت لتمجيد الإله
مردوك وتعظيم شأنه .

وفى الأيام الخمسة الأولى من عيد رأس السنة الجديدة تجرى التطهيرات
الدينية فى معبد مردوك فى بابل كل صباح ، قبل شروق الشمس ، حيث
يدخلهن الكاهن الأعلى بعد التطهير ، فيصلى لمردوك وللآلهة الأخرى ، وبعد
ذلك يقوم الكهنة الآخرون بالأعمال الطقسية المعتادة . . وفى مساء اليوم الرابع
تتلى أسطورة الخليقة بكاملها فى المعبد ، لأن رأس السنة الجديدة كان بمثابة خلق
جديد . . وفى اليوم الخامس - وهو يوم توبة الملك أو الكفارة عنه - يقوم الملك
بالدور الرئيسى من الطقوس ، وفى الصباح يصلى الكاهن الأعلى لمردوك ابتغاء
مرضاته ، ثم يطهر المعبد ، وتقدم القرابين ، وتقرأ التعاويذ ، ويقوم النجارون
بصنع منضدة للقرابين ، ومظلة من الذهب ، يقدمها ابن مردوك - الملك - هدية
لأبيه ، وحينئذ يدخل الملك إلى مزار مردوك ومعه الكهنة ، وحين يصل إلى
ساحة المعبد يتركه الكهنة ، فيظهر الكاهن الأعلى من حجرة الهيكل فى المعبد
(وهى أقدس جزء فيه ، حيث تمثل الإله مردوك) ، فيأخذ من الملك شارات
الملك : الصولجان ، والحلقة ، والقامة ، والتاج ، ويضعها على منضدة إزاء تمثال
الإله ، ثم يعود إلى الملك ، فيلطمه على وجهه ، ويجعله يسجد أمام الإله ،
ويعترف بما يأتى : (لم أذنب ياسيد الأقطار ، ولم أكن مهملاً إزاء ألوهيتك ، لم

أخرب بابل ، ولم أسبب لها الهوان ، لم أخرب أبسكالا ، ولم أهمل مناسكه . . الخ) ، فيجيبه الكاهن الأعلى : (لاتخف ، ولا تحزن ، إن مردوك سيسمع صلاتك ، وسيوسع من سلطانك ، ويعلى من شأن ملوكيتك ، وينصرك على أعدائك ومناوئيك) . . ثم يُرجع الكاهن الأعلى شارات الملوكية إلى الملك ، بعد أن يطمه مرة أخرى ، ويستحسن أن تكون لطمه شديدة ، بحيث تدمع عينا الملك ، فتكون علامة فال حسن على السنة الجديدة وعلى رضا الإله .

و (عملية لطم الملك تذكير له بكونه إنساناً كغيره من الناس ، وإعادة شارات الملك تفويض من الإله للملك بالحكم) .

التشريع

من خلال سلطة الملوك والكهنة فرضت الآلهة على الناس - عدا العبادات والشعائر والطقوس - أن يتمسكوا بالشرائع المستمدة من أفق أعلى ، وحتى تكون للشرائع فى النفوس هيبتها واحترامها والالتزام بأدائها تظاهر الملوك والكهنة بتمسكهم بهذه الآداب ، وحرصهم على تطبيقها وتطبيعها . . ومن ثم تصور الكون على هيئة مملكة تحكم فيها الآلهة ، وتدبر شئونها ، ويتجلى فيها مبدأ الطاعة والسير بموجب أنظمة المجتمع ، وتدرج الطاعة وتتنوع من طاعة الأب إلى طاعة رئيس الدولة إلى طاعة الإله . . ومن فضيلة الطاعة تصوروا عهداً ذهبياً للبشرية .

جاء فى أحد التراتيل : (ستأتى أزمان لا يهين فيها شخص شخصاً آخر ، والولد يبجل أباه ، أيام يسود فيها الاحترام والطاعة البلاد ، حين يجد المتواضعون العظماء . . الخ) .

وصارت السلطة والحكومة من أسس المجتمع ، وبدونهما لا يمكن تصور مجتمع ما ، وإليهما توجه الطاعة والخضوع .

وقد ورد فى الأمثال كثير مما يعكس نظرهم إلى أهمية الطاعة والخضوع فى قيام المجتمع : (الجنود بلا ملك خراف بلا راع) ، و (العمال بلا رئيس مياه بدون جدول ، ولا مراقب) و (الفلاحون بدون رئيس كحقل بلا حارث) .

وقد فرض على أفراد المجتمع أن يشعروا أن السلطة هى على الدوام على صواب ، مهما فعلت : (أوامر القصر مثل أمر أنو ، لا يمكن أن ترد ، كلمة الملك هى الحق الصحيح ، كلمته مثل كلمة الإله لا يمكن تحديها) .

وتوقفت علاقة الإله الحامى بالفرد ، وملازمته له ، على طاعة الفرد ، وكل ماتقتضيه قواعد السلوك والأخلاق ، وما ينتظره الفرد فى مقابل طاعته ليس من الحقوق الواجبة ، وحسب الفرد أن يكون فى طاعة الإله والسلطة .

ولكن بتطور المجتمع فى وادى الرافدين نشأت تساؤلات عن العدالة : هل

هى من حقوق الفرد على الدولة ؟ أو شئ تتفضل به السلطة ؟ وتبلورت الفكرة الأولى فى صورة تشريعات لاتزال فى تطور ، حتى كانت شريعة حمورابى .

وتشترك معظم الشرائع القديمة فى الاعتقاد بأنها مستمدة من الآلهة ، فالقوانين القديمة - سواء كانت صادرة عن العرف والعادة ، أم مبنية على الأحكام الصادرة من الملك أو الكهنة - إنما هى أحكام إلهية ، لأن الحاكم يمثل الإله فى الأرض ، فأحكامه موحى بها من الآلهة ، والاعتقاد بهذا المصدر السماوى جعل القوانين القديمة تتصف بالثبات والاستمرار ، والتزام الجميع بها فى جميع الأحوال .

وتمتاز شرائع العراق القديمة - كما يقول الأستاذ باقر (مج ١ ص ٢٨١) - بأنها على قدر عظيم من النضج والرقى ، بالنسبة لجميع الشرائع القديمة ، وقد دونت بلغة قانونية دقيقة ، وبأسلوب علمى ، وهى قوانين دنيوية صرفة ، مقتصرة على الشئون المدنية ، دونت بهيئة مواد متسلسلة ، لم تخل من قدر من السذاجة والبداوة والشدة .

* وأقدم شريعة عراقية - كما يقول الأستاذ باقر (مج ١ ص ١٣٢ / ١٤١) - هى شريعة (أور - نمو) ، حاكم مدينة (أور) الذى ثار وانتصر على الأمير السومرى (أوتو - حيكال) ، وبدأ عهد جديد ، هو عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٥ - ١٩٩٨ ق.م) التى يعد زمنها آخر عهود السومريين ، وقد وجد حديثاً لمؤسس هذه السلالة نسخة من الشريعة التى وضعها ، وتعد أسبق من شريعة حمورابى بنحو ثلاثة قرون .

وفى (مج ١ ص ٢٨٦ / ٢٨٧) يقول الأستاذ باقر : إن ألواح الطين التى جاءتنا من عصر الوركاء - ٣٥٠٠ ق.م تقريباً - ومن عصر (جمدة نصر) ، تحتوى على كثير من المعاملات التجارية والإدارية ، كسجلات الحقول والأراضى ، والمستندات التجارية ، وسجلات الواردات ، وتثبيت ملكية الأراضى . . وكثرت المصادر عن القوانين فى عصر فجر السلالات ، وهو عهد ازدهار الحضارة السومرية ونموها .

وكان (أورو كاجينا) ، أمير مدينة لجش ، أول مشرع فى تاريخ البشر ، وقد

جاءتنا منه مآثر تشير إلى إصلاحاته الاجتماعية ، وتنظيم أصول الإدارة ، وجبّ الضرائب ، وإزالة الظلم عن الطبقات الفقيرة ، حتى مكن العدل في البلاد .

وبتوحيد البلاد في عهد السلالة الأكديّة ، ونشوء الإمبراطورية ، كان نشوء القوانين الإدارية لإدارة المملكة المترامية الأطراف ، والأقاليم التابعة لها .

وبعد سلالة (أور - غمو) التي خلفت شريعة لم يبق منها سوى المقدمة وبضع مواد قانونية تأخذ بمبدأ الدية والتعويض بدلاً من القصاص - جاءت سلالة (إيسن) البابلية التي حكمت زهاء ٢٢٥ عاماً (١٩٩٨ - ١٧٧٣ ق.م) .

وقد نشر الباحثون في سنة ١٩٤٧م أجزاء من شريعة مدونة باللغة السومرية ، ثبت أن مقتنّها (لبت عشتا) خامس ملوك سلالة (إيسن) ، وهي تسبق شريعة حمورابي بأكثر من قرن ونصف القرن . . وقد نقشّت على نصب ، أو مسلة ، مثل مسلة حمورابي ، وما وصل من هذه الشريعة يحتوى على ٣٥ مادة فقط . . وهي تتضمن - كما يقول كلنجل ص ٨٨ / ٨٩ - مقدمة ، وتشريعات فعلية ، وخاتمة .

ويقول الأستاذ باقر (مج ١ ص ٢٨٨) : إذا صحت نسبة قانون (أشنونا) إلى (بلااما) فإنه يعد أقدم شريعة كبيرة معروفة في العالم ، بعد قانون (أور - غمو) ، وقد دون هذا القانون على لوحين من الطين باللغة البابلية (السامية) ، وهو بحاله الحاضرة يحتوى على نحو ٦١ مادة ، فيعادل بذلك نحو ربع شريعة حمورابي . . ويذكر القانون الأحكام التي تتعلق بالسرقات والاعتداءات والأضرار الواقعة على الأعضاء ، وديات الأعضاء ، والأضرار المسببة عن سقوط جدار متداع ، وجنايات الحيوانات ، والديون ، والبيع والشراء ، ومواد في الأحوال الشخصية من زواج وإرث وطلاق وزنى وعقوبات . . وقد صيغ هذا القانون على طراز قانون حمورابي بهيئة فنية ، ورتب مواد بحسب الأحكام المختلفة ، مثل :

مادة ١٢ : إذا قبض على رجل في حقل شخص من الطبقة الوسطى نهاراً ، فإنه يدفع عشرة شيعلات من الفضة غرامة ، ومن قبض عليه ليلاً فإنه يموت ولايحيا .

مادة ١٥ : لا يجوز للتاجر أو بائعة الخمر أن يتسلم من عبد أو أمة فضة أو حبوباً أو صوفاً أو زيتاً ، كرأس مال للمتاجرة ، لأن الرق - بحكم القانون - لا يملك شيئاً ، فالرقيق ، وما ملك لسيده .

مادة ٢٧ : إذا دخل رجل بابتنة آخر ، بدون إذن أبيها وأمها ، ولم يعقد عقدًا بالزواج من أبيها وأمها ، لا تكون تلك المرأة زوجة شرعية ، حتى لو عاشت في بيته سنة .

مادة ٢٩ : إذا فقد رجل في حرب ، أو أخذ أسيراً ، وبقي في الغربة زمناً طويلاً ، فأخذ رجل آخر زوجته ، أى تزوجها ، وولدت له طفلاً ، ثم رجع الزوج الأول ، حق له استرجاع زوجته .

مادة ٣٠ : إذا كره رجل مدينته وملكه ، وهرب ، ثم أخذ رجل آخر زوجته ، فإذا رجع الهارب لا يحق له استرداد زوجته .

أما بخصوص القوانين المفقودة فلم يبق محفوظاً إلا خمس النصوص الأصلية . . وقد وجدت مدونة على أربعة ألواح من الطين ، وهى متطابقة فى نصوصها ، مما يدل على أنها نسخت عن أصول أقدم ، وتحتوى على نحو ٢٦ مادة ، وهى تعالج إيجار السفن ومسئوليتها ، وضمان البساتين ، والسرقة من البساتين .

وهناك فقرات أخرى تعالج منح المستعبد الحرية ، والاتهام الكاذب ، ومسائل متعلقة بحقوق الإرث والزواج ، وواجب التعويض لمستأجر بقرة ، إذا حدث لها مكروه .

ويلاحظ أن هذه القوانين - مع كثرتها وتنوع موادها - لم تكن مطبقة تماماً ، ولم تكفل حقوق الضعفاء ، إنما كانت نوعاً من الالتزام التقليدى فحسب .

وتعدد هذه الشرائع وتتابعها يفيد أنه مامن حكومة تقوم بدون شريعة ، بل مامن قبيلة بدون شريعة ، كتبت أو لم تكتب ، وقد تسمى عرفاً أو تقليداً ، إذ لا بد لكل تجمع بشرى من قواعد تحكم هذا التجمع ، وتنظم علاقاته ، وتؤطر سلوكه ، وإلا كانت الفوضى .

* وجاء حمورابى . . كان يخضع لسيادة ملك آشور ، بعد أن سيطر سنة ١٧٩٢ ق.م على بعض المدن ، إذ لم تكن دائرة نفوذه يتعدى محيطها ٨٠ كم حول بابل ، طيلة الفترة التى كان يحكم فى الدول المجاورة ملوك من ذوى الشأن مثل شامش - أدد ، وريم - سين ، إذ لم تسنح للملك الشاب الفرصة لتوسيع مملكته البابلية الصغيرة . . وبالإشتراك مع ريم - سين ، ملك لارسا ، قام بحملات ضد المتمردين ، وكان شامش - أدد أثناء فترة حكم حمورابى الأولى يقيم فى المنطقة الحدودية لشمال بابل ، وربما كان حمورابى يفضل الدخول فى حلف مع الحاكم القوى المجاور له . . وهكذا عهد إليه شن حملة ضد (أشنونا) المجاورة ، وكان هذا فى مصلحة كل من آشور وبابل .

وقد تخلى حمورابى عن المطالبة بتأليهه ، كما كان لايزال يفعل ريم - سين ، فمسألة حمورابى لم تعرض القلنسوة ذات القرون ، رمز الألوهية ، الذى ظل قائماً إلى تلك الفترة ، حين كان الثور أهم ماكان يعبد إلى جانب الإلهة الأم . . لم يفرض وجوب اقتران اسمه بالآلهة فى المخطوطات ، ولم يكن معلوماً ما إذا كان يمتلك محراباً أو معبداً لعبادة شخصه ، غير أن الملك كان يعتبر ممثلاً لقطاعه الذى يحكمه أمام الآلهة ، فكان مدعوا من قبلهم إلى ذلك ، ومنح سلطته الشرعية بهذه الدعوة ، وكان من اقترف بحقه ذنباً فكأنه أذنب فى حق الآلهة .

كان الملك فوق المعابد ، لأنها تخضع لسيطرته ، وإن كان مسئولاً عن تمويلها ، وتمويل العتبات المقدسة من خلال تمويل القرابين والعطايا والهدايا . . بنى دور العبادة ، وأعاد بناء ما استحق منها ، وتبرع بتجهيز المعابد ، أو أمر بتجديدها ، واهتم بشئون العبادة .

كتب (سين - أدينام) رسائل تتعلق بتحميل تماثيل للآلهة إلى بابل ، وكان الناس فى إنتظار الآلهة المعنية بفارغ الصبر ، فأمر الملك أن تكون رحلة التماثيل بالسفينة ، وأن تقلع بالسرعة الممكنة .

* وبعد انهيار سلالة أور الثالثة تغيرت تدريجياً وظيفة المعابد ، فلم تعد المكان الذى يكون وحدة مع المدينة ، حيث تحولت من بيت الآلهة إلى قصر الآلهة ، وانضوت تحت السيادة الملكية تماماً ، حتى صارت تشكل دعماً

للمحكم ، وتنص الكتابات السومرية عن بناء المعبد في لارسا على أنه (من أجل شماش ، سيد السماء والأرض ، من أجل مليكه ، كان حمورابي المختار - من قبل أنو ، وخادم إنليل ، وحبيب شماش - الراعى الذى أدخل السرور إلى قلب مردوك ، الملك القوى ، ملك سومر وأكد ، ملك شواطئ العالم الأربعة ، الملك الذى جدد العتبات المقدسة للآلهة) .

وبمناسبة إكمال بناء سور مدينة سيبار ، تقول مخطوطة : (تطلع شماش ، السيد الكبير للسماء والأرض ، بحياّه اللامع إلى بفرح ، إلى أنا حمورابي ، أميره المحب ، ومنحني ملوكية دائمة ، وحكومة طويلة الأمد ، وثبتت البلاد التى ولأنى حكمها ، وأمرنى بكلمته الطاهرة التى لا مبدل لها ، وأسكن الهدوء شعب سيبار وبابل ، وعهد إلى بجلال بتجديد سور سيبار وتعليته) - حمورابي ملك بابل وعصره - ص ١٣٥ / ١٣٧ .

✳ ومن أفقه الواسع أقام حمورابي لشريعته مسلة ، تتكون من ثلاثة أحجار من النوع النادر ، تنتصب مخروطياً بارتفاع يصل إلى مترين وربع المتر ، وهى من الأمام تعرض مجسداً لرجل عليه رداء طويل ، وعلى رأسه قلنسوة تشبه الشال (الملفح) ، وقد رفع ذراعه اليمنى ، متحدثاً بإجلال إلى إله على عرش ، يرمز إليه بتاج متعدد القرون ، ترتفع من كتفيه أشعة الشمس ، رمزا للإله شماش . وبقيّة المسلة محاطة دائرياً بكتابة ، علاماتها القديمة موزعة فيما بينها إلى سطور مفصولة فى كل مرة بخط عمودى ، وتشير فى اتجاه اليسار إلى شكل وطريقة فى الكتابة ، استخدمت فقط فى النصب التذكارية الرسمية ، فى حين كانت الكتابة فى الأعمال اليومية من اليسار إلى اليمين فى سطور أفقية .

وقد تم اكتشاف هذه المسلة فى شتاء ١٩٠١ / ١٩٠٢ م ، وفى هذه الأثناء نشرت رسائل كثيرة لحمورابي ، وترجمت منقوشات على البناء ، ونظمت الأخبار السنوية لثلاثة وأربعين عاماً من حكمه ، فى الفترة بين ١٧٩٢ و ١٧٥٠ ق.م .

ويتوزع نص المسلة على ثلاثة مقاطع رئيسية : المقدمة ، ثم الشرائع ، ثم الخاتمة .

ويبدو أن (المقدمة) كانت تقليدًا سبق إليه المشرعون ، مثل (أور - نمو) ،
و (ليت - عشتار) .

وكان للخاتمة كذلك سابقة في أدب الرافدين ، قدم فيها حمورابى نفسه
بقوله :

(حمورابى الملك الكامل أنا ، من أجل البشر الذين منحهم إياى الرب
إنليل ، وولانى رعايتهم الرب مردوك ، لم أكسل ، ولم أقعد مكتوف اليدين ،
بحث لهم عن مواقع الخير ، فرجت الضيق عنهم ، نشرت النور فوقهم ،
بالسلاح الذى أعارنى إياه الإله « ذابابا » ، والإلهة عشتار ، وبالبصيرة التى
حبانى بها الرب إيا - Ea ، كنصيب دحرت الأعداء هنا وهناك ، وقضيت على
المقاومة من أجل أمن البلاد ، أسكنت الناس فى بيوت محمية ، لم أسمح لأحد
بطردهم ، الآلهة الكبار كلفتنى بذلك ، وهأنذا الراعى أحرس جيداً وعصاى
مستقيمة ، ظلى المديد يظلل مدينتى ، وسع حجرى البشر من بلاد سومر وأكد ،
بإله الحماية الذى أحتمى ، وهو أخ للبلاد ، أوّمن لهم العيش بسلام ، وأطمئن
عليهم فى أعماق معرفتى ، لا أسمح للقوى يسلب حق الضعيف ، أضمن حق
الأرامل واليتامى ، فى بابل التى رفع كل من الإله أنو وإنليل رأسها عالياً فى
إسانجيلا ، البيت الأزلى ثابت الأركان مثل السماء والأرض ، من أجل تثبيت
حقوق البلاد وتقرير مصيرها ، وإعادة الحق إلى أهله ، كتبت كلماتى العذبة هذه
أمام صورتي كملك يقيم العدل ، الملك الشامخ بين الملوك (١١) .

ويبين مضمون هذه الشريعة فى تعليمات مفصلة لترجمة الحق إلى
تطبيق عملى : (الرجل المظلوم الذى سلب حقه ، ودخل فى قضية قضائية ،
يقف أمام صورتي كملك العدل ، ثم ليقرأ وليسمع كلماتى الطيبة ، حجر
الذكرى العائد لى يوضح قضيته ، وله أن يجد وجه العدل ، ويتنفس من
الأعماق الصعداء) .

ويتوجه حمورابى - بوجه خاص - إلى ورثة عرشه فى بابل (إلى آخر
الأيام ، إلى الأبد ، على الملك الذى سيكون فى هذه البلاد أن يحفظ كلمات
العدل التى كتبتها فى مسلتى ، حق البلاد الذى أعطيته ، قرارات البلاد التى

أصدرتها لايحسن أن يدعها جانباً ، مادون من قبلى لايحق له الاستهانة به ، إذا كان هذا الرجل رشيداً ، ويريد حكم البلاد بالعدل ، فعليه احترام الكلمات التى كتبتها على مسلتى ، المسيرة والطريق وحق البلاد الذى أعطيته ، وقرارات البلاد التى أصدرتها ، ترشده إليها هذه المسلة) - حمورابى ملك بابل وعصره ص ١١ و ص ١٤١ / ١٤٦ .

والمسلة تتألف من ٤٤ حقلاً أو عموداً ، تضم ٢٨٢ مادة قانونية ، ومن أهم هذه المواد .

مادة ٥ : إذا قضى قاض فى حكم ، وأصدر بذلك وثيقة ، ثم رجع بعد ذلك عن حكمه وبدله ، يحاكم ذلك القاضى فى الدعوى التى حكم فيها ، ويدان ، ويغرم غرامة تعادل ١٢ مثلاً مما فى تلك الدعوى ، ويطرد من منصبه ، ولا يجلس مجلس قضاء أبداً .

مادة ٨ : إذا سرق رجل بقرة أو غنمة أو حماراً أو خنزيراً أو قارباً ، فإنه يعطى ثلاثين مرة قيمة المسروق ، إذا كان يعود إلى الإله أو إلى القصر ، ويعطى عشرة أمثاله إذا كان المسروق يعود إلى الطبقة المتوسطة ، وإذا لم يكن عند السارق مال للتعويض فإنه يقتل .

مادة ٤٨ : إذا كان على شخص دين ، ثم أغرق الإله (أدد) حقله ، وأتلف محاصيله ، أو لم ينتج الحقل غلة لانتفاء الماء - يعفى ذلك الشخص فى تلك السنة من تسليم حبوب إلى صاحب الدين ، ويغير عقده .

مادة ٥٣ : إذا أهمل شخص تقوية جسوره ، فانفتحت ثغرة فيها ، فأتلف الماء حقلاً مجاوراً ، يعوض الجار عن التلف الذى أصاب غلته ، وإذا لم يستطع التعويض يباع هو وما يملكه ، ويقتسم الفلاحون الثمن ، كل بقدر ماتلف من زراعته .

مادة ١٢٧ : إذا رفع شخص إصبعه ، فأشار بسوء إلى كاهنة ، أو إلى امرأة رجل ، بدون أن يثبت التهمة - يجلد هذا الرجل أمام القضاة ، وتجز ناصيته ، أى يوسم عبداً .

مادة ١٢٩ : إذا قبض على زوجة رجل مضاجعة رجلاً آخر ، يكبلونها ، ويرمونها فى النهر ، إلا إذا عفا عنها زوجها .

مادة ٢١٨ : إذا عالج طبيب رجلاً ، وأجرى له عملية بمبضع برونز ، ومات الرجل ، أو تلفت عينه ، تقطع يد الطبيب .

يقول الأستاذ طه باقر : تشبه شريعة حمورابى الشريعتين العبرانية والإسلامية فى الأخذ بمبدأ القصاص ، (السن بالسن ، والعين بالعين) ، ومع هذا ففى شريعة حمورابى جملة متناقضات ، وبخاصة فى مجال الطب ، إذ لو طبقت الأحكام حرفياً لفقد جميع الأطباء أيديهم .

ومن العقوبات العجيبة أن الذى يشارك فى إخماد حريق ، ويسرق شيئاً من أثاث البيت ، يرمى فى نار الحريق نفسها ، (وهذا العقاب بالحرق موجود فى التوراة - سفر اللاويين - فى حالة الجمع فى الزواج بين الأم وابنتها ، إذ تحرق المرأة ، وفى حالة أن صارت ابنة الكاهن بغياً) ، وفرضت عقوبة الحرق على الزانى بالمحرمات ، ولا سيما مع الأم بعد موت الأب ، كما وجدت عقوبة الوضع على الخازوق ، فى حالة قتل الزوجة زوجها من أجل رجل آخر ، وقتل ابن المعمار الذى يبنى بيتاً فيسقط ويقتل ابن صاحب البيت ، وينفى الزانى بابنته ، ولا يحرم الابن من الميراث إلا بعد محاكمته وإدانته بالاعتداء على أبيه - مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة مج ١ ص ٢٩٣ / ٣٠٦ .

ويتبين التطرف فى (عقوبة الإعدام على من اتهم آخر بالسرقة ، ولم يستطع إثبات صحة الاتهام) ، وفى ما (إذا اتهم أحد شخصاً بالسحر ، ولم يثبت اتهامه ، فعلى المتهم بالسحر الذهاب إلى إله النهر ، والغوص فيه ، فإذا أغرقه النهر يأخذ من اتهمه بالسحر بيته ، وما يملك ، أما إذا برأ النهر ذلك الرجل وبقي سالماً ، يقتل من اتهمه بالسحر ، ويأخذ ذلك الذى غاص فى النهر ما يملك الرجل الذى اتهمه بالسحر) .

و (إذا أعطى رجل طفلاً إلى مرضعة ، ومات الطفل بين يديها ، وتولت المرضعة بلا علم أبويه رضاعة آخر ، يجب قطع ثدى المرضعة ، لأنها - دون أن تعلم أبوى الطفل الميت - أرضعت طفلاً آخر) .

و (إذا ما أصيب شخص بأضرار نجمت عن سقوط دار ، كان على البناء تحمل الأضرار ، فإذا توفي صاحب الدار من سقوط البناء ، يجب موت البناء ، أما إذا مات ابن صاحب الدار فيجب موت أحد أبناء البناء) .

* وقد اهتمت الشريعة بالعلاقات الزراعية ، إذ يتأيد استئجار الأرض بكثير من وثائق العصر البابلي القديم ، وتطورت إمكانيات مختلفة فى عقود الإيجار ، تشبه إلى حد ما بيانات العقود اليوم : اسم المؤجر ، مزرعة ، بستان نخيل ، أرض بور ، وما إلى ذلك . . ثم تذكر مساحة الأرض المؤجرة ، وموقعها ، واسم المؤجر . . وبعد ذلك يسجل الإيجار فى أكثر الأحوال ، ويذكر الغرض من الإيجار ، مثلاً الزراعة ، أو الرعى . . ثم يتفق على قيمة الإيجار التى تدفع ، عينية أو فضية . . وتحديد كمية المنتج الزراعى موضع الاتفاق .

(وإذا استأجر رجل حقلاً لزرعه ، ولم يحصل من الحقل على الحبوب ، يجب تقديم الدليل على أنه لم ينجز عملاً فى الحقل ، عندئذ عليه أن يقدم إلى صاحب الحقل حبوباً تعادل ما فى حقل جاره) .

(وإذا استأجر رجل أرضاً لغرض إعدادها للزراعة ، ثم تقاعس عن العمل ، ولم يجعل الحقل خصباً لثلاث سنوات ، عليه فى السنة الرابعة أن يزرع الأرض ، ويثيرها بالخرماشة - الفأس أو المحراث - ويفتت أحجارها ، ويمهد الأرض ، ويعيدها إلى صاحب الأرض) - حمورابى ملك بابل وعصره - ص ١٥٨ - ١٦٠ .

* لم تكن ثمة شريعة دينية وأخرى دنيوية ، لأن الكهنة كانوا مسيطرين على القضاء ، بحكم أنهم المثقفون الذين بيدهم أسرار المعرفة ، وبحكم أنهم الواسطة بين الله والبشر ، وأن القوانين من عند الله ، وبحكم أن المصالح بينهم وبين الملك وحاشيته متبادلة ، وأن الملك والكهان يتبادلون الأنخاب فى غيبة الآخرين .

وكان باستطاعة الملك أن يقوم بدور القاضى ، فيعالج شئون المجرمين إدارياً ، ويصدر بحقهم العقاب . . لكن المعتاد أن الملك كان يفضل إحالة قضايا المحاكمة إلى ولايته ، أو إلى محكمة خاصة ، وكانت قرارات الملك ، أو قرارات من ينوبهم عنه قطعية . . ومع ذلك كان بإمكان الناس تقديم التماس إلى الملك ،

للنظر في شكاواهم ، ولا سيما في حالة انعدام العدالة ، ورفض المحاكمة .
وقد أوجد - من قبل - سرجون ، مؤسس السلالة الأكديّة ، محكمة
للاستئناف ، بصورة عملية ، على رأسها الملك - مقدمة في تاريخ الحضارات
القديمة مج ١ ص ٣٠١ / ٣٠٢ .

آداب

أخذ البابليون كل ما خلفه السومريون فى المجال الروحى ، الحضارة المادية ، ولكى يفهموا النصوص السومرية وضعوا القواميس النصوص .

وقد ورث البابليون عن السومريين موهبة الكتابة . . وفى حمورابى ، فى القرن الثامن عشر ق.م . توصل البابليون إلى : ضخم ، وبالتنقيب فى بابل العاصمة عثر على أكثر من ٦٠٠ ألف تتضمن مختلف الموضوعات .

وتم اكتشاف مكتبة فى تل مردوخ الذى يقع على بعد ٥٥ كم ج مدينة حلب ، حيث كانت تقوم قديماً المدينة القوية الغنية (إيبلا) ، و بقايا القصر الملكى الكبير الذى كان يحتوى على قسمين خاصين بالكت هنا أخرج العلماء ١٧ ألف رقم طينى ، مدونة بالحروف المسمارية ، و الإيبلية .

كان هذا القصر قد تهدم نتيجة حريق شب خلال هجوم الملاء (نارام سين) ، فالتهمت النيران الرفوف الخشبية التى كانت تحمل الرق مما سبب تساقط الرق وتحطم كثير منها . . وقد تبين أن هذه الرق ك على نسق البطاقات المفهرسة فى المكتبات العامة ، وكانت الرق ك بشئون الإدارة والدولة ، وفيها سجلات كثيرة للبضائع التجارية التو إيبلا ، وأوامر ملكية مختلفة ، واتفاقيات تجارية مع المدن والدول الخ . . كما نجد رسائل تاريخية وأناشيد وأعمالاً أدبية ، بالإضافة إلى الإيبلية - السومرية ، والحكايات الميثولوجية والأمثال ، وغيرها .

وفى مدينة أوجاريت التى كانت تقع فى مفترق الطرق التجارية الحضارية للعالم فى ذلك الوقت - كان التجار والدبلوماسيون والكه من أصحاب (المصالح) ، من مصر وبلاد الحثيين والبابليين والقبارصة والكريتيين قد أوجدوا تجمعاً شرقياً ، وحضوراً متميزاً فى المدينة .

وكان التجار ورجال الأعمال والأوجاريتيون قد بسَّطوا الحروف المسمارية إلى حد كبير ، حتى وصل عددها إلى ثلاثين فقط ، وبهذا وضعوا واحدة من أقدم الكتابات الصوتية في العالم ، أى تلك الأبجدية التى تعود إلى القرن الخامس عشر ق. م .

وفى بوغازكوى التى تبعد حوالى ١٥٠ كم عن شرق أنقرة الحالية فى تركيا - تم اكتشاف آلاف الرقم الطينية التى تحتوى على كتابات حثية بالحروف المسمارية البابلية ، والتى دونت خلال القرنين ١٤ و ١٣ ق. م .

وبعد اكتشاف بقايا قصر الملك المثقف آشور بانيبال الذى حكم خلال (٦٦٩ - ٦٢٧ ق. م) - تم العثور على مكتبته التى تحوى أكثر من عشرين ألف رقم طينى .

وقد أثارت قراءة تلك الرقم التى انتقلت إلى المتحف البريطانى فى لندن ضجةً كبرى ، سواء فى وسط الخبراء ، أو المهتمين بالثقافات القديمة .

كان هذا الملك الذى عرف بحملاته الدموية أول من توصل إلى جمع ما أبدعته الأجيال السابقة فى الشرق الأوسط فى حقل الأدب والمعرفة ، وهى بادرة لا مثيل لها فى التاريخ .

ومن خلال هذه الرقم نعرف أن جيشاً كاملاً من الكتاب قد كُلف بأن ينسخ كل نص يتم الحصول عليه عدة مرات ، وكان الملك يشرف بنفسه أحياناً على عملية الجمع والنسخ والترتيب ، وفى إحدى رسائله إلى مسئول بابل يقول : (ابحثوا عن الرقم القيمة التى لا يوجد منها نسخ فى بلاد آشور ، وأرسلوها إلى ، لقد كتبت الآن إلى رئيس الهيكل ، ومحافظة المدينة فى « بورشيبا » عنك ، وعليك الآن يا « شادان » أن تحفظ الرقم فى مقرك ، بحيث لا يتجرأ أحد على أن يسرق منها شيئاً ، وحينما تجد أى نص شعائرى يمكن أن يناسب قصرى فخذ ، وأرسله إلى هنا) .

وكانت المكتبة على شبه كبير بمكتبة الإسكندرية فى العصر الهيلينى .

ومن قبل كانت مكتبة تجلات بلاصر الثالث فى القرن الثامن ق. م ، فى

مدينة أوروك ، تحتوى على ترجمات من الأكادية إلى الآرامية والآشورية ، وعلى كتب كثيرة للقواعد ، ومعاجم أيضاً . . ووجد رقم دونت عليه ملحمة جلجامش ، وآخر تضمن حكاية الفيضان الكبير الذى أغرق كل العالم ، وهو الرقم الذى طلبه الملك آشور بانيبال ، لكى ينسخ ويحفظ فى مكتبة نينوى - تاريخ الكتاب ج ١ ص ١٧ / ٢٨ .

* ومن أدبيات هذا العهد نجد نصاً يخاطب فيه نبوخذ نصر الإله مردوك بقوله :

(إذا لم تكن أنت ربى ، فماذا تكون / للملك الذى تحبه ، وتنادى باسمه ؟ / وستبارك لقبه حسب مشيئتك / وتهديه صراطاً مستقيماً / أنا الأمير الطائع لك / باق ، كما صنعتنى يدك / إنك أنت خالقى . وأنت الذى حكمتنى فى جيوش العباد / وبمقتضى رحمتك ، يامولاي / بدّل قوتك الرهيبة حباً ورحمة / وابعث فى قلبى الاحترام لربوبيتك / وهبنى ماترى فيه الخير لى) .

ويصف ول ديورانت ترنيمة أخرى لنبوخذ نصر بقوله : (من يدرى ، لعل هذه كانت مثلاً احتذته تلك المزامير التوراتية ، المتعددة النغمات) . . ومن هذه الترنيمة :

(أنا خادمك ، أضرع إليك ، وقلبى مفعم بالحسرات / إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر من أثقلته الذنوب / إنك لتنظر إلى الرجل ، فيعيش ذلك الرجل / فانظر إلى بعطف حميم ، وتقبل دعائى) .

(لقد فسد الإنسان ، وساء حكمه / ومن من الأحياء كلهم يعرف شيئاً ؟ / إنهم لا يعرفون أخيراً يفعلون أم شراً / أى إلهى ، لاتنبذ خادمك / لقد ألقى فى الوحل ، فخذ بيده / والذنب الذى أذنبته بدله رحمة / والظلم الذى ارتكبته مرّ الريح أن تحمله / واخلع عنى ذنوبى الكثيرة ، كما يخلع المرء ثيابه) .

ويضيف ول ديورانت : (لعل الأغرب فى هذه الترانيم والأناشيد أنها - ككل الآداب الدينية العالمية - كتبت باللغة السومرية القديمة ، وكان شأن هذه اللغة فى

الديانتين البابلية والآشورية شأن اللغة اللاتينية فى الكنيسة الكاثوليكية) .
(وكما أن صيغة الترانيم وطقوسها مهدت لمزامير اليهود ، وطقوس الكنيسة
الكاثوليكية ، فإن موضوعاتها تنذر بالترانيم اليهودية والمسيحية الأولى) . . ومن
ذلك :

(رب ، إن ذنوبى عظيمة ، وأفعالى السيئة كثيرة . . إنى أرزح تحت أثقال
العذاب ، ولم يعد فى وسعى أن أرفع رأسى ، إنى أتوجه إلى إلهى الرحيم ،
أناديه ، وأنا أتوجع وأتألم ، رب ، لاتردّ عنك خادمك) - قصة الحضارة مع ١
ج ٢ ص ٢٢٣ / ٢٢٥ .

ويورد الأستاذ طه باقر فى مقدمته (ج ١ ص ٢٤٢ / ٢٤٤) نصاً تحت عنوان
(أيوب البابلى) ، جاء فيه : عبد صالح أطاع الآلهة ، وسار بموجب سننها ،
وأطاع السلطة ، فلم يذنب ، كما يعتقد :

(لم أعرف سوى الصلاة والعبادة ، وكانت أيام عبادة الآلهة أيام سرور
قلبى ، والأيام التى أسير فيها فى مواكب الآلهة أيام نصرى وكسبى فى الحياة ،
وكان تمجيد الملك سروراً لقلبى ، والموسيقى التى تعزف له مصدر سرورى
وغبطتى ، أوصيت أهلى وتبعى أن يراعوا رسوم الآلهة وشعائرها ، وعلمت
الجنود ليطيعوا القصر ، عارفاً بذلك أن هذه الأشياء مما تسر الآلهة . . . الخ) .

ومع ذلك يجد المصائب والشروع قد حلت بساحته :

(لقد أتى مرض « آنو » على جسمى ، وغطّاه كالرماد ، وأصبح النوم
كالشبكة التى تصطادنى . . أذناى مفتوحتان ، لكنهما لاتسمعان ، لقد استولى
على جسمى الضعف ، وأصبح السوط الواقع على يراعبنى . . يطاردنى معذبى
فى النهار ، فلا يترك لى الراحة فى الليل . . لقد خذلنى الإله ، لم يأت إله
لمساعدتى ، ولم تعطف على آلهتى فتخلصنى من مصائبى) .

وقد حسبه الجميع ميتاً ، فأخذ ذووه يعدون لدفنه ، وتورثه :

(كأن القبر مفتوح حين نهبوا كنوزى ، وحينما لم أكن قد مت فإنهم انقطعوا
عن البكاء ، وفرح حسادى ومبغضى) .

إن مؤلف هذه المأساة ينكر إمكان تطبيق مقاييس القيم البشرية على أعمال الآلهة ، فالإنسان ضئيل حقير ، قاصر النظر ، لا يستطيع استكناه الحكمة فى أعمال الآلهة وتصرفاتها ، فيحكم عليها بموجب مقاييسه وقيمه القاصرة .

جاء على لسان هذا المعذب الصالح :

(إن ما يبدو صحيحاً يستحق الثناء بعين المرء قد يكون محققاً بأعين الآلهة ، وما قد يترأى للمرء أنه قبيح ردى قد يكون حسناً بعين إله المرء ، فمن ذا الذى يستطيع أن يدرك فكر الآلهة وقصدها فى أعماق السماء ؟ إن أفكار الآلهة كالمياه العميقة ، فمن يستطيع سبر غورها ؟ وكيف يستطيع البشر وهم محفوفون بالظلام أن يدركوا قصد الآلهة وطرقها ؟) .

ثم تبين أن منازل بهذا العبد الصالح (بلوى وامتحان من جانب الآلهة التى ترفع عن المعذب عذابه بعد حين ، وتعيده إلى سابق عهده) .

* وبعد أن دمرت العاصمة الرائعة (أور) من قبل العيلاميين والقبائل الجبلية المتحالفة معهم - كان لما نزل بهذه المدينة من تخريب صدى عميق فى قصيدة رثاء بابلية ، تقول :

(فى هذا اليوم خبا نور المدينة / تحولت المدينة إلى خراب / أيها الإله نانا / لقد تحولت المدينة إلى أطلال / فى هذا اليوم خبا نور المدينة / وناح الشعب / وبكى الناس / السكان لا الأنقاض / ملأت جثثهم المدينة / جثثهم ملقاة هناك / فى الأسواق / حيث كان الناس يحتفلون / انتشرت جثث البشر هنا وهناك / وفى المحلات ، حيث اعتاد الناس إقامة الحفلات / تنتشر جثث الناس أكواماً / لقد هُدر دم البلاد وسال / كأنه نحاس وقصدير فى المصبات / وظلت الجثث مطروحة تحت الشمس وذابت / وكأنها دهن الخراف) - حمورابى ملك بابل وعصره - ص ٣٣ .

نهاية مرحلة

فى شمال وادى الرافدين نشأت دولة الآشوريين ، بعد أن استولى على السلطة الزعيم العمورى (شامشى أدد) الأول - ١٨١٥ / ١٧٨٢ ق.م - الذى كان أجداده - حسب قائمة أخبار ملوك الآشوريين - قد سكنوا الخيام ، وكانوا يعيشون بيئة أقرب إلى البداوة ، سيطروا على مدينة آشور عند نهر دجلة ، وكانت آشور - منذ الألف الثالث ق.م - ذات دور تجارى هام ، لاسيما تجارة القصدير . . وفى بداية الألف الثانى كانت تمتلك محطات تجارية وصلت حتى بلاد الأناضول .

وقد ورثت آشور - إلى حد ما - الكيان البابلى ، كما ورثت تركة مثقلة بالأعباء والفتن الداخلية والخارجية ، ومن ثم لم يحدث تطوير للحضارة البابلية .

من هنا كان العمل الجوهري الذى تؤديه الديانة الآشورية هو تدريب مواطن المستقبل على الطاعة التى تتطلبها وطنيته ، وأن تعلمه مداهنة الآلهة ، لكسب ودهم ورضاهم ، بضروب السحر والقرايين .

وقد قضى سنحريب بن سرجون الثانى على الفتن التى ثار عجاجها فى الولايات المجاورة للخليج الفارسى ، وهاجم أورشليم ومصر ، دون أن يلقى نجاحاً .

وتعزو الرواية المصرية نجاة مصر إلى فعل جماعة من جرذان الحقول قرضت كنانن الجيش الآشورى المعسكر أمام بلوزيوم ، كما قرضت أوتار القسى ، ورابطة الدروع ، فاستطاع المصريون الانتصار دون عناء .

وهذا الزعم لا يقوم على أساس ، لأن نوع الأسلحة فى الجانبين واحد تقريباً ، ولم تكن الجرذان من الوطنية بحيث تفرق بين أسلحة المصريين وأسلحة الأعداء ، إنما هو خبر (الصبغة الشعبية) التى اتصف بها المصريون أيام المحن ، والمقصود هو السخرية من الحاكم المصرى الذى غفل عن العدو حتى دخل حدوده ، والسخرية من العدو الذى فر هارباً .

وقد ابتلى الآشوريون بالسكوديين ، وهم سكان شمال أرمينيا ، على ضفاف البحر الأسود .

كان السكوديون عشائر حربية ، تتألف من خليط المغول والسلاف والأوربيين ، جبابرة متوحشون ملتحمون ، يقيمون في عربات ، ويبقون نساءهم في عزلة شديدة ، يركبون الخيول البرية عارية ، يحاربون ليعيشوا ، ويعيشون ليحاربوا ، يشربون دماء أعدائهم ، ويتخذون جلودهم كنان ، وجماعهم كثوساً .

أضعفوا آشور بغاراتهم الدائمة ، واجتاحوا غربى آسيا حوالى ٦٣٠ / ٦١٠ ق.م .

أخذوا يدمرون في طريقهم كل شئ ، ويقتلون كل إنسان ، وتقدموا إلى دلتا النيل ، ثم فشا فيهم وباء الطاعون ، بفضل كثرة الجرذان ، فغلبهم الميديون ، وردوهم على أعقابهم من حيث أتوا .

يقول أبقرات : إن (نساءهم - طالما كن عذارى - يركبن الخيل ، ويصدن ، ويرمين بالحرا ، وهن على ظهور الخيل ، ويحاربن الأعداء ، ولا يسمحن بفض بكارتهن إلا إذا قتلن ثلاثة من الأعداء . . والمرأة التى تتخذ لها زوجاً لاتقاتل بعد الزواج ، إلا إذا أرغمت عليه ، فى حملة عامة مشتركة) .

وقد حكمت دولة آشور (سمورامات) ، أم الملك (سلمانصر) ثلاث سنين ، وكان حكمها هو الأساس التاريخى لأسطورة (سميراميس) اليونانية ، التى تجعل منها نصف إله ونصف ملكة ، وقائدة بأسلة ، ومهندسة بارعة ، وحاكمة مخنكة .

* وكان الدين هو القوة المؤثرة التى يعتمد عليها الملك ، لكنه لم يكن ينال معونة الكهنة إلا بأعلى الأثمان ، فقد كان إيمان القوم منعقداً على أن رأس الدولة - من الوجهة الرسمية - هو الإله آشور ، وكانت الأوامر الرسمية تصدر باسمه ، وكل القوانين والقرارات تملئها إرادته الإلهية ، وكل الضرائب تجمع لخزائنه ، وكل الحروب تشن لتأتى له بالمغانم والمجد .

وقد أخذ الآشوريون دينهم عن سومر وبابل ، كما أخذوا عنهما العلوم والفنون .

وأقدم القوانين الآشورية التى بقيت إلى هذه الأيام قانون مؤلف من تسعين مادة مكتوبة على ثلاثة ألواح ، وجدت فى خرائب آشور ، ويرجع عهدا إلى حوالى سنة ١٣٠٥ ق.م - قصة الحضارة مج ١ ص ٢٦٧ / ٣٠٣ .

* وكان للفينيقيين آلهة كثيرة ، شأنهم شأن كل أمة تشعر بالتيارات العالمية ، أو هى فى مهب هذه التيارات ، فكان لكل مدينة (بعل) ، أى سيد ، أو إله خاص ، وهو فى اعتقاد أهلها جدّ ملوكها ، ومخصب أرضها .

كانت الحبوب والخمور والفاكهة والكتان كلها من عمل (بعل) المقدس ، وكانت عشتروت - أستارتى - الاسم الفينيقى لعشتار ، ومن خصائصها أنها كانت تعبد فى بعض الأماكن على أنها إلهة الطهر ، وفى أماكن أخرى على أنها إلهة الفجور والحب الشهوانى ، وقد جعلها اليونانيون فى هذه الصفة الأخيرة صورة من إلهتهم أفروديت .

وكان خصب التربة يرمز له فى سوريا - كما كان يرمز له فى بلاد آسيا الغربية كلها - بأم عظيمة ، أو إلهة ، اتصالها الجنسى بعشيقتها هو الذى يوحى إلى جميع قوى الطبيعة بعملياتها الإنتاجية .

ولم تكن التضحية بالبكارة فى الهياكل عملاً يتقرب به إلى عشتروت وحسب ، بل كان فوق ذلك مشاركة لها فى التهتك الذى يرجى منه أن يوحى إلى الأرض إحياء قوياً لاتستطيع مقاومته ، وأن يضمن تكاثر النبات والحيوان والإنسان .

ولم يكن آلهة سوريا الآخرون أقل تعطشاً للدماء من عشتروت ، نعم إن الكهنة يعترفون بإله عام يضم فى شخصه جميع الآلهة ، ويسمونه (إلى) أو (إلو) ، كالوهم اليهود . . كما كانوا يوحدون بين عشتروت والقمر ، وكانوا إذا حَزَّ بهم أمر جلل يضحون بأطفالهم قرباناً له ، كما كان الفينيقيون يفعلون . . على أنهم كانوا عادة يكتفون بتضحيات أقل من هذه وحشية ، فكان الكهنة

يضربون أنفسهم حتى تلتخ المذبح دماؤهم ، أو تفتدى حياة الطفل بغرلته .

لقد حرم على اليهود (أن يجعلوا أطفالهم يمرون من خلال النار) ، لكنهم كانوا - رغم هذا - يفعلون هذه الفعلة ، ولم يكن إبراهيم - وهو يوشك أن يضحي بإسحق (!!) أو أجائنون وهو يضحي بإفجينيا - إلا متبعاً سنة قديمة ، كان أصحابها يحاولون بها أن يسترضوا الآلهة بالدماء البشرية ، وقد ضحي ميشا - ميخا - ملك يواب بابنه الأكبر ، فحرقه بالنار ، ليفكّ عن مدينته الحصار ، ولما أجاب ربه دعاءه ، وقبل دماء ابنه ، ذبح سبعة آلاف من بنى إسرائيل شكراً لله على نعمته - قصة الحضارة مح ١ ج ٢ ص ٣١٥ / ٣١٩ .

فارس

المجوس

يقول مترجم (المعتقدات الدينية لدى الشعوب هـ ص ١٣١) : المجوس Magi كلمة يونانية الأصل Magos ، أطلقها اليونانيون على كهنة زرادشت ، عندما دخلوا فارس بقيادة الإسكندر الأكبر ، ومعناها العظيم ، أو الهائل ، وذلك لأنهم برعوا في السحر Magic ، ولهذا اشتقت الكلمة الأوربية التي تعنى السحر من اسمهم .

هذا على حين يرى صاحب (مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ج٢ ص ٤٢٣ / ٤٢٥) أن المجوس مجهولو الأصل ، ولا يعلم عن ديانتهم التى لم تكن فارسية فى أصلها إلا أشياء قليلة ، وهم كطائفة يؤلفون جماعة لا يدخل فيها أحد ، وتبيح الزواج بالأقارب المقربين ، وكانوا يرون فى عقائدهم عن الكون مبدئين ، مبدأ الخير ، ومبدأ الشر ، والواقع أنه لا يوجد فى العبادة المجوسية آلهة حقيقيون ، وإنما هناك عدد غفير من الشياطين الشريرة ، وعلى رأسها الروح الشرير الأعظم .

ويستطيع المجوس بالسحر والتعاويذ دفع الشرور عن البشر ، وقمع الشياطين الشريرة الكامنة فى أجسام الموتى ، ولذلك كانوا يبعدون أجسام الموتى فى أعلى المواضع حتى تأكلها الوحوش والطيور الجارحة ، وبعد تخليص العظام من اللحم الدنس تؤخذ وتوضع فى صندوق صغير مثقوب ، ليستطيع الميت رؤية الشمس .

ويضيف صاحب (المقدمة) أن الفرس كانوا وثنيين مشركين ، مثل القبائل الهندو أوربية الأخرى ، ويعبدون قوى الطبيعة المختلفة التى جسموها وشخصوها على هيئة آلهة ، فعبدوا الشمس بهيئة إله ، سموه (مثرأ) ، والقمر باسم (ماه Mah) ، والأرض باسم (زام Zam) ، والنار باسم (أتار Atar) ، والماء باسم (أفام نفت Apam Napat) ، والرياح باسم (واهيو Vahyu) . . ومع أن دارا والملكين اللذين أعقباه لا يذكرون فى كتاباتهم اسم أى إله آخر مع أهورامزدا ، فإن ما ندرسه من كتابات هؤلاء الملوك إنما هو ديانة الدولة الرسمية ،

وليس ديانة الجماهير التي ظلت محتفظة بعبادة الآلهة القديمة . . وقد أضيفت إلى أهورامزدا أسماء آلهة أخرى ، منذ زمن أرتخششتا الثاني ، ولا سيما الإله الشمس (مشرا) المقرون بأنه إله العدل والخلاص ، وهو من الآلهة الإيرانية القديمة ، والإلهة الشهيرة (أناهيتا Anahita) إلهة الحياة والخصب والإنتاج ، وعبادتها وصفاتها من عناصر غير إيرانية ، وقد استمرت عبادتها واشتهرت معابدها في العهد الساساني .

أمد شيخ مؤرخى الفكر الدينى ، أبو الفتح عبد الكريم الشهرستانى (ت ٥٤٨ هـ) فيقف فى كتابه (الملل والنحل) عند الأصول الأسطورية للديانة المجوسية (مح ١ ج ٢ ص ٧٣ / ٧٦ هامش الفصل) ، ليقول :

تفصيل مذهب ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين : إحداهما بيان بسبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية سبب خلاص النور من الظلمة ، وجعلوا الامتزاج مبدأ ، والخلاص معاداً .

فالمجوس أثبتوا أصليين ، والمجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لايجوز أن يكونا قديمين أزليين ، بل النور أزلى ، والظلمة محدثة . . ثم لهم اختلاف فى سبب حدوثها ، أمن النور حدث ، والنور لا يحدث شراً جزئياً ، فكيف يحدث أصل الشر ، أم شئ آخر ، ولا شئ يشترك مع النور فى الحدائث والقدم ، وبهذا يظهر خبط المجوس ، وهؤلاء يقولون : المبدأ الأول من الأشخاص كيومرث ، وربما يقولون زروان الكبير ، والنبي الآخر زارادشت .

والكيومرثية يقولون : كيومرث هو آدم عليه السلام ، وقد ورد فى تواريخ الهند والعجم (كيومرث آدم)

وقالوا : يزدان أزلى قديم ، وأهرمن محدث مخلوق ، ويزدان فكر فى نفسه أنه لو كان لى منازع كيف يكون ، وهذه الفكرة رديئة غير مناسبة لطبيعة النور ، فحدث الظلام من هذه الفكرة ، وسمى أهرمن ، وكان مطبوعاً على الشر والفتنة والفساد والضرر والإضرار ، فخرج على النور ، وخالفه طبيعة وقولاً ، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة ، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا على

أن يكون العالم السفلى خالصاً لأهرمن لفترة سبعة آلاف سنة ، ثم يُخلى العالم ، ويسلمه إلى النور ، والذين كانوا فى الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم ، ثم بدأ برجل يقال له كيومرث ، وحيوان يقال له ثور ، فقتلهما ، فنبت من سَقَطَ ذلك الرجل (ريباس) ، وخرج من أصل ريباس رجل سُمى (ميشة) ، وامرأة اسمها (ميشانة) ، وهما أبوا البشر ، ونبت من سَقَطَ الثور الأنعام وسائر الحيوانات .

وزعموا أن النور خير الناس - وهم أرواح بلا أجساد - بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن ، وبين أن تلبسهم الأجساد ، ليحاربوا أهرمن ، فاختروا لبس الأجساد ومحاربة أهرمن ، على أن تكون لهم النصرة من عند النور ، والظفرة بجنود أهرمن ، وحسن العقابة ، وعند الظفر به وإهلاك جنوده تكون القيامة ، فذلك سبب الامتزاج .

وقالوا : إن النور أبدع أشخاصاً من نور ، كلها روحانية نورانية ربانية ، لكن الشخص الأعظم الذى اسمه زروان شك فى شئ من الأشياء ، فحدث أهرمن الشيطان من ذلك الشك .

ونقل الشهرستانى عن أبى حامد الزوزنى أن المجوس زعمت أن إبليس كان لم يزل فى الظلمة والجو والخلاء ، بمعزل عن سلطان الله ، ثم لم يزل يزحف ويقرب بحيله ، حتى رأى النور ، فوثب وثبة فصار فى سلطان الله ، فى النور ، وأدخل معه هذه الآفات والشرور ، فخلق الله سبحانه وتعالى هذا العالم شبكة له ، فوق فيها وصار متعلقاً بها ، لا يمكنه الرجوع إلى سلطانه ، فهو محبوس فى هذا العالم ، مضطرب فى الحبس ، يرى بالآفات والمحن والفتن إلى خلق الله ، فمن أحياء الله رماء بالموت ، ومن أصحّه رماء بالسقم ، ومن سرّه رماء بالحزن ، فلا يزال كذلك إلى يوم القيامة ، وكل يوم ينقص سلطانه حتى لا تبقى له قوة ، فإذا كانت القيامة ذهب سلطانه ، وخمدت نيرانه ، وزالت قوته ، واضمحلت قدرته ، فيطرحه الله فى الجو ، والجو ظلمة ليس له حد ولا منتهى ، ثم يجمع الله سبحانه وتعالى أهل الأديان ليحاسبهم ويجازيهم على طاعة الشيطان وعصيانه .

وجاء الأستاذ العقاد (لله ص ١٠٧ / ١٠٨) ، فاستصفي من وراء هذه (التهويمات) ، مستعيناً بأثر البيئة الإسلامية ، كما فعل صاحب الشاهنامة ، ليقول :

إن أبناء الديانة المجوسية أخذوا بعقيدة التوحيد ، بعد احتكاكهم بالمسلمين ، وأصبح المجوس الذين يسمون اليوم بالبارسيين يؤمنون بإله واحد ، هو إله الخير (يزدان) ، ولا يشركون معه أهرمن ، كما فعل أسلافهم الأقدمون ، وقالوا إن أهرمن لم يكن له وجود حقيقى ، وإنما هو رمز لما يجيش بنفس الإنسان من خواطر السوء .

وقبل أن يسمع البارسيون بأوربا والمسيحية وجد فيهم من فسّر أسطورة (تامورات) الذى امتطى أهرمن ثلاثين سنة ، كما يمتطى الحصان ، بأنها تعنى أن ذلك الملك قد كبح شهواته ، وزجر نوازع الشر التى تحيط بسريرة الإنسان .

ويقول هـ.ج. ويلز (معالم التاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٧٥٠) : والفرسيين Parsees الهنود ، وهم آخر من بقى من الزرادشتيين إلى يومنا هذا ، يلقون موتاهم داخل أبراج مفتوحة ، هى (أبراج الصمت والخشوع) ، لتأكلها العقبان .

وكانت هذه الديانة الرسمية - إيان حكم بنى ساسان ، منذ أردشير حتى سنة ٢٢٧م - ورئيسها هو ثانى رجل فى الدولة بعد الملك . . وطبقاً لأدق مقتضيات العرف القديم كان الاعتقاد السائد أن الملك قدسى ، أو شبه قدسى ، وله علاقة مودة صحيحة مع هرمزد .

* هذه أقوال مؤرخين كبار تنهم الحقيقة التاريخية ، أو تنهم طريقة التأريخ ، وكأنها تذكر بقصة العميان والفيل ، وقد يكون لهم عذر فى أن المصادر التاريخية موضع اتهام أوربية ، ومن ثم يظل القول الأخير فى حاجة إلى إعادة العرض والمناقشة ، وليس هذا الأمر مقصوراً على ما خلفت الآثار القديمة ، لأن الأحداث التاريخية المعاصرة ذات أوجه ، أو ذات مزايا مختلفة ، وربما كان استخدام وسائل الإعلام الحديثة من أهم وسائل التمويه والتضليل والتشويه . . ومن ثم يكون التحرك من داخل سراديب أقرب إلى بيوت الجرذان والثعالب . . وحسبى أنى أضع بين يدي القارئ ما أظنه الصواب ، لا ما أطمئن إلى صوابه .

مِثْرَا

مِثْرَا Mithras أكبر الآلهة في الدين السابق على الدين الزرادشتي ، إنه إله الشمس ، ومع هذا فكل المعالم الخاصة بولادة السيد المسيح - حتى تاريخ ميلاده في ٢٥ ديسمبر - نسبت إلى (مِثْرَا) ، ثم أعاد التاريخ نسبتها إلى زرادشت ، مع قدر من الاجتهاد في التطور الفكري .

يقول صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب - ص ١٢٥ / ١٢٦) : كان هذا الإله الآرى الأصل يعبد في إيران كإله للعقود والاتفاقيات ، (وكلمة مِثْرَا تعنى العقد أو الإتفاق) ، وهو يحفظ الحق والنظام ، ويقضى على القوى المفرقة ، قوى الشر والغضب والجشع والتكبر والمماطلة ، وجميع الأشرار من الآلهة والبشر ، وهو يوصف بأنه محارب قوى جبار ، وهو الذى يتعبد له المحاربون - وهم على ظهور جيادهم - قبل الذهاب إلى المعركة .

وبوصفه حارساً للحقيقة ، فهو قاضى الأرواح بعد الموت ، وبوصفه الحافظ للاتفاقات والعقود ، فهو الذى يحدد متى تنتهى فترة حكم الشيطان ، ويُنْتَظَرُ قدومه (وسط مظاهر الخنوع والذل) فى أيام النصر .

وتتنبأ عرافة مِثْرَا بمقدم الإله فى نهاية العالم ، لتدمير الأشرار بالنار ، ولإنقاذ الأبرار .

بهذا لم يعد مِثْرَا إلهاً للعقود فقط ، بل صار إلهاً مطلقاً ، إلهاً فى الدنيا وفى الآخرة ، ويقوم بدور (المسيا) فى الديانة اليهودية ، والمسيح العائد فى المسيحية ، والمهدى عند الشيعة المسلمين .

وتضيف (أساطير العالم القديم ص ٣٠٦) أنه ذو الأحاسيس الألف ، الذى يحكم كسلطان عليم بكل شئ ، له ألف أذن ، وعشرة آلاف عين ، لا ينام ، يقظ دائماً ، القوى ، ذو الجواسيس العشرة الآلاف ، أول إله يقترب بين يدى الشمس الخالدة ذات الحصان السريع ، فلا سبيل إلى تسويته بالشمس .

إنه فى (الأساطير) الإله القادر العليم الخبير الحى القيوم ، وإن كانت هذه الصفات قد لبست ثوباً خيالياً .

وقد هبط فى الديانة الزارادشتية - كما يقول الأستاذ العقاد (الله - ص ٨٦) - إلى مرتبة الملك الموكل بهداية الصالحين ، ولكنهم جعلوه فى الديانة المثرية إله الشمس ورب الكون وخالق الإنسان وقاهر أهرمن بعد جلاد طويل ، ولا يسبقه فى الوجود شئ غير (الأبد) ، أو (الزمان) أبى الأرباب عندهم وأبى الوجود .

ويمثلون مشرا - حين تجسد على الأرض - مولوداً من صخرة نائية فى مكان منفرد لم يعلم بمولده أحد غير طائفة من الرعاة ألهموا معرفته ، فتقدموا إليه بالهدايا والقرايين ، ومضى بعد مولده فستر عريه بورق من شجرة التين ، وتغذى بثمرها حتى جاوز سن الرضاع .

وكان أهرمن يحاربه ويتعقبه بالكيد ، ويحبط كل عمل له من أعمال الخير والفلاح ، فأرسل مشرا على الأرض طوفاناً أغرقها ، ولم ينج معه إلا رجل واحد حمل آله وأنعامه فى زورق صغير ، وجدد على الأرض بعد ذلك حياة الإنسان والحيوان ، ثم طهر الأرض بالنار ، وتناول مع الملائكة طعام الوداع ، وصعد إلى السماء حيث هو مقيم يتولى الأبرار بالهداية ، ويعينهم على النجاة من حبائل الشيطان .

وكان أتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس ، أو يوم الأحد ، ويحتفلون بمولده فى الخامس والعشرين من ديسمبر ، لأنه موعد انتقال الشمس ، وتطاول ساعات النهار ، وقيمون له عيداً سنوياً فى اليوم السادس عشر من الشهر السابع فى تقويم الفرس القديم .

* التصور العام قد يصل إلى فكر سماوى ، طال به العهد فلبس ثياباً أرضية تأكلت مع الزمن وكثر ترقيعها ، مع إغفال الحقيقة الأولى ، وكان أن أضيف إلى الإله الواحد الأحد آلهة ، كبيرة وصغيرة ، سياسية واجتماعية ، مدنية وعسكرية ، على مستوى المدينة ، أو على مستوى الدولة ، وكان للإلهة أناهيتا حظ موفور ، فهى إلهة المياه المقدسة ، تتخذ سكناها بين النجوم ، تتقدم على عجلة ذات أربعة جياذ ، وتسحق المردة الطغاة ، وكل الكائنات المؤذية . . وكان أهورا مزدا قد عهد إليها بالإشراف على الخلق ، فضمنت خصب الطبيعة ، ومدت حمايتها إلى القطعان والمراعى .

ومع هذا النشاط الجرم والمستوليات الجسيمة فهي فتاة نحيلة نبيلة ، تلبس ثياباً مطرزة بالنجوم ، على مثال حلم العاشقين الذين انقطعت بهم السبل فضاعوا في غياهب الحرمان . . لبست أناهيتا ذات الخصر الدقيق ، والصدر الوافر ، والذراعين البضتين ، قلادةً وأقراطاً وأساور ذهبية ، وكان لها نعلان ذهبيان ، وعباءة من جلد مطرز بالذهب .

إن لفظ أناهيتا يشبه لفظ أنايتيس Anaitis الإغريقية ، وقد يكون تعديلاً لها ، وهي إلهة كانت تعبد في آسيا الصغرى ، على أن اسمها لا يظهر في نقوش الملوك الأخمينيين ، حتى النصف الأول من القرن الرابع ق.م. حتى يذكرها أرتكسر كسيس مينمون (٤٠٥ - ٣٥٩ ق.م) وذلك في الجملة التي تقول : (باسم أهرمز و كل الآلهة وأناهيت السيدة) - أساطير العالم القديم ص ٣١٠ / ٣١١ .

وهذا الوصف لأناهيتا لا يكاد يغادر أرض الواقع المعيش ، فالعالم الذى يتسع لثرا يتسع لأناهيتا ، لأن لكل دوراً في الحياة السماوية ، كما أن لكل من الرجل والمرأة دوراً في الحياة الدنيا ، وهذا التصور لم يكن وقفاً على الفكر الفارسي ، بل كان مسبقاً في الفكر المصري والهندي واليوناني ، وفي الفكر السومري والبابلي كذلك .

ولأن أناهيتا أنثى جميلة فهي تعتنى بمظهرها ، وتحس بأحاسيس الأنثى .

وقد خلق هذا (الحس) الإنسانى الخالص إلهاً للخصب والنماء ، هو (أنينا) ، الذى تولدت عنه الحاجة إلى الشور المقدس (هوما) الذى يمثل (الفحولة) والقوة الجسدية ، وارتبطت عبادته بشرب عصير (الهوما) المسكر ، وهو شراب مستخرج من عشب ينمو على سفوح الجبال . . وبفضل شراب (الهوما) وقفت الأساطير طويلاً عند الإله (زورفان) الذى ظل ألف عام يقدم الأضاحى (لن ؟!) عسى أن يكون له ولد يكون اسمه (أهورامزدا) يخلق السماء والأرض وكل ما فيها ، وبعد أن ضحى هكذا ألف سنة بدأ يفكر : هل هذه الأضاحى التى أتقدم بها ذات فائدة ؟ وهل يكون لى ولد ، أم أنى أحاول عبثاً ؟ وحين كان يفكر حبل بكل من أهورامزدا وأهرمن ، (إذ كان يعتبر

ذا طبيعة مزدوجة - خنثى) ، فأصدر يميناً من يخرج إلى محضره أو لا يتقلد الملك منه ، فمزق أهرمن الرحم ، وتقدم إلى أبيه ، وقال : إننى ابنك أهورامزدا ، لكن زورفان أنكره ، لأنه كان ينتمى إلى الظلام ، يفوح بالرائحة الكريهة ، ويحب الأذى ، وبينما كان يتحدث إلى أهرمن ولد أهورامزدا ناصباً ، طيب الرائحة ، فعرف زورفان أنه أهورامزدا ، فاقترب أهرمن من أبيه ، وذكره بيمينه : (انتبه ، ألم تحلف بذلك اليمين لأول من يأتى سوف أعطى الملك ؟) ، فأجاب زورفان (اغرب أيها الشيطان ، لقد جعلتك ملكاً تسعة آلاف سنة ، وجعلت أهورامزدا يحكم فوقك ، وبعد آلاف السنين التسعة سوف يملك أهورامزدا ، ويأتمر كل شئ بإرادته) .

قصة رمزية تمثل شراسة الشر وتوقعه ، ثم انتصار الخير وسيادته ، لكن إلى جانب هذا الرمز إشارة إلى أن وراء الخير والشر إلهاً ، هو (الخالق) ، وهو الذى يريد انتصار الخير ويؤيده ، لكنه يفسح للشر مجالاً حتى يختبر البشرية ، وتتحقق حرية الاختيار .

وعلى أساس هذا (الاختيار) كانت (الدار الآخرة) التى عبر عنها التراث الإيراني بمثل (الوجود الأحسن) ، و (دار الحمد) ، و (دار الجائزة) ، يقصد (الجنة) ، وكان الظن أن موضعها فوق جبل (هارا) ، أول ما خلق الله من الجبال .

ويتحدث نص بهلوى عن حساب الموتى ، فيقول : (تجلس الروح ثلاثة أيام وثلاث ليال جانب وسادة الجسد ، وفى فجر اليوم الرابع تصل الروح إلى البرزخ الرفيع المخيف - جسر تشينفات - حيث يتحتم أن يذهب كل إنسان تنقذ روحه ، وكل إنسان تلعن روحه . . وسوف تخضع الحاجات لوزن أعماله على يد «راشن» ، وحين تمضى روح المستنقذ على هذا البرزخ إذا بعرض هذا البرزخ يبدو كأنه عرض فرسخ ، وتأتى أعماله الصالحة للقاءه فى هيئة فتاة أجمل وأنصع من أى فتاة فى الأرض ، ثم إذا هو بخطوته الأولى يبلغ السماء بالأفكار الطيبة ، وبالثنائية بالكلمات الطيبة ، وبالثنائية بالأعمال الطيبة ، وبخطوته الرابعة يصل إلى النور اللانهائى الذى هو النعيم كله . . ويسكن إلى الأبد مع الآلهة الروحانيين فى النعيم إلى غير نهاية . . أما فى حالة روح الملعون ، فإن جسده بعد ثلاثة أيام

وثلاث ليال يحمل ويجر إلى « جسر تشينقات » على يد مارد ، ومن ثم إلى الجحيم ، وتلقاه فتاة ليس فيها شبه بفتاة ، فيمر في جهنمات ثلاث ، وهى الأفكار الشريرة ، والكلمات الشريرة ، والأفعال الشريرة ، وينتهى بخطوته الرابعة إلى حضرة أهرمن والمردة الأخرى) - أساطير العالم القديم ص ٣١٣ / ٣١٥ .

نص مستقى من أصول سماوية قديمة ، أشبه بتلك التى استقى منها تراث المصريين القدماء ، دون حاجة إلى أن يأخذ أحد التراثين عن الآخر ، وإن كان الاتصال بين الحضارتين والثقافتين لم ينقطع ، ثم إن هذا (النص) يلبس مسح الخطب المنبرية التى تشيع حتى اليوم فى ألسنة كثير من الخطباء والدعاة ، مما يؤكد قرب العهد به .

* ثم إن التراث الإيرانى لم يقف عند حدود ما حفلت به هذه الأساطير ، فقد ورثت الدولة الفارسية المساحة الواسعة التى شغلها السومريون والآكديون والبابليون والآشوريون والفينيقيون والسكوثيون واليهود ، ونجحت نجاحاً باهراً ، وبخاصة على يد قورش الذى وصفه اليهود بأنه المخلص (المسيا) ، بعد أن حررهم من الأسر البابلى ، وأعادهم إلى أورشليم ، وأعانهم على إعادة بنائها ، ورد إليها كثيراً مما نهبه الآشوريون ، ووصفه باحثون مسلمون بأنه ذو القرنين الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم .

وظلت هذه الدولة القوة الأولى فى العالم زمناً طويلاً ، وقاسمت اليونان والرومان تدبير شئون العالم ، والتأثير فى تحركاته وتياراته العسكرية والسياسية ، حتى قيام الدولة الإسلامية .

ولم يكن يوجد فى هذه الدولة قانون غير إرادة الملك المؤيدة بقوة الجيش ، ولم تكن فيها حقوق مقدسة لغير هذه السلطة المستبدة .

كان الاعتقاد أن قرارات الملك وأحكامه من وحي الإله (أهورامزدا) نفسه ، وكان أى خروج على هذه القرارات ، خروجاً على إرادة الله ومشيته .

كان الملك صاحب السلطة القضائية العليا ، لكنه كان فى العادة يعهد بهذا

العمل إلى أحد العلماء الشيوخ (الكهان) من أتباعه ، ثم تأتى من بعده المحكمة العليا المؤلفة من سبعة قضاة ، ومن تحتها محاكم محلية منتشرة فى أنحاء المملكة .

وكان الكهنة هم الذين يَضْعُون القوانين ، بتوجيه من الملك ، وبمقتضى مشيئته ، وظلوا زمناً طويلاً ينظرون فى المظالم ، وفى عهود متأخرة كان ينظر فى المظالم رجال ونساء من غير رجال الدين ونسائه .

وكانت الكفالة تقبل من المتهم فى جميع القضايا ، إلا ما كان منها خطير الشأن ، وكانوا يتبعون فى المحاكمات إجراءات منتظمة .

ولما تكاثرت السوابق القانونية ، وتعقدت القوانين ، نشأت طائفة من الناس يسمون (المتحدثين فى القانون) ، كانوا يعرضون على المتخاصمين أن يفسروا لهم القانون ، ويساعدوهم على السير فى التقاضى .

وقد وجدت نقوش على قبر (دارا) الأكبر تحدد المثل الأعلى للسلوك ، والرغبة فى أن تسود العدالة :

(لقد أَحْبَبْتُ الصواب ، وأما الخطأ فلم أحبه / وكانت إرادتى عدم ارتكاب أى ظلم ضد أية أرملة أو يتيم / ولم تكن إرادتى أن يحيق ظلم باليتامى أو الأرامل / ولقد عاقبت الكاذب عقاباً صارماً ، وأما الذى يكذب فإنى كافأته مكافأة حسنة) .

وجاء قمبيز فعمل على ضمان نزاهة القضاء بأن أمر بسلخ جلد القاضى الظالم حياً ، وأن يستخدم هذا الجلد فى تنجيد مقاعد القضاة ، ثم يعين ابن القاضى (السليخ) مكانه .

وكانت الجرائم الصغرى يعاقب عليها بالجلد ، من خمس جلدات إلى مائتين ، بسوط من سياط الخيل .

وكان عقاب من يسمم كلب راع مائتى جلدة ، ومن يقتل خطأ عقابه تسعون جلدة .

وكانت الدولة تحصل على المال اللازم للشئون القضائية من استبدال الغرامة بالجلد ، باحتساب ست رويات للجلدة الواحدة .

أما الجرائم التي هي أشد فكان يعاقب عليها بالوسم بالنار ، أو بتشويه الأعضاء ، أو ببتير بعض الأطراف ، أو سَمْل العين ، أو السجن ، أو الإعدام .

وكان نص القانون يحرم على أى إنسان ، حتى الملك نفسه ، أن يحكم على إنسان بالقتل عقاباً على جريمة صغرى ، لكنه يحل القتل عقاباً على خيانة الوطن ، أو هتك العرض ، أو اللواط ، أو القتل ، أو الاستمناء ، أو حرق الموتى ، أو دفنهم سرّاً ، أو الاعتداء على حرمة القصر الملكى ، أو الاتصال بإحدى جواريه ، أو الجلوس مصادفة على عرشه ، أو الإساءة إلى أحد أفراد البيت المالئ .

وكان المذنب فى هذه الحالات يعدم ، إما بإرغامه على تجرّع السم ، أو خَرْقه ، أو صلبه ، أو شقه نصفين ، و (كان المجرم يشق من رأسه عادة إلى أسفل) ، أو رجمه بالحجارة ، أو دفن الجسم إلى مادون الرأس ، أو تهشيم رأسه بين حجرين ، أو يوضع حياً فى قارب طبق عليه قارب آخر ، ولا يخرج من جسمه سوى رأسه ويديه ورجليه ، ويترك للطبيعة تقضى فيه .

* ونتيجة هذا الحكم الاستبدادى أيضاً توقف الفكر الدينى عند حدود سلطة الملك ، فلم يسمح حتى باستيراد الفكر الدينى من البلاد المحيطة ، مصر ، أو الهند ، أو اليونان ، أو الرومان ، وكانت للأكاسرة بهذه الدول علاقات عسكرية وسياسية واقتصادية ، كما أن اليهودية والمسيحية نشأتا على حدود الدولة ، ودخلت اليهودية مع آلاف (السبى البابلى) ، وأقامت سنوات طويلة ، لكن الدولة كانت تنظر إليها من خلال القوة العسكرية ، وإن استطاعت اليهودية أن تتسلل بوسائلها الخاصة إلى البلاط الحاكم ، سواء فى عهد الحكم البابلى الآشورى ، أو الحكم الفارسى ، كما تروى التوراة ، وكما يروى من اهتمدوا بهديها .

ولما هاجر النساطرة أقاموا مدارس فى جنديسابور ونصيبين والرها ، ونقلوا المعارف اليونانية الرومانية التى أخذت تشعّ فيما حولها أفكاراً جديدة ، واجتهادات فى معامل ومختبرات .

ويرجع الفضل فى نشاط النساطرة إلى كسرى أنوشروان الذى أفسح لهم ،

وشجع على ترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى اللغة الفهلوية ، وعلى تدريس هذه الكتب فى جنديسابور ، بل قرأها هو بنفسه . . وكان يُعين العلماء على متابعة الدروس بالهبات الطيبة . . وفى عهد هذا الملك المستنير أصبحت كلية جنديسابور التى أنشئت فى القرن الرابع أو الخامس للميلاد (أعظم المراكز الثقافية فى ذلك العهد) ، يُهرع إليها الطلاب والمدرسون من كافة أنحاء العالم ، وكان أتباع الأفلاطونية الجديدة يترددون عليها ، وقد بذروا بذور العقائد الصوفية .

ومع الاهتمام بدراسة الطب وطرق العلاج العلمية كانت الجماهير تعتمد على الرقى فى علاج المرضى أكثر من الاعتماد على العقاقير الطبية ، بحجة أن الرقى - إن لم تشف - لا تقتل المريض ، مع أنها - إن لم تشف - لن توقف انتشار المرض أو زيادة آلامه .

وقد نص القانون على أن يعالج الكهنة بدون أجر ، وهذا يستتبع الإهمال فى العلاج ، والإهمال فى التنافس على المعرفة وعلى التفوق .

ولم يتوقف العلاج على الكهنة ، حتى إذا كان عهد أرتخشتر الثانى تكونت فى البلاد نقابة للأطباء والجراحين وحدد القانون أجورهم ، كما حددها قانون حمورابى ، وفقاً لمنزلة المريض الاجتماعية .

وقد نص القانون الفارسى على أن يبدأ الطبيب الناشئ حياته الطبية بعلاج الكفرة والأجانب ، إذ يقضى الطبيب الناشئ سنة أو سنتين فى المراتة على أجسام المهاجرين والفقراء .

زارادشت

كما سبق القول ، ورثت الدولة الفارسية عن ديانة سومر وبابل وأشور آلهة أخذت سمات فارسية ، بحيث تعبر عن طموحات هذه الدولة العسكرية النشطة ، وعن طبيعة الأرض التي تزود هذه الدولة بالطاقات الفاعلة .

لكن (مثرا) هو الذى استطاع أن يرتحل مع الجيوش الفارسية واليونانية والرومانية ، وانتشر فى أوروبا فى القرن الأول قبل الميلاد ، بعد حملات بومبى فى الشرق ، وأيده القياصرة ، لأنه كان يرفع سلطان الملوك ، ويقول : إن الشمس تشع عليهم قبساً من نورها ، وهالة من بركتها ، فيرمزون بعروشهم على الأرض إلى عرش الله فى عليين .

ولقد دخلت المثرية روما لأول مرة سنة ٦٠ للميلاد ، وفى القرن الثانى الميلادى انتشرت داخل الإمبراطورية حتى بريطانيا .

وقد مال الجنود والعامة إلى المثرية ميلاً كبيراً ، لأنها قصرت أتباعها على الذكور دون الإناث ، وجعلت لهم درجات سبعة يرتقون فيها إلى العارفين الواصلين ، رمزا إلى الدرجات التى تصعد عليها الروح بعد الموت ، من سماء إلى سماء ، حتى تستقر فى النهاية عند حظيرة الأبرار ، حيث يكون الاستشراق الصوفى .

وكان هذا المعتقد يدغدغ مشاعر الجنود وبخاصة ، لأن الموت يترصدهم حيثما كانوا ، ومن ثم وجدوا فى هذا (المرتقى) إشباعاً روحياً وعزاء عما فقدوه فى الحياة الدنيا .

ومن هنا ظلت المثرية - حتى عهد قسطنطين الكبير - منافسة خطيرة للنصرانية ، وبخاصة أن مثرا ، إله النور ، الذى يصدر عن أهورامزدا ، وقد ولد بنفس الطريقة التى يصدرُ بها الأقنوم الثالث - فى الثالوث المسيحى - عن الأول - معالم التاريخ الإنسانية مح ٢ ص ٧٥١ .

ومن طقوس هذه العبادة التضحية بشور ، حتى يعطى مثرا الناس إكسير الحياة ، ويمكن تذوق هذه الهبة الإلهية مقدماً عن طريق المشاركة فى التناول المنظم

لوجبة الخبز والخمر التي يمثل فيها الكاهن الإله مثرا ، كما هو الشأن في طقس تناول أو العشاء الرباني في المسيحية .

ثم إن هذه العبادة تهتم بالتعميد ، وهو من أهم الطقوس المسيحية ، وفيه يخضع العضو لاختبارات بدنية وروحية معاً ، إذ يعلن ارتداده عن جميع الآلهة ، ماعدا مثرا ، ويعلن إخلاصه لدستور أخلاقي دقيق ، حتى يشارك في البعث والقيامة - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ١٢٧ - بل إن المريد أو من يظفر بالعماد يتنقل من درجة إلى درجة مع كل وليمة يتناول فيها الخبز المقدس ، ويمسح بالماء الطهور ، ثم يترقى في معرفة السر الأعظم ، إلى أن يعرف حكمة الله الخالقة في مقام العارفين الواصلين ، وفي هذا الترقى يكون تطهر المشاعر والأحلام ، ويكون سلام النفوس المعانية المقهورة ومرضاها .

ويبدو أن هذا التعميد كان (طقساً) شائعاً ورد في ديانة الصابئة ، كما ينسبونه إلى أتباع الإلهة سيبيلا Cybele (الإلهة الأم العظيمة) في آسيا الصغرى ، إذ كان الدخول في جماعتها يتم عن طريق التعميد بدم الثور الذي اعتقد بعضهم أنه يجلب الحياة الأبدية . . هذا الثور الذي عبده الفرس ، لأنه بموته وبعشه يهب الجنس البشري دمه شراباً يسبغ نعمة الخلود .

* ولما ظهر زارادشت حرص على أن يظهر الأرض من الديانة السابقة ، لترويج ديانته ، فندد بهذه الآلهة البدائية ، وبهذه الطقوس التي تتخذ من الخمر ، أو من شراب (الهوما) ، وسيلة غيبوبة وفقدان للوعي ، مما يباعد بينها وبين الحقيقة ، أو مما يدفع بها إلى تزييف الحقيقة ، وإلى ممارسة الشرور . . وثار على (المجوس) الكهنة الذين ارتبطوا بهذه الآلهة ، وقربوا لها القرابين ، وأعلن في شجاعة لاتقل عن شجاعة معاصريه (عاموس) و (إشعيا) ، أن ليس في العالم إلا إله واحد ، هو أهورامزدا ، إله النور والسماء ، وأن غيره من الآلهة ليست إلا مظاهر له ، وصفات من صفاته .

لكن مثرا ظل يتخذ له مسارب ، ويهجر أرض زارادشت إلى أماكن أخرى . . وبينما انحصرت الزارادشتية في بلاد الفرس تقريباً ، وبينما لم يطل مقامها على الأرض ، وانحصرت في عدة آلاف بالهند - فإن المثرية ظلت تتحرك بعدها زمناً طويلاً .

* قيل عن زارادشت أن أمه حملت به حملاً إلهياً قدسياً ، على طريقة عيسى عليه السلام ، ذلك أن الملاك الذي كان يرعاه - وهو في عالم الغيب - تسرب إلى نبات (الهوما) ، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن ، حين كان يقرب القرابين المقدسة ، وفي ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسبة ، سامقة في الشرف ، وتزوج الكاهن بالفتاة ، وامتزج الحبيسان : الملاك والشعاع ، فنشأ زارادشت من هذا المزيج ، فلما ولد قهقهه عالياً ، فانهزمت من حوله الأرواح الشريرة والشياطين المنتشرة في الحياة .

وهذه الرواية تجعل لثرا فضلاً عليه ، بسبب الكاهن ، وبسبب شراب (الهوما) ، ومع هذا فقد حمل على الكهنة وحرّم الشراب ، وإن كان ثمة أكثر من مبرر لموقفه .

وقيل إن نور زارادشت نزل من فلك النجوم إلى معبد نار أسرة (فراهيم) ، ثم استمرّيت نار فراهيم يشتعل بضياء ساطع ، من غير أن يحتاج إلى خشب أو حطب ، وفراهيم هذا كان جداً لزارادشت ، وربما كان فراهيم هذا هو إبراهيم عليه السلام ، وقصد بالانتساب إليه تأكيد صلة زارادشت بالسماء .

* عندما بلغ زارا السابعة من عمره أرسل بعيداً ليدرس مع (بورزين - كوروس) الذي امتدت شهرته بالحكمة في جميع أنحاء إيران ، وظل زارا ثمانية أعوام مع الحكيم بورزين ، حيث لم تقتصر دراسته معه على العقيدة ، بل تعدتها إلى الزراعة وتربية الماشية وعلاج المرضى .

وفي أعقاب الحرب التي نشبت بين الفرس والتورانيين - وقد تطوع فيها زارا ، وهو بعد في الخامسة عشرة ، لمعالجة المرضى والجرحى من الجنود - انتشرت المجاعة ، واشتد المرض ، وازدادت الفاقة في جميع أنحاء فارس ، فطوع زارا في خدمة المرضى والفقراء من أبناء وطنه ، وقضى في ذلك نحو خمسة أعوام . . ثم عاد إلى وطنه ، وتزوج - بناء على رغبة أبيه - من (هافريه) الحسنة ، ورفض رغبة أبيه في أن يستقر ويعمل معه فلاحاً ومربي ماشية ، وواصل عمله في تخفيف آلام الآخرين .

واستحوذت فكرة معرفة مصدر الخير والشر على عقل زارا ، فلم يعد يطيق البقاء مع زوجته وبناته ، وقررّ اعتزال الناس ناسكًا زاهدًا .

وهناك فى جبل (سابلان) انقدحت فى ذهنه فكرة ابتهج لها ، واعتقد أنه وقف على مصدر الخير والشر ، وأحاط علمًا بسر الحكمة .

وحدث - بينما هو واقف على الجبل يفكر - أن أحس بنشوة روحانية ، تجلى فيها كبير الملائكة (فاهومانا) ، واصطحبه فى رحلة سماوية ، مثل فيها أمام رب السماء نفسه ، وتلقى منه كلمات الحق والحقيقة ، وتعلم أسرار الوحي ، وأمر النبوة .

نزل بعد ذلك من الجبل ليصدع بأمر ربّه ، فأنكر تعدد الآلهة ، وعبادة الأصنام ، وجعل الخير المحض من صفات الله ، وبشر بالشواب ، وأنذر بالعقاب ، وقال إن خلق الروح سابق على الجسد - عن الديانات القديمة لسعدون الساموك ص ١٠٧ / ١٠٩ .

* لم يصغ أهل فارس لتعاليمه ، ومرت عشرة أعوام بأمل فى أن يجد من يؤمن بمبائشر به ، دون جدوى ، قال ابن عمه (ميتوماه) : إن تعاليمك شاقة جدا على فهم الناس ، فابدأ بدعوة المتعلمين الذين ألفوا الأفكار الصعبة .

قصد زارا مدينة (بلخ) حيث الملك كشتاسب ، وحين مثل بين يديه ، قال : (أنا زارادشت سبتاما ، نبي الإله الواحد الحكيم ، جئت إليك أيها الملك ، لأحول قلبك عن الأصنام الشريرة التافهة ، إلى مجد إله حق خالد) .

جمع الملك حكماء وكهنة دولته لمناقشة ماجاء به زارا ، فتغلب عليهم ، كما استطاع أن يشفى جواد الملك بعد أن عجز عن علاجه أطباء البلاط وكهنته ، فاعتنق الملك تعاليم زارا وآمن بالإله الواحد الحكيم ، وأعلن أن زارا هو النبي الحق لهذه العقيدة الجديدة ، وأصدر أمرا بكتابة تعاليمه بحروف من ذهب ، وسميت (أفستا) ، وعين زارا كبيرا للكهنة فى بلاطه ، وبهذا انتشرت الديانة فى أنحاء المملكة ، ثم أرسل الملك رسلا مبشرين بالديانة الجديدة خارج البلاد ، حتى وصلت توران والهند واليونان .

وتضيف (الشاهنامه ج ١ ص ٣٢٤) أنه يعد أن آمن به كشتاسب وجميع من كان بحضرته من الملوك والأمراء وسائر الموابذة والهرابذة ، وبنى للنار بيوتاً كثيرة ، وجعل لها قبباً رفيعة - غرس على باب بيت النار شجرة سرو ، وكتب على ساقها : (إن كشتاسب قبل دين الحق ، وأشهد على نفسه هذا السرو) ، وكتب إلى الملوك يأمرهم بالمصير إلى خدمة هذا السرو ، وباستماع مواعظ زارادشت ، والدخول في دينه : وترك عبادة الأصنام والأديان ، فأجابه الناس إلى ذلك ودخلوا في دينه طوعاً وكرهاً .

يقول تويني (مختصر دراسة للتاريخ ج ٣ ص ٣٠) : من أجل أن عقيدته التوحيد في جوهرها كان عمر رضى الله عنه يساوى بها معاملة المسلمين ، بين أتباعها والذمين من اليهود والنصارى .

وقد روى عن أمير المؤمنين على ، رضى الله عنه أنه قال ، إنى أعلم ماعليه المجوس ، عندهم شريعة يعملون بها ، وكتاب يؤمنون به ، فعاملوهم معاملة أهل الكتاب) .

وكان البيرونى يفرق بين الدين الزارادشتى والمجوسية .

وذكر شهاب الدين السهروردى (القتيل) ، فى كتابه (حكمة الإشراق) : أن زارادشت كان نبياً ، بل وصل بين زارادشت والمذهب الأفلاطونى الحديد ، ووافقه فى قوله شارح (حكمة الإشراق) قطب الدين الشيرازى .

وروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول : (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) :

* وقد ذكر الشهرستانى (الملك والنحل مج ١ ج ٢ ص ٧٨ هامش الفصل) أن دينه كان عبادة الله ، والكفر بالشیطان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الخبائث . . وذكر أن البارئ تعالى خالق النور والظلمة ، ومبدعهما ، وهو واحد لا شريك له ، ولا ضد ولاند ، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة ، كما قالت الزروانية ، لكن الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والطهارة والخبث ، إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ، والخير والشر ، ثم يتخلص

الخير إلى عالمه ، والشر ينحط إلى عالمه ، وذلك هو سبب الخلاص .

ويبنى على هذا العلامة أبو الكلام آزاد - فى معرض بيان أن قورش هو ذو القرنين - إن كان ذو القرنين يدين بدين (مزدستا) ، أو بالدين الزارادشتى ، ويثبت له القرآن الإيمان بالله واليوم الآخر ، وليس هذا فحسب ، بل يجعله من الملهمين من عند الله - أفلا يلزم من هذا أن دين زارادشت كان ديناً صحيحاً إلهياً ؟

إنه قد ثبت الآن أن دين زارادشت كان دين التوحيد الذى يحرم الشرك بالله وعبادة الأصنام .

وقد أبطل زارادشت جميع معتقدات (موغوش) ، أى المجوس القدماء ، قائلاً : ليس هناك قوى روحية كثيرة للخير ، ولا عفاريت كثيرة للشر ، إنما هو إله واحد ، اسمه (أهورامزدا) الذى ليس كمثله شئ ، وهو الواحد ، الأحد ، القدوس ، الصمد ، وهو الحق والنور ، وهو الحكيم القادر الخالق الذى لا يشاركه فى ملكه وربوبيته شئ ، وإن القوى الروحية التى زعموها خالقة للخير ليست بخالقة ، بل هى نفسها من خلق أهورامزدا .

وكذلك صرح زارادشت بأنه ليس للشر إله ، بل الذى يأمر بالشر هو الشيطان (انغرامى ينوش) الذى حُرّف إلى (أهرمن) .

وإن من العناصر الأساسية للدين الزارادشتى الاعتقاد بالحياة الأخروية ، فهو يقول : لا تنتهى حياة الإنسان بموته فى هذا العالم المادى ، بل له حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، فالذين عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيا يدخلون عالم السعادة ، والذين دنسوا نفوسهم بالشرور يدخلون عالم الشقاء .

والاعتقاد ببقاء الروح من معتقدات الدين الزارادشتى الأساسية ، فهو يقول بفناء الجسم ، أما الروح فيبقى ويلاقى جزاءه .

وأهم مافى الدين الزارادشتى قانونه الأخلاقى الذى يتلخص فى صدق النية ، وصدق القول ، وصدق العمل .

وجرى على هذا صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ١٢٦) بقوله :

الإله عند زارادشت هو السيد المهيب الحكيم (أهورامزدا) ، خالق السموات والأرض ، وهو الأول والآخر ، ومع ذلك فهو الصديق الذى رعاه من البداية ، ولا يمكن أن تكون لله علاقة بالبشر ، فروحه المقدسة هى التى تقيم الحياة ، وتخلق الرجال والنساء ، وتعارض الروح الشريرة ، أو القوة المدمرة التى تتسم بالنوايا الشريرة ، والتكبر ، والكذب ، وعلى البشر أن يختاروا بين هاتين القوتين المتعارضتين ، أو بين التوأمين من الآلهة ، فإن سلكوا طريق الشرف فسوف تمتلئ حياتهم بالأفكار الشريرة ، والكلمات الشريرة ، والأعمال الشريرة ، وإن سلكوا طريق الحق فسوف يشاركون فى العقل الخير ، ويلبغون الكمال ، والخلود ، والورع ، وملكوت السموات ، وكلها جوانب من الطبيعة الإلهية .

والوقوف عند لفظ (التوأمين) - إذا لم يكن من صياغة المترجم - يوحى بالخضوع للأسطورة التى سبقت الإشارة إليها عن الإله (زورفان) الذى ولّد (ذاتياً) الإلهين أهورامزدا وأهرمن ، مما يشكك فى نسبة هذا القول إلى زارادشت الذى يصفه كثيرون بالنبوة .

وقد فصل القول فى المذهب صاحب (التاريخ وكيف يفسرونه ص ٧٨ / ٨١) فقال :

يوصف أهورامزدا بأنه الكامل ، والأبدى ، والكلى السيطرة ، والمطلع على كل شئ ، والكلى الخير ، وما العالم الفيزيائى والكائنات البشرية إلا خليقته ، بيده العون للناس ، والحكم عليهم ، وهو الموجود على الدوام فى تاريخ البشر .

وهو يقيم الأرض والقبة الزرقاء ، ويقيهما شر السقوط ، وبأمره يزداد القمر ويذوى ، وتُحدد مسالك الشمس والنجوم ، وهو الذى يدفع الريح فتجرى ، ويكسو جنبات السماء بما يملؤها من الضياء ، وهو الذى خلق لنا ما نقرّبه عينا من الأنعام والنبات والماء ، وهو خالق البشر ، وبارئ أرواحهم وأجسامهم وواهبهم حرية الإرادة ، وهو الذى أوقد جذوة المحبة بين الأب وابنه ، ومنح الناس النوم واليقظة ، وغير ذلك من النعم الكثيرة .

إن الثقات من علماء الزرادشتية السلفية الصحيحة يرفضون (ثنائية الخير

والشر) ، ويرون أن لفظة الروح - حين تطبق على الشر - إنما يراد لها فى ثنايا استخدامها الإشارة إلى نزعة عقلية .

والزارادشتيون قاموا بتشجيع الزواج وإنجاب الأطفال ، ونعتوهما بالفضيلة ، وذهبوا إلى أن الصوم يؤدي إلى الضعف ، فيقلل من قدرة المرء على صراع الشرور ، وعلى فعل الخيرات ، كما أنه لا يعين على التمتع بما يسر الله من نعم . . والكيان الروحي عندهم أهم وأفضل من الطيبات الدنيوية ، على أن السعى فى سبيل الشراء له قيمته .

وكان من تعاليم زارادشت أن للناس حرية الاختيار ، والكفاح فى سبيل الخير ، أو الخضوع لمغريات الشر ، وأهمية تواريخهم ترتكن من ناحية على استخدامهم لحيثهم تلك .

وقد شاع مذهب الجبرية بينهم نتيجة للكوارث السياسية التى قاساها الفرس من ناحية ، ونتيجة لانتشار التنجيم من ناحية أخرى ، وفى هذا يقولون : (القدر هو الغالب لكل شئ ، والمسيطر على كل فرد) .

وحين أدلى الأستاذ العقاد بدلوه (الله ص ٧٩ / ٨٠) جمع بين هذا كله فى طبق واحد ، فذكر أن زارادشت أنكر الوثنية ، (وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه) .

وأضاف أن (المجوسية) ليست كلها من تعاليم زارادشت ، أو تعليم كاهن واحد من كهان الأمة الفارسية ، وفسر زورفان ، أو (زروان) بأنه كناية عن الزمن ، ومع هذا فهو يحكى أسطورة الولادة ، والنذر ، وأسبقيّة خروج أهرمن ، والاحتيايل لسيطرة أهورامزدا .

ثم قال : وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين ، وأن هرمن طفق فى مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة ، وأهرمن غافل عنه فى قراره السحيق ، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه (التوأم) راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه ، فأشفق على نفسه من العاقبة ، وعلم أن النور يوشك أن ينتشر ويستفيض ، فلا يترك له ملاذا يعتصم به ويضمن فيه البقاء ، فثار ، وثار

معه خلائق الظلام ، وهى شياطين الشر والفساد ، فأحبطت سعى هرمز ، وملاّت الكون بالخبائث والأرزاء .

وران هذا البلاء على الكون حتى كانت معركة زارادشت - أو كان ميلاده - فكان البشير بانتهاء زمان ، وابتداء زمان ، لكنه لم يختم الصراع بين العدوين اللدودين ، بل آذن بتحول النصر من صف إلى صف ، وتراجع الشر والظلام عن مملكة الخير والنور ، وسيدوم هذا الصراع اثني عشر ألف سنة ، ينجم على رأس كل ألف منها بشير من بيت زارادشت ، فيعزز جحافل هرمز ، ويوقع الفشل فى جحافل أهرمن ، فتتقضى (المدة) ، وينكص أهرمن على عقبه ، مخلدًا فى أسفل سافلين ، لافكاك له أبد الأبدين عن هاوية الظلمات ، وسجن المذلة والهوان .

يزيد الشهرستانى الفقرة الأخيرة من كلمات العقاد وضوحًا بقوله (الملل والنحل ص ٨٠ مح ١ ج ٢) : وما أخبر به زارادشت فى زندوستا أنه سيظهر فى آخر الزمان رجل اسمه أشيذريكا ، ومعناه (الرجل العالم) يزين العالم بالدين والعدل ، ثم يظهر فى زمانه (بتياره) ، فيوقع الآفة فى أمره ومملكه عشرين سنة ، ثم يظهر بعد ذلك أشيذريكا على أهل العالم ، ويحيى العدل ، ويميت الجور ، ويرد السنن المغيرة إلى أوضاعها الأولى ، فينقاد له الملوك ، وتيسر له الأمور ، وينصر الدين الحق ، ويحصل فى زمانه الأمن والدعة ، وسكون الفتن ، وزوال المحن .

وقول الشهرستانى أشبه بما حفلت به كتب المهديّة عن المسيح الدجال والمهدى المنتظر ، وهو قول أشبعت فيه البيان عن هذا الحلم الإنسانى الذى يطالع البشرية حين تشتد بها المعاناة ويسود الأفق ، (انظر كتابى : الساعة الخامسة والعشرون) ، وقد سبق الفكر الإسلامى فى هذا بالحلم اليهودى والحلم المسيحى .

ويضيف الدكتور محمد غلاب فى (الفلسفة الشرقية) أن (أهورا) أراد أن يختم به هذه الحياة الدنيا ، وهو لهذا يدفعه فى حماسة إلى تأدية رسالته بأسرع مايسطيع ، وبأمره أن يصدع بأوامر ربه ، وبأن يعلن أنه سيتقدم بعد موته إلى

القضاة الثلاثة الواقفين على الميزان أمام باب الصراط ، ليؤدى الحساب عن نفسه وعن جميع أتباعه الذين سيموتون بعده .

فلما مات (زارادشت) ولم تتحقق نهاية العالم أعلن أتباعه أنه لم يميت ، كما رأى الناس فى الظاهر ، وإنما نزلت بذرتة الخصبة فى البحيرة المقدسة ، وستظل فيها تغدو وتروح حتى قبيل نهاية العالم ، فإذا حان هذا الوقت المضروب نزلت إلى هذه البحيرة فتاة عذراء طاهرة لتغتسل فيها ، وإذذاك تتغلغل هذه البذرة إلى رحم العذراء ، فتحمل لساعتها بمنجى العالم ، وعلى يديه ستكون نهايته ، فإذا ولد وشب أخذ يدعو إلى دينه ، واصطفى من التلاميذ خمسة عشر رجلاً وخمس عشرة امرأة ليعاونوه على تأدية رسالته ، إلى أن ينتهى أجله المحدد بسبع وخمسين سنة ، فينتهى بانتهائه الكون .

وثمة من يقول إن نهاية الكون تتم باصطدام كوكب نارى بالأرض ، فتخر الجبال هدا ، وتذوب العناصر وتتفجر الحمم التى تقضى على أهرمن وشيعته ، ويجد الصالحون فيها برداً وسلاماً !!

الأستاق

من خلال العرض السابق يخيل للناظر أن من قال بنبوة زارادشت استوحى ترانيمه ، والترانيم عادة توحى بما يعتمل فى نفوس قرائها أو منشديها ، وهو ما حدث مع ترانيم أخناتون ، مع أن ماجاءت به الوقائع التاريخية تكذب القول بنبوة أخناتون ، بل تدينه (انظر كتابى : كنانة الله يافرعون) .

أما من مالوا بزارادشت إلى الأسطورة فقد نقلوا (شيئًا) عن الأفستا ، أو نقلوا عمن نقلوا عنه .

والأستاق Avesta تم تدوينه - على الأرجح - قبل القرن الخامس الميلادى ، وإن كانت مادته قد تمتد إلى ما قبل غزو الإسكندر لفارس عام ٣٣٠ ق.م ، وكان أن فقدت جميع نسخه ، وفقدت معها تفاسيره والمؤلفات التى كانت تشتمل على شئ منه ، ثم بدأ ملوك فارس فى تدوينه منذ القرن الأول الميلادى حتى القرن الخامس ، أى أنه أصيب بما أصاب (العهد القديم) من التراث اليهودى ، فكانت إعادة التدوين من الذاكرة ، ومن الثقافات المحيطة ، ومن الأساطير الشائعة .

وكل مانستطيع أن نستخلصه من هذا كله أنه كان (وعى) للخير وأهميته فى مسيرة الحياة ، وأن الشر يهدد هذه المسيرة بالصراعات التى تستنزف القوى ، وتأكل الثمار الطيبة ، وتنشر الخراب . . ومن ثم كان (هو - را - مزدا) التى تعنى أنا - الوجود - خالق) ، تعبيراً عن دور (الخير) فى المحافظة على الحياة ، أو فى نشوئها .

ولاشك فى أن زارادشت كان له دور كبير فى إعلاء قيم الخير والحق ، سواء كان هذا الدور بتكليف خاص من السماء ، أو من وحي مشاعره الخاصة وفهمه لما تهجس به النفوس ، وما تتنازعه الرغبات ، وإن كانت ترانيمه ، أو الترانيم التى تنسب إليه - كما سيأتى - ترجح أنه كان على مثال (بوذا) ، وعياً ومنهاجاً ، وقدرة على التمثل والامثال .

ومن هنا نسب إليه أنه حرم عبادة الأصنام والأوثان ، وقدس النار على أنها أصفى وأطهر العناصر المخلوقة ، لاعلى أنها الخالق المعبود ، وقال : إن الخلائق

العلوية كلها كانت أرواحًا صافية لا تشاب بالتجسيد فخيرها الله بين أن يقصبيها عن منال أهرمن ، أو يلبسها الجسد لتقدر على حربه ، والصمود في قتاله ، لأن عناصر الفساد لا تحارب بغير أجساد ، فأبت أن تعتصم بمعزل عن الصراع القائم بين هرمزد وأخيه ، فاختارت التجسد ، لتؤدي واجب الجهاد في ذلك الصراع .

ويتخيل زارادشت هرمز ، أو أهورامزدا ، أو يزدان - على اختلاف اللهجات في نطقه - مستويًا على عرش النور ، محفوفًا بستة من الملائكة الأبرار ، وتدل أسماؤهم على أنهم صفات إلهية ، كالحق ، والخلود ، والملك ، والنظام ، والصلاح ، والسلامة ، ثم استعيرت لها سمات (الذوات) ، بعد تداول الأسماء ، أو تداول الأنباء عما تفعله ، وماتؤمر به ، وماتلقاه من وحى الله .

وتفيض أقوال زارادشت باليقين من رسالته ، واصطفاء الله إياه للتبشير بالدين الصحيح ، والقضاء على عبادة الأوثان - الله للعقاد ص ٨٢ / ٨٣ .

ويلاحظ أنه مامن صاحب دعوى أو مذهب أو حزب إلا وأعلن أنه على الحق ، ولاشئ غير الحق ، وأن من سواه على باطل ، أو على وهم خادع .

وتتحدث (الأساطير الإيرانية القديمة ص ٢٣ / ٢٦) عن (الملائكة الستة الأبرار) بأنهم أرباب خلقهم هرمزد ، ليكونوا عونًا له وسندًا في المحافظة على العالم ، والنضال ضد أهرمن الخبيث الذي لا يستقر له قرار لخبت سريرته ، وسوء سيرته . . وحتى لا تمتد يده يومًا إلى عالم النور ، ويلوئه بقبح وجوده ، أخذ يدبر لذلك عالم السماء ، عالم الفضيلة الذي ليس فيه أثر من الماء والتراب والجلود واللحوم والمواد والأجساد . . كان هذا العالم من الروح والفكر ، لا أثر فيه للحركة ، كل مافيه روح وسكينة وسلام .

لم يكن لأهرمن علم بهذا العالم ، حتى خرج ذات يوم من درك الظلام ، وانبهر لمشاهدة نور جمال عالم هو مزدا ، فالتهبت أحقادها ، وعقد العزم على تقويض أركانه ، لكنه خاف هرمزد ، وأيقن أنه المنتصر في النهاية ، فارتد خائفًا وجلا ، وانغمر في أعماق الظلام ، لكنه مالبث أن كوّن جنودًا مجندة من

العفاريات والجن والشياطين ، للقضاء على عالم هرمزد ، ولما نصحه هرمزد بالابتعاد عن عالمه ، حتى لا يكون سبباً في هلاكه ، لأن الفضيلة لا بد أن تنتصر - ظن الخبيث أن هرمزد صار عاجزاً ، وأنه لذلك يطلب الصلح ، فقال : كلا ، أنا لا أعين خلقك ، ولا أسالك ، ولا أثنى عليك ، بل سوف أؤذى خلقك إلى أبد الآبدين ، وسوف أبعدهم عن عبادتك ، وأستدرجهم لعبادتي .

قال هرمزد : يا أهرمن ، إنك لست قوياً ، كما تزعم ، ولاتستطيع أن تغير خلقى ، وأن تغضبهم منى ، وتستحوذ عليهم .

كان هرمزد يعلم أن أهرمن سيقى عاجزاً حيران فى كبد الظلام ثلاثة آلاف عام ، وأنه - هرمزد - سيحكم العالم منفرداً خمسة آلاف عام .

وحين أخذ هرمزد فى تلاوة النشيد المقدس الحدودب ظهر أهرمن ، ثم ركع على ركبتيه لعجزه ، ثم خارت قواه ، وسقط ذاهلاً فى دياجير الظلام ثلاثة آلاف عام .

وفى هذه الفترة عمد هرمزد إلى خلق (الأرباب الستة) ، وإكمال (دنيا الفضيلة) ، حتى يكون هذا العالم سداً منيعاً تجاه أهرمن ، إذا هو فكر فى الهجوم عليه .

وتقول (الأساطير الإيرانية القديمة ص ٢٧ / ٤٥) : إن أهرمن خلق ستة من العفاريات الهائلة الخبيثة ، على رأس جيش من الأشرار ، لكن هرمزد لم يعأ به ، وأخذ فى خلق العالم من (النور الإلهى) ، وخلق النار من ذلك النور ، ووضع الضياء والشعاع فيها .

خلق قبة السماء من الفولاذ المنصهر ، وجعله سياج العالم ، ودرعاً يرتديه فى صراعه مع أهرمن .

ثم أبدع هرمز السموات السبع ، ووضع القمر والشمس والكواكب الثابتة والسيارة بين الأرض والسماء ، وأعدّها جميعاً للنضال والكفاح .

ثم أبدع موجودات العالم من ماء ورياح ونار وأرض وعشب وحيوان .

وبرأ الإنسان الأول (كيومرث) الذي كان شمساً ساطعة ، على الضفة اليمنى من نهر جيحون الجارى فى مركز الأرض ، بينما استقرت البقرة البيضاء على الضفة اليسرى ، وكان كيومرث بصيراً ناطقاً سمياً ، وجاء نسله على شاكلته .

وعن كيومرث يقول الشهرستاني (الملل والنحل مح ١ ج ٢ ص ٧٧ هامش الفصل) : أول من ملك الأرض ، وكان مقامه بإصطخر ، وبعده أو شهنج بن فراول ، ونزل أرض الهند ، وكانت له دعوة ثمة ، (أى كان بمثابة نبي) ، وبعده طهمورث ، وظهرت الصابئة فى أول سنة من ملكه ، وبعده أخوه جم الملك ، ثم بعده أنبياء وملوك ، منهم منوچهر ، ونزل بابل وأقام بها ، وزعموا أن موسى عليه السلام ظهر فى زمانه ، حتى انتهى الملك إلى كشتاسف بن لهراسب ، وظهر فى زمانه زارادشت الحكيم .

لكن الأستاذ العقاد يشرح تناسل كيومرث ، فيقول : إنه نبت من دمه حين قتل فى فتنة الخير والشر ذكر يسمى (ميشه) ، وأنثى تسمى (ميشانة) ، فتزوجا وتناسلا ، وساغ من أجل ذلك عند المجوس زواج الأخوين .

وقصة ميشه وميشانة نقلها الأستاذ العقاد عن الشهرستاني ، وجانبه الصواب فى تحليل زواج الأخوين ، لأنه يعلم أن هذا الزواج حدث فى مصر القديمة وفى غيرها من الحضارات القديمة ، بسبب من مفاهيم استعلائية أو اقتصادية أو سياسية ، وليس بسبب من تقليد (ميشه وميشانة) .

* لهم أن هرمزد جعل أمر الدنيا لمساعديه الستة ، لكنه احتفظ لنفسه بالإشراف على شئون الناس ولما هاجم أهرمن مخلوقات هرمزد بدأ بالماء ، وترك فيه آفة الملوحة والمجاجة ، ولوث الأرض بالحشرات والحيوانات المؤذية والعقارب والضفادع واليرابيع ، فضافت الأرض بكثرة الحيوانات الضارة ، وخص الإنسان بالألم والمرض والعوز والعطش والجوع ، ومزج النار بالدخان والظلام ، وخلق نجوم النحس .

وحين انتصر هرمزد وقضى على العفاريت قضاء مبرماً ، بقيت آفات أهرمن فى العالم .

وتقول الأساطير الإيرانية إنه بعد أن خلق الإله هرمزد العالم ، وفرغ من خلق السماء والجبال والبحار والنبات والحيوان والبشر - أبدع شريعة كى يتعلمها الناس ، ويتبعون الصدق والإحسان ، ويتجنبون القبائح والآثام ، ثم حاول أن يختار لشريعته إنساناً يحافظ عليها ، ويعين الناس على العمل بها ، وكان جمشيد أعلم الناس وأجلهم شأنًا ، إذ كانت له قطعان كثيرة ، ووجه مشرق جميل .

ويلاحظ أن (النبوة) لا تقوم على كثرة القطعان وجمال الوجه ، لكن (الأفستا) اختارت لجمشيد هاتين الصفتين ، وجعلته (الحارس الأول للعالم الذى أبدعه هرمزد) ، وقالت إنه فى زمنه (لم يكن للمرض والموت والشيخوخة وجود) ، هذا مع أن الشاهنامة تذكر أن جمشيد بن طهورث ابن أوشنج الذى (علمته الجن الخط والكتابة على ثلاثين نوعاً من الألسنة المختلفة) . . وتزيد بأن طهمورث أول من ركب الخيل ، ووضع الأحمال على الدواب ، وأن فى عهده اجتاج الناس وباء عظيم ، فصوروا من هلكوا ، ثم عبدوا الصور . . وتضيف بأن الضحاك العربى اليمنى هو الذى قتل جمشيد ، وأن حفيد جمشيد المسمى أفريدون هو الذى قتل الضحاك ، وهو أيضاً نوح صاحب الطوفان ، بينما تذكر الأفستا أن جمشيد هو نوح ، وهو صاحب الشريعة الذى قال لهرمزد : أيها القدسى العادل ، إننى سأكون حارساً لعالمك ، سأبارك خلقتك ، وسأمنحهم القوة ، وأصونهم من الآفات والأضرار ، ولن تهب فى فلكى الرياح الباردة والرياح الحارة ، ولن يكون هناك غم ولا مرض ولا موت ، ولن يبلغ أحد فى ساحة حكمى سن الشيخوخة والهرم ، وسوف يتراءى الوالد والولد كلاهما فى سن الخامسة عشرة للأناظر .

ومر ثلاثمائة عام على حكم جمشيد ، فازداد العمران ، وامتلاً وجه البسيطة من الناس والدواب الصغيرة والكبيرة والطيور والكلاب ، ولهب النار الحمراء . ضاق المكان فى وجه مخلوقات هرمزد ، لكن الأرض (اتسعت وتمددت ، وزادت ثلثاً على ماكانت عليه) ، ثم امتلأت بالمخلوقات ، ثم اتسعت ، ثم ضاقت ، وأخيراً كان لابد من الطوفان ، ليخفف من كثافة السكان .

قال هرمزد : (يا جمشيد اللطيف ، سيحل شتاء قارص جداً ، وسيأتى برد من ورائه لا يستطاع احتماله ، وستهطل الثلوج من قمم الجبال ، حتى بطون الأنهار ، وستهلك الحيوانات ، سواء ماكان منها على الجبال أو فى الحظائر ، وبعد حدوث الطوفان تجرى السيول ، وتغرق الرياض والمروج ، ولن يرى بعد ذلك ظلف على وجه الأرض) .

(يا جمشيد اللطيف ، شيد حصناً منيعاً ، يكون طوله من أى جهة مسيرة ميدان ، وخذ إلى هذا الحصن نماذج من الحيوانات الصغيرة والكلاب والطيور ، ولهب النار الأحمر ، وابن للناس مساكن ، واصنع للدواب حظائر ، وأجر أنهار الماء ، وهبى مروجاً خضراء . . وأدخل معك فى الحصن أفضل الرجال والنساء ، وأحسنهم وأجملهم وأحسن الحيوانات وأجلها وأفضلها . . أعدد زوجاً من كل مذكر ، وامنع أن يلج الحصن كل ما كان ناقصاً ، أو مصاباً بأفة شيطانية) .

* لاحظ أن الطوفان يتردد كثيراً فى تراث هذه الساحة الواسعة التى حكمتها الإمبراطورية الفارسية ، ولعل ذلك بسبب ذوبان الثلوج الكثيفة التى كانت تسيطر على قمم الجبال ، داخل الإمبراطورية وحولها .

فلما كان تدوين الأستاق (الأستا) من الذاكرة ، بعد فقدانها بعدة قرون ، دخلت كل الأساطير وروايات المؤرخين وغير المؤرخين (المدّاحين) التى تناقلوها شفاهاً ، والأوهام التى ارتبطت بأمجاد ، أو بأحلام الأمجاد - فى نسج مانسب إلى زارادشت ، فكان معظم ملوك الپيشداديين والكيانيين يذكرون فى الأستاق محاطين بكثير من الأساطير الدينية ، كما أن معظم الملوك من كيومرث إلى كيخسرو يذكرون فى الأساطير الهندية ، لأنهم بقايا من الأساطير الآرية التى حفظها الهنود والفرس على خلاف فيها .

وقد حفظت الأستاق أسماء أبطال كانوا من قوى الخير والشر فى الدين الآرى القديم الذى قام على عبادة الطبيعة ، ولهذا قيل إن الأستاق مأخوذة من كتب الفيدا التى تبلغ اليوم مائة مجلد ، يدل على هذا ما هو مشترك من آلهة وأمراء ، ومن كلمات وتراكيب ، وهذا يدل على أن حالة من (الاسترخاء) -

بعد التوسع العسكرى الكبير - فتحت أبواب الدولة الفارسية ، لتدخل منها الرياح الطيبة من الحضارات التى تجذرت فى الدول المحيطة بها ، وإن كان ثمة احتمال أن يكون الأصل الآرى هو المصدر الأساسى لما جاء فى كل من الشيدا والأفستا . . أمّا ما هو من أصل بابلى قديم كالفقرات التى تصف خلق الكون على ست مراحل : (السماء ، فالماء ، فالأرض ، فالنبات ، فالحيوان ، فالإنسان) ، وتسلسل الناس من أبوين أولين ، وإنشاء جنة على الأرض ، وغضب الخالق على خلقه ، واعتزاه أن يسلط عليهم طوفاناً يهلكهم جميعاً إلا قلة قليلة - فهذا من (الميراث) الذى فرضته الأرض المشتركة ، والحضارة المتطورة .

وقيل إن الكتب الزرادشتية القديمة كانت تتضمن فصولاً خصصت للشريعة والقانون ، وتحتوى على فصل فى الجرائم التى ترتكب ضد الملك ، وضد الدولة ، وضد الجار . . الخ ، وكان الامتحان لإظهار البيّنة Ordeal والتعذيب أمرين مألوفين فى أصول التقاضى عند الساميين .

وبعد زوال الكيانين بحروب الإسكندر المقدونى ، وضياح ماكان من ذكريات الملوك القدماء - فى القرون الخمسة التى مضت بين الإسكندر وأردشير مؤسس الدولة الساسانية - نهض أردشير بإحياء ذكرى هؤلاء الملوك ، وأحياء دين زرادشت ، وترجم الأبتاق إلى الفهلوية ، وخلطها بالبقية القليلة التى علقت بالذاكرة عن هؤلاء الملوك ، وبما عرف من تاريخ الأشكانيين ، وأضيف إلى هذا ما عرفه الفرس عن حروب الآشوريين والعرب والتورانيين ، من أساطير قديمة ، أو وقائع حديثة ، ردها إلى عهد قديم ، وزيد على هذا وذاك ما اخترعته خيالات الجماهير ، فصار هذا كله قصة حماسية ، احتفظ بها الدهاقين ، وحدثوا بها وأنشدها الناس فى محافلهم وأعيادهم .

* ذكر المسعودى فى (مروج الذهب) أن (الأبتاق) كتب فى اثنى عشر ألف مجلد بالذهب ، فيه وعد ووعيد وأمر ونهى ، وغير ذلك من الشرائع والعبادات ، فلم تزل الملوك تعمل بهذا الكتاب إلى عهد الإسكندر ، وماكان من قتله دارابن دارا ، فأحرق الإسكندر بعض هذا الكتاب ، ثم صار الملك بعد

الطوائف إلى أردشير بن بابك ، فجمع الفرس على قراءة سورة منه يقال لها أسناد ، فالفرس فى هذا الوقت لا يقرءون غير هذا الكتاب .

وجاء بالشاهنامة أن فصول الأستاق البالغ عددها ألفا ومائتى فصل كانت مكتوبة على ألواح من الذهب .

وأضاف الدكتور أمين عبد المجيد فى (القصة فى الأدب الفارسى ص ٣٣ / ٣٨) أن الأستاق يتكون من خمسة أجزاء ، هى : يسنا ، ويسپرد ، ونديداد ، ويشتها ، وخرده أفستا .

يسنا Yasna : أهم الأجزاء ، ومعنى (يسنا) العبادة والتسبيح والصلاة والعيد ، ويتلى من اليسنا وقت إجراء المراسم المذهبية .

يسپرد : معناه كل السراة ، وهو من ملحقات اليسنا ، ولايتلى فى المراسم المذهبية .

نديداد : معناه قانون ضد الشياطين ، وهو لا يتلى فى المراسم الدينية ، وعدد فصوله ٢٢ فصلاً الفصل الأول فى خلق الأرض وما عليها ، والثالث فى الصحة والمرض ، وأغلب الفصول حتى الحادى والعشرين فى القوانين المذهبية والأحكام الدينية ، أما الفصل الثانى والعشرون فعن جلب أهرمن ٩٩٩٩٩ مرضاً ، وإيجاد الرسول الإلهى (بيك إزدى) ٩٩٩٩٩ علاجاً لها .

يشتها : معنى كلمة (يشت) العبادة والزمزمة على الطعام والتسبيح ، فهى تسابيح للخالق وملائكته .

خرده أفستا : أى الأستاق الصغرى ، أو مختصر الأستاق ، وهو كتاب للصلاة والأدعية الخاصة بكل وقت من اليوم ، والأيام المباركة من الشهر ، والأعياد الدينية فى العالم ، وأوقات الصحة والمرض التى تعرض فى الحياة .

أما (الزند) فهو الشرح الأول للأستاق ، ويعتقد الزارادشتيون أن كلا من الزند والأستاق نزل من السماء .

و (البازند) تفسير الزند ، و (الإيادرة) شرح البازند .

ومع أن ملوك الفرس أخذوا فى تدوين مابقى فى الذاكرة من الأستاق خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، ثم أعادوا المحاولة فى القرن الخامس ، فإن كل مابقى منه (ترنيمات زارادشت) ، ونصوص الطقوس الدينية الرئيسية ، وترنيمات أخرى وصلوات . . وفى القرن التاسع تم تدوين عدد من الكتب الزارادشتية تدافع عن (ديانة الخير) ضد الدعاية المسيحية والإسلامية ، وتقرب أفكار المذهب من رجل الشارع .

* كتب الأستاق بلغة قديمة ، هى اللغة التى كانت شائعة فى شرق إيران ، وقد رتل زارادشت تراثيله بهذه اللغة - الأساطير الإيرانية القديمة ص ١٣ .

ولاهتمام الأستاق بالملوك السابقين ، ولأن جستاسب ومن جاء بعده من الملوك اهتموا بنشر الزارادشتية - فقد اهتم الأستاق بإعلاء شأن الملك الذى (منحته الآلهة السلطة لكى يحكم نيابة عنها ، وهى تتوقع منه أن يعامل الناس بالعدل ، وبلا محاباة ، بحيث يدافع عن الضعيف أمام القوى ، وأن يكون نصيراً لليتامى والأرامل) ، وكان عليه أن يوجه الشعب لإرضاء الآلهة حتى يمكن الحصول على بركاتها ، وتجنب لعناتها .

ومايقوم به الملك طوال حياته تحكمه طقوس دينية ، واحتفالات تضمن طهارته ، وتحرس شخصه ، وفى ترقب نذير شؤم يوضع على العرش ملك بديل يتلقى مايمكن حدوثه من سوء ، حتى الموت إذا كانت النبوءة تنذر به .

ويستطيع المتعبد الثرى - حتى يعفى نفسه من أعباء العبادة - أن يودع المعبد شيئاً مناسباً ، على سبيل الهدية ، (تمثالاً ثميناً ، بعض الأواني النحاسية أو الفضية ، شاهداً أو حجراً تذكاريًا ، خاتماً ، قطعة ذهبية) ، وتوضع هذه الهدايا إلى جوار تمثال الإله ، لتذكر بطلب (عبده) ، أو لشكره على نعمته ، وقد تكتب صلوات على هيئة رسائل تكتب عادة - فى شئ من التفصيل - عارضة الشكوى أو الالتماس ، أو الاحتجاج ، أو طالبة النصر على الأعداء . . والكاتب طبعاً ليس إلا الكاهن الذى يزداد أجره كلما طالت الرسالة ، أو حسب نوع الحاجة التى يطلب قضاءها .

وكانت الصلاة ركوعًا وسجودًا ، ورفعًا لليدين معًا إلى أعلى لتلقى البركات ، أو وضع يد أمام الفم والأخرى تجاه الوجه ، كأنه يقفّض الأمر إلى الله .

وقد اهتم الكهنة كل الاهتمام بإرضاء الآلهة ، وبخاصة أن الكهنة أو الآلهة تحتاج إلى مؤن منتظمة من الطعام الجيد والشراب اللذيذ ، توضع أمامها على الموائد صباح مساء ، واللحوم المفضلة عند الآلهة هي لحوم القرابين ، حتى لا يفكر أحد في شراء لحوم من السوق ، ويسوى بين الآلهة ومن يشترون هذه اللحوم من البشر ، وكان الدم يصب في فناجين لشربها أو لاستخدامها في أحد الطقوس ، ثم تختار الأجزاء الممتازة ، كالرئتين والكبد ، لمعرفة الطالع . . وتقدم إلى الآلهة كذلك الفاكهة والسمك والطيور والعسل والزبد واللبن ، إلى جانب الأطعمة الرئيسية ، كخبز الشعير والبصل والتمر ، أما الزيت والخمور فتقدم بسخاء . . (وكل شيء يسجله الكتبة بدقة) ، ثم تودع تقاريرهم سجلات المعبد (الأرشيف) . . وتحظى التماثيل بزينات جديدة في أعيادها . . وهذا كله من موروثة ما قبل زرادشت .

* ومع أن الشاهنامة دونت في ظل الدولة الإسلامية وانطبعت بطابعها فإن النزعة الفارسية كانت المسيطرة على قلم الفردوسى ، وهو يدون التراث الإيراني ، من خلال الأساطير المتداولة ، مستعينًا في الدرجة الأولى بما جاء في الأوستاق . . وبما أن الأوستاق منسوب إلى زرادشت ، أو إلى الزرادشتية على الأصح ، فإن التقاليد والعادات والعقائد التي وردت في الشاهنامة لاتكاد تبعد عن مخلفات الزرادشتية ، وعن آثارها في وجدان الشعوب التي شغلت ساحة الإمبراطورية الفارسية .

وقد أجمل الدكتور أمين عبد المجيد هذه التقاليد والعادات والعقائد في (جولة في شاهنامة الفردوسى ص ٥٧ / ٦١) بقوله : يؤمن الناس في الشاهنامة بإله واحد ، وقدر غالب لارادله ، ولا يختلفون في عبادتهم لهذا الإله إلا من حيث الصورة ، ونراهم يلجئون إليه وقت الشدة ، ويشكرونه بعد زوال الكربة ، وهم إزاء القضاء والقدر عاجزون لاتغنى عنهم حيلة ولاتدبير ، ويحيلون عليه في كل الأمور مستسلمين .

والنبوءات ليست مقصورة على المنجمين ، بل يشاركونهم فيها الملوك والعلماء والمواظدة والأبطال .

وأبطال الشاهنامة يتطيرون ويتشاءمون ، وهناك ما يشعر بإيمان القوم بالبعث والدار الآخرة .

وقد نظمت العبادات الزرادشتية بموجب عقائد شديدة ، فقد حرمت الضحايا والقرايين ، كما حرم شراب (الهوما) المسكر الذى كان يستعمله المجوس فى الطقوس الدينية ، ويعتبرون عصير ذلك النبات بمثابة دم الإله الفحل المسمى (هوما) .

واتخذ مبدأ عدم دفن الموتى ، أو حرقهم ، أو غسلهم ، مخافة تدنيس العناصر الثلاثة المقدسة : (التراب ، والنار ، والماء) ، فكانت أجسام الموتى تعرض فى أماكن مرتفعة فى الجبال ، أو على أبراج تبنى لهذا الغرض ، وبعد تخليص العظام من اللحم ، بواسطة الجوارح والوحوش ، تجمع العظام فى صندوق وتقبر .

والإيمان بالحساب فى الآخرة لا يعفى من الحساب فى الدنيا ، إن لم يكن الحساب فى الدنيا من وحى الحساب فى الآخرة ، أو هو تمهيد له ، وباعتبار الملوك ، ومن يعملون فى تنفيذ أحكامهم ، إنما يحققون إرادة الإله ، ويفرضون شريعته ، فقد أصبح العنف فى تنفيذ الأحكام طاعة للمعبود ، ورحمة بالعابد .

* هذا جملة ما وصلتُ إليه عن المذهب الزرادشتى ، وهو يعبر بوضوح عن أن الدراسات التى نشأت عن التراث الزرادشتى لم تميز بين الأصل والدخيل ، وتم خلط كبير بين ما قبل زرادشت وما بعده ، ذلك لما أصاب الأصول الزرادشتية الأولى ، وما ران عليها من مخلفات الحضارات ، على نحو ما أصاب اليهودية والمسيحية ، إذ عملت الأحداث العسكرية والسياسية ، والاضطرابات الاجتماعية والنفسية التابعة لهذه الأحداث - على توجهات واجتهادات شخصية وعنصرية ، وعلى عدم الدقة فى التدوين ، وعدم الورع فى التقرير والتبرير . . ثم الخضوع للنقول دون متابعة ومراجعة .

عبادات وطقوس

لما انتقل الدين - فى الأيام الأخيرة - من الأنبياء إلى الساسة ، صُوِّرَ الإله الأعظم فى صورة ملك ضخم ذى جلال مهيب ، وكان بوصفه خالق الكون وحاكمه يستعين بطائفة من الأرباب الصغار التى تمثلت فى قوى الطبيعة ، كالنار ، والماء ، والشمس ، والقمر ، والرياح ، والمطر .

وكان لأهورامزدا - كما وصفه زارادشت - سبعة مظاهر ، أو سبع صفات ، هى : النور ، والعقل ، والطيب ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود .

والله لا يمكن أن يكون مسئولاً عن الشر ، لأن الشر جوهر ، مثله مثل الخير ، وكل منهما يرجع إلى سبب أول هو الله (أهورامزدا) ، والشيطان (أهرمن) .

وإذا ما انسحب المرء من العالم - كما يفعل الناسك - فإنه بذلك ينبذ عالم الله ، ومن هنا كان الزهد خطيئة كبرى ، مثله مثل الانغماس فى الشهوات ، وعلى الرجال واجب دينى يفرض عليهم أن تكون لهم زوجة وأولاد ، حتى يزدوا من أتباع ديانة الخير ، وليكونوا من المؤمنين بالأفعال المقدسة . . كذلك حرث الأرض وفلاحتها ورعى الماشية . . ولما كانت الصحة هبة من الله ، فإن على جميع البشر أن يعملوا على التمتع بها ، ويكونوا أفدر على القيام بالأعمال الصالحة ، فالعمل ملح الحياة . . وإلى جانب العمل لابد من الفكر ، حتى يمكن قهر الشكوك والرغبات السيئة ، (يقهر الجشع بالرضا ، والغضب بالسكينة ، والحسد بالإحسان ، والحاجة باليقظة ، والنزاع بالسلام ، والكذب بالصدق) .

ومادام ميلاد الطفل يمكن أن يجلب الموت بسهولة - والموت من عمل الشيطان - فلا بد من إحاطته بالوصفات الطبية ، والحرمان .

ولابد للمرء أن يمر بطقوس التطهر قبل أن يقوم بأى عمل رئيسى من أعمال العبادة .

وكثيراً ما يتم الاعتراف بالخطايا التى ارتكبت عن طريق التفكير أو الكلام أو العمل .

وظلت العادة الآرية القديمة ، عادة تقديم عصير (الهوما) المسكر قرباناً إلى الآلهة ، بعد انتشار الزرادشتية بزمان طول ، بالرغم مما أثر عن زارادشت من تحريره . . كان الكهنة يحسسون بعض هذا العصير المقدس ، ويوزعون مابقى على من يحضرون الصلاة ، فإذا حال الفقر دون تقديم هذه القرابين الشهية كانت الزلغى إلى الآلهة بالصلوات والأدعية وتلاوة الترانيم .

* وكان من العقائد الثابتة أن (أستواد) إله الموت لايفلت من قبضته أحد ، أينما كان مقره ، ومن وراء الموت - وهو أشد الخفايا رهبة - كان جحيم ، وأعراف ، وجنة ، وكان لا بد لأرواح الموتى جميعاً أن تجتاز قنطرة (الصراط) ، لا تمر بها فى أمان إلا الروح الطيبة ، فتصل إلى (مسكن الفناء) ، حيث تلقاها وترحب بها (فتاة عذراء ذات قوة وبهاء ، وصدر ناهد ملى) ، وهناك تعيش الأرواح الطيبة مع أهوارمزدا سعيدة منعمة أبد الدهر . . وجنة زارادشت موقعها أقصى شرق جبال البرز ، إذ ترتفع الجبال متجاوزة النجوم ، إلى عالم النور اللانهائى ، حيث لاليل ، ولابرد ، ولا مرض . . أما الروح الخبيثة فلا تستطيع اجتياز القنطرة ، وتتردى فى درك الجحيم الذى يتناسب عمقه مع ما اقترفت من ذنوب . . والجحيم هاوية مظلمة رهيبة ، تعذب فيها الأرواح المذنبة أبد الأبدى . . فإذا كانت حسنات الإنسان ترجح سيئاته قاسى عذاباً مؤقتاً يطهره من الذنوب . . وإذا كان قد ارتكب كثيراً من الخطايا ، لكنه فعل بعض الخير ، لا يلبث فى العذاب إلا اثنى عشر ألف عام ، يرفع بعدها إلى السماء .

* تفردت الزرادشتية بهذا التفصيل الذى يشبه - إلى حد ما - ما جاء به الفكر الإسلامى ، وخلت منه التوراة والإنجيل ، وإن وردت فى أسفار الأنبياء المتأخرين إشارة (عرضية) إلى الآخرة ، إذ يقول سفر دانيال - ص ١٢ - (كثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، إلى الازدراء الأبدى) . . حتى هذه الإشارة لاتستقيم بالمفاهيم الدينية ، إذ إن لفظ (كثيرون) يعنى أن القيامة خاصة لا عامة ، ثم إن لفظى (الأبدية) عن النعيم ، و (العار) عن الجحيم ، لفظان غير معبرين عن حقيقة كل من الثواب والعقاب . . والأنجيل كذلك لم تهتم بما بعد الموت أدنى اهتمام ، مادامت

* يقول الأستاق : إن على الإنسان واجبات ثلاثة : (أن يجعل العدو صديقاً ، وأن يجعل الخبيث طيباً ، وأن يجعل الجاهل عالماً) ، وذلك بالفكر الطيب ، والكلم الطيب ، والعمل الطيب .
 إن أعظم الفضائل التقوى ، ويأتى بعدها مباشرة الشرف والأمانة ، قولاً وعملاً .

وحرّم أخذ الربا من الفرس ، وجعل الوفاء بالدين واجباً يكاد يكون مقدساً ، لأن الدائن فى الغالب إقطاعى أو رأسمالى ، ورأس الخطايا الكفر ، وعقاب المرتد الإعدام فوراً .

ويقول هيرودوت : إن الفرس (يرون أنهم خير الناس جميعاً ، من جميع الوجوه) ، وهم يعتقدون أن غيرهم من الأمم تدنو من الكمال ، بقدر ما يقرب موقعها الجغرافى من بلاد فارس ، وأن شر الناس أبعدهم عنها .

ولم تك فارس الزارادشتية تسمح بإقامة الهياكل أو الأصنام ، بل كانوا ينشئون المذابح المقدسة على قمم الجبال ، وفى القصور ، أو فى قلب المدن ، وكانوا يوقدون النار فوقها تكريماً لأهورامزدا ، أو لغيره من صغار الآلهة .

وكانوا يتخذون النار نفسها إلهاً يعبدونه ، ويسمونها (أنار) ، ويعتقدون أنها ابن إله النور ، وكانت كل أسرة تجتمع حول موقدها ، وتعمل على أن تظل نار بيتها متقدة لاتنطفئ أبداً .

وكانت الشمس - نار السموات الخالدة - تعبد بوصفها أقصى ما يمثّل فيها أهورامزدا ، أو مثرأ ، كما عبدها أخناتون فى مصر .

وكانوا يقربون إلى الشمس وإلى النار ، وإلى أهورامزدا ، القرابين من الأزهار ، والخبز ، والفاكهة ، والعمود ، والثيران ، والضأن ، والجمال ، والخليل ، والحمير ، وذكور الوعول . . ولم يكن ينال الآلهة من هذه القرابين إلا رائحتها ، أما الكهنة والمتعبدون فهم المستفيدون الحقيقيون ، لأن الآلهة - على حد قول الكهنة - ليست فى حاجة إلى أكثر من روح القرбан .

وظلت العادة الآرية القديمة ، عادة تقديم عصير (الهوما) المسكر قرباناً إلى الآلهة ، بعد انتشار الزرادشتية بزمان طول ، بالرغم مما أثر عن زارادشت من تحريمه . . كان الكهنة يحتسون بعض هذا العصير المقدس ، ويوزعون مابقي على من يحضرون الصلاة ، فإذا حال الفقر دون تقديم هذه القرابين الشهية كانت الزلغى إلى الآلهة بالصلوات والأدعية وتلاوة الترايم .

* وكان من العقائد الثابتة أن (أستواد) إله الموت لايفلت من قبضته أحد ، أينما كان مقره ، ومن وراء الموت - وهو أشد الخفايا رهبة - كان جحيم ، وأعراف ، وجنة ، وكان لأبد لأرواح الموتى جميعاً أن تجتاز قنطرة (الصراط) ، لاتمر بها فى أمان إلا الروح الطيبة ، فتصل إلى (مسكن الفناء) ، حيث تلقاها وترحب بها (فتاة عذراء ذات قوة وبهاء ، وصدر ناهد مليء) ، وهناك تعيش الأرواح الطيبة مع أهورامزدا سعيدة منعمة أبد الدهر . . وجنة زارادشت موقعها أقصى شرق جبال البرز ، إذ ترتفع الجبال متجاوزة النجوم ، إلى عالم النور اللانهائى ، حيث لاليل ، ولابرد ، ولا مرض . . أما الروح الخبيثة فلا تستطيع اجتياز القنطرة ، وتتردى فى درك الجحيم الذى يتناسب عمقه مع ما اقترفت من ذنوب . . والجحيم هاوية مظلمة رهيبة ، تعذب فيها الأرواح المذنبة أبد الأبدى . . فإذا كانت حسنات الإنسان ترجح سيئاته قاسى عذاباً مؤقتاً يطهره من الذنوب . . وإذا كان قد ارتكب كثيراً من الخطايا ، لكنه فعل بعض الخير ، لايلبث فى العذاب إلا اثنى عشر ألف عام ، يرفع بعدها إلى السماء .

* تفردت الزرادشتية بهذا التفصيل الذى يشبه - إلى حد ما - ما جاء به الفكر الإسلامى ، وخلت منه التوراة والإنجيل ، وإن وردت فى أسفار الأنبياء المتأخرين إشارة (عرضية) إلى الآخرة ، إذ يقول سفر دانيال - ص ١٢ - (كثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، إلى الازدراء الأبدى) . . حتى هذه الإشارة لاتستقيم والمفاهيم الدينية ، إذ إن لفظ (كثيرون) يعنى أن القيامة خاصة لا عامة ، ثم إن لفظى (الأبدية) عن النعيم ، و (العار) عن الجحيم ، لفظان غير معبرين عن حقيقة كل من الثواب والعقاب . . والأنجيل كذلك لم تهتم بما بعد الموت أدنى اهتمام ، مادامت

الخطايا تكفل يسوع (الإله) بحملها على كتفيه ، حين عذب وصلب . . إشارة واحدة عارضة قالت : (إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله) ، فلفظ (ملكوت الله) لفظ شاعري يتسع لكل شيء ، ويضيق حتى يقف عند مرضاة الله . . ولم يرو الحديث عن الجنة والنار والمطهر إلا بقرارات المجامع المقدسة ، وقرارات البابوية التي أصدرت معها صكوك الغفران .

من هنا يتبين أن الزارادشتية كان لها أصول سماوية أقرب - فى هذا الجانب - من الأصول المدونة فى اليهودية ، إذ إنها تعتقد بالبعث ، والثواب والعقاب ، والصراط ، والجنة والنار ، والأعراف ، وخلود الروح .

لكن بريستيد (فجر الضمير ص ٣٧٠) وقف بهذه الأفكار عند الديانة المصرية القديمة ، إذ يقول : (إن ظهور فكرة الحساب فى الآخرة - وهو شيء لم يعرف فى آسيا الغربية قبل زروستر - قد أوجد نظرية قوية أن زروستر قد أخذ الكثير من ديانتته عن الديانة المصرية القديمة) .

(وكل زائر دخل قصر قورش الأكبر كان يشاهده لابساً تاج «أوزير» ، إله الحساب المصرى فى عالم الآخرة عند قدماء المصريين) .

(وقد أخذ الفرس الكثير - فى العمارة والفن - عن المصريين القدماء) .

ويضيف الأستاذ العقاد (الله - ص ٧٨) أنهم جمعوا بين عقيدة الهند فى نهاية العالم وعقيدة المصريين فى محاسبة الروح ووزن أعمالها فى موقف الجزاء .

وإذا كانت اليهودية قد تحدثت عن المخلص (الماشيح) ، والمسيحية تحدثت عن عودة المسيح ، وأن كلاً من المخلص والمسيح سيقوم حياة العدالة والمحبة لمدة ألف عام ، ثم تكون النهاية - فإن الزارادشتية قالت إنه يخرج من صلب زارادشت - فى فترات مختلفة ، خلال ثلاثة آلاف عام - ثلاثة من البنين ، ينشرون تعاليمه فى أطراف العالم ، ثم يحل يوم الحساب الأخير ، وتقوم مملكة (أهورامزدا) ، ويهلك (أهرمن) هو وجميع قوى الشر ، وتبدأ الأرواح الطيبة

حياة خالية من الشرور والآلام ، ويخلو العالم المادى من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال - قصة الحضارة مج ١ ج ٢ ص ٤١٨ / ٤٣٦ .

ومن ثمار الصراع بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية المسيحية كان اهتمام الملوك الساسانيين بالدين الزرادشتى - كعنصر قوة - فى مواجهة الدين المسيحى ، فأعادوا إلى هذا الدين ما كان له من سلطان وتقدير . . وهبوا له الأراضى والعشور ، وتأسس نظام الحكم على أساس الدين ، كما فعل قسطنطين ومن جاءوا بعده ، وعين كاهن أكبر ذو سلطان ، لا يفوقه سلطان الملك نفسه ، رئيساً لطائفة الكهنة المجوس الوراثة ، التى كانت تشرف على جميع النواحي المذهبية فى الحياة الفارسية تقريباً ، وكانت تنذر من تحدته نفسه بالإثم ، أو بالخروج على سلطان الدولة بالعذاب الدائم فى الجحيم .

وقد بلغ من ثراء هذه الطائفة أن كان الملوك أنفسهم يستدينون أموالاً طائلة من خزائن الهياكل . . وقد تبادل الملوك والكهنة الأنخاب ، ففى مقابل ما أباحه الملوك للمجوس من سلطات وتجاوزات أضفى عليهم الكهنة من القداسة ما جعل الملك (ملك الملوك ، ابن الآلهة ، سيد الكون) ، وكان على الذين يدخلون على الملك أن يخروا له سجداً ، ويقبلوا الأرض بين يديه ، وألا يرفعوا رؤوسهم عن الأرض إلا إذا أمرهم الملك بالوقوف ، ولا يتحدثوا إليه إلا وعلى فم كل منهم منديل ، حتى لا تعدى أنفاسهم الملك أو تدنسه .

ويبدو أن الملوك الساسانيين صدقوا ما خدعهم به الكهنة ، ليزيدوا من عزلتهم عن الشعب ، وليقوى تأثيرهم عليهم وعلى الشعب - فصاروا يعاملون ملوك الدول الأخرى على أساس من هذا الوهم الكبير ، أو لعلهم وجدوا فى هذا (الانتفاخ) الأخرق ما يزيد من هيبتهم ، ويوقع الرعب فى قلوب الآخرين .

جاء فى رسالة أبرويز إلى هرقل : (من كسرى أعظم الآلهة ، وسيد الأرض كلها ، إلى هرقل ، عبده الغبى الذليل ، إنك تقول إنك تعتمد على إلهك ، فلم إذن لم ينقذ أورشليم من يدى ١٩) .

كان أبرويز قد نهبت جيوشه أورشليم سنة ٦١٤ م ، وقتلت ٩٠ ألفاً من

المسيحيين ، وأحرقت كثيراً من كنائسها ، ومن بينها كنيسة الضريح المقدس ، وأخذت (الصليب الحق) ، وهو أعز أثر على المسيحيين .

وهذا لا يعد انتصاراً عسكرياً خطيراً ، لأن فلسطين أقرب إلى حضن الدولة الفارسية ، ومن السهل احتواؤها ، ومن النذالة أن يفتك بآلاف من سكانها الذين لا حول لهم ولا طول ، لكنها شريعة الحروب في ذلك الزمان ، ولم يكن الروم ليرحموا أحداً ، أو يتركوا أثراً للحياة في أرض فارسية أو غير فارسية تقع في أيديهم ، إذ كان أسلوب (يوشع) في الإبادة الكاملة المثل الأعلى في الديانتين اليهودية والمسيحية ، بل إن هذا كان شعار الدولتين اليونانية والرومانية من قبل قراءة سفر يوشع .

ولم يكن مافعله أبرويز أول جريمة فارسية شنعاء ضد المسيحية ، إذ إنه لما اشترك القساوسة في الدفاع عن الأقاليم البيزنطية ضد شابور الثاني - كما حدث عن نصيبين سنة ٣٣٨م - شرع ملوك الفرس يضطهدون المسيحية ، وأخذ المسيحيون في فارس يجهرون بآمالهم في انتصار الدولة البيزنطية ، فأمر شابور سنة ٣٤١م بذبح جميع المسيحيين الساكنين في الإمبراطورية ، ولما رأى أن قرى كاملة من القرى المسيحية أقفرت من أهلها أمر بأن يقتصر على قتل القسيسين والرهبان ، حتى هلك ١٦ ألف مسيحي ، نتيجة هذا الاضطهاد الذي دام حتى موت شابور سنة ٣٧٩م .

ولما جلس يزدجرد الأول على العرش (٣٩٩ - ٤٢٠) رد للمسيحيين حريتهم الدينية ، وساعدهم على بناء كنائسهم ، حتى إذا كان عام ٤٢٢م قرر مجلس من أساقفة الفرس استقلال الكنيسة المسيحية الفارسية عن الكنيستين اليونانية والرومانية - قصة الحضارة مع ٤ ج ١ ص ٢٩٥ .

* والزارادشتيون (البارسيون) اليوم - حيث يصل عددهم في الهند إلى مائتي ألف - يكونون أكثر الأقليات نشاطاً واستنارة وقدرة على العمل ، منهم المهندسون والموظفون ورجال البنوك ومديرو مصانع الغزل وشركات السكك الحديدية ، وهم يمتازون بحب الإنسانية ، وقد أقاموا عديداً من المؤسسات الخيرية : مستشفيات ، ودور رعاية للأيتام ، ومدارس .

ويمكن مقارنتهم بالبيوريتان الإنجليز الذين فروا في القرن السابع عشر من الاضطهاد الديني إلى أمريكا ، حيث يحتل أحفادهم اليوم أرقى المناصب - ترانيم زارادشت ص ١٥٦ .

والبارسيون يعبدون النار ، ويقدسون عناصر الطبيعة ، ويحرصون على عدم تدنيس هذه العناصر : الأرض والنار والماء ، ومن ثم لا يدفنون موتاهم في باطن الأرض ، أو يلقيونها في البحر أو يحرقونها كالهندوك ، بل يضعون الميت بعد تكفينه على سطح برج عال (برج الصمت) ، لتكون طعاماً للكواسر ، فلا يبقى إلا الهيكل العظمي الذي يمكن حرقه بعد جفافه ، ويمكن دفن عظامه .

وهم لا يتقيدون بطعام معين ، ولا يميزون بين الطبقات ، وعند الزواج يشرب العروسان بول الثور تيمناً وتبركاً - الهند . . عقائدها وأساطيرها ص ١٢٤ / ١٢٦ .

ترانيم زارادشت

ترانيم زارادشت هي (هذه الترانيم التي يتفق العلماء على نسبتها إلى زارادشت نفسه ، دون غيرها من الأناشيد التي يحتويها كتاب الأستا المقدس لدى الزارادشتيين) .

وهي من حيث كونها ترانيم لا تقيم فلسفة ، وإن تناولت قضايا كونية ، أو (ميتافيزيقية) ، ذلك لأن لُحمة الترنيمه مشاعر وانفعالات وكلمات مجنحة ، وسُداها النغم والإيقاع والمعاناة الحاملة ، على حين تنشأ الفلسفة من تأملات واجتهادات فكرية أشبه بالإبحار في المجهول دون الوقوف عند مرافئ محددة .

لهذا أعجب لقول سيمون بترمان ، مؤلفة رسالتين عن الثنوية : (لا أدرى لماذا يتحاشى الأساتذة بنوع من الرعب تصوير زارادشت كفيلسوف ، أو له علاقة ولو ضئيلة بالفلسفة ، رغم هذا ، إن كانت هناك عقيدة فلسفية مجردة فهي عقيدته ، لماذا لا يرغب أحد في إدراك هذا ؟ لأنها بالغة القدم ؟ كل شيء أكثر قدماً مما يظن المرء حتى - بوجه خاص - الفلسفة) -ترانيم زارادشت ص ٩ .

المعيار في الفلسفة وغيرها ليس القدم أو الحداثة ، ولا الموضوعات المتناولة ، إنما هو المنهج والأسلوب ، فإذا اعتبرنا زارادشت من أصحاب الرسائل وقفنا عند حدود قيم ومبادئ ، لأن المعيار سلوكي أخلاقي اعتقادي ، وهذا يباعد بين الرسالة والفلسفة ، لأن الفلسفة أقرب إلى التجارب المنطقية ، والاجتهادات العقلية ، ولهذا لا يكاد يلتقي فيلسوفان إلا ليختلفا ، ولو أننا وقفنا عند حصيلة الفلسفة لمازادت عن مجرد نشاط ذهني وكدّ منطقي ، على عكس الرسالة التي تتحرك بحركة الجماهير ، وقد تقيم دولة وتهدم أخرى .

أما عن الترانيم فمن التجاوز أن تدخل تحت أي مسمى فلسفي ، وإن كانت نشاطاً دينياً له أثره في نشر الرسائل ، فهي لا تقيم رسالة ، وإنما تعين عليها ، وتشع بإشعاعها . . ولهذا إذا صح أن مابقي من زارادشت هي ترانيمه ، فإن من الخطأ أن نقيس رسالته بها ، وإن صح أن تكون دالة عليها .

ترنيمه ٥٠ / ٦^(١) قال زارادشت : (لى أنا - زارادشت - النبى والصدىق الحميم للحق / رافعاً صوتى بابتهاى / : أيها الحكيم / عسى أن تكشف خالق قوة العقل ، كعقل خير / وصاياها / علها تكون درب لسانى) .

ترنيمه ٤٨ / ١٢ : (هؤلاء هم المخلصون المقبلون للناس / الذين يناضلون بأفعالهم ، بتعزيد «العقل الخير» / لينفذوا الحكم الذى به قضيت / أيها الرب الحكيم كحق / لهؤلاء الذين خلقوا الشرور) .

ترنيمه ٣٤ / ٦ : (لأنك بالحقيقة هكذا ، أيها الرب الحكيم ، مع الحق والعقل الخير / امنحنى هذه العلامة ، التحديد الكلى لهذا الوجود / حيثذ يكون فرحى العظيم فى عبادتك وتسييحك) .

ترنيمه ٣٤ / ١٥ : (علمنى ، أيها الرب الحكيم ، أفضل الكلمات والأفعال / و «كعقل خير» و «حق» صلاة التسبيح من خلال هيمنة ملكوتك / أنت من تجعل الوجود مجدداً حقاً طبقاً لمشيئتك) .

ترنيمه ٣٣ / ١ : (بالنسبة للشرير والرجل المستقيم / وهو الذى يجمع بين الخطأ والصواب / ستكون المحاكمة بالنظام القائم / تبعاً لقوانين هذا الوجود) .

ترنيمه ٣٣ / ٨ : (التفت إلى شئونى التى أتبعها عن طريق «العقل الخير» / عبادتى لك أيها «الرب الحكيم» / وكلمات التسبيح التى أوجهها إليك «كحق» / لتضمن لى نعمتك ، أيها «الكمال» ، و «الخلود» إلى الأبد) .

ترنيمه ٣٣ / ١٢ : (أسرع إلى ، أيها الرب / كتحوى .. امنحنى الجلد / كروح مقدس عظيم ، أيها الرب الحكيم ، امنحنى العطاء السخى / كحق .. امنحنى القوة على التصدى / كعقل خير ، اضمن لى ينبوع السعادة) .

تساؤلات :

ترنيمه ٤٤ / ١٠ : (هذا ما أسألك عنه أيها الرب ، أجبنى بالصواب / «العقيدة» التى هى أفضل ما فى الوجود من أشياء / هل يكفى ، أيها الرب

(١) الترانيم مسبوقة بأرقام غير متتابعة - ترانيم زارادشت - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣ .

الحكيم ، لهؤلاء الذين يشناقون / إلى وعودك المعلنة في تعاليمي / أن يراعوها جيداً في أعمال وكلمات التقوى ؟ / عسى أنها - مع الحق - تجعل كل مايمت لي / مزدهراً) .

ترنيمة ١١/٤٤ : (هذا ما أسألك عنه ، أيها الرب ، أجبني بالصواب / هل ستمتد التقوى إلى هؤلاء الذين سيعلنون / عقيدتك ؟ / منذ البدء قد اخترت لأجل هذا منك / وسوف أنظر لجميع الآخرين بروح العدا) .

ترنيمة ١٣/٤٤ : (هذا ما أسألك عنه ، أيها الرب ، أجبني بالصواب / كيف نتخلص من الشر ؟ / أنلقيه وراءنا على هؤلاء العصاة / الذين لا يلقون بالاً إلى اتباع « الحق » / ولا يكلفون أنفسهم بالتشاور مع « العقل الخير » ؟) .

ترنيمة ١٤/٤٤ : (هذا ما أسألك عنه ، أيها الرب ، أجبني بالصواب / كيف سأسلم الشرير إلى أيدي « الحق » / عسى أن يسحقه طبقاً لقواعد تعاليمك / عسى أن يسبب شقاقاً عظيماً بين الأشرار / ليصيبهم عمى الحروب والعداوات) .

ترنيمة ١٦/٤٤ : (هذا ما أسألك عنه أيها الرب ، أجبني بالصواب / من الذي سيكون ظافراً ويحمي الأحياء بتعاليمك ؟ / عسى أن تمنح لي الشواهد الملموسة / بمعرفة المخلص الذي سيداوى الوجود / وعسى أن تمنح طاعته بواسطة « العقل الخير » / إلى جميع هؤلاء الذين يبحثون عنه ، أيها الرب الحكيم) .

ترنيمة ١٨/٤٤ : (هذا ما أسألك عنه أيها الرب ، أجبني بالصواب / هل سألتقى أجراً بواسطة « الحق » / عشرة أفراس مع حصان وجمل / التي وعدتني بها أيها الحكيم / مع هبة الكمال والخلود ؟) .

تعليق بقلم (المؤلف) : (هذا ما أسألك عنه ، أيها الرب ، أجبني بالصواب) صيغة لاتنفرد بها أشعار أو ترانيم زارادشت ، بل توجد في كثير من النصوص ذات الأصل الآري ، كنصوص الإدّا Edda الإسكندنافية - ص ٧٣ .

ترنيمة ١١/٤٦ : (الذين يقدمون التضحيات ، ، والأمراء المشعوذون / قد أخضعوا البشر لنير سيادتهم / ليدمروا الوجود بواسطة أعمال الشر / سوف

يلقون العذاب بأرواحهم وضمائرهم / عندما يأتون إلى البرزخ / وإلى الأبد سينزلون في مقر الشر) .

ترنيمة ١٥/٤٦ : (لأجلك ، «سبتاما» ، سليل «هيكاتسبا» / أعلن أنك ستميز طاهراً من بين المدنسين / بهذه الأفعال التي تتفق مع التعاليم الأولى للرب / لقد أمّنت نفسك «بالحق») .

تعليق بقلم (مؤلف) «ترانيم زارادشت» البلجيكي جاك جيلمان ص ٦٦ :
(سبتاما) لقب من ألقاب زارادشت ، يعنى الروح الخيرة ، فهو الذى يعلم المقاصد الإلهية ، وهو الذى سيعلمها أمام الناس ، وعلاوة على هذا سيمنح حلاوة أو عذوبة الحديث ، وربما يكون المقصود أيضاً بلاغة الدعوة .

ترنيمة ١٨/٤٦ : (ومن كان صادقاً معى بواسطة «العقل الخير» / إليه أقدم الوعد / الذى أشتاق إليه ، أنا نفسى ، كل الاشتياق / لكن القهر سيكون نصيب الذى يسعى إلى اضطهادى / أيها الرب الحكيم ، إنى أناضل لألبى رغبتك ، من خلال «الحق» / هذا هو قرارى بإرادتى وعقلى) .

ترنيمة ١٩/٤٦ : (وهذا الذى يكون معى ، الذى مع زارادشت / طبقاً للحق ، سوف يعبر / إلى ما هو البعث الأعظم ، بمشيئة «الرب» / وعندما سيكتسب الحياة الآتية ستقدم له مكافأة / بقرتان ولودتان وثور ، وكل ما يشتهى عقله / هذا ما كشفته لى ، أيها «الرب الحكيم» ، وأنت خير من يعلم) .

تعليق : عبارة (بقرتان ولودتان وثور ، وكل ما يشتهى العقل) تؤكد أن هذا النعيم الأخرى ليس سوى صورة خالدة من النعيم الأرضى ، كما يتصوره زارادشت ، وكما يمكن أن يتصوره أتباعه - ص ٨٥ .

ترنيمة ٤/٢٨ : (أنا الذى يكافح من أجل صحوة «الروح» «المتحدة» «بالعقل الخير» / والذى يعرف مجازاة «الرب الحكيم» على أعمالنا / حيث يمكننى ، وحيثما أستطيع / سوف أبشر بالبحث عن «الحق») .

ترنيمة ٥/٢٨ : (عالماً أنك «الحق» ، وأنت مع «العقل الخير» / هكذا أراك ، وأرى أيضاً / أن «الرب الحكيم» بالغ العظمة ، له العرش والقصاص / بهذا

القول من أفواهنا / ستحول البشر من فرائس للشر إلى كائنات عظيمة) .

ترنيمة ٧/٢٨ : زارادشت («كحق» ، عضد نجاحات «العقل الخير» / بما هو مقضى «مقدّر» / «كتقوى» ، امنح القوة «لفشتاسبا» ولى / تكفل بهذا أيها «الرب الحكيم» / وأعط القوة إلى «نيك» ، كى يصير مسموع الكلمة) .

تعليق : (إن وظيفة القصاص بلا جدال هى درع المارقين) - ص ٩٠
(فشتاسبا وفراسوا سترًا من المحامين عنه) - ص ٩١ .

ترنيمة ١/٤٥ : (إنى سأحدث ، استمعوا ، وأصغوا . يامن أنتم فى الجوار ، أو من بعيد ، أتيتم للإرشاد / اجعلوا جميعاً فهمكم له ، لأنه جلى / عسى ألا يدمر المعلم الزائف الوجود الثانى / هذا الذى يعد آثماً ، لخياره الشرير ، وقد أتم بلسانه) .

ترنيمة ٢/٤٥ : (أنا سأحدث عن الروحين : قال المقدس منهما للمهلك فى بداية الوجود / لا تتفق أفكارنا ، ولا مذهبنا ، ولا قوى عقولنا / ولا خياراتنا ، ولا كلماتنا ، ولا أفعالنا / ولا ضمائرنا ، ولا أرواحنا) .

ترنيمة ٣/٤٥ : (سوف أتحدث عن بداية هذا الوجود / عن الأشياء التى أخبرنى بها الرب الحكيم ، العارف / إن الذين لم يحملوا الكلمة / كما سأفكر وأنطق بها / سوف تكون نهاية الوجود لهم ، ياويلته) .

ترنيمة ٥/٤٥ : (سوف أتحدث بالكلمة التى أخبرنى بها / الرب الحكيم الأقدس ، كأفضل مايسمعه البشر / هؤلاء الذين سيُولون انتباههم لى ، وطاعتهم له / سوف يحصلون على الكمال والخلود بواسطة / أفعال العقل الخير) .

ترنيمة ٧/٤٥ : (هو الذى يمنح الخلاص أو الهلاك الأبدى / إلى الأحياء ، أو من كانوا ، أو من سيكونون / روح الصالح تجازى بالخلود / العذاب الأبدى لروح الشرير / عذابات جعلها الرب الحكيم الخالق ، من خلال سيادته) .

ترنيمة ٩/٤٥ : (ليتحدث عن رضاه لنا بالعقل الخير / هو الذى يمنحنا الحظ السعيد والعائر وفقاً للمشئة / لعل الرب الحكيم بواسطة سيادته على

القرية / ومن خلال اتحاد العقل الخير بالحق / ينجح قطيعنا ورجالنا) .

ترنيمة ١١/٤٥ : يتحدث عن (الآلهة المزيفة) فى صورة الجمع ، بينما يتحدث عن الإله الحق بلفظ الواحد . فيقول : (من سيحمل منذ الآن بغض «الآلهة المزيفة» / وهؤلاء الذين لن يحملوا المعصية للمخلص / لهم سيقف الضمير المقدس للمخلص الآتى / سيد منزله / بدلاً من الصديق الحميم ، والأخ ، والوالد / أيها الرب الحكيم) .

ترنيمة ٣/٤٧ : (إنك أنت الأب المقدس لهذه الروح / التى خلقت لنا ، أيها الرب الحكيم ، قطعان الماشية / مصدر الثروة الطيبة / وكى تمنحنا السلام ، خلقت التقوى / لرعاية الماشية / عندما تأخذ بمشورة العقل الخير) .

ترنيمة ٣/٣٠ : (منذ البدء أعلن الروحان التوأمين عن طبيعتهما / الطيب والشرير / بالفكر ، والكلمة ، والفعل / بينما يختار الرجل الحكيم جيداً ، ولا يفعل هكذا الأحمق) .

ترنيمة ٤/٣٠ : (عندما أتى هذان الروحان معاً / فى البدء أقاما الحياة واللا حياة / وفى النهاية سوف يكون الوجود الأسوأ للشرير / بينما للتقى العقل الطيب) .

ترنيمة ٥/٣٠ : (من بين هذين الروحين ، اختار الشرير فعل الأشياء السيئة / لكن الروح المقدس الأعظم ، المكتسب بالسموات الراسخة / انضم إلى الحق / وهكذا يفعل أولئك الذين يتهجون بإرضاء الرب الحكيم / بالأعمال الشريفة) .

ترنيمة ٦/٣٠ : (بين الاثنين ، أخطأت الآلهة المزيفة الاختيار / لم يتفكروا للحظة بأن الخطأ أحرق بهم / هكذا اختاروا العقل الرديء / ثم هرعوا لينضموا إلى روح السوء / حتى يمكنهم به أن يفسدوا وجود الإنسان) .

ترنيمة ٨/٣١ : (بواسطة العقل ، أيها الرب الحكيم ، عرفتكم كمبتدى ومتتهى / كوالد للعقل الخير / عندما عاينتكم بعينى كخالق حق / للحق / كسيد فى أفعال الوجود) .

ترنيمة ١١/٣١ : (حيث إنك / أيها الحكيم ، خلقت لنا منذ البدء بعقلك /

الكينونة ، والضمائر ، والإرادات / حيث إنك قد أعطيته جسداً لروح الحياة /
حيث إنك خلقت الأعمال والكلمات ، كى يقرر / الإنسان بحرية) .

ترنيمة ٢٠ / ٣١ : (الذى يساند الرجل التقى ، سيظهر / له المجد المقبل .
ويأبىها الأشرار لكم الظلام المخيم المقيم / والطعام الرديء ، والعويل / لمثل هذا
الوجود ستقودكم ضمائركم / التى تملأ أعمالكم) .

ترنيمة ٢٢ / ٣١ : (تلك الأشياء واضحة للرجل ذى البصيرة / إن الذى
يعرف سيادة الحق / من خلال العقل الخير / والذى يدعمه بالكلمة والفعل /
سيكون ، أيها الرب الحكيم ، ضيفك المكرم) .

مانى

مانى Mani من أسرة بارثية ملكية ، قضى شبابه فى بلاد ما بين النهرين التى كانت بوتقة تنصهر فيها كثرة الديانات الرئيسية .

ومعنى كلمة مانى فى الفارسية الفريد ، النادر .

كان والده (فاتك) من رجال همدان ، هاجر إلى بابل حيث ولد ابنه بمدينة إكباتانا ، العاصمة الميدية القديمة ، سنة ٢١٦ م ، وتلقى تعليمه فى طيسفون .

وكان والده (فاتك) ناسكًا ، ينتمى إلى إحدى الطوائف الدينية ، فتربى (مانى) فى جو من البحث والدراسات الدينية ، وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنه أصبح صاحب النور الكامل ، الذى هو القوة المحركة لكل صاحب رسالة دينية .

وبعد أن اطلع (مانى) على الأديان الأخرى ادعى النبوة ، وهو فى سن العشرين ، وسمى نفسه (فارقليط) الذى أخبر عنه المسيح ، عليه السلام .

(كان يتمتع بعذوبة البيان ، وحلاوة الكلام ، يخلب القلوب ، ويسحر العيون) .

ولما كانت له حرية الدخول إلى البلاط الملكى ، فقد استطاع أن يقنع عددًا من القادة المؤثرين بالدخول فى دينه ، وأن ينال حُظوة لدى الملك الساسانى شاپور الأول (ت ٢٧٢م) الذى رافقه فى حروبه مع الدولة الرومانية . . وتجددت الحُظوة مع الملك بهرام الأول حتى أيامه الأخيرة .

أعلن (مانى) أنه هو الذى جاء ليتم عمل زارادشت وبوذا والمسيح ، فهؤلاء جميعًا شذرات من الحقيقة ، وإن كانت هذه الشذرات قد فسدت بفساد الأتباع ، (والآن أرسلنى الله لنشر دين الحق . . أرسلنى الله من بابل حتى تصل دعوتى إلى العالم أجمع) .

كان مما يتسق وخصائص تفكير الناس فى تلك الأيام أن تحتوى تعاليمه على ضرب من مزج الأديان والآلهة (الشيوكرازيا) ، حتى يحدث لون من (المصالحة الفكرية) بين الطوائف الدينية التى تعج بها الإمبراطورية الفارسية ، وهى فى

حالة حرب مدمرة مع الإمبراطورية الرومانية ، فلم تكن الإمبراطورية الفارسية قادرة على الصمود في وجه الرومان ، وهى فى حالة تمزق فكرى وولاء ضائع بين المثرية والبوذية والزارادشتية والصابئة المندائية واليهودية والمسيحية . . ومن ثم دعا إلى دين يجمع بين الأديان جميعاً ، فقد رأى أن مؤسس الأديان من قبله كانوا جميعاً على صواب ، كان بوذا وزارادشت وموسى ويسوع المسيح أنبياء صادقين ، بيد أنه وكل إليه أن يوضح تعاليمهم التى أصابها الأتباع بالنقض والاضطراب ، وكان عليه أن يتوجها جميعاً بروح من زارادشت وأسلوبه ، وأن يفسر ما فى الحياة من اضطراب وتناقض بأنه صراع بين النور والظلمة ، بين أهورا مزدا الإله وأهرمن الشيطان ، ولكن كيف خلق الإنسان ؟ وكيف سقط من النور إلى الظلام ؟ وكيف يمكن تحريره من الأغلال ، وإنقاذه من الظلام ؟ ثم ماهو الدور الذى يقوم به (الفارقليط) فى هذا الخليط العجيب من الديانات ؟

وحدّ مانى آلهته - بوصفه (رسول النور) - مع آلهة المستمعين إليه ، فإذا ماوجه خطابه إلى المسيحيين كان المخلص يسوع ، وإلى الزارادشتيين كان الكائن الأول أهورامزدا . . أما إله العهد القديم (يهوه) فكان مانى يبغضه لعنفه وشدة بطشه وكثرة جرائمه .

ولقد مكنت هذه (المرونة) المصطنعة ، أو (الشعوذة) ، المانويين - فى عصور الاضطهاد - من أن يلبسوا لكل حالة لبوسها ، فهم مسيحيون أو يهود ، بوذيون أو زارادشتيون ، مادام هذا (التحول) أو (المسخ) يفسح لهم طريق النجاة .

كانت (الثنائية) محور تعاليم مانى ، فالله ، أبو العظمة ، (زروان) ، والد أهورامزدا ، يعارضه أمير الظلام أهرمن ، والاثنان عنصران أوليان ، والعالم مخلوق من أجساد حكام الظلام ، أمّا ما سُجن داخل المادة الإنسانية فومضات من نور الله ، أو شذرات من الإنسان الأول أهورامزدا ، الذى سجنته الشياطين ، وتسعى الروح - فى العالم الأرضى المؤلف من عناصر مختلفة - إلى الفرار من هذا السجن ، من الموت ، عدوها الذى يشبه النسر الكاسر الذى فصلها عن موطنها الحقيقى ، النور ، ويتحقق الانعتاق بواسطة الزهد ، ومعرفة الطبيعة

الحقيقية للنفس ، وعندما تنعتق الروح من المادة ، من سجن الشيطان ، فإنها تصعد إلى الفردوس الذى يحكمه الإنسان الأول ، أهورامزدا ، الذى أعانه والده (زروان) على الانعتاق ، وعندما تتحرر كل ومضات النور التى سجنت فى المادة - فى نهاية العالم - تعود الأجساد إلى جنة الخلد . . وأثناء ذلك يتعرض أولئك الذين لم يتمكنوا من تحقيق الانعتاق فى هذه الدنيا للميلاد من جديد .

وبهذا لُقِّق مانى دينا زوده بالطقوس والآداب الدينية ، وحرّم الأوثان . . وفرض على أصحابه - كما يقول الشهرستانى (الملل والنحل مع ١ ج ٢ ص ٨٥) - (العشر فى الأموال ، والصلوات الأربع فى اليوم والليلة ، والدعاء إلى الله الحق ، وترك الكذب ، والقتل ، والسرقعة ، والزنى ، والبخل ، والسحر ، وأن يأتى على ذى روح مايكره أن يؤتى إليه بمثله) .

وكان (اعتقاده فى الشرائع والأنبياء أن أول من بعثه الله بالعلم والحكمة آدم أبو البشر ، ثم شيثاً بعده ، ثم نوحاً بعده ، ثم إبراهيم بعده ، عليهم الصلاة والسلام ، ثم بعث بالبدة إلى أرض الهند ، وزارادشت إلى أرض فارس ، والمسيح كلمة الله وروحه إلى الروم والمغرب ، وبولس بعد المسيح إليهم ، ثم يأتى خاتم النبيين إلى أرض العرب) . . وهذا النص (فيه نظر) .

وزعم أنه يؤمن بالقيمة التربوية للفن ، فقرر تجليد الكتب تجليداً فاخراً ، وأن تزين بالرسوم ، وأن تصاحب الطقوس تراتيل وموسيقى جميلة - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ١٢٩ / ١٣٠ .

يقول صاحب (مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ج ٢ ص ٥١٧ / ٥١٨) : الذى عليه البحث الحديث أن الطقوس والعبادات التى فرضها (مانى) مشتقة - بالدرجة الأولى - من عبادات بابل وإيران القديمة ، ومن ثم ترمى التعاليم المانوية إلى تحرير الروح أو النفس من الجسد ، وحين تتحرر كل النفوس المحبوسة بالمادة تصعد إلى الشمس ، وعندئذ تتحطم الأرض والسماء ، وتدوم إلى الأبد مملكة النور .

وأتباع هذه الديانة ينقسمون إلى طائفتين : المقربين المصطفين ، والسامعين المطيعين ، ويدخل فى الطائفة الأولى الكهنة الذين فرضت عليهم العزوبة ،

وحرم عليهم أكل الحيوان ، وظهرت نفوسهم من الغل والحسد والكذب ، أما السامعون فقد سمح لهم بالزواج .

ومارست المانوية ما يشبه بعض الأسرار المسيحية ، كالتمعيد ، والتوبة ، والقداس الإلهي ، والغفران من الذنوب عند الاحتضار . . وتأثرت بالغنوصية في العقائد الميتافيزيقية ، في بدء الكون وأصل الأشياء . . واشتقت أسماء الملائكة من المصادر السريانية . . وتأثرت بالبوذية في الاعتقاد بتقمص الأرواح للأجساد وتناسخها . . كما تأثرت بالمبادئ الزرادشتية .

* ولعل أهم ما يثير الاهتمام من الناحية التاريخية (معالم تاريخ الإنسانية - مج ٣ ص ٧٥٢) أن ماني لم يكتف بالطواف في إيران مبشراً بأفكاره الجديدة هذه التي بدت له مقنعة تمام الإقناع ، بل دخل التركستان ، وهبط إلى الهند ، وعبر الممرات الصينية .

وقد انتشرت أفكاره شرقاً وغرباً في سرعة مثيرة ، وظلت تمد العالم المسيحي بأسره بالهرطقات طوال ما يقارب ألف سنة .

وعاد ماني إلى طيسفون حوالي سنة ٢٧٠ م ، وانضم إليه أنصار كثيرون ، ونتيجة هذا النجاح ، ولأنه خالف الزرادشتية بزعمه عن الإنسان الأول - تأمر عليه كهنة زرادشت ، وضيقوا عليه الخناق ، حتى إن الملك أحضر الموابدة - كما تقول الشاهنامة ج ٢ ص ٧١ - وقال : (انظروا في أمر هذا المصور ، فإنني قد وقعت من شأنه في شك ، فناظروه وباحثوه ، فانقطع المصور المزور ، وظهر للملك أنه من حلية الصدق عاطل ، وأن كلامه زور وباطل) .

وفي سنة ٢٧٧ م أمر به الملك بهرام فصلب وسلخ ، وعانى أتباعه أعنف الاضطهاد ، ومع ذلك صمدت المانوية في فارس عدة قرون .

مزدك

فى حوالى نهاية القرن الرابع الميلادى تغير نظام الطبقات تغيراً تاماً ، فاتحد
الزراع والصناع والتجار ، ونشأت طبقة ثالثة ، هى طبقة العمال المدنيين التى
شغل رؤساؤها مكاناً إلى جانب العرش الملكى ، مع الرؤساء الروحانيين ورؤساء
الأرستقراطية العسكرية .

وفى عهد قباذ الأول (٤٨٨ - ٥٣١) نشب نزاع حاد بين جماهير الشعوب
والطبقات النبيلة ، وقد اتبعت الجماهير حركة دينية اجتماعية غريبة تدعو إلى
التساوى العادل فى توزيع الملكية ، واقتسام أموال الأغنياء ، والمشاركة فى
النساء ، وتنسب هذه (الحركة) إلى مزدك .

جاء فى (المل والنحل مج ١ ج ٢ ص ٨٦ / ٨٧) ، حكى الوراق أن قول
المزدكية (كقول كثير من المانوية فى الكونين والأصلين ، إلا أن مزدك كان يقول
إن النور يفعل بالقصد والاختيار ، والظلمة تفعل على الخط والاتفاق ، والنور
عالم حساس ، والظلام جاهل أعمى ، وإن المزاج كان على الاتفاق والخط ، لا
بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار .

وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك
إنما يقع بسبب النساء والأموال أحلّ النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة
فيها . كاشتراكهم فى الماء والنار والكلاء .

وحكى أنه أمر بقتل الأنفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة .

وروى عنه أن معبوده قاعد على كرسيه فى العالم الأعلى ، على هيئة قعود
خسرو فى العالم الأسفل ، وبين يديه أربع قوى ، قوى التمييز والفهم والحفظ
والسرور ، كما بين يدي خسرو أربعة موبدان : موبذ والهريذ الأكبر ،
والأصبهيد ، والرامشكر ، وتلك الأربع تدير شئون العالمين بسبعة من الوزراء ،
سالار ، وبيشكار ، وبالون ، وبروان ، وكاردان ، ودستور ، وكودك ، وهذه
السبعة تدور فى اثني عشر روحانياً ، وكل إنسان اجتمعت له هذه القوى الأربع
والسبعة الوزراء والاثني عشر روحانياً صار ربانياً فى العالم السفلى ، وارتفع عنه
(التكليف) .

والمزدكية مستقاة من تعاليم (مانى) ، ولها قواعد خاصة بالسلوك ، إذ كانت تتطلب من أتباعها الامتناع التام عن النزاع والبغضاء والحسد والتكالب على جمع المال ، ولأنها تناهض سطوة الأغنياء والنبلاء ، فقد أيدها قباز ليخضد شوكة هؤلاء الذين كانوا ينازعونه سلطانه ، وأدخل عدة تشريعات يتعلق بعضها بمكانة النساء ، فنشبت ثورة خلعتة عن العرش وحاكمته وسجنته ، ونُصِب أخوه (جماسب) ، لكن قباز هرب من سجنه ، ولجأ إلى الإفلاطيين (الهون البيض ، قبائل طورانية وتركية ، وراء جيحون) ، وعاد في سنة ٤٩٩ مع جيش منهم ، فخلع أخاه ، واستعاد عرشه .

وتحكى (الشاهنامه ج ٢ ص ١١٨) عن علاقته بمزدك ، فتقول :

اتصل بقباز رجل فصيح اللسان ، غزير العلم ، ذورأى وعقل ، يسمى مزدك ، فقبله قباز ، وأقبل عليه ، حتى اتخذه دستوراً وخازناً ، فاتفق أن أصاب الناس في ذلك العهد لُزْبَةً شديدة ، احتبس فيها القطر ، وهلك الزرع ، فاجتمع أكابر إيران على باب قباز ، وضجوا بما هم فيه من الضيق والشدة وعدم الأقوات ، فقال لهم مزدك : إن الملك سيزيل ظلامتكم ، ويحقق طلبتكم ، ودخل على الملك وقال : إنى سائلك عن مسألة ، فأجبنى عنها ، فقال : هاتها ، قال : ماذا تقول فى رجل معه جملة من الترياق المجرب ، وعنده رجل قد لدغته الحية ، وهو على شرف الموت ، وصاحب الترياق يمنعه عنه ، ويضن به عليه ، ويدعه حتى يموت ؟ قال الملك : إن صاحب الترياق مأخوذ بدم هذا اللدغ ، وينبغى أن يقتل به ، فقام مزدك وخرج ، وقال للمتظلمين : إنى فاوضت الملك فى أمركم ، فانصرفوا الآن ، وعاودوا الدركاء غداً ، فانصرفوا وعاودوا بكرة ، فدخل مزدك على الملك ، ودعاه ، وأثنى عليه ، ثم قال : لقد أجبتنى أمس عن مسألتى ، وأريد الآن أن تُجيبنى على مسألة أخرى ، فقال : سل ، قال مزدك : ماذا تقول فى من حبس رجلاً ، وقيدّه ، ومنعه الطعام والشراب ، حتى مات ؟ قال : هذا المسكين متقلد دم يسفكه ، فخرج مزدك ، وقال لمن حضر بالباب من المتظلمين : إن الملك قد أباحكم ما فى الأهراء من الغلات ، فابسطوا أيديكم ، وأينما وجدتم منها شيئاً فاستبيحوه ، ففعلوا ذلك ، وطمّت المدينة ، وماجت بالعامّة الذين أخرجتهم المجاعة ، وانتهت غلات الملك وغيره .

وبلغ الملك ما حدث ، وأن مزدك هو الذى رخص فى ذلك ، فاسحضره ،
وسأله عما حمله على ذلك ، فقال : إن الجائع هو اللديغ ، والطعام هو
الترياق ، وقد أباح الملك دم صاحب الترياق ، إذا لم يتدارك حشاشة اللديغ
المشرف على الموت ، وقد رأيت الناس يموتون جوعاً ، ولاخير عند أرباب
الغلات المدخرة ، فأبحثهم إياها ، على مقتضى حكم الملك وقوله ، فسكت
قباد .

استعلى أمر مزدك ، وطالت ذراعه ، واتسع باعه ، وكثرت أشياعه
وأتباعه ، وخالف الأنبياء فى مللهم ، وباين العلماء فى طرقهم ، وكان يقول :
ينبغى أن تكون أمور العالم على السواء ، ولايقع تفاوت فى نعم الله بين الأغنياء
والفقراء ، ويكون الغنى كالسدى ، والفقير كاللحمة ، فشرع مذهب الإباحة
على هذه الصفة ، ولم يزل أمره يقوى إلى أن آمن به قباد ، ودخل فى دينه ،
وشاع هذا المذهب فى أطراف الدنيا ، وصار بحيث لايتجاسر أحد على
مخالفته .

واتفق أن دخل على الملك ، وقال له : إن على الباب جماعة من أهل
ديننا ، ومتبعى ملتنا ، فأذن لهم قباد فى الدخول ، فقال مزدك : إن هذا المكان
ضيق لايسعهم ، فإن رأى الملك خرج لأجلهم إلى الصحراء ، فأمر بإخراج تخته
إلى الصحراء ، وخرج ، فاجتمع عليه نحو مائة ألف نفس من المزدكية ، فقال
مزدك لقباد : اعلم أن ابنك كسرى ليس على ديننا ، ولاينبغى أن يخالف مذهب
الحق ، والرأى أن نأخذ خطه بمتابعتنا ، وترك ما هو عليه من الضلالة والجهالة ،
ثم قال : والذى يمنح الناس عن سلوك طريق السداد منحصر فى خمسة أشياء
لاغير ، وهى الغيرة والحقد والغضب والحرص والفقر ، وإذا قمعت هذه
الأخلاق الشيطانية استقام لك طريق الحق ، ومنشؤها كلها من شيئين : المال
والنساء ، فينبغى أن يجعلنا على الإباحة من الخلق أجمعين ، حتى نأمن من
الآفات الخمس ، فأمر قباد ابنه كسرى بالدخول فى دينه ، فاستمهل خمسة
أشهر ، على أنه إذا لم يظهر بطلان دينه فى هذه المدة يدين معه ، فرضى منه قباد
ذلك ، وتفرق الناس عن ذلك المجمع ، فنقذ كسرى كتبه إلى بلاد فارس
يستدعى العلماء ، فجاءه موبذ من أرض أردشير خرة ، يسمى مهراذ ، فى

ثلاثين موبدا ، وتفاوضوا عند كسرى فى حديث مزدك ، وما جاء به من الملة المدخولة ، فكثرت بينهم المباحث والمناظرات ، حتى اتضح لهم بطلان دينه ، وتقرر بينهم إدحاض حجته ، وأوضحوا ذلك لكسرى ، فدخل على أبيه ، وقال : إن ظهرت حقيقة دين مزدك ، وبطلان دين زارادشت تبعتك ، وإن ظهر بطلانه ينبغي لك أن تتبرأ منه ، وتمكننى منه ومن أتباعه ، حتى أرى فيهم رأى ، وأنفذ فيهم حكمى ، فوافقه قباذ على ذلك ، فأشهد به على نفسه زرمهر وجميع من حضر من العلماء والموابذة ، فقام كسرى إلى إيوانه ، ولما أصبح ركب ومعه الموابذة ، ودخل على أبيه قباذ ، وحضر مزدك ، واحتفلوا للمناظرة ، فتصدى موبد ، وقال : أيها الرجل ، قد أتيت بدين جديد ، أبحث فيه النساء والأموال ، ويلزم من ذلك ألا يعرف الوالد ولده ، ولا الولد والده ، وإذا مات الإنسان لا يدري من يرث طارفه وتليده ، وإذا اختلط الناس فمن أين يعرف الكبير من الصغير والوضيع من الشريف ؟ وإذا استووا فمن يتعين للرياسة ويترشح للسياسة ؟

وأخذوا فى المناظرة والمباحثة حتى انقطع مزدك ، وظهر لقباذ أنه عن حلية الدين عاطل ، وأن كلامه باطل ، ليس وراءه طائل ، فرجع عن دينه ، وندم على تقديمه ، فسكّمه إلى كسرى ، وسلطه عليه وعلى أصحابه ، وقال له : إن على الباب ثلاثة آلاف نفس من رؤساء المزدكية ، فنكّل بهم أولاً ، ثم افعل ماشئت بمزدك ثانياً ، فقبض كسرى عليهم أجمعين ، وطمرت رؤوسهم إلى خصورهم فى التراب ، وتركّت أرجلهم منتصبة بادية للأبصار ، كأنهم غرسوا غرس الأشجار ، ثم استحضر مزدك ، وقال له : ادخل إلى البستان ، وانظر فيه إلى شجر لم ير مثله ذو بصر ، فدخل البستان ولما شاهد ذلك غشى عليه ، فأمر به فصلب ، ورشق بالسهام حتى مات ، بل نفق ، وتبدد شمل دينه بعدما اتسق. (١)

(١) هناك من يزعم أن مزدك طلب من قباذ أن يبعث بامرأته ليتمتع بها المزدكيون ، فكان هذا سبب القضاء عليهم - الديانات القديمة ص ١٢٤ - وهو قول لا ينبغي الوقوف عنده .

الفند

من قبل

القول بأن العالم صار قرية كبيرة ، بسبب من سرعة الاتصال ، وتبادل المعلومات ، لايعنى أن العالم القديم كان جزراً معزولة ، ذلك لأن ماتفرضه الحياة المعيشية كان من أقوى الدواعى إلى الهجرات الجماعية ، وقد كانت فى الغالب هجرات استيطانية ، ماطاب العيش ، أو ما كانت الغلبة ، وتبع هذه الهجرات تبادل الثقافات ، وتمازج الحضارات ، وتناسخ المعالم والسمات .

ولأن هذه الهجرات الاستيطانية ضاربة فى القدم ، غير مقتصرة على أرض دون أرض ، أو على قبيل دون قبيل - فإن الحديث عن الحدود المكانية لايعنى أكثر من خطوط عامة لا تمثل سدوداً وموانع صارمة ، مهما كانت جبلاً شامخة ، وبحاراً عميقة ، وغابات كثيفة .

فإذا وضعنا فى الاعتبار طموحات بعض الملوك فى مد سلطان بلاده إلى بلاد مجاورة ، فقد أصبحت هذه الحدود أقرب إلى مجرد صُوى على الطريق قابلة للإزالة ، أو لإعادة التخطيط .

من هنا يكون وقوفنا على حدود الهند من الشمال عند سلسلة جبال الهملايا ، ومن الغرب عند جبال الهندكوش وسليمان ، حيث تقع أفغانستان وإيران ، وتمتد إلى الجنوب فى شبه جزيرة يقع بحر العرب فى غربها ، وخليج البنغال فى شرقها وسيلان فى طرفها الجنوبى ، ويتجه الإقليم الشمالى منها إلى الشرق ، حتى جبال آسام .

وفى الهند أنهار عظيمة ، بعضها ينبع من الشمال ، حيث الهملايا ، ويصب

فى بحر العرب ، مثل نهر السند ، أو نهر الإندوس ، وفى مجراه الأعلى تمده روافد ، لاسيما التى تجرى فى البنجاب ، أخصب بلاد الهند ، وأكثرها عمراناً ، وبعض الروافد ينبع من كشمير ، ويعتبر نهر السند من أطول أنهار الدنيا ، إذ يبلغ طول مجراه ٢٩٠٠ كم ، ومنها نهر (الكنج) ، وهو النهر المقدس لدى الهندوس الذين يغتسلون فى مياهه ، ليتطهروا من ذنوبهم ، ويتدفق من جبال الهملايا ، من ارتفاع أربعة آلاف متر ، ويعد الصعود إلى هذا المكان من أعظم القربات عند الهندوس ، ومنها نهر (جمنا) ، وهو ينبع من الهملايا أيضاً ، ونهر (براهما پترا) الذى يأتى من الشمال الشرقى ، حيث جبال الهملايا وآسام ، ويجرى فى البنغال .

وثمة أنهار أخرى فى الوسط والجنوب تصب فى خليج البنغال ، أو فى بحر العرب - تاريخ الإسلام فى الهند ص ٦ / ٢ .

وماعدا هذه الأنهار فإن البلاد غنية بالأمطار والمياه الجوفية ، مما يساعد - مع سعتها ، وكثرة سكانها ، وتنوع تضاريسها - على تكوين حضارى غنى بمعارفه وعقائده وإنجازاته المادية والروحية .

وقد نشأت حضارة وادى السند فى الألف الثالث قبل الميلاد ، على وجه التقريب ، وبحلول الألف الثانى قبل الميلاد احتلت مساحة تقدر بنحو ثلث مساحة الهند ، حيث امتدت شمالاً إلى جبال الهملايا ، وجنوباً إلى مشارف بومباى ، تقريباً ، ومن الساحل الغربى باتجاه الشرق إلى دلهى .

وتكشف مدينة موهنجودارو جانباً من تراثها ، فقد بلغ سكان هذه المدينة عام ٢٠٠٠ ق.م نحو أربعين ألف نسمة ، وقد صممت شوارعها المرصوفة بالأحجار ، وفق تخطيط مركزى على شكل شبكة مستطيلة ، وشكلت مناطق إنتاج القمح الوفيرة مستودعاً مناسباً لطعام الناس والماشية ، وكان ثمة أنظمة خاصة بالمياه الجوفية المزودة بالألواح الخزفية ، وأنظمة صرفها ، تمثل إنجازاً هندسياً رائعاً ، كما تمثل كفاءة التخطيط والإدارة ، وتحقيق تنظيم اجتماعى وسياسى على مستوى عال .

ومن الطبيعى افتراض أن الجوانب المادية المتطورة فى حضارة السند ، كانت تجد مايعادلها فى نسق متطور من الفكر الاجتماعى والدينى ، كما كانت تجد مايعادلها أو قريباً منها فى أنحاء أخرى من الهند ، وبخاصة فى البنغال شرقاً ، وفى الجنوب الذى كان ملتقى قديماً لحضارة جنوبى الجزيرة العربية ، ولجميع البلدان والجزر المطلة على الخليجان الممتدة من المحيط الهادى والهندي .

وتشير الدلائل المادية التى عثر عليها فى مئات المواقع إلى أن الدين قد قام بدور كبير فى هذه الثقافة . . كانت لأصغر البلدان والقرى مبان لإقامة الطقوس ، كما عثر على أقنعة حديدية تشير إلى وجود كهنوت ، كما تشير التماثيل الأنثوية الصغيرة التى تؤكد أهمية الحمل والرضاعة إلى عبادة آلهة أمرة ، كما تشير تماثيل الثيران وحيوانات ذكورية أخرى إلى اهتمام بالخصوبة ، وتشير تسهيلات الاستحمام المتطورة إلى العناية بالتطهر الدينى ، وتشير أشكال اليوجا الموجودة على الأختام إلى جذور هذه الحضارة المبكرة ، وتؤيد الافتراض القائل بأن الثقافة الدينية هى مزيج من الثقافتين الهندية والآرية - الفكر الشرقى القديم ص ٤٥ / ٤٦ .

ويضيف صاحب (الهند . . عقائدها وأساطيرها ص ٩ / ١٠) أن الحفائر الحديثة فى السنوات الأخيرة كشفت عن مدينتين كبيرتين - فى وادى الإندوس (الباكستان) منذ حوالى ٢٥٠٠ ق.م - هما (هارابا) و (موهنجودارو) ، ومحيط كل منهما حوالى خمسة كيلو مترات ، تخترقها الشوارع والساحات المربعة ، وبها نظام دقيق لتوزيع المياه ، وتصريف المجارى ، وحمامات عمومية ، وتحصينات محكمة ، ومنازلها ذات طابقين بالطوب المحروق الذى لم يُبله الزمن ، وتتوسطها أفنية متسعة كطراز حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد كشفت شعوب حوض نهر الإندوس عن كثير من المهارات الفنية المتقدمة فى نسج القطن ، وصهر وطرق النحاس والبرونز .

ومن الواضح أن مدينتى (هارابا) و (موهنجودارو) كانتا عاصمتين لدولة ذات نظام سياسى متقدم ، دام مايقرب من تسعمائة عام ، وهى أطول حقبة متصلة فى تاريخ الإمبراطوريات الهندية المتتالية .

* ثم قدم الآريون ليغذّوا (الشعوب) الهندية بدماء جديدة ، وبأفكار جديدة .

كان الآريون ينتمون إلى شعوب أوربية ، وهم قبائل من المحاربين ، يرتحلون بقطعانهم من الأبقار والضأن إلى الجنوب ، تحت وطأة الجليد والجفاف ، ويقاثلون فوق عربات تجرها الجياد ، فإذا طاب لهم العيش أقاموا ، ونسجوا علاقات مع الشعوب التي ينزلون بها ، وإلا واصلوا مسيرتهم ، أو عادوا من حيث أتوا ، بعد أن يذوب الجليد ، ويشرق وجه الشمس بالنبات .

كانت لغتهم السنسكريتية المرتبطة باللغات اللاتينية والجرمانية والسلافية ، وبها صنّفت مؤلفات دينية وفيرة ، كانت تنتقل شفاهاً لعدة قرون ، قبل أن تأخذ صيغتها المكتوبة .

وقد أهمل الآريون عبادة الإخصاب التي كانت تتميز بها حضارة الإندوس ، إذ كانت دياناتهم تدور حول عبادة القوى الطبيعية العظمى .

وبفضل أناشيدهم الدينية نشأت (الفيدا) التي صيغت بين ١٥٠٠ ق.م و ١٠٠٠ م ، وأحدثت تطوراً كبيراً في الفكر الهندي ، وفي العاطفة الدينية التي تستشعرها النزعة التأملية الهندوكية .

وكان أن صارت السنسكريتية لغة الفكر الديني الهندوكي ، مضافة إلى ٢٤٠ لغة ، ونحو ٣٠٠ لهجة ، ماعدا الفارسية والبهلوية والصينية ، ثم الإنجليزية والأوردية .

واحتفظت السنسكريتية - دون غيرها من اللغات الهندية - بتلاوة الطقوس والتراتيم في المعابد الهندوكية ، لأنها لغة الكتب المقدسة التي لا يعرفها إلا قلة من البراهمة ، فصارت مثل القبطية في الكنائس المصرية ، واللاتينية في الكنائس الكاثوليكية ، والآرامية في بعض المعابد اليهودية .

كما أصبحت الأوردية لغة رسمية للباكستان ، وإن طغت عليها الإنجليزية .

وهذا التنوع اللغوى أكسب الهند خصوبة فكرية ، وتنوعاً فى الموارد الثقافية ، كما يسر عليها الاتصال بالحضارات المحيطة .

ينقل الدكتور النمر (تاريخ الإسلام فى الهند ص ١٩) عن الأستاذ بوذا بركاش سنة ١٩٥٠ أن الهند كان لها اتصال بالغرب قبل غزو الإسكندر ، عن طريق فارس ، إذ كانت الأقاليم الغربية لنهر السند تكون جزءاً من الإمبراطورية الفارسية فى عهد دارا ، ثم فى عهد ابنه ، كما اشترك الهنود فى الجيش الذى قاده ابن دارا إلى اليونان .

(ولقد عمل هذا الاحتكاك بين الإغريق والهنود على التفات الهند نحو اليونان ، وكما نقل الإغريق إلى بلاده أقاصيص الهند وأساطيرها التى سمعها فى البلاط الفارسى ، فقد شرع الهنود يهتمون بالإغريق) .

ويحدثنا أرسطو عن فلاسفة من الهند قدموا إلى أثينا لمحاورة سقراط ومناقشته فى المشاكل الفلسفية التى يعالجها المفكر اليونانى . . وقد اتسعت هذه الصلة بعد غزو الإسكندر .

وهناك دلائل تثبت أن (تشاندرا جوبتامورا) ، أحد ملوك الهند ، زوج ابنته من الإسكندر الأكبر تودداً وتحالفاً ، ويقال إن سلوكس الذى خلف الإسكندر على سوريا ، زوج ابنته من (تشاندرا جوبتامورا) طمعاً فى مساعدته وعونه .

* وفى أواخر القرن الخامس الميلادى غزت الهند قبائل من (الهون) ، ولكن بعد فترة من عدم الاستقرار ظهر الملك العظيم (هارشا) ، وأعاد لهذه الإمبراطورية مجدها السالف ، خلال حكمه الطويل (٦٠٦ - ٦٤٧ م) ، وبوفاته تعاقبت على الهند من جديد موجات من هجرات شعوب مختلفة ، ومنازعات بين الممالك المتنافسة فى أراضيها .

ويعّد عصر (الجوبتا) وامتداده تحت حكم الملك (هارشا) العصر الذهبى فى تاريخ الهند القديم ، وقد تميز بازدهار الفنون والآداب والعلوم ، وشبهه المؤرخون بعصر النهضة الإيطالية .

وفى هذا العصر اخترع مجهول هندى علامات مكتوبة ترمز إلى الصفر ،

وإلى الأرقام من (١ - ٩) ، وهى نفس العلامات التى نقلها العرب فيما بعد إلى الغرب ، كما كان الجراحون الهنود يُجرون عمليات التجميل على الوجوه المشوهة .

* هذه هى البلاد التى زعم ه.ج. ويلز - معالم التاريخ الإنسانية مج ٢ ص ٤٧٢ - (أنها لم تقم بها حياة بحرية ، ولا أغار عليها مغبرون من القراصنة ، ولا تجار غرباء ، فإن المرء يستطيع أن يسطر تاريخاً كاملاً للهند يصل إلى ما قبل يومنا هذا بأربعمائة عام ، ولا يكاد يذكر شيئاً عن البحر) .

وفاته أن العلاقات بين كل من الهند والصين والدولة الإسلامية - فى عهدهى عمر وعثمان - تمت عن طريق البحر والبر ، كما أنه كان للتجار العرب - من حضر موت وعمان - أسواق تجارية ومواطن إقامة فى كل من كلكتا وساحل ماليسار بالهند ، وكانتون وماكاو بالصين ، ثم هل يمكن عزل الهند عن جزر المحيط الهندى وخليجانه ؟!

الفيدا ..

قلنا إن الغزو الآرى حمل معه أناشيد دينية ، أطلق عليها لفظ (الفيدا) أى المعرفة ، ولاريب فى أن الهنود لم يكونوا بدون (فيدا) ، حتى أتى هؤلاء الآريون (الرحّل) ، فالحضارة بنت الاستقرار ، والاستقرار يكون مع الزراعة ، والزراعة تنشأ فى أودية الأنهار ، وما أكثر أنهار الهند ، وما أوسع أوديتها .

لهذا يُرجع بعضهم (الفيدا) إلى الألف الرابع قبل الميلاد ، أو إلى أبعد من ذلك ، فمن غير المعقول أن تظل الحضارة الهندية بدون زاد دينى حتى يأتيها الآريون بأناشيدهم . . ولا شك فى أن كثرة الترحل لا تعين على عمق التأمل ، والطمع - دون وازع - فيما يملك الآخرون ، والجرأة فى سفك الدماء ، ونهب المال والغلال - لا يمكن أن يكون سبيلاً إلى تأصيل الفكر الدينى ، وإن كان ثمة مكتسبات عقائدية - خلال الترحل - فهي لا تعدو أن تكون أصداً روحية تنضج بها ترانيم العشيات ، حين يضرب الجفاف والتوق صدور المحصورين بين شقوق الأرض ، ورعود السماء ، وهتافات الغيلان والسعالى .

ولعل أهم ما أضافه الآريون إلى الفيدا ذكريات المعاناة الطويلة ، خلال ترحل لا يتوقف ، وقتال لا ينتهى ، وصراع مع الحياة والموت ، ومع الأحياء والأموات ، على السواء ، بل هو صراع مع الأرواح والأشباح ، ومع النور والظلام ، ثم هو صراع بين الإخوة فى الأرض الجديدة (شمالى الهند) . . ولعل هذا الصراع الأخوى كان عاملاً صهراً للأخلاق والأشباب الإنسانية التى لحقت بهذه القوافل المهاجرة ، لتضع منها الكيان القادر على السيطرة فى أرض الاستقرار ، ولتساعد على امتزاج الفكر الحضارى بترانيم الغزاة فى تراث إنسانى

طبعه (الزمن) بطابع القداسة ، بالرغم من غلبة الأسطورة ، وانبساط الخيال ، ودغدغة المشاعر الدنيا .

وقد وصل إلينا هذا التراث - كما ذكر صاحب (القصة في الأدب الفارسي ص ٢٨) - في أربعة أسفار ضخمة ، أقدمها رج فيدا Rig Veda ، أى معرفة الترانيم ، ويقال إنه ألف قبل ميلاد المسيح بأكثر من ألف وخمسمائة عام ، وقد يرجع بعضهم بتأليفه إلى ٣٠٠٠ ق.م ، وهو الذى يصف الحياة الاجتماعية الأولى لطائفة الآريين الهنود ، وحياتهم البدوية ، وآرائهم البسيطة فى الله ، وفى الكون والإنسان . . وثانيها ياجور فيدا Yagur Veda ، أى معرفة الصيغ الخاصة بالقرايين ، وهو يصور الحياة المتطورة للآريين ، بعد نضوجهم الفكرى ، وبعد أن حدثت تغيرات شتى فى حياتهم البسيطة . . وثالثها ساما فيدا Sama Veda ، أى معرفة الأنغام ، وقد ألف لأداء المراسيم الدينية ، وفيه نجد أغاني كثيرة تؤدى بنغمات مختلفة ، كذلك نجد فيه إشارات إلى أهمية الرقص ، ورابعها أثرا فيدا Athra Veda ، أى معرفة الرقى السحرية ، وفيه نلمس بين الحين والحين العناصر اللازمة للمسرحية ، مثل الغناء والموسيقى والرقص .

وهذه الأسفار تحوى طائفة كبيرة من الأساطير والأغاني والترانيم ، حملها آريو الهند من موطنهم الأول ، وأضافوا إليها ذكريات الحروب التى خاضوها مع سكان البلاد لبناء الوطن الجديد .

واكتسبت الفيدا بتقادم العهد قداسة عند الهنود ، فصاروا يعتقدون أنها وحى منزل من السماء ، وتبناها البراهمة ، وآلوا على أنفسهم صيانتها وسدانتها .

وقد سلمت أسفار الفيدا الأربعة من الأحداث التى أوردت بالجزء الأكبر من الأستاق فيما بعد ، ولكنها بمرور الأيام أصابها ما أصاب هذه من الغموض ، واستعصى فهمها على الأجيال المتأخرة ، فحررت الشروح على المتن ، واتسعت دائرتها ، وتعددت وتباينت ، فجمعها البراهمة فى كتاب أسموه (براهمانا) ، أى قواعد الطقوس والدعاء والرقى ، ثم ذيلوه عام ٥٠٠ ق.م باليوبانشاد ، أى المحاورات السرية ، وهو كتاب يتضمن تأملات لاهوتية سادت ذلك العصر ، وفيه نزعات صوفية ترمى إلى طهارة القلب وشفاء النفس والتحرر من قيود

العالم المادى ، عن طريق المعرفة ، ومع كونه ناسخاً لشعائر (البراهمانا) يلحق به ، ويعتبر متمماً له ، وهو إلى جانب هذا ذخيرة ثمينة من الشعر والقصص .

* وفى الفيدا تتعدد الآلهة ، وتتنوع اختصاصاتها وأعمالها ، ولكن هذا التعدد يرتقى فى (اليوبانشاد) إلى نزعه توحيدية واضحة ، تصل إلى ذروتها فى سفر (الفيدانتا Vedanta) ، أى خاتمة الفيدا ، وفى هذا الكتاب تتبلور فكرة التوحيد فى أن الله والنفس الإنسانية شئ واحد .

وقد لخص جوستاف لوبون المعتقدات الواردة فى هذه الكتب ، كما يأتى :

- ١- عبادة القوى الطبيعية . ٢- تشخيص هذه القوى بأسماء الآلهة .
- ٣- اعتقاد خلود الروح (على أساس التناسخ) . ٤- عبادة الأجداد . ٥- الميل إلى إخضاع الناس والطبيعة والآلهة لإله واحد أقوى منها ، وهو الإله إندرا Indra . ٦- تنحصر حقيقة الدين فى تناول القرابين ، وتقديم الفواكه ، باليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز .

ويقول : (إنك لا تبصر حضارة تساوت هى وحضارتهم فى النشوء ، فاستطاعت أن تتخلص مثلها من بقايا الهمجية الأولى ، وإنك إذا قارنت بين الشعب الآرى والشعب اليهودى الذى مثل دوراً كبيراً فى العالم وجدت ذلك أعلى من هذا ، وفى تاريخ بنى إسرائيل ترى ما لا ترى له أثراً فى كتب الآريين من الأكاذيب وكفران النعمة والجبن والندالة والتجبر والبهيمية وسفك الدماء والخرافية الضارية) - تاريخ الإسلام فى الهند / النمر ص ٢٦ .

وفى المرحلة الفيدية التى تمتد من ١٥٠٠ إلى ٧٠٠ ق.م تم تأليف رسائل عن العدالة والاستقامة الأخلاقية - نصوص الدارماشاسترا - وقد دارت هذه الرسائل فى الدرجة الأولى حول تنظيم حياة الفرد والمجتمع ، على أساس من قواعد محددة للسلوك .

وفى المرحلة الملحمية (٨٠٠ ق.م - ٢٠٠ م) ظهرت المهابهارتا ، وهى ملحمة طويلة (تضم ترجمتها الإنجليزية ثلاثة عشر مجلداً) ، تحكى غزو أرض الهند ، وتقدم تعليمات بشأن القواعد المختلفة للحياة ، وتقوم مرشداً لأبعاد

الحياة كافة ، بما فى ذلك الدين والفلسفة والاجتماع والسياسة والطب أيضاً .
كما ظهرت الراميانا ، قصيدة فى أربعة مجلدات ، تقدم المثل الأعلى
للأنوثة والرجولة مجسدة فى شخص (ستيا) وزوجها (راما) ، وحياتهما ،
وتشير إلى نظام مثالى للمجتمع بأسره ، وإلى تنظيم مثالى لحياة الفرد - الفكر
الشرقى القديم ص ٣٨ / ٣٩ .

آلهة القيدا ..

نحدثنا القيدا أن إنشاد أشعارها والتغنى بها يمكن الخلق جميعاً من المشاركة في حكمة الواقع الإلهي ، ذلك أنها موجهة إلى الآلهة والآلهات ، ووظيفتها تأدية الطقوس ، وتقديم رؤى عميقة ودقيقة للواقع .

إن آلهة القيدا تمثل القوى التي تخلق الحياة وتدمرها ، وتسيطر على فيض الوجود وغيبضه ، فكلمة آجنى Agni تعنى النار ، والإله آجنى رمز لقوة النار الرهيبة التي تدمر المنازل والغابات ، وتقتل البشر والحيوان ، لكنها تحت السيطرة تنضج اللحوم والخضراوات ، وتزودنا بالطاقة الضرورية للحياة ، ومن ثم كان آجنى رمز التضحية وتجدد الحياة .

ويأتى إندرا Indra الأكثر شبهاً بالبشر بين آلهة القيدا ، ليكون سيد الصاعقة ، يهزم الأعداء ، ويحمى شعبه ، ويسيطر على قوى العماء والظلمة الكونية ، وبهذا يكون رمز القوة والشجاعة ،

أما فاك Vac إلهة الاتصال ، فهي على هيئة سيدة جميلة تتحلى بالوعى المتألق والكلمات الجميلة .

وعلى الرغم من أن الآلهة القيدية ترمز لقوى الوجود ، فإنه لا ينظر إليها على أنها خالقة الوجود ، لأن العقل ومادة الكون ينظر إليهما على أنهما متضمنان في الوجود ذاته ، ولا فصل بينهما - الفكر الشرقي القديم ص ٤٧ / ٤٨ .

جاء في (قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٣١ / ٣٤) أن آلهة القيدا تتمثل في

قوى الطبيعة : السماء والشمس والأرض والنار والضوء والرياح والماء والجنس .
السماء أب ، ويسمى (فارونا) ، والأرض أم ، وتسمى (پريثيقى) ،
والنبات ثمرة التقائهما بواسطة المطر ، والمطر هو الإله (بارجانيا) ، والنار
(آجنى) ، والرياح (قاىو) ، وإن كانت الرياح مهلكة فهي (رودرا) ، والعاصفة
(إندرا) ، والفجر (أوشاس) ، ومجرى المحراث فى الحقل (سيتا) ،
والشمس (سوديا) أو (مترا) أو (قشنو) ، والنبات المقدس (سوما) ، وكان
عصيره مقدساً ومسكراً للآلهة ، والناس جميعاً ، كما هو حال (هوما) عند
الفرس .

ولما كثر عدد الآلهة نشأت مشكلة هي : أى هؤلاء خلق العالم ؟ هل هو
آجنى ؟ أو إندرا ؟ أو سوما ؟ أو (براچاپاتى) ؟ وفى أحد أسفار (يويانشاد)
يُعزى خلق العالم إلى خالق أول قهار :

(حقاً إنه لم يشعر بالسرور ، فواحد وحده لا يشعر بالسرور ، فتطلب ثانياً ،
كان فى الحق كبير الحجم ، حتى ليعدل جسمه رجلاً وامراً تعانقا ، ثم شاء لهذه
الذات الواحدة أن تنشق نصفين ، فشأ من ثم زوج وزوجة ، وعلى ذلك تكون
النفس الواحدة كقطعة مبتورة . . . وهذا الفراغ تملؤه الزوجة ، وضاجع
زوجته ، وبهذا أنسل البشر ، وسألت الزوجة نفسها قائلة : كيف استطاع
مضاجعتى بعد أن أخرجنى من نفسه ؟ فلاأختف ، واختفت فى صورة البقرة ،
فانقلب هو ثوراً ، وزاوجها ، وكان بازداوجهما أن تولدت الماشية ، فاتخذت
لنفسها هيئة الفرس ، واتخذ لنفسه هيئة الجواد ، ثم أصبحت حمارة ، فصار
حماراً ، وزاوجها ، فولدت ذوات الأظلاف ، وانقلبت عنزاً ، فانقلب تيساً ،
وانقلبت نعجة ، فانقلب كبشاً ، وزاوجها ، فولدت الماعز والخراف ، وهكذا
كان حقاً خالق كل شئ ، مهما تنوعت الذكور والإناث ، حتى تبلغ فى التدرج
أسفله ، إلى حيث النمل ، وقد أدرك هو حقيقة الأمر ، قائلاً : « حقاً ، إني أنا
هذا الخلق نفسه ، لأننى أخرجته من نفسى » .

فى هذه الفقرة الفريدة نلمس بذرة وحدة الوجود ، وتناسخ الأرواح ،
فالخالق شئ واحد ، وكل صورة من الكائنات كانت ذات يوم صورة أخرى . .

يقول سفر (كاثا) من أسفار (يوبانشاد) : (يفنى الفانى كما تفنى الغلال ، ويعود إلى الحياة فى ولادة جديدة ، كما تعود الغلال) .

ومع هذا ، فإن هذه العبارات قد لا تتجاوز تأملات من يجلس على شاطئ بحر من الرمال الناعمة ، لا هو بقادر على أن يحفظ توازنه ويعود من حيث أتى ، ولا هو بقادر على أن يسير خطوة إلى الأمام ، مع أنه لا يعلم من أمر هذه الرمال ، فقط هى هواجس ، تحسب له ، وقد تحسب عليه ، لا هو راض عنها ، ولا هو ضائق بها ، إنه يفكر فقط ، أما عن صحة ما يفكر فيه ، أو عن خطئه ، فهذا أمر آخر ، بدليل أنا نجد نصاً آخر - فى الرج قيذا - يتحدث عن بداية الخلق ، فإذا المياه الكونية محتبسة أصلاً فى محارة ، لكن الإله الخالق (تفاستر) خلق السماء والأرض اللتين أنجبتا بدورهما إندرا ، ولما شرب إندرا السوما قوى ، وفصل بين السماء والأرض ، وملاً بنفسه الفضاء بينهما ، حيث شق كذلك الغطاء الذى تقع بداخله المياه الكونية ، بحيث ينبثق خارجه - أساطير العالم القديم ص ٣٤٢ .

ومع أن هذا التصور يمسك بشئ من (الفكر الحضارى المشترك) الذى قد يكون له جذر سماوى ، فإن هذا الشئ تغيم معاملة حتى يدخل فى إطار (الرمال الناعمة) كذلك .

وثمة ترنيمة أوردها صاحب (الفكر الشرقى القديم ص ٤٦ / ٥٠) تقول :

(١- فى البدء لم يكن هناك وجود ولا عدم / لا وجود للعالم ، ولا للسماء فيما وراءه / ما الذى أسدل الستار عليه ؟ أين ؟ من الذى منحه الحماية ؟ / أكان هناك ماء عميق لا يسبر له غور ؟

٢- آنذاك لم يكن هناك موت ولا خلود / وما من أثر لليل أو نهار / لم يكن هناك سوى الواحد الذى يتنفس دوغما نفس ، بدافع من ذاته .

٣- فى ذلك الواحد الذى حجبته الخفاء / كشف النقاب عنه من خلال قوة الحرارة - الطاقة .

٤- فى البدء كان الحب / الذى كان البذرة الأولى للعقل .

٥- من الذى يعرف حقاً ؟ من ذا الذى يمكنه أن يقول هنا ؟ / متى ولد هذا الخلق ؟

ومن أين جاء ؟ لقد جاءت الآلهة بعد خلق هذا العالم / فمن ذا الذى يعرف من أين جاء ؟) .

إنها ترنيمة أقرب إلى الفكر الفلسفى ، ولعلها من صناعة زمان متأخر ، بعد أن خرج الفكر الهندى من صدفة الأسطورة الغائمة إلى الشعور بالعجز الميتافيزيقى ، وهذا الشعور يمثل نوعاً من النُّضج الذى يعترف بحاجز الغيب وعدم القدرة على تخطيه .

* وفى كتب (بيورانا) - القصص القديمة - وفى أمثالها من تراث الهند فى عصورها الوسطى ، نقرأ نظرية عن الكون ، هى بعينها النظرية التى تشيع فى العصر الحديث ، بأنه ليس هناك تكون بعد عدم ، إنما هو كون يعقبه فناء الدهر ، هو نماء يعقبه ذبول ، دورة بعد دورة ، كهذا الذى تراه فى كل نبات وفى كل حيوان ، ويظل يحفظ مراحل هذه (السيرة) ، فلا تقف دورتها .

ويقولون إن (براهما) هو القوة القادرة على فعل ذلك ، لكن كيف بدأ العالم ، إن كان للعالم بداية ؟

يقول ول ديورانت : يجوز أن يكون (براهما) - كما تذهب كتب (بيورانا) - قد جعل بداية العالم بيضة ، ثم احتضنها حتى أفرخت ، ويجوز أن يكون هذا العالم غلطة عابرة من الصانع ، أو فكاهة ، أو لعبة رأى فيها قدراً من التسلية .

وحدث إبان عصور طويلة أن تحولت ملايين الأنفس من نوع إلى نوع ، ومن جسم إلى جسم ، ومن حياة إلى حياة ، فى دورات من التناسخ لا تُفْتَأ تتكرر .

وبهذا يكون الإنسان جزءاً من الطبيعة ، وليس مركزها أو سيدها .

وبعد رحلة طويلة من التناسخ والعقاب الدنيوى - من خلال هذا التناسخ - يجوز أن ترسل (الروح) ، بعد موت جسدها ، إلى الجحيم ، لتلقى عقابها على جرم اقترفته ، أو ترسل إلى الجنة لتنعم بجزاء سريع على فضيلة صنعتها ، لكن يستحيل على روح أن تقيم فى الجحيم ، وقليل من الأرواح هى التى يسمح لها بالإقامة فى الجنة إلى الأبد ، وذلك لأن الروح لا بد لها من فترة

تقضيها في الجنة أو الجحيم ، ثم تعود إلى الأرض من جديد ، لتنقذ - في دورة حياة جديدة - ما يقضى به عليها (مارما) ، أى العمل .

ويعقب ديورانت على هذا بقوله : كان هذا المذهب صادقاً من الوجهة البيولوجية إلى حد كبير ، فلا ريب في أننا حقاً نجسدُ لأسلافنا ، وسنعود بدورنا فنتجسد من جديد في أبنائنا ، وغيوب الآباء تهبط على الأبناء إلى حد ما ، ولو أنها لا تهبط بالمقدار الذي يفرضه الجامدون الخيرون ، حتى ولو بعد أجيال كثيرة - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٢١٦ .

قد يكون (السلم الوراثي) ما اعتمد عليه تعليق ديورانت ، لكن السلم الوراثي - بيولوجيا - لا يتسع لأى صورة من صور التناسخ ، إذ يقوم التناسخ على تجديد ملابس الروح ، أو تجسيدها ، لأن الروح ذاتها هي التي تتجدد ، ثم إن الروح الواحدة لا تتقمص غير جسد واحد ، فكيف بمن أنجب عدة أبناء !! مهما يكن من شئ ، فالتشابه الملاحظ في الأجيال قد يتدخل فيه أكثر من عامل ، بحيث يجتمع الخير والشر في النطفة الواحدة ، كما هو الشأن في بعض التوائم ، فقد يخرج دكتور جيكل ومستر هايد من رحم واحد ، وقد يتميز الأسرع بالخروج ببعض الفضائل ، والتوراة نفسها تتحدث عن عيسو ويعقوب ، وكل منهما يتمتع بصفات غير صفات الآخر ، بل إن الشخص الواحد قد تعثر به حالات متناقضة ، يحار فيها علماء النفس والاجتماع ، وقد تجدد شعباً بكامله ، أو قبيلة ذات بطون ، وأفخاذ ، تشترك في صفات جسمية ونفسية .

وكل ما يمكن قوله عما ورد في (البيورانا) أنها ملاحظات عامة ، على طريقة (العرق يمد لسابع جد) ، ثم صبت هذه الملاحظات في قالب رمزي أسطوري ، يتلاءم مع الخيال الديني الهندي ، المطبوع بطابع بيئة مضمخة بتوابل تصوف (الفقراء) الذين يدرّبون أجسامهم على تحمل أقصى الآلام ، وأعنف صور التعذيب ، وهذه التدريبات كثيراً ما تمد الروح ، أو تستمد طاقات روحية ، تزود العقل بإرهاصات أقرب إلى أن تكون (إلهامات) ، لا هي من العالم ، ولا هي غريبة عليه .

* جاء في سفر (رج) - ترانيم الشاء - من (القيدا) ، ما يفيد وحدانية الله ،

أو وجدانية القدرة الخالقة ، وذلك فى صورة شعرية راقية ، هى صورة من أناشيد أخناتون ، ومن بعد المزامير ، مما يوحى بأن صفاء النفس الإنسانية يستلهم حقيقة الألوهية ، وأن ماتجاوز هذه الحقيقة إنما هو من كدورة النفس وأخلاطها .

تقول ترنيمه (رج) : (« الواحد الأحد » لم يكن هناك سواء / كانت هناك ظلمة ، وكان كل شىء فى البداية تحت ستار / من ظلام عميق ، محيط بكل ضياء / والجراثومة التى لم تزل كامنة فى اللحاء / برزت طبيعة واحدة من الحر الحرور / ثم أضيف إلى الطبيعة الحب ، وهو ينبوع الحديد / للعقل ، نعم ، إن الشعراء فى أعماقهم يدركون / - إذ هم يتأملون - هذه الرابطة بين ما خلق الله / وما لم يخلق ، فهل جاءت هذه الشرارة من الأرض / تتخلل كل شىء ، وتشمل كل شىء ، أم جاءت من السماء ؟ / ثم بذرت الحبوب ، ونهضت جبابرة القوى / فالطبيعة فى أسفل ، والقوة والإرادة أعلى / من ذا يعلم السر الدفين ؟ من ذا أعلنه هاهنا ؟ / من أين ؟ من أين جاءت متأخرة فى مراحل الوجود ؟ / من ذا يعلم أنى جاء فى هذا الوجود ؟ / إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم / سواء خلقه بإرادته ، أو صدر عنه وهو ساكن / إنه هو ربنا الأعلى فى السموات العلى) .

ويورد الأستاذ العقاد ترنيمه كان يتغنى بها النساك قبل (جوتاما) بمئات السنين ، تقول :

(حينذاك لم يكن ما وجد ، أو ما لم يوجد ، ولم يكن ماتثبته أو تنفيه .
لا أجواء ، ولا سماء وراء الأجواء .

وماذا عساها تنطوى عليه ؟ أين كانت ، وأين قرارها ؟ أهى هاوية الماء التى ليس لها من قرار ؟

لم يكن موت ، فلم يكن خلود .

لم يكن مايموت ، فلم يكن ما ليس يموت .

ولم يكن ثمة نهار ولا ليل ، لم يكن إلا « الأحد » يتنفس حيث لا أنفاس ، ولا شىء سواء .

وكان البدء فى ظلام . عيلم بلا ضياء .

ومن البذرة فى تلك القشرة قام «الأحد» بحرارة الحياة .

وانتصر الحب حين نبتت البذرة من لباب العقل السرمدى ، وناجى الشعراء قلوبهم ، فتبينوا بالحكمة ما هو مما ليس هو ، فقد نفذ شعاع القلب خلال ما هنالك . . فماذا نظروا فوق «الأحد» ، وماذا نظروا دونه ؟ كل ما هنالك حملة لبذور ، قُوى ، قوة من أدنى ، ومشية من أعلى ، ولا أحد يدري ، ولا من يعلم من أين جاء ما جاء ، فإمّا جاءت الأرباب بعد ذلك ، فمن إذن يعلم ما جرى ؟ أهو الذى حدثت منه الخليفة ؟ لعل الذى يعرفه «أحد» واحد فى أعلى عليين ، ولعله لا يدري كذلك) - الله ص ٦٦ .

والترنيمتان كلتاهما تتحدث عن فكر سماوى صنعت له أغلفة الزمان شرانق مالبثت أن انبثقت منها تجليات وتهويمات إنسانية ، ، وطموحات وتفسيرات أسطورية ، هى مزيج من الحلم البعيد والإشراق الغائمة والسقوط فى مهاوى المعاناة الحياتية والضغط السياسية .

ولهذا يقول ماكس موللر الثقة الحُجَّة فى اللغات الآرية : (أيا كان العصر الذى تم فيه جمع الأناشيد المسطورة فى «الرج قيدا» ، فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذى لا هو بذكر ولا بأنثى ، ولا تحده أحوال التشخيص ، وقيود الطبيعة الإنسانية ، وارتفع شعراء القيدا فى الواقع إلى أوج فى إدراكهم لكنّه الربوبية ، لم يترقّه إليه مرة أخرى غير أناس من فلاسفة الإسكندرية المسيحيين ، ولكنه فوق هذا لا يزال أعلى وأرفع مما يطيف بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين) - الله ص ٦٤ .

وقد ذكر البيرونى أن اعتقاد الهند فى الله سبحانه أنه الواحد الأزل من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله ، القادر ، الحكيم ، الحى ، المحيى ، المدبر ، الباقي ، الفرد فى ملكوته ، لا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شئ .

وقد رجع البيرونى فى هذا إلى حوار دونه كتاب (پاتنجل) :

قال السائل : من هذا المعبود الذى يُنال التوفيق بعبادته ؟

قال المجيب : هو المستغنى بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تُؤمَّل أو تُرتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبرئ عن الأفكار لتعالیه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمداً ، إذ العلم الطارئ يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بمتجه عليه فى وقت أو حال .

قال السائل : فهل له من الصفات غير ما ذكرت ؟

قال المجيب : له العلو التام فى القدر لا المكان ، فإنه يجلب عن التمكن ، وهو الخير المحض التام الذى يشاقه كل موجود ، وهو العلم الخالص عن دنس السهو والجهل .

وهو إن غاب عن الحواس فلم تدركه ، عقلته النفس ، وأحاطت بصفاته .
وأورد البيرونى عن باسديو ، بلسان الله : (إنى أنا الكل من غير مبدأ بولادة ، ومُتتهى بوفاة ، لا أقصد بفعلى مكافأة ، ولا أختص بطبقة دون أخرى لصداقة أو عداوة ، فقد أعطيت كلاً من خلق حاجته فى فعله ، فمن عرفنى بهذه الصفة ، وتشبَّه فى إبعاد الطمع عن العمل ، انحل وثاقه ، وسهل عتاقه وخلصه) .

ونقل البيرونى عن أحد الحكماء على لسان براهيمن :

(إن الله هو الذى لا أول له ولا آخر ، لم يتولد عن شئ ، ولم يولد شيئاً إلا ما يمكن أن يقال إنه هو ، ولا يمكن أن يقال إنه غيره ، وهل يمكن إدراك معرفته حتى يبعد حق عبادته إلا بالاشتغال به عن الدنيا بالكلية ، وإدامة الفكر فيه) .

* قد يكون ماكس موللر مأخوذاً بالشخصية الهندية ، وماتنسجه حولها الأساطير ، فضلاً عن واقع يعيشه (فقراء) الهنود ، و (نساءكها) ، و (سحرتها) ، و (حواتها) ، بالإضافة إلى تلك العادات الغريبة والفنون المثيرة ، وبخاصة الموسيقى والرقص ، وتلك الطقوس التى تلف النفوس فى غلالات وهالات وألوان من العطور المتبلة ، والمجامر المضمخة بتكوينات من الأبخرة والأدخنة ، بحيث تشكل صوراً شتى من المصاييح السحرية التى تتحدث بها الأساطير .

أما ما أورده البيرونى فيحتمل خضوعه للفكر الإسلامى ، ذلك لأن الترجمة

تمر كثيراً بثقافة المترجم ، وتتداخل معها ، وبخاصة إذا كان المترجم متعاطفاً مع ما يترجمه ، أو كان المترجم غير عليم برموز اللغة وإيحاءاتها .

وهذا ما جعل ول ديوارنت يقطع بأن الفكر الدينى (الهندى) - تبعاً للمناخ الاجتماعى والاقتصادى والطقسى - كان أعمق وأوسع من أى فكر إنسانى فى مراحلہ الأولى .

ولعل ما تمتع به الهندى من صبر طويل على الحرمان ، وعلى تحمل ألوان من النكبات (الطبيعية) والإنسانية - كان أعون على (استنبات) المعرفة (الذاتية) ، أو كما يقول المتصوفة عن المعرفة (اللدنية) ، وإن كان المتصوفة يعنون أنها من لدن الله ، لكن ثمة عبارة صوفية أخرى تقول : (احفر فى قلبك تتفجر ينابيع المعرفة) ، بمعنى أن التأمل الطويل - إذا صادف صفاء واستشرافاً - حقق ما يمكن أن يسمى (وحيًا) ، أو (إلهامًا) .

ولو أننا استثنينا ما خلفه لنا (بتاح حتب) ، الحكيم المصرى ، فى الأخلاق ، مع أنه شذرات . . ولو أننا تجاوزنا ملحمة جلجامش والنشاط القانونى البابلى - كانت أسفار (اليوبانساد) أقدم أثر فلسفى ونفسى دونه إنسان .

إننا نجد فى هذه الأسفار مجهوداً دقيقاً دءوباً مشيراً ، فى محاولة معرفة ماهية العقل ، وماهية العالم ، وما بينهما من علاقات .

(فكما تتلاشى الأنهار المتدفقة فى البحر ، وتفقد أسماءها وأشكالها ، كذلك الرجل الحكيم - إذا ما تحرر من اسمه وشكله - يفنى فى الشخص القدسى الذى هو فوق الجميع) .

إن ما انتهى إليه أمر الأفلاطونية الحديثة (الهيلينية) ، الإشرافية (الإسلامية) ، لم يتجاوز هذا القدر من (فناء) الجزء فى الكل ، ومن تلاشى العَرَض ، و (بقاء) الجوهر .

ومهما شغلنا كثرة الآلهة الهندية ، فإن أمرها لا يعدو أن تكون (وسائط) أو (رموزاً) ، تمثل تنوع قدرات الواحد الأحد ، وتنوع آلائه . . ولهذا غلبت (العبارة الشعرية) على تصوير مشاعر الامتنان ، والإعظام لهذه

النعم الجليلة فى الأرض والسماء والجبال والأنهار والحيوان والشجر والجماد .
 * إن آلهة العقيدة الهندية يتميزون بكثرة أعضائهم الجسدية التى يمثلون بها - على نحو غامض - قدرتهم الخارقة فى العلم والنشاط والقدرة على الفعل .

(براهما) الجديد ، أو (براهمان Brahman) القوة العظمى التى تمنح الكون طاقته ، وهو والطاقة الروحية للذات (أتمان Atman) شئ واحد . . هذا البراهما كان له أربعة وجوه ، ولعل المقصود بهذه الوجوه الأربعة عناصر الوجود : الماء والنار والهواء والتراب ، أو الجهات الأربع : الشمال والجنوب والشرق والغرب ، أو الأبعاد الأربعة : الطول والعرض والارتفاع والزمان . . أى الوجوه التى تمثل السيطرة الكاملة على الكون ، ولهذا جعلوا له أربع أذرع لتكتمل له القدرة ، إذ هو سيد الآلهة المعترف له بتلك السيادة ، وعدم الميل إلى الهوى ، (على الرغم من أنه مهمل فى شعائر العبادة إهمال الملك الدستورى فى أوربا الحديثة) ، كما يقول ول ديورانت .

وفى تطور فكرى يرى شانكارا أن البراهمان هو الواقع الذى يتيح وجود المظاهر التى تشكل العالم التجريبي ، لكنه متجاوز لهذه المظاهر ، لأن البراهمان ، يتجاوز العالم . . وينظر شانكارا إلى العالم باعتباره مظهرًا ، وليس واقعًا ، والإدراك الحسى وهم ، وليس معرفة ، والنفس الفردية ذات خالصة ، أو (أتمان) وهى لا تختلف عن البراهمان . . ومن ثم فالبراهمان هو وحده الحقيقى ، وإن كان العالم مجرد ظاهر .

هذا على حين يرى رامانوجا (أن براهمان الأسمى هو نفس الكل ، والكيانات الواعية وغير الواعية تشكل جسمه ، والجسم كيان ، وليس له وجود إلا بفضل كونه إهاب الروح ، أو شكله الذى هو جسم له ، والجسم والنفس يتميزان بخواص مختلفة لا يختلط أحدهما بالآخر . . ومن هذا كله ينبع التعليم المحورى القائل بأن براهمان - بكل الكيانات الواعية وغير الواعية التى تتجلى كأشكال له - هو المطلق) .

فالعالم عند رامانوجا حقيقى ، لكنه ليس مختلفًا عن براهمان .

أما راداكراشنان فيرى أن البراهمان هو الواقع المطلق الذى يتيح الأساس لكل وجود ، ويضفى الوحدة على الكون ، فكل الأشياء تتحد فى براهمان ، الذى يُعدّ منبع كل وجود وأساسه ، وهو بذلك إيجابى دائماً .

والنفس هى الموضع الذى يحل فيه براهمان ، بوصفه الروح المطلق ، ذلك أن الشخص يجمع بين الروح والبدن .

وقد أدرك هؤلاء الفلاسفة أن البراهمان - باعتباره (الواقع المطلق) ليس بالإمكان تعريفه بطريقة حرفية ، ومن الممكن الاقتراب منه تصورياً بوصفه من خلال أكثر خصائصه المتصورة كملاً . . . وبما أن براهمان يتجاوز التصور فإنه يتعين إنكار هذه الخصائص السامية ، الوجود والمعرفة والقداسة ، ويكون التعريف عن طريق (السلب) (١) - الفكر الشرقى القديم ص ١٣٠ / ١٥٠ ١٧٧ / ١٧٩ .

* أما شيقا فله ثلاثة أعين ، بحيث يرى السر وأخفى ، وهو (إله ملغز ، يتسم بالمفارقة ، فهو سيد الموت والخلق ، الراقص الكونى ، واليوجى الساكن ، يرمز له بعضو تناسل الذكر ، مع أنه لا يمارس الجنس حتى مع زوجته) وقد رمز لزوجه بعضو الأنثى التناسلى :

وتقول (أساطير العالم القديم ص ٢٦٨) : هناك على جبل كايلاسا يعيش هو وزوجه (بارفاتى) فى سعادة زوجية قصوى .

وهو (يؤدى وظائف كل الآلهة الأخرى ، لأنه الوعى الأسمى المائل فى الوجود بأسره ، وكيانه فى تماس مع الوجود ، ومن صورته يبدو سيداً للرقص ، فهو يرقص داخل حلقة النار ، وإيقاع رقصه ، وطاقة حركاته ، يحولان الطاقة الأصلية إلى حياة ، والكون بأسره هو النتيجة المترتبة على رقص

(١) جاء فى كتاب (العقائد والأديان ص ١٢٠ عن براهما ، كما أوردت اليونانية سفتسترا : (الله الواحد الكامل فى كل الأشياء / كل الشمول ، النفس الباطنة لكل الأشياء / مراقب الأفعال ، قائم فى كل الأشياء / الشاهد ، الحكيم ، الأوحى ، العارى من الصفات / المحرك الوحيد للسكانات الكثيرة / الذى يجعل الحبة الواحدة متكاثرة / الحكماء من يرونه قائماً فى ذات المرء / أولئك - لا غيرهم - ذوو سعادة أبدية) .

شيئا الخالد ، الذى يخلق العالم ويدمره ، فى عملية لا تنتهى) - الفكر الشرقى القديم - ص ١٦٢ / ١٦٣ .

وتذكر (أساطير العالم القديم ص ٢٦٨) أن المارد (مويالاكا) هاجمه ، فضغط شيقا على إصبع رجله فكسره ، ثم رقص - وهو تحت قدميه - الرقصة الكونية للخلق ، والمحافظة ، والتدمير . . ولذلك صور المثلون الهنود أذرعه الأربع ، وأقدامه ، بحيث تمثل ذلك الفيض الدورى ، فيما يعتبر واحداً من أعظم تصورات فن النحت ، وهو الأساس التناسلى فى الكون ، والذكر الهائل الذى حاول براهما فى صعوده إلى أعلى ، وفشنتو فى هبوطه إلى أسفل ، بحثاً عن طرفه وأصله أن يقيساه دون جدوى .

وذكر أنه عاقب الإله براهما على الزواج المحرم بابنته .

ويقول صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ١٦٨) إنه قد يسمى رودرا Rudra ، (له القدرة على التحكم فى المرض ، وفى الأعشاب الشافية ، وهو إله مرعب صاخب ، وقد اتسعت دائرة اختصاصه ، فشملت الغابات واللصوص والمنبوذين ، يعبد المرء لكى يتحاشاه ، وحتى يتفادى أوبئة قطيع الماشية فإنه يقدم ثوراً قرباناً خارج حدود القرية ، مصحوباً بكل علامات شعبية النحس) (١)

* وأما إندرا Indra فله ألف عين ، تعبيراً عن سعة علمه وإحاطته بكل شئ ، إنه إله الشيدا الأصيل ، وهو بصفة رئيسية إله الحرب ، وملك الآلهة ، وقائدهم فى المعارك ، هو الذى يدمر المدن الحصينة ، مستعيداً خبرة المقاتلين الآريين ، إبان غزوهم البنجاب .

(١) جاء فى كتاب (العقائد والأديان ص ١٠٠ / ١٠٢) من الأناشيد التى تمجده :
(فى المجد أنت خير من ولد / محكم السياسة يارودرا ، أقوى الأقوياء / فى النابات جزُ بنا إلى النجاة / ادفع عنا كل فتكات السوء) .
(أين يدك المنعمة يارودرا / التى هى لنا معالجة ومهدئة / حامل الأذى عنا الموقع من الآلهة / كن لى أيها العجل رحيماً وحامياً) .
(أنت عن جدارة أعظم حامل للقوس والنشاب / ولك العقد الحبيب ذو كل الألوان / أنت عن جدارة أعظم سائس لكل هذا الخوف / لاشئ أقوى منك يارودرا) .

غير أن نسبه إلى أبوين غير مؤكد - كما تقول (أساطير العالم القديم ص ٢٥٠) - ولعله ابن السماء والأرض ، حيث حُمل به وولد أيام كان هذان يعيشان معاً ، أو كان لهما بيت مشترك ، وكانت الولادة معجزة ، ويبدو أنها كانت من جانب أمه ، كما كانت ولادة بوذا في زمن لاحق ، ولما ولد إندرا ظل محجوباً ، لكنه بعد قليل شرب شراباً قوياً - هو (سوما) ، وجده على صدر أمه ، أو حملة إليه نسر ، وقد أدى به الشراب إلى أن يتنفخ إلى حجم هائل مخيف ، بحيث طارت السماء والأرض منفصلتين ، ليظلا كذلك إلى الأبد ، حيث ملأ هو الفضاء بينهما .

والبراهمة - بوصفهم القيمين على تقديم الأضاحى والقرايين - مغرمون بالنار ، لكنهم مغرمون أكثر بشراب السّوما - الهوما الإيرانية - الذى يستخرج من نبات القنب الهندى ، يعصر باليد أو يطحن بحجر ، ثم تجتمع العصارة فى قنينة ، ثم تخمر - وهو أرقى ألوان الشراب المسكر ، ويستلزم إعداد طقوساً معقدة . . وقد توحد إله السّوما - فيما بعد - مع إله القمر ، ونال حق الإشراف على نمو المحاصيل وصحة الأجنة .

ويهتم إندرا بالطعام الجيد والشراب القوى ، ولذلك هو يحب المشاكسة ، يركب السماء على رأس جيش من الماروث Maruts ، آلهة العاصفة الأقل شأنًا ، وهو مرتبط بالبرق ، سلاحه الذى مزق به بطن التين قريتر Vritra ، عندما أعاق هطول الأمطار التى تبعث الحياة .

* وأما **قشنو Vishnu** إله الحفظ والحب والجمال ، فله خواص الشمس ، وهو فى القيدا قزم صغير ، عبّر الكون فى ثلاث خطوات عملاقة ، ففرحت الآلهة ، وغيطت الشياطين ، وقد يحل فى كل عظيم وبطل من الإنسان والحيوان .

وله فى التراث الهندوسى عشرة تجليات رئيسية وكل تجل **لقشنو** هو تجل لبراهمان الواقع المطلق ، أو الحقيقة النهائية . والتجلى الأول **لقشنو** يكون فى سمكة هائلة ، لإنقاذ مانو (نوح) جد البشرية ، خلال الفيضان العظيم ، والتجلى العاشر فى صورة (كالكين) على جواده الأبيض ، ليكون (المخلص)

الذى يأتى فى نهاية الزمان ، ليعاقب الأشرار ، ويكافئ الأخيار ، مطلقا العنان لعهد من القداسة والنعيم .

ويضاف **قشنو** إلى قائمة معبودات لاتنتهى ، إذ إن قدرته المغناطيسية على جذب شخوص إليه قدرة ممتلئة حيوية . . وفى أنحاء الهند كلها محارب للآرباب المحلية الصغيرة التى يتخيلها العبّاد بعض مظاهر **قشنو** .

وكان فى مطلع القرن الحالى هندوس ، بل مسيحيون ، يخشون أن المسيحية فى الهند قد تمتصها الهندوسية عن طريق توحيد المسيح بإحدى تجسيدات **قشنو** العشرة (تجلياته) ، وقيل إن بوذا التاريخى هو تاسع تجلياته الكبرى . . أما أحب مظاهر **قشنو** إلى الناس فهو سابغ التجليات وثامنها ، مثل راماتشاندرا وكرشنا .

وذكر أبو الريحان البيرونى أن باسديو ذكر أن جميع الأشياء إلهية ، لأن **قشنو** جعل نفسه أرضاً ليستقر الحيوان عليها ، وجعلها ماء ليغذيهم ، وجعلها ناراً - وربما ريحاً - لينميهم وينشئهم ، وجعلها قلباً لكل واحد منهم ، وإن كل معانى الخير والسمو من فيضه ، وكل الحكماء والصالحين يقومون بالعدل والصلاح والفضيلة ، وينصرون الأخيار على الأشرار بفضل **قشنو** .

وكل من براهما و شيقا و **قشنو** أقانيم ثلاثة لإله واحد في زعمهم ، والإله الواحد هو الروح الأعظم ، واسمه بلغتهم (أتمان) .

ووفقاً للتعاليم الواردة فى نصوص اليوبانيشاد ، فإن الأتمان ينظر إليه باعتباره القوة الكامنة وراء قوى الكون ، والقوة المطلقة للنفس ، وهاتان القوتان ليستا إلا شيئاً واحداً . . واتفاقاً مع هذا التصور للطبيعة البشرية ، ينظر إلى الكمال المطلق للشخص ، باعتباره يكمن فى تحقيق الذات ، وفى توحد المرء مع المصدر المطلق ، ومع قوة الواقع .

ولهذا يقول البيرونى : اعتقاد الهند فى الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلئ ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله ، القادر الحكيم المحيى المدبر ، المنفرد فى ملكوته عن الأضداد والأنداد ، لا يشبهه شئ .

* وأما أجنئ Agni إله النار ، أو المحور الذى يربط عالم الناس وعالم

الآلهة ، وهو الذى يحمل القرايين المحترقة إلى الآلهة ، ويعيش مختبئاً فى أماكن عدة ، مزوداً الفلاسفة بموضوع تأملاتهم النظرية ، فهو يختبئ فى مياه السماء ، ويظهر فى صورة البرق ، وفى عيدان النار ، وفى أماكن أخرى .

وثمة آلهة أخرى (كالى) التى ولدت من صلب رب الغضب ، وهى تفوق قوة الأرباب أنفسهم ويعتمدون عليها فى مواصلة البقاء ، وفى حماية قوى الخير . . وقد تدعى (شاكتى) التى تعنى الطاقة أو القوة . . وكثير من الهندوك المثقفين يتعبدون للإلهة (كالى) التى تتطلب منهم تضحيات دموية ، وبخاصة من المعيز . . و كالى إلهة مطاعة ، صورتها تبت الرعب فى القلوب بأنيابها الطويلة المدببة ، وشعرها المنفوش ، وعقدها المنظوم من الجماجم البشرية .

ومن الآلهة الشعبية التى يعبدها الهندوك ، ولعله أشهرها (الجانيش ، أو جانياتى) ، وهو إله الحكمة ، ومزيل العقبات ، وابن الإلهة شيفا ، له رأس فيل على جسم إنسان ، وتبرز من جنبه عدة أذرع .

* ومع تعدد الآلهة وتنوعها فهى لا تبعد عن ثلاث صور رئيسية ، تمثل فى الخلق ، والاحتفاظ بالمخلوق ، ثم الفناء ، فهى براهما الخالق ، وقشنو الواقى الحافظ ، وشيفا المدمر .

تلك هى (الأشكال الثلاثة) التى يقدسها الهنود ، ماعدا الجانتيين منهم ، بالرغم من كون الآلهة قد يصل عددها إلى عدة ملايين ، تزدهم بهامقابر العظماء .

وذكر أن تعدد الآلهة استدعى الاختلاف فى القوة ، وفى وسائلها ، وفى رغبات الآلهة ونزواتهم أيضاً ، ومن ثم يشكلون مجتمعاً إلهياً فى السماء موازياً للمجتمع الإنسانى فى الأرض .

والفلاحون الهندوك يعلمون أن كل فرد من أفراد الطبقات المثقفة إنما يوقر على انفراد عددًا كبيراً من الآلهة ، وذلك فى الوقت الذى يتركز إيمانهم فى مجموعة محدودة من الآلهة المحلية .

وهم فى الحقيقة لا يعبدون أو يسجلون هذه الآلهة ، بل يهابونها

ويخشونها ، فجميع الشعائر والاحتفالات ، وممارسة الخرافات التي يكرسونها لها ، إنما تجنب غضبها ، واكتفاء شرها .

كما يوجد اعتقاد راسخ - فى كل أنحاء شبه القارة الهندية - فى آلهة بدائية للأنوثة ، تتبدل أسماؤها ، وتختلف طقوسها من مكان إلى آخر ، ولكنهم يجمعون على وجوب تقديم الذبائح لها ، وموائد ذبائحها أقرب إلى قطع صغيرة من الحجارة منها إلى المذابح .

ويعتقد الفلاحون أن لهذه الآلهة القدرة على تقمص أجسادهم فى صورة روح شريرة ، فإذا دخلتها ركبهم الشيطان .

* وإلى جوار ملايين الآلهة تعززت فى الهند عبادة (الطواطم) بعقيدتهم فى وحدة الوجود ، وتناسخ الأرواح ، كما تعززت بعقيدة الحلول ، فعبدوا الحيوان باعتباره جداً حقيقياً أو رمزياً للأسرة ، ثم للقبيلة ، ثم تخلّفت عبادة الحيوان ، حين آمنوا بأن الله يتجلى فى كل موجود ، أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه ، فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً ، أو صديقاً عائداً إلى الحياة فى محنة التكفير والتطهير ، فعاشت عندهم الطوطمية فى أرقى العصور ، كما عاشت فى عصور الهمجية ، بسبب هذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم ، لكنهم خلصوا - كما خلص غيرهم - من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد ، وإن اختلفوا فى المنهج الذى سلكوه ، فلم يكن إيمانهم به على الأساس الذى قام عليه إيمان الشعوب الأخرى بالتوحيد ، فهم قد بدءوا بإبطال جميع المظاهر ، فنسبوا إليها التعدد والاختلاف ، لأنها تتكرر وتزول ، وتستمر من ورائها الحقيقة الأبدية التى لا تتكرر ولا تزول ، وتلك هى حقيقة القضاء والقدر التى تقدر للآلهة ، وتقضى عليهم ، كما يقدر لسائر الموجودات ، وتقضى عليها فى أجلها المحدود . . وهنا ذهب حكماءهم إلى مذهبين غير متفقين ، فبعضهم تمثل تلك الحقيقة إلهاً واحداً قريباً من الإله الواحد فى أكثر ديانات التوحيد - الله للعقاد ص ٦٣ .

* والبقرة أكثر الحيوانات قدسية عند الهنـدى . . ولعل السياسة الحكيمة - فيما مضى - هى التى رسمت هذا التحريم ، احتفاظاً للزراعة بحيوان الجر ،

حتى يسد حاجة السكان الذين يتكاثرون ، ثم مالبثت هذه السياسة أن تحولت إلى عقيدة ، وأخذت الأبقار صورة مقدسة عند البراهمة ، بحيث لا يجوز ذبحها ، ويجب أن تترك وشأنها تجوب شوارع المدن ، وتعطل حركة المرور .

والطوائف التي يشتهب اشتراكها في قتل وتسميم البقر والماشية - وبخاصة دباغى الجلود - أبغض الناس إلى الهندوكى ، مع أنه مصرح لهم رسمياً القيام بهذا العمل الحيوى .

والمخاطرة بحياة الفرد فى سبيل إنقاذ حياة بقرة ، يعد خطوة فى سبيل بلوغه إلى أعلى الطبقات ، ولمسها مطهر ، ولقبولها وروثها القدرة على إزالة الدنس المادى والخلقى .

وذبحها يثير فيهم الرعب والفرع أكثر مما يثيرهم ذبح إنسان .

وللأبقار والثيران حرية تامة فى جميع أنحاء الهند ، أما فى المدينة المقدسة (بنارس) - بصفة خاصة - فهى تسد الشوارع والأزقة ، وتعترض حركة المرور ، ومن فكر فى التعرض لها أو إيذائها كان جزاؤه الموت .

وما تعنيه البقرة للإله شيفا يعنيه القرد للإله فشنو ، فتجد قطعان القروود وهى تتجمع حول معابده ، يعتنون بها ويوقرونها .

والثعبان كذلك من الحيوانات المقدسة ، وهناك معابد كثيرة تعج بها ، لاتؤذى أحداً ، ولا يؤذيها أحد .

ويظهر الجميع استياءهم من قتل الثعابين ، بالرغم من ضحاياها الذين يعدون بمئات الألوف سنوياً ، ويقدمون لها الذبائح .

وتمتعت الحشرات كذلك بهذا التحريم ، بحيث لايجوز إيذاؤها ، على حين يوجبون حرق أرامل النساء أحياناً ، وحظى النمر كذلك بقدر من القداسة ، بسبب من قدرته على إيذاء الإنسان والحيوان .

الهندوسية ..

أسلوب فى الحياة أكثر مما هى مجموعة عقائد ، وليست لها صيغ محددة المعالم ، ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار ، وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة .

وقد انتشرت الهندوسية - خلال ثلاثمائة عام تقريباً - من إقليم صغير شمالى الهند إلى مساحات شاسعة تحتوى الآن مئات الملايين من البشر .

وطريقة التكاثر والانتشار تقوم على أن يبدأ زعماء بعض المناطق القبلية من الروحانيين عابدى (الطبيعة) فى تقليد بعض العادات الهندوسية ، مثل الامتناع عن أكل اللحوم ، وخاصة لحم البقر ، أو رفض ذبح البقر ، أو الامتناع عن تناول المسكرات ، أو التخلّى عن عادات لاتقرها الهندوسية ، مثل الزواج من خارج العشيرة ، وتحريم زواج بناتهم من رجال طبقة دون طبقتهم ، ووضع القيود على الاتصال واللمس والجلوس على المائدة ، وإكراه الأرامل على حياة العزوبة ، وتزويج البنات قبل بلوغ سن الرشد ، وتقديم الضحايا للأسلاف ، وإعادة تعميد آلهتهم الوطنية بأسماء آلهة وآلهات هندوسية صميمة .

هذا فى الوقت الذى يُزعم أن الهندوسية ديانة مغلقة ، كاليهودية ، بحيث لا يعد هندوسياً إلا من كان أبواه هندوسيين .

ولعل هذا يرجع إلى ما بين الهندوسية البدائية والهندوسية الجديدة من فروق ، فالهندوسية البدائية التى يطلق عليها عادة (البرهمية) مشتقة من ديانة الآريين البيض الذين غزوا الهند حوالى سنة ١٥٠٠ ق.م ، ثم ضمت بعد ذلك

تدريجياً عناصر مختلفة من الديانة التي كانت سائدة فى وادى الإندوس ، مثل عبادة عضو التناسل (اللنجام) ، أى عبادة الإخصاب ، وعبادة الأشجار المقدسة . . وفى هذه الأثناء كانت البرهمية مقصورة على الطبقة الأرستقراطية حتى القرن الرابع قبل الميلاد ، أى فى الوقت الذى نهض فيه البوذيون لمقاومة الطبقة السّامية (الأرستقراطية) .

وظهرت بعد ذلك هندوسية - خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد - أعطت الأفضلية لنصوص الفيدا ، لكنها كانت أكثر تسامحاً من البرهمية القديمة ، فقد أبقت على جانب كبير من الديانات الشعبية ، كما أجازت القيام بالشعائر المحلية المتوارثة .

* وللهندوسية آلهة كثيرة تحتويها الهياكل المقدسة ، لكن ليس لكل إله معبد خاص ، حتى الإله (براهما) الخالق يندر أن يوجد له معبد ، مع أنه وفشنو وشيفا يكونون الثالوث الهندوسى المقدس .

ويوضع فى معبد فشنو تماثيل للآلهة ، منها ما هو من صوره المختلفة ، وما هو من تجسيدات الأرضية .

وهناك معابد لزوجات كل من فشنو وشيفا .

والمعبد الهندوسى فريد فى نوعه ، يتكون من حجرة صغيرة ، تقابل محراب المسجد وقدس الأقداس فى الكنيسة ، وهى غرفة صغيرة مظلمة بها الإله الرئيسى ، وتسمى (حجرة الرحم) ، وتعلو هذه الحجرة البرج الرئيسى للمعبد ، وباب الحجرة يتجه دائماً نحو الشرق ، وهناك حجرة متوسطة الحجم ذات أعمدة ، يجتمع فيها المصلون للعبادة ، يطلقون عليها (مانديا) ، وتعلو جميع الغرف أبراج فى الارتفاع حتى تصل إلى الباب الرئيسى الذى يعلوه أقصر الأبراج ، ويدور حول حرم المعبد طريق يستعمله المتعبدون للطواف .

وإذا كان المعبد للإله شيفا ، نجد هنا حيواناً فى مواجهة البوابة الرئيسية يُكرّس مطية للإله ، وهو الثور (ناندى) ، وبين حيوان الثور (ناندى) والبوابة الرئيسية يثبتون صارياً طويلاً للعلم ، وهو رمز سلطة الإله .

وللمعبد وظائف اجتماعية وثقافية واقتصادية ، إذ يقوم بتلقى الهدايا من الملوك والتجار والعامة ، كما يقوم بإقراض الفلاحين ، وهو مصدر عمل الكاهن والموسيقي والراقصة والمدرس والبستاني والطرزي والكاتب والمحاسب وغيرهم .

ولقد سيطر على الفكر الديني الاهتمام ببناء المعابد الضخمة ، مع أن الشعائر الهندوسية لاتقام جماعة ، بل هى عملية فردية شخصية بحتة ، يقوم فيها المتعبد حيثما وحينما يشاء ، وكما يحلو له .

* ويبدو أن الديانة القيدية - فى أولى مراحلها - لم تكن لها معابد وأصنام ، بل كانت مذابح القرابين تنصب من جديد لكل قربان يراد تقديمه ، كما هو الحال فى فارس الزرادشتية ، وكان يناط بالنار المقدسة أن ترفع القرابين إلى السماء ، وفى هذه المرحلة تظهر آثار ضئيلة من التضحية بالإنسان .

يقول صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ١٤٠ / ١٤١) : يوجد فى البيت الآرى نار مقدسة تشتعل منذ بداية إنشائه ، أعنى خلال حفل الزواج ، وهى ليست ناراً عادية ، فينبغى ألا تستخدم فى إعداد الطعام ، أو الأغراض المنزلية الأخرى ، وكذلك ينبغى إشعالها بأنواع خاصة من الخشب ، وبطريقة معينة ، هى حكّ العصي بعضها ببعض ، وينبغى ألا تترك حتى تخدم ، ولا بد أن يتقدم رب الأسرة يومياً لهذه النار بقرابين للآلهة ، بل إنه ملزم بالقيام ثلاث مرات فى اليوم بما يسمى (التضحيات الخمس الكبرى) : عبادة براهمان ، روح العالم ، وقوامها تعليم القيدا أو تلاوتها . . وعبادة الآباء ، بتقديم الطعام والماء لتغذيتهم . . وعبادة الآلهة ، بإحراق القرابين . . وعبادة (بهوتاس Bhutas) - الموجودات الحية ، أو الأرواح - بنثر الحبوب فى الجهات الأربع ، والمركز ، وفى الهواء ، وعلى أوانى المنزل ، ووضع الطعام على عتبة الدار للمنبوذين والحيوانات والطيور والحشرات ، وعبادة الرجال ، عن طريق تقديم الضيافة للآرى ، ويفضل البرهمى العليم بالقيدا .

وفى (ص ١٥١) يقول : وعندما يتم إنجاز التضحية على نحو مناسب ، تهبط الآلهة متخفية فى ميدان التضحية ، وتجلس فوق القش المقدس ، وتشارك فى

مأدبة التضحية ، كضيوف شرف ، وتتغذى بالقرابين التى أحرقها الإله أجنى .

أما قرابين الذنوب وقرابين الشكر ، وقرابين الاسترضاء والاستعطاف ، فهى ألوان من التقريب نادرة ، ولا مكان فى أدب الفيدا - إلا نادراً - للصلاة التلقائية المباشرة .

وأهم الواجبات التى يلتزم بها رب الأسرة واجباته نحو الآباء أو الأسلاف ، فهو ليس ملزماً فقط بأن يقدم القرابين من الطعام والماء يومياً إليهم ، وإلى روح الميت الذى تسكن الركن الشمالى الشرقى من المنزل ، بل إن عليه أيضاً أن يقدم لهم (البندا Pinda) ، أى كرة الأرز Rice Ball ، فى يوم ظهور القمر من كل شهر .

وتسمى العناصر الرئيسية فى هذا الاحتفال (شراذا Shradha) ، وهى كما يأتى :

يجلس فقهاء البراهمة - الذين هم على خلق لا يرقى إليه الشك - فى مكان مكشوف ، على مقاعد منسوجة من القش المقدس ، ويفتتح رب الأسرة الاحتفال وينتهي بحرق قرابين الآلهة فى النار المقدسة . . والحدث الرئيسى فى التقريب للآباء أن يصنع ثلاث كرات من الأرز ، ويضعها فوق سجادة منسوجة بالعشب المقدس ، بعد رش المكان بالماء ، وتذهب هذه (الكرات) إلى الموتى من أسلافه : الأب والجد وأبى الجد . . ثم يمسح الأرز العالق بيده فى العشب ، ثم يسكب ماء مباركاً على الأرض ، بالقرب من (البندا) ، ومن شأن ذلك أن يرضى الأسلاف الأكثر بعداً ، ثم يقسم (البندا) على ضيوفه من البراهمة الذين يأكلونها ، وما تبقى من (شراذا) يصبح الوجبة الأساسية للضيوف .

وهكذا تكون (شراذا) همزة الوصل بين الأحياء والأموات ، وهى التعبير عن التعاون المتبادل بينهم ، غير أن هذه العلاقة يمكن أن تنقلب رأساً على عقب ، إذا لم تؤد الطقوس الجنائزية المناسبة للميت ، فما لم تستقر أرواح الموتى فى عالم الآباء تظل معرضة لأن تصب البلاء على رءوس نسلها الذين لم يقوموا بإطعامها عن طريق القرابين ، أو ضمان انتقالها إلى عالمها المناسب .

وهكذا تحمل الجثة - بعد الوفاة بقليل - إلى أرض المحرقة ، فى موكب من الأقارب ، يتقدمه الابن الأكبر الذى يسير على رأس المحزونين ، ويخلف المرحوم كرب للبيت ، وتحرق الجثة بينما يطوف أهل البيت حول المحرقة ، لا فى اتجاه عقارب الساعة الذى يبشر بالسعادة ، وإنما فى عكس الاتجاه ، وبعد ذلك يغتسلون ويعودون إلى البيت ، فى موكب يتقدمه هذه المرة أصغر الأبناء سنًا ، وفى اليوم الثالث من حرق الجثة تلقى العظام فى النهر ، ويفضل أن يكون نهر الكنج ، حيث لا يزال يوجد على ضفتيه أدراج (الجوط Ghat) - درج يهبط عليه الناس إلى النهر - التى تيسر الهبوط إلى النهر ، كما فعلت منذ آلاف السنين . . ولمدة عشرة أيام يواصلون سكب الماء ، وتقديم القرابين من كرات الأرز ، وقوارير اللبن ، للمرحوم .

وإذا تخلصت الروح من الجسم ، وكانت تستحق بعملها الصعود إلى الملاء الأعلى ، فقد أراحت واستراحت ، وإلا حلت فى جسم إنسانى آخر لتكسب عمل خير ، ولتجنب عمل شر ، حتى لاتهبط إلى جهنم .

ولكل أصحاب ذنب جهنم خاصة بهم ، فالمدعون على غيرهم حقوقًا كاذبة ، وشهود الزور ، لهم جهنم خاصة ، وسافك الدماء ، وغاصب الحقوق ، والمغير على الآخرين ، وقاتل البقر ، لهم جهنم خاصة ، والذى يرد قول أستاذه ولايرضاه ، ويستخف بالناس ويستهن بالكتب المقدسة ، أو يتكسب بها فى الأسواق ، له جهنم خاصة ، وهكذا تتفاوت الذنوب ، وتتفاوت صور العقاب .

وبعد مرور عام على الوفاة ، يتم القيام بما يسمى (السبندكرانا Sapindkarana) التى تجعل الميت يتناول أقراص الأرز مع أسلافه أو أسلافها ، وهم يعتقدون أن الروح تكتسب بذلك بدنًا رقيقًا يمكنها من القيام بالرحلة فى (عالم الآباء) ، أو يمكنها - طبقًا لأفكار لاحقة - من الميلاد من جديد .

* والترسيم واحد من سلسلة الطقوس التى تسمى (سامسكارا Samskara) ، أو طقوس المراحل الحاسمة فى الحياة ، وتتم ثلاثة من هذه الطقوس قبل الولادة ، لتحقيق الحمل ، وإنجاب طفل ذكر ، وضمان صحة

الجنين ، وفيما بين الاحتفال بمولد الطفل والاحتفال بتسميته تراعى الأم والطفل طقوساً تستمر عشرة أيام ، وتسمى طقوس النجاسة ، والمراحل الأخرى من تطور الطفل التى تتميز بها (السامسكارا) هى خرم الأذن لأول مرة ، واللحظة التى يخرج فيها الطفل من البيت ليرى الشمس لأول مرة ، وكذلك المرة الأولى التى يتناول فيها طعاماً جافاً (غير سائل) . . وإذا كان ذكراً فهى المرة الأولى التى يحلق فيها شعر رأسه ، فيما عدا خصلة من الشعر فى قمة الرأس تبقى طول حياته .

وبعد الترسيم الخطوة الأولى فى (السامسكارا) ، وهو يتم عامة عندما يكون الطفل بين الثامنة والثانية عشرة ، ولب الاحتفال أن يرتدى المرشح زىّ الناسك ، ويمسك فى يده صولجاناً مع خيط مقدس يوضع على كتفه اليسرى ويتدلى من ذراعه اليمنى ، ثم يتلو الكاهن الرسمى أبياتاً من (الرج قيذا) اعتاد الهندوسى تلاوتها فى جميع طقوسهم وهى : (فلنكر فى روعة وجلال / الإله سافترى / حتى يلهما عقولنا) .

وعلى العضو المرشح فى هذه الحالة أن يستجدى الصدقات ، وأن يضع نفسه تحت وصاية براهمى متفقه فى الدين ، ليصبح معلمه الروحى ، يعلمه ويهذبه بالكتب المقدسة ، لاسيما القيدا ، وعلى التلميذ أن يظهر لمعلمه أقصى درجات الاحترام والخشوع ، بل أعظم مما يظهر لوالديه ، لأنه إذا كان الأب والأم يمنحان الحياة فإن المعلم - من خلال معرفته الدينية - يهبه الخلود .

وعلى المحتفل بترسيمه أن يظل عزباً ، وأن يحترس باستمرار من السقوط فى الدنس ، أى فى تدنيس الطقوس ، وأن يخضع نفسه لكل أوامر المعلم أثناء متابعته المقرر الدراسى الذى قد يستغرق عند البرهمى اثنتى عشرة سنة أو أكثر ، وعلامة انتهائه الاغتسال طبقاً للشعائر ، وعندئذ يتوقع أن يتزوج الآرى فى الحال .

وبعد عملية الترسيم يمنح الصبى الخيط المقدس ، ويتم زواج الفتاة ، أما الناسك فينظر إليه على أنه تخلى عن الدنيا من أجل الدين .

* وليس الزواج مقتصراً على أن ينجب الرجل من يواصل عبادة الأسلاف

ويقدم (البندا) لتستريح روح أبيه ، وإنما هو ضرورة مطلوبة لذاتها أيضاً ، فليس ثمة ما يبرر الاعتقاد بأن الرجل المتزوج هو وحده القادر على تقديم قرايين الطعام للأسلاف ، وعندما يترمل يتخلى لابنه عن رئاسة الأسرة ، وعن القيام بدور الكاهن المسئول عن نارها المقدسة ، ويقرر التقاعد .

على أن الزواج لا يترك لأهواء الفرد يختار من يشاء ، فلا بد من زوجة كفء ، مساوية له في المولد ، منحدره من أسرة آرية أتمت عملية الترسيم وغيرها من الطقوس ، لأنها وحدها القادرة على ممارسة الطقوس المنزلية دون أن تدنسها ، وهى وحدها القادرة على إنجاب الابن الطاهر النقى المؤهل لمواصلة عبادة الأسلاف بعد والده .

وعلى الرجل أن يبحث عن عروس ليست قريبة له ، لا من ناحية أبيه ، ولا من ناحية أمه ، أعنى عروساً لم تقدم أسرتها (البندا) ، أو قرايين الماء ، لأى من الأسلاف ، ومن ثم فلا بد أن تكون العروس غريبة عنه ، لكن ينبغي أن تدخل فى أسرة العريس عن طريق الترسيم ، لكى تشارك الأسرة فى دينها ، وتكف عن أن تكون عضواً فى أسرة أبويها .

وحفل الزواج يرمز إلى أن الزواج هبة إلهية ، أو أمر مقدس ، أو ترسيم ، ويتنقل العريس وصحبه فى مركب إلى بيت العروس ، حيث يستقبلهم والدها مرحباً ، ثم يجلس العروسان فى سرادق مؤقت ، على جانبيه ستارة صغيرة ، وتفتح هذه الستارة بمصاحبة العبادات المقدسة التي يتم بها الكاهن الذى يتولى مراسيم الزواج .

عندئذ يقدم والد العروس ، رسمياً ، ابنته للعريس ، ويقوم العروسان متشابكى الأيدي بتقديم حبات من القمح للنار المقدسة ، ثم يطوفان حول النار ، وأطراف رداءيهما معقودة ، ويخطوان معاً سبع خطوات ، ثم يُرش عليهما من الماء المقدس ، ويؤدى المزيد من الطقوس عندما يعود موكب الزوجين إلى بيت العريس ، وبذلك يكتمل الزواج .

يقول البيرونى : إنه لا يفرق بين الزوجين إلا الموت ، إذ لا طلاق . . ويجوز تعدد الزوجات ، بحيث يكون للبراهمان أربع ، وللکشاترى ثلاث ، وللفايسى

اثنتان ، وللشودرى واحدة ، ويجوز للمرء أن يتزوج فى طبقته وفيما دونها ، ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته ، وينسب الولد إلى طبقة أمه .

والمرأة إذا مات عنها زوجها فليس لها أن تتزوج ، وتقبل على حرق نفسها خوف الزل ، ما لم يكن لها ولد يتكفل بصيانتها وحفظها .

والأصل فى المواريث عندهم خاص بالذكور ، ماعدا الابنة فإن لها ربع ما للابن ، وجهازها من ميراثها ، أما الزوجة فإن أثرت الحياة ولم تحرق نفسها كان على الوارث رزقها وكسوتها .

* وكان الكهنة يتقاضون أجوراً عالية فى مقابل مساعدة المتعبد فى أداء طقوس القربان التى أخذت تزداد تعقداً مع الزمن ، فإذا لم يكن فى وسع المتعبد أن يدفع للكهنة أجره ، رفض أن يتلو له الصيغ اللازمة ، فأجره يجب أن يسبق التلاوة .

وقد وضع رجال الدين قواعد تضبط مقدار ما يدفعه المتعبد : كم من الأبقار والجياذ ، وكم من الذهب ، وقد كان الذهب - بصفة خاصة - أثيراً عند الكهنة والآلهة ، لأنه (ماخف حمله وغلا ثمنه) .

وفى أوراق (البراهمانا) التى كتبها البراهمة إرشادات للكاهن تدل على الطريقة التى يستطيع بها أن يقلب الصلاة أو القربان شراً على رءوس أصحابه ، إذا لم يأخذ الأجر الذى يطلبه .

كذلك سنوا قوانين أخرى تفصل دقائق المحافل والطقوس التى ينبغى أن تقام فى كل ظرف من ظروف الحياة تقريباً ، وهى عادة تتطلب معونة للكهنة فى أدائها .

وكان أهم عنصر فى تقديم القربان للآلهة هو الرسوم التى تدفع للكاهن المشرف على إقامة الطقوس الخاصة بذلك ، ورأس التقوى كلها هو السخاء فى دفع تلك الرسوم .

كذلك كان من موارد الكهنة السخية الإتيان بالمعجزات وغيرها من ألوان الخرافات ، فلقاء رسم معين يستطيع البرهمى أن يجعل العاقر ولوداً ، وأن ينبئ

بما حُط في لوح القدر ، وأن يشفى من أخطر الأمراض ، ومن النذر السيئة ،
ومن الأحلام المزعجة ، وأن يكون عوناً في المحاكمات ، وفي المشاريع الجديدة -
قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ١٦٣ / ٢٢٦ .

وهكذا أصبح البراهمة شيئاً فشيئاً طبقة ممتازة ، تسيطر على الحياة الروحية
والفكرية في الهند ، وقد بلغ عدد طائفة الكهان يناهز ثلاثة الملايين .

يقول الكاتب الهندي مليبارى : (إن المهارجا هو الكاهن الذى يؤله ، أى
يتجسد فيه «فشنو» و «كرشنا» ، فيوقف عليه كل فشنوى جسمه وروحه وملكه
وأهله وتوابعه) .

(وإليك بعض مايجب عليه المهارجا من عباده الأتقياء : ٥ روبيات للتشرف
برؤيته ، ٢٠ روبية للمسه ، ٣٥ روبية لغسل رجليه ، ٦٠ روبية للجلوس
بجانبه ، ٥٠ إلى ٥٠٠ روبية للمبيت فى غرفته ، ١٣ روبية لستفضل فيضربه
بسوطه ، ١٩ روبية ليشرب من ماء اغتساله ، أو غسل ثيابه القذرة ، ١٠٠ إلى
٢٠٠ روبية من النساء اللاتى يقضين معه روح اللذة) .

وقد حدث شاهد عيان ثقة أنه رأى كاهناً هندوسياً يجلس عارياً فى أحد
البيوت ، وهو مضطجع ، وعورته بارزة للجميع ، وكل واحد من أتباعه يتهافت
عليه ، ويؤدى تحية الخضوع والتقديس لهذه (العورة) البارزة أمامه - تاريخ
الإسلام فى الهند / النمر ص ٤٦ / ٤٧ .

* ولم يكن فى الهند تشريع قانونى واحد ، إذ كان يحل محل القانون - فى
شئون الحياة اليومية - مايسمونه (داما شاسترا) ، أى النصوص العرفية التى
تفصل ما للطبقات من نظم وواجبات ، وقد كتب هذه النصوص براهمة ، من
وجهة نظر برهمية خالصة .

وأقدم هذه النصوص مايعرف بـ (تشريع مانو) ، ومانو (الولى الكبير)
هو السلف الأسطورى الذى تسلسلت منه جماعة المانوية ، أو مدرستها
الفكرية ، المؤلفة من براهمة ، بالقرب من دلهى ، وقد صورته هذه النصوص ابناً
لله ، أو أباً البشر ، يتلقى القوانين من براهما نفسه . . وهذا التشريع مؤلف من

٢٦٨٥ بيتاً من الشعر ، كانوا يرجعونهم إلى سنة ١٢٠ ق.م ، لكن الباحثين اليوم يردونه إلى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح .

ولقد أريد بهذا التشريع - فى بادئ الأمر - أن يكون بمثابة الدليل ، أو الكتاب الصغير الذى يرشد البراهمة المانوية إلى أوضاع السلوك الصحيح ، لكنه أخذ يتطور فيصبح تشريعاً يحدد قواعد السلوك للمجتمع الهندى كله ، إذ يقوم على القناعة ، والصبر ، وضبط النفس ، والتقوى ، والمعرفة ، والصدق ، والتحرر من الغضب . . وتتلخص هذه الفضائل فى الوصايا الخمس لجميع الطبقات الهندوسية : ١- لاتؤذ مخلوقاً حياً . ٢- أن تقول الصدق . ٣- ألا تسرق . ٤- أن تعيش طاهراً . ٥- أن تضبط شهواتك .

* ولأن البراهمة احتكروا العلم والمعرفة ، فقد صاروا القائمين على صيانة التقاليد ، وأدخلوا على هذه التقاليد ماشاءوا من تعديلات ، وتولوا تربية النشء ، وكتبوا الأدب ، وأشرفوا على نشر المكتوب منه ، واختصوا بكتب القيدا التى هبط بها الوحي ، وصاروا وحدهم الشراح والمشرعين .

وحرم على (الشودرا) تلاوة الكتب المقدسة أو سماعها ، بحيث لو تلاها انشق لسانه ، ولو سمعها امتلأت أذناه بالرصاص المصهور ، ولو حفظ منها شيئاً قُطع نصفين ، وبهذا تظل البرهمية وقفاً على فئة متميزة .

وينص (تشريع مانو) على سيادة البرهمنى على سائر الكائنات .

بل يذهب (مانو) إلى حد أن (كل ماهو كائن فى الوجود ملك البراهمة ، وللبرهمنى حق فى كل موجود ، بسبب النسب) .

ويعيش البراهمة على ما يقدم لهم من القرابين والهدايا ، وإن كان يؤذن لهم فى حالة الحاجة بأعمال التجارة ، أو شغل الوظائف الحكومية .

ولو اقتترف البرهمنى أكبر الكبائر لما حق قتله ، لكن للملك أن ينفيه ، مع احتفاظه بما يملك .

ومن حاول أن يضر برهمنياً كان لزاماً عليه أن يصلى عذاب النار مائة عام ، وأما من ضربه بالفعل فقد حقت عليه الجحيم ألف عام .

وإذا اعتدى أحد من (الشودرا) على عفاف برهمية صودرت أملاكه ، وحكم عليه بالخصى ، وإذا قتل أحد من الشودرا آخر من الشودرا كفر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة ، أما إذا قتل برهميًا فلا بد من قتله ، لأن جريمة القتل خاصة بقتل البرهمي .

وتقول شريعة مانو : (نار جهنم هي مثوى البرهمي الذي يتزوج امرأة من الشودرا ، فإذا ولد له ولد طرد من البراهمة) .

هذا مع أن (البرهمي لن يدنس بذنوب ، ولو قتل أهل العوالم الثلاثة) .

ولذا (يتجنب الملك قتل برهمي ، ولو اقترف جميع الجرائم) .

و (يجب أن يعد البرهمي « أبًا » للأكشترية ، ولو كان عمر البرهمي عشر سنوات ، وعمر الأكشترى مائة سنة) .

و (يجب على الشودري أن يمثل امتثالاً مطلقاً لأوامر البراهمة) .

إن (خدمة الشودري للبراهمة هي أفضل عمل يحمد عليه) .

ومن ثم لا ينبغي أن يجمع الشودري ثروة ، (لأنه إذا جمع ثروة لم يقبل خدمة البراهمة ، وازداد قحة) .

وفي مقابل هذه الامتيازات البرهمية كان على البرهمي أن يقوم أولاً بواجبات الكاهن العملية ، وأن يعد نفسه للمهن الكتابية والتربوية والأدبية ، وأن يدرس القانون ، ويحفظ كتب الفيدا ، وماعدا ذلك من الأعمال فهو أقل أهمية .

على البرهمي أن يستحم كل يوم ، وأن يعود فيستحم إذا حلق له حلاق من الطبقة الدنيا ، وعليه أن يطهر المكان الذي أعده لنومه بروت البقر ، ولا بد أن يراعى طقوساً دقيقة في مباشرته لضرورات طبيعته .

وطقوس التطهر تستغرق من حياة الهندي ساعات ، لأن احتمالات النجاسة وأسبابها كثيرة ، فما أكثر ما يصاب الهندي بما ينجسه : إن أكل طعاماً حراماً ، وإن لمس قمامة ، أو مس إنساناً من طبقة الشودرا ، أو منبوءاً ، أو جثة ، أو حائضاً ، وغير ذلك مئات الحالات .

ومن وسائل التطهر شرب مزيج من خمسة عناصر من البقرة المقدسة : اللبن ، الخثارة ، والسمن ، والبول ، والروث .

قال الأب ديوا سنة ١٨٢٠ عن البول : (إنه فى نظرهم أفعل وسائل التطهير من أى ضرب من ضروب النجاسة ، فكثيراً ما شاهدت هندواً ممن يؤمنون بالخرافة ، وهم يتبعون البقر إلى مرعاه ، ينتظرون اللحظة التى يستطيعون فيها الحصول على السائل الثمين فى أوعية من نحاس أصفر ، ويسرعون إلى دورهم ، وهو ما يزال دافئاً ، وكذلك شاهدتهم يرقبون أخذه فى حفنات بأيديهم ، فيشربون بعضه ، ثم يمسخون وجوههم ورءوسهم ببقيته) .

وقد حرم على البرهمى أكل جميع الحيوانات ، بما فى ذلك البيض ، وأكل البصل والثوم ، والفطر والكراث ، ولا شراب له غير الماء ، والدهون والعطور محرمة عليه ، كذلك اللذة الحسية ، والجشع ، والغضب .

وإذا مس شيئاً نجساً ، أو لمس أجنبياً ، (حتى إن كان هذا الأجنبى الحاكم العام للهند) ، وجب أن يطهر نفسه بالاغتسال الذى تحدده الطقوس ، هذا بينما يقول جوستاف لوبون أن ولى عهد إنجلترا حينما زار الهند أحيط بمظاهر التقديس لاعتقادهم أن روح الإله فشنو حلت فيه ، وكان الأولى أن تحمل فى (الحاكم العام) لأنه يمثل القوة الفعلية . ويستحيل على البرهمى أن يؤذى كائنات حياً ، (فيما عدا الإنسان من غير طبقته) ! !

وإذا ما تشاءب البرهمى جعل يفرق بأصابعه ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يطرد الأرواح الشريرة ، فلا تدخل فمه المفتوح .

وللبرهمى حق الليلة الأولى مع كل عروس تزف فى منطقة نفوذه ، مع أنه مطالب بعدم (اقرار المملكات الحسية) ١١ - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٣١ / ٥٠ و ص ١٦٣ / ٢٢٦ .

* كانت كلمة (برهمى) تعنى فى (الرج قيدا) الصلاة ، فى حين أنها تعنى الآن السلطة المقدسة ، وقد ذهب البراهمة إلى أبعد من ذلك ، فزعموا أن (البراهمة الذين يعلمون القيدا ، ويدرسونها ، هم آلهة آدميون) .

وينتظر من الكاهن البرهمي - عند رؤيته باكورة أحفاده - أن يعتزل عمله ،
ويذهب إلى الغابة ، يمارس تمرينات تقشفية وتأملية ، حتى يبلغ القوة الإعجازية
السحرية ، فيسحر الناس والآلهة ، وبهذا يختم حياته إنساناً كاملاً ، أو إلهاً .

ولا ينتسب البراهمة إلى قبائل معينة ، بالرغم من أن أكثر من نصفهم يعيش
في حوض نهر الخليج الأعلى ، وفي البنغال ، وكانوا في بداية الأمر من السحرة
الذين تحولوا تدريجياً إلى طبقة مقدسة من المثقفين ، تلقوا الدراسات في القوانين
المقدسة ، والممارسات الشعائرية ، وفي حفظ كتب الفيدا في صدورهم .

وزعموا لهم امتيازات على كهنة الطبقات الأخرى ، حتى (إن براز الكاهن
البرهمي يمكن استعماله في العرافة ، وعلم الغيب) .

ولأن البرهمي هو الموجه الروحي لأعمال الحاكم ، سواء أكانت شخصية أم
سياسية ، وجب على الحكام تعويض البرهمي من الأراضي والماشية والجواهر
والنقود .

ومن هنا تمثلت القوة السياسية والاجتماعية لهذه الطبقة - الهند عقائدها
وأساطيرها ص ٣٨ / ٤٢ .

ولعل مرد هذا التمييز إلى الآريين الغزاة الذين شعروا بقلّة عددهم مقابل
الكثرة الكثيرة من السكان ، وخشية أن تذوب القلة في الكثرة ، وخشية أن
تتلاشى سطوة الغزاة في عادات وتقاليد السكان الأصليين - لم يكتفوا بالمحافظة
على كيانهم ونقاوة عرقهم ، بالانفصال التام ، وتحريم الزواج من غيرهم . .
وكان أن استدعى هذا الشعور بالتمييز حقوقاً وواجبات ، وتبع الحقوق
والواجبات قدر من الاستعلاء ، أخذ يتزايد ، ويدعى لنفسه ، ويفترى على
غيره .

ومن ثم كان تشكيل المجتمع إلى طبقات ، من واقع أهمية الخدمات التي
تؤدي لطبقة الغزاة ، أو البراهمة .

فالكشاتريا Ksatariyas (المحاربون) هم الطبقة التالية ، لأنهم يمتلكون القوة
المادية التي تحمي الدولة ، وتحقق الأمن والاستقرار . . ولعل طبقة البراهمة أو

السحرة هي التي أوحى بالدستور الحربى لطبقة الكشاتريا الذى يعد الموت فى الفراش إثماً يرتكب فى حق الطبقة ، ويتنظر بمن وهنت قوته أن يبحث عن الموت فى المعركة .

ولعل هذه الطائفة كانت من بذور الآريين الغزاة ، ثم تكاثرت ، وفق مطاعم الملوك ، وتوجيهات البراهمة ، وقد سمح لها بقراءة الكتب المقدسة ، وتعلمها ، لكن أن يجروا أحد أبنائها على تعليم هذه الكتب ، فقد وجبت محاكمته ليقطع لسانه ، حتى لا ينافع منازع حق البراهمة المقدس .

وقد استمرت هذه الطائفة فى نشاطها العسكرى تحت الحكم الإسلامى ، إلى أن قاموا بالثورة ضد المغول ، وأسسوا آخر حكم هندوسى وطنى فى القرن الثامن عشر .

وثالثة الطبقات تتمثل فى (الفايسيا Vaisyas) ، رجال المال والأعمال . . ولما كان المال عصب الحياة لاتقوم الدولة إلا به وبالتجارة الناجحة ، وإلا سيطر الكساد ، واختنقت الأسواق ، ووقفت عجلة الإنتاج - فقد كان الحلف بين التاجر والحاكم حلقاً طبيعياً ، لأن التاجر أعرف برجال الحكم ، وأقدر على ترويضهم ، وكشف أسرارهم ، بسبب من اكتساب الخبرة ، وتشتم مصادر الربح ، والتعرف على مجاريها .

والطبقة الرابعة هي طبقة المنتجين من الصناعات والزراعة والحرفيين والرعاة ، وهم مايسمون (الشودرا Sudra) الذين بدونهم تجف الزروع والضروع ، وتمتلىء الحلوق بالرماد ، والعيون بالظلام ، إنهم الذين يدفعون الحياة فى العروق ، ويملثون الصدور بالأحلام ، والعيون بالرضا والابتسام ، ومع هذا يعيشون على جانبي الطريق ، مهمشين ، عشوائيين ، لا يظفرون إلا بالفتات ، ولا يملكون البكاء على ما فات .

ولكل من هذه الطبقات الأربع نسبة إلى الإله ، كل بحسب نشاطها ، فالبراهمة خلقوا من فمه ، لأنهم أصحاب الكلمة المقدسة ، والكشاتريا من ذراعيه ، والفايسيا من جذعه ، والشودرا من قدميه .

ثم تأتى طبقة المنبوذين (ياريا) فى أسفل السلم ، فى موضع حذاء الإله ، ومن ثم لم تحسب من السلم ، ويكفى مجرد ظهور فرد من أفراد هذه الطائفة داخل حجرة حتى يُفسد هواءها ، ويلوث طعامها ، وفى هذه الحالة يجب إلقاء ما فى المنزل من طعام إلى الخارج ، تفادياً للنجاسة والأذى .

وتبعاً لتعاليم طبقة البراهمة ، فإن عدوى الرجل من الطبقات النجسة قد تذهب إلى حد إضعاف القوة الجنسية عند الطبقات الأخرى .

* وكل من أدى الواجبات التى تفرضها عليه طبقته بإخلاص وأمانة ، فقد يرتقى إلى طبقة أعلى ، عندما يبعث من جديد ، أما إذا سلك حياة لا أخلاقية ، أو خالف تعاليم طبقته ، فسيبعث فى طبقة أدنى ، وقد يبعث فى صورة حيوان أو حشرة .

والمرأة إذا ما أدت واجبها على الوجه الأكمل - فى إطار طبقته - يمكنها أن تبعث فى صورة رجل إذا رغبت فى ذلك .

ويبدو أن هذا الحلم أو الوهم من صناعة الطبقة الأولى ، حتى يعتصروا طاقات القادرين ، وحتى يقتلوا فى الساخطين أى نزوع إلى التحرر أو التمرد .

وبارتقاء مبدأ (أهما : عدم العنف) الذى تراعيه أديان الخلاص المسالمة ، البوذية والجانية بخاصة - هبطت رتبة الفلاح ، بل حقرت ، لأن الفلاح - وهو يحرق الأرض - يقضى على الحشرات والديدان ، وهو خطيئة دينية لا تغتفر .

وانحدرت مهنة تربية الحيوان ، لأنها تقتضى سفك الدماء ، وحققت زراعة الخضراوات والدخان والبنجر ، وبعض المحصولات الأخرى ، لأسباب شعائرية مختلفة .

* ويلاحظ أن هذه الطبقات معرضة للانقسام ، بسبب مبدأ الرفض الكلى أو الجزئى للمعاشرة ، أو الزواج من غير أعضاء الطائفة ، فمرّبوا الماشية يكونون عرضة لفقدهم الطبقة ، بسبب بداوتهم وتنقلاتهم المستمرة ، إذ إن الجزء من الأرض الهندية الذى تأسس عليه نظام الطبقة هو الذى يعتبر أرضاً مقدسة ، والهندوسية المتطرفة ترتاب فى تغيير محال الإقامة ، حتى داخل الهند نفسها ،

لهذا كان أكثر من تسعة أعشار السكان الهنود يعيشون في حيث ولدوا .
وقد يتطلع أعضاء الطائفة إلى مرتبة أعلى ، وقد ينبذون بعض الشعائر
والطقوس ، ويعتقون شعائر جديدة ، وقد يغيرون مهنتهم ، ومجرد التغيير في
الأسلوب الفني للعمل قد يعد سبباً كافياً لتفكك الطبقة .
وقد تنشأ طوائف جديدة نتيجة الزواج غير الشرعى ، واتخاذ المحظيات بين
الطوائف .

خاجوراهو

مدينة الآلهة ، زارها ابن بطوطة سنة ١٣٣٥م فى ولاية (ماديا برادش) ، وعاصمتها (بهوبال) ، وسماها (كاجورا) ، وقال إنها بحيرة يبلغ طولها ميلاً ، تلتف حولها المعابد والأصنام .

ومعظم هذه المعابد مشيد من صخور الجرانيت ، أو الحجر الرملى ، وتأخذ الكتلة العامة للبناء فى الارتفاع تدريجياً إلى عنان السماء ، بواسطة أبراج متماثلة ، تتجمع حول البرج الرئيسى ، لتضفى على البناء شعوراً بالسمو والشموخ .

أما جدران المعابد وأعمدتها - سواء بالداخل أو بالخارج - فمزينة بتمائيل ونقوش من النحت البارز الذى ينبض بالحماسة والقوة ، ويضيف إلى الفن التشكيلى ثروة لا تقدر بثمن . . وتتميز هذه التماثيل بصور الأشكال النسائية الرقيقة الرشيقة ، والإسراف فى عرض صور الجنس والإباحية المطلقة .

ويعزى السبب فى ذلك إلى بعض الطقوس الدينية التى كانت منتشرة فى هذا الوقت بين المجتمع الراقى وملوك (تشانديلا) الذين قاموا بتشيد هذه المعابد ، وكانت تتضمن إقامة حفلات القصف والتهتك وممارسة الجنس علانية ، وكان معتنقو هذه الطقوس يرون أن الامتزاج الجنىسى ما هو إلا رمز الامتزاج الروحى مع الإله (شيفا) .

ولعل هذا سبب المبالغة فى التأكيد على أهمية الجنس فى صور (خاجوراهو) ، وتكوين مجموعات تماثيل فاضحة من الرجال والنساء ، وإن

كان الهندوسى لا يرى فيها فحشاً وإسفافاً ، بل يرى تعبدًا وصلابة وإيمانًا ، لأنها تمثل النشوة الطاغية لآلهته ، وهم يقومون بعملية خلق العالم الذى يعيش فيه .

وأهم هذه المعابد للإلهين شيقا وفشنو ، ويبلغ عددها اثنى عشر معبدًا ، وأكبرها معبد (كاندراماهاديفا) الذى يعتقد أنه شيد عام ١٠٠٠ ق.م ، ويضم أكبر وأهم مجموعة من التماثيل .

ويليه معبد (فيشفاتاتا) للإله فشنو ، وهناك معبد آخر مكرس لعبادة إلهة الشر المخيفة (كالى) ، وآخر لعبادة إلهة الشمس (سوريا) ، وآخر لعبادة الخنزير البرى (فاراها) ، وهو أحد تجسيدات الإله فشنو الأرضية - الهند . .
عقائدها وأساطيرها ص ١٥٣ / ١٥٦ .

الجانتيية

ولسعة الأراضى الهندية ، وتنوع مناخها وثقافتها ، وكثرة سكانها ، وغلبة الزهد والفقر والبطالة - شغل المنزع الدينى العقول والقلوب بألوان من الخرافات والأوهام ، وبألوان من التأمّلات والاجتهادات ، بحيث يمكن اتخاذ هؤلاء (المجتهدين) علامة بارزة على (عجز العقل) الذى صار فى عرف (التنويريين) عجباً جسداً له خوار .

كان القرن السادس ق.م . . عصر تفتح دينى وفلسفى ، كما كان عصر توسع اقتصادى . . وقد تكونت طبقة أرستقراطية من ملاك الأرض ، على حين كانت تنمو طبقة من التجار ورجال المال والأعمال فى المدن الكبيرة وطفقت الدويلات الصغيرة تتطور لتكون دولاً أكبر ، حتى كان الجزء الأخير من القرن الرابع ق.م ، فأنشأ (تشاندرأ جوبتا موريا) الإمبراطورية الهندية العظمى الأولى ، وعاصمتها (باتا ليبوترا) - باتنا الآن - على نهر الخليج ، فى (ماجدها - بيهار) .

وكان البراهمة - كما سبق - يزعمون لأنفسهم منزلة ذات امتياز خلقى واجتماعى على كل من الأرستقراطية الزمنية العسكرية والطبقات الوسطى الحديثة النمو ، باعتبارهم الأوصياء والكهان الأكفاء دون سواهم .

ومن ثم كان طبيعياً أن تقف طبقة النبلاء والطبقات الوسطى الغنية ضد مزاعم البراهمة .

وكان أن نبتت أفكار جديدة انتسبت إلى الأسر الكشاثرية ، أو نشأت بينها ، لتجد القوة والعون ، حيث يصل الأمر إلى حد الصدام .

* عاش (ماهافيرا) ، أو (فاردهامانا جاناتا بورا) بين سنتى (٥٩٩ / ٥٢٧ ق.م) ، أو (٥٤٩ / ٤٧٧ ق.م) تقريباً ، فثمة اختلاف بين المصادر فى تحديد الزمن .

ولد ولادة طبيعية ، خالية من الأساطير ، لرجل ثرى ، وكان أبواه - على ثرائهما - ينتميان إلى عقيدة تنظر إلى العودة إلى الحياة على أنها لعنة نزلت بمن

يعود ، وتنظر إلى الانتحار على أنه ميزة ينعم بها المنتحر . . فلما بلغ وليده عامه الحادى والثلاثين أزهدا روحيهما بجوع متعمد ، مما أدى إلى أن يخلع الشاب كل ثيابه ، ويضرب فى أرجاء البنغال الغربى .

لقد دعتة الآلهة أن (ينشر الدين الذى هو بركة للخلق كله فى الدنيا) .

ولما تخلى عن أملاكه ، خرج فى محفة ، استوقفها تحت شجر أشوكا ، وترجل ، ونزع شعره ، واستمر فى البحث والتأمل ، وعانى كثيراً من الصعاب والآلام ، والجوع والبرد ، والحيوانات المتوحشة والزواحف السامة ، وإغراءات النساء . . وبعد ثلاثة عشر عاماً أحاط علماً بكل شئ ، وألقى أول موعظة ، فأقبل عليه التلاميذ والأتباع ، وأعلنوا أنه (چنا) أى قاهر ، ثم اختاروا له اسماً جديداً هو (ماهافيرا) ، أى البطل العظيم ، وأصبحوا هم الجانتيين .

لم يكن ماهافيرا مبتدعاً ، فقد بشر بعقيدة وجدت عند سلفه (بارشفا) الذى يقال إنه مات قبله بمائتين وخمسين عاماً ، وربما كان (بارشفا) مؤسس العقيدة ، وماهافيرا داعياً أضاف وعدل قليلاً من التعاليم ونشرها بين الناس .

كان الجانتيون يقولون ، : (ليس من الضرورى أن نفرض وجود خالق ، أو سبب أول ، فكل طفل يستطيع أن يفند مثل هذا الغرض بقوله : إن الخالق الذى لم يُخلق ، أو السبب الذى لم يسبقه سبب - لا يقل صعوبة عن القول بافتراض عالم لم تسبقه أسباب ، ولم يخلقه خالق ، وإنه لأقرب إلى المنطق السليم أن تعتقد أن الكون كان موجوداً منذ الأزل ، وأن تغيراته وأطواره التى لانهاية لها ترجع إلى قوى كامنة فى الطبيعة ، بدلاً من أن تعزو هذا كله إلى صناعة إله) .

وهذا ما ردهه (الفيزيقيون) التنويريون بعد ذلك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد .

لكن لما أفرغ الجانتيون السماء من الإله ، لم يلبثوا أن عمروها من جديد بطائفة من القديسين المؤلهين ، وراحوا يعدونهم خالقين للعالم ، أو سادة عليه ، يحكمونه بأى معنى من المعانى . . ففيم إذن كانت صناعة هؤلاء المؤلهين ؟ لأنهم أتباع ماهافيرا ؟ إذن وجب أن يكون ماهافيرا إلهاً أعظم ، وإذا صح هذا

فما دور هؤلاء المؤلهين ؟ أهو الدعوة إلى الطريق المؤدية إلى الخلاص ، إلى (الأهمسا Ahimsa) التى تقوم على الامتناع عن إيذاء أى كائن حى ، وإلى التقشف والزهد فى الحياة ؟ إن هذا أمر لا يحتاج إلى تأله أو قداسة ، إنه نوع من (قلة الحيلة) ، من السلبية ، يسهل على عدم القادرين أو المطحونين والعبيد أن يبرروا به ضعفهم وهوانهم ، إن الألوهة قدرة على الخلق والإبداع ، على الثواب والعقاب ، على المنح والمنع ، فإذا لم تتحقق هذه القدرة صارت صفة الألوهية عبثاً وهزلاً وسخرأ .

إن العهود الخمسة : ألا تقتل كائنًا حيًا ، ألا تكذب ، ألا تأخذ ما لم تُعط ، أن تصون عفتك ، أن تنبذ الاستمتاع بالأشياء الخارجية كلها - لا تحتاج إلى وحي أو إلهام ، إنها سلبيات لا يستطيعها إلا من ضاقت به المسالك ، أو من فقد ماشق عليه فقده ، ومن السهل (اصطيد) كثيرين أرمضتهم مكابذات لا قدرة لهم على احتمالها ، ولا التماسك مع معاناتها ، ومن ثم تسهل قيادتهم وتوجيههم ، وإعادة تشكيلهم وتصنيفهم ، سواء فى مجال الإيجابية المنحرفة ، أو الانهزامية العدمية ، فلا عجب أن يحرم الجانتي اللذة الحسية ، وأن يكون هدفه ألا يأبه للذة أو ألم ، وأن يستغنى تمامًا عن الأشياء الخارجية كلها ، ويجرؤ على تحريم الزراعة ، بدعوى أنها تمزق التربة ، وتسحق الحشرات والديدان ، ويرفض العسل ، لأنه حياة النحل ، ويصفى الماء قبل شربه ، خشية أن يقتل ماعساه أن يكون فيه من كائنات ، ويغضى أنفه حتى لا يستنشق أحياء عالقة بالهواء ، فيقتلها ، ويحيط مصباحه بستر حتى يقي الحشرات لذع النار ، ويكنس الأرض أمامه - وهو يمشى - خوفًا من أن تدوس قدمه (الحافية) كائنًا حيًا فتقتله .

إن الجانتي يحرم ذبح الحيوان ، أو التضحية به ، ويقيم المستشفيات والمصحات للحيوانات إن هرمت أو أصابها أذى ، وهذا عمل مشفوع بعواطف إنسانية رقيقة ، لكنه يرى ملايين البشر يموتون جوعاً ومرضاً ، ومع هذا لا يفكر فى وسيلة تنقذ هؤلاء الملايين الذين تزدهم بهم الشوارع والساحات ، بينما تُنْفَق الملايين على المعابد الضخمة ، والتماثيل والنصب المصنوعة من أجود الخامات ، وبينما تمتلئ الشوارع بالأبقار التى يمكن أن تحقق ثمناً اقتصادياً ، ووفرة غذاء .

ومن العجيب أن الجانتيية تجيز الانتحار ، ولا تعالج أسبابه ، وترى أنه إذا تم عن طريق الجوع يكون أبلغ انتصار للروح على (إرادة الحياة العمياء) . . وقادة المذهب يعجلون إلى الموت عن طريق أنفسهم ، وشاع أن غاندى كان شديد التأثير بهذا المذهب - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٥٨ / ٦٢ .

إن مثل هذه الأفكار - لا يمكن أن توافق على الزواج والإنجاب ، لأنها ترفض الحياة بداية ، ومن هنا لا تكون أسلوب حياة ، أو طريقة لتنظيم علاقات الكائنات . . إنها دعوة إلى الموت ، إلى العدمية ، وما أسهل أن تقول (لا) لكن لماذا ؟ وماذا سترتب على هذا من نتائج ؟

إن أعمار الجانتيين لا تمثل وجوداً إنسانياً ، وإذا اقتصرت (الجانتيية) على (قهر الذات) لغير هدف أسمى ، فقد تحولت إلى لون من (التردى) الوبىء ، فما قيمة (الحى) الذى ينشد (الموت) ؟ وما قيمة (العقل) الذى يتخذ (الأكنة) ؟ وما قيمة (الحواس) التى لا تعمل ؟ ثم يأتى آخر الزمان من يرون رأى الجانتيين بعدم وجود خالق ، استناداً على أنهم عقلانيون (١٩) .

إذا كان الجانتيون أنكروا وجود الإله فلأنهم أنكروا وجود أنفسهم ، إن الإيمان بالله يوثق الإيمان بخلقه ، ويعلى من الانتساب إلى الخالق البارئ المصور ، فهل يمكن الحكم على (التنويريين) إلا بمثل ما حكم به الجانتيون على أنفسهم ؟

* كثيرون يجمعون بين الجانتيية والبوذية فى طبق أو (قفص) واحد ، بالرغم من الكراهية المتبادلة بينهما ، شأن المتعاصرين من الدعاة .

وقد وصف الجانتيون (ماهافيرا) بأنه حكيم (عليم بكل شئ) ، أتى إلى الدنيا ليعيد سنّ القوانين ، بكل نقائها وطهارتها ، بعد أن استشرى الفساد بين الناس .

وادعوا أن بوذا كان أحد تلاميذه .

وهناك أربعة وعشرون من (الجينا) المؤسسين (المؤلهين) تعاقب أحدهم بعد الآخر ، وصاروا رموزاً رئيسية للعبادة ، وتبلغ تماثيل هؤلاء المؤسسين حداً

هائلاً من الضخامة ، منتشرة فى كافة معابد الطائفة ، وتحاكى تماثيل رمسيس أو ممنون ، كما تتميز المعابد بطراز فريد يختلف عن المعابد البوذية أو الهندوسية .

وهم يشتركون مع البوذية فى تقديم الذبائح ، وفى الإيمان والولاء ، مع أن هذا معناه الاعتراف بقيمة الحياة ، وبقيمة العمل ، وبالخوف من غضب الآلهة ، وكل هذا يتنافى مع (العدمية) وإرادة الموت . . كما يشتركون مع البوذية فى استعمال الأجراس الصغيرة ، وفى تلقى الاعتراف ، وفى الاهتمام البالغ بالحج ، وفى الصوم أربعة أشهر ، وفى قراءة الكتب المقدسة ، وفى ممارسة التأملات الروحية ، كما تتمتع نساؤهم بنفس الحقوق التى يتمتع بها الرجال .

وهم كالبوذيين يرفضون كتب الفيدا البرهمية ، وينادون بفسادها ، والشك فى صحتها ، وصنعوا لهم كتباً مقدسة ، واتخذوا كهنة من بين طائفة البراهمة ، لأنهم يعترفون أنهم هندوس ، وقد أسهموا بقسط وافر فى الحياة الهندية الأدبية والعلمية .

وهم كالبوذيين ينقسمون إلى كهنوت وعلمانيين ، وإن كان سلك الرهبنة أقل انتشاراً بينهم .

وهم أشد الطوائف الهندوسية تمسكاً بمبدأ عدم العنف ، وبالحرص على سلامة الآخرين ، وقد تجد الجانتي يتجول فى الظهيرة ، باحثاً عن جحور النمل ، يطعمها الحلوى والسكر .

وهم لا يقصون شعورهم ، خوفاً على حياة القمل ، لهذا يقتلعون الشعر من جذوره ، ولا يخوضون فى الماء ، حتى لا يطنوا كائنات حية .

وقد تجنب الجانتيون العمل فى الحرف الصناعية التى تهدد الحياة ، بشرية أو حيوانية أو حشرية ، كالصناعات التى تستخدم النار أو الآلات الحادة ، وصناعة الأخشاب والأحجار والبناء ، أما الزراعة فأشد حرمة .

وهم يحذون من التملك والحيازة ، ويهبون الفائض للمعبد .

ويؤمنون بالأمانة المطلقة ، وعدم الغش فى معاملاتهم ، ويرفضون المعاملات المالية المريبة ، ولأمانتهم اشتهر تجارهم بالثراء ، حتى إن نصف تجارة

الهند فى أيديهم ، وهم يحتكرون الأعمال المصرفية والربوية ، واكتسبوا حب الحكام ، وكان لهم شأن فى دواوين الحكومة (مع أنهم يرفضون الحياة ؟!) .

ومع أنهم يفرضون على الكاهن منهم حياة التشرد و التنقل المستمر ، حتى لايتورط فى إقامة علاقة مع الناس ، فإنهم - فى الوقت نفسه - يفرضون على غير الكاهن البقاء فى مكان واحد لا يغادره ، خوفاً من ارتكاب الذنوب إذا ساح ، وإذا اضطر أحدهم إلى السفر كان عليه أن يحصل على إذن من رئاسة الطائفة ، يحدد له فى (الإذن) طريق السفر ومدته ومصروفاته ، ويزوده ببعض التعليمات .

ومع أنهم كالبوذيين لايقرون بوجود خالق ، فإنهم يعتقدون أن الحياة فى هذه الدنيا خالدة - الهند . . عقائدها وأساطيرها ص ١٣٩ / ١٤٧ - على حين لايعترفون بتناسخ الأرواح .

ويقولون إن آدم وحواء كانا يعيشان فى الجنة بطهر كامل ، لايشعران بحياء ولا خير ولا شر ، ولا يحملان همّاً أو غمّاً ، حتى تسلط عليهما الشيطان ليحرمهما من هذا النعيم ، فحملهما على الأكل من شجرة العلم بالخير والشر ، فأخرجا من الجنة .

ويقولون إن الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم ، فلو لم يكن الإثم لم يكن الحياء .

وهم يرون أن المعرفة شئ نسبى وقتى غير مطلق ، ولا يوجد شئ حقيقى ، إلا من وجهة نظر خاصة ، فقد يكون باطلاً من وجهات نظر أخرى ، وإليهم تنسب الأسطورة الطريفة الخاصة بالعميان الستة الذين وضع كل منهم يده على جزء من الفيل ، فوصف الفيل بشئ يشبه الجزء الذى تحسسه بيده . . وهكذا فجميع أحكامنا نسبية محدودة ومشروطة ، أما الحقيقة المطلقة فلا يعرفها إلا المخلصون الذين يظهرون بين البشر فى فترات معينة ، وهم (الجينا) من أمثال (ماهافيرا) .

وكانوا يؤمنون بمبدأ (ثنائية) الحياة والطبيعة ، الروح والمادة .

وهم مختلفون بين العرى ولبس الأردية المعتادة ، وعددهم لا يتجاوز
المليونين .

وذكر أن رسامة الكاهن المستجد تجرى تحت شجرة ، بعد أن يضع جواهره
وملابسه جانباً ، دلالة على تخلصه من جميع مقتنياته ، ثم ينزع شعره ، ويلطخ
صلعته . . وتنتهى المراسيم بأن يهمس له (الأستاذ) فى أذنه بالصيغ الكهنوتية
والسحرية .

وقد مات ماهافيرا فى الثامنة والسبعين من عمره ، حيث ذهب روحه
المتحررة إلى (سدها شيلا) الذى يقوم على قمة الكون ، حيث يسكن فى قوة
مطلقة ، وعلم مطلق ، متنعمًا نعيمًا كاملاً ، لاصلة له بالكون المادى . . وعند
موته كان (بوذا) فى الثمانين من عمره .

البوذية ..

يسجل التراث البوذي ما لا يقل عن ٢٤ بوذا سبقوا (بوذا جوتاما) ، وليس هناك دليل على وجودهم تاريخياً ، وإنما وجودهم مؤكد (كحقيقة تجلت) ، وأعلنها بوذا جوتاما . وينسب إلى بوذا قوله : (لقد جاء عدد من بوذا - أى المصلحين الدينيين - قبلى ، فلست وحيداً فريداً فيما أتيت ، وإنما قصدى أن أنير الطريق أمامكم ، كما فعل الأولون) .

ولقد تردد مثل هذا القول على السنة رسل الله ، بوحي من الله سبحانه ، كما تردد على السنة بعض الفلاسفة والمصلحين ، لأن التاريخ الدينى والإصلاحى لا يمكن أن يقف عند مرحلة ، أو عند شخص واحد .

ويتصدر التراث البوذى فترة زمنية تقدر بمائة وعشرين ألف سنة سبقت العصر الذى عاش فيه (جوتاما) ، فى القرن السادس قبل الميلاد ، غير أن هذه ليست سوى أرقام رمزية - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢١٦ .

أما عن بوذا جوتاما (٥٦٣ - ٤٨٣ ق . م تقريباً) فتقول الأسطورة : إن الملكة (مايا) زوج (شُذُوذانا) ملك (كاييلا فاستو) الواقعة عند سفح الهميلايا - بعد أن أدت شعائرها الدينية ، وقطعت على نفسها عهود (أبوساذا) ، وهى عهود تقال فى أربعة أيام من كل شهر - دخلت مخدعها الرسمى المزدان ، ورأت رؤيا :

رأت أربعة ملوك عظماء يرفعونها فى سريرها ، ويأخذونها إلى جبال الهميلايا ، ويضعونها على هضبات (ماتوسيلا) ، ثم رأت ملكات هؤلاء

الملوك الأربعة يأتين إليها ، ويأخذنها إلى بحيرة (أنوتانا) ، ويغمسناها في الماء ، ليزلن عنها الصبغة البشرية ، ويلبسنها أردية سماوية ، ويعطرنها بالعطور ، ويزينها بالزهور المقدسة ، ولم يكن على مبعدة منها أن رأت جبلاً من فضة ، عليه قصر من ذهب ، وهناك أعددن لها سريراً إلهياً رأسه إلى الشرق ، وأرقدنّها عليه ، وهاهنا انقلب (بوذا ساتفا) ^(١) فيلاً أبيض ، وكان على مقربة من المكان جبل من ذهب ، فلما بلغه هبط منه إلى جبل الفضة ، آتياً إليه من جهة الشمال ، وفي جعبته التي أشبهت جبلاً من فضة كان يحمل زهراً أبيض من زهور اللوتس ، وبعدئذ نفخ في الصور ، ودخل قصر الذهب ، ودار تجاه اليمين دورات ثلاثاً ، حول سرير (مايا) ، ثم ضرب جنبها الأيمن ، وظهر لها كأنه يدخل رحمها ، وبهذا تلقى حياة جديدة .

* جمع الملك البراهمة ليفسروا الحلم ، فقالوا : سيكون لك ابن ، ولو سكن ذلك الولد بيتاً فسيكون ملكاً على الدنيا بأسرها ، أما إن ترك داره فسيكون (بوذا) ، يرفع الغشاوة عن عيون الناس .

وحملت الملكة به عشرة أشهر ، كأنه الزيت في القدح .

ولما آن أوانها رغبت في الذهاب إلى بيت أهلها في (دينا داذا) .

كان في الطريق حرج كبير ، رغبت الملكة في أن تستريح به ، وأمسكت بفرع شجرة من أشجار (الملح) ، فأجاءها المخاض ، ووضعت وليدها ، وهى لم تزال ممسكة بالغصن .

نزل (بوذا ساتفا) كما ينزل الواعظ من منبره ، ووقف لا يلوثة القدر ، ولا تدنسه شائبة ، مشرقاً بالضوء ، كأنه جوهرة موضوعة على ثوب بنارس .

وقيل إنه ولد في مدينة لومينى سنة ٦٢٣ ق . م جنوب غربى نيبال .

(١) كائن أصبح أهلاً لأن يدخل الراحة الأبدية Nirvana ، ويصبح بوذا ، لكنه يرفض - بمحض إرادته - هذا الامتياز في المكانة ، ليظل بين كائنات الكون التي لا تزال غير مستنيرة ، ويعمل من أجل خلاصها . . إنه شخص مبجل بطولى ، بل معبود ، من أجل احتماله الشقاء وكده ورحمته للآخرين .

وعند مولده ظهر فى السماء ضوء لامع ، فرأى الأعمى ، وسمع الأصم ، ونطق الأبكم ، واستقام الأعرج على ساقيه ، وانحنت الآلهة من علياء سمائها ، تمد له أيدى المعونة ، وأقبل الملوك من أقصى الأرض يرحبون بمقدمه . . وعاش عيشة الأمير الهانئ فى ثلاثة قصور (كأنه إله) .

كان أبوه يقيه - مدفوعاً بحبه الأبوى - شر الاتصال بما تعانیه البشرية من آلام وأحزان ، وكان يقوم على تسليته أربعة آلاف راقصة . . ولما بلغ رشده عرضت عليه خمسمائة أميرة ليختار إحداهن زوجة له .

ولما كان يتنمى إلى طبقة (الكشاترية) ، تعلم الفنون العسكرية ، لكنه إلى جانب ذلك جلس عند أقدام الحكماء ، حتى أتقن دراسة النظريات الفلسفية التى كانت شائعة فى عصره .

وتزوج ، وأصبح أباً سعيداً بزوجته وابنه (راهولا) ، ينعم بالثراء والدعة وطيب الأحداث .

وتروى النصوص أنه التقى - على التوالى - برجل يعذبه المرض ، ثم برجل فى آخر مراحل الوهن والشيخوخة ، ثم بجثة محمولة إلى المحرقة ، ومن خلفها يسير الحزانى من الأقارب والأصدقاء . وبينما هو يفكر فى هذه الوقائع رأى رجلاً مقدساً ، حليق الرأس ، جوالاً ، وآخر من الذين نذروا أنفسهم للسعى إلى حياة الزهد ، لتتحرر من عبث الحياة ، وهكذا تحول (سدهاتا) إلى حياة الزاهد المتجول ، آملاً فى أن يجد حلاً لمشكلات الوجود البشرى .

* قال بوذا : (لما وجدتني ممن تجوز عليهم الولادة ، بحثت فى طبيعة هذه الولادة ، ماذا تكون ؟ ولما وجدتني ممن تجوز عليهم الشيخوخة ، بحثت فى طبيعة هذه الشيخوخة ، ماذا تكون ؟ كذلك المرض ، وكذلك الدنس . . . فلما رأيت فى طبيعة الولادة من تعس ، جعلت أبحث عن لا يولد ، أبحث عن السكينة العليا ، سكينة النرفانا) .

انضم إلى جماعة من النساك ، وظل فترة من الوقت يعمل بجهد تام سعياً وراء الحقيقة الروحية ، متخذاً منهج الزهد ، وأخيراً وجد أنه لم يتقدم كثيراً فى

سعيه ، على الرغم من أن نظام الزهد الذى اتبعه بلغ من الصرامة حداً أذاب الشحم واللحم ، واقترب كثيراً من الموت .

لبث ستة أعوام يحاول أساليب رياضة النفس (اليوجا) ، وعاش على الحبوب والكلاء ، ومضى عليه عهد اقتات بالروث ، وانتهى بالتدرج إلى أن جعل طعامه حفنة من الأرز كل يوم ، ولبس ثياب الوبر ، وانتزع شعر رأسه ولحيته ، لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب .

كان ينفق الساعات الطوال واقفاً أو راقداً على الشوك ، وكثيراً ما كان ينام بين الجثث الغضة المكشوفة التى يجتمع عليها الطير والوحش .

ثم أدرك أن ما يبحث عنه لا يمكن الوصول إليه عن هذا الطريق .

وقال : (قلت لنفسى : ماذا لو قللت من طعامى ، فلا أكل أكثر مما تسع راحتى من عصير الفول أو العدس أو البازلاء أو الحمص . . . فضمر جسمى ضموراً شديداً ، وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت عيناي تبرقان عميقتين وطيتين فى محجرتيهما ، كما يبرق الماء عميقاً وطيباً فى بشر . . . ولما كنت أمدّ يدى لألمس جلد بطنى ، كنت أجدنى فى حقيقة الأمر أمسك بفقرات ظهري) .

لكن فكرة أشقرت على بوذا ذات يوم ، وهى أن تعذيب النفس ليس هو السبيل لما يريد ، (إننى بمثل هذه القسوة لا أرانى أبلغ العلم والبصيرة الساميتين على مستوى البشر ، وهما العلم والمعرفة اللتان تتصفان بالرفعة الحقيقية) .

وتساءل : (ما مصدر مايعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت ؟) .

* ترك الزهاد ، ومضى حتى وصل إلى ضفة نهر جايا Gaya ، وهو رافد يصب فى نهر الجانج ، جلس تحت شجرة البو Bo-tree ، وأخذ التأمل الجاد ، على طريقة الرجال المقدسين فى الهند ، عازماً على أن يظل فى تأمله ، حتى يصل إلى الاستنارة التى يسعى إليها .

ويخبرنا التراث البوذى كيف هاجمه الشيطان (مارا Mara) وبناته الثلاث ،

وكيف حاولوا بحيلهم المختلفة أن يجعلوه يحيد عن تحقيق هدفه ، أن يصبح بوذا (المستنير) ، غير أن جهودهم ذهبت هباء .

وهذا الخبر يشبه خبراً ورد في (متى صَحَّ ٤ : ٧ و ٨) من تجربة الأربعين يوماً في المسيحية ، إذ كان الشيطان يحاول إغراء السيد المسيح .

وبعد ليلة من الصراع الروحي أمكنه أن يتغلب على جميع العوامل الشريرة التي تربط الناس - في رأى البوذية - بهذا العالم الفانى .

وهكذا استيقظ بوذا ، ودخل في نطاق الوجود الأزلى المثالى . . أشرقت عليه فجأة صورة للموت والولادة ، يتعاقبان في مجرى الحياة تعاقباً لا ينتهى ، ورأى أن كل موت يزول أثره بولادة جديدة ، وكل سكينه وغبطة تقابلها شهوة جديدة وقلق جديد ، وخيبة أمل جديدة ، وحزن جديد ، وألم جديد .

رأى (أن السعادة مستحيلة ، فلا هى ممكنة في هذه الحياة الدنيا ، كما يظن الوثنيون ، ولا هى ممكنة في الحياة الآخرة كما يتوهم أنصار كثير من الديانات ، أما ما يمكن أن يظفر به فهو السكينه ، هو الهمود البارد الذى نصيبه إذا ما نفضنا عنا كل شهواتنا ، هو النرفانا) .

ويقال إن أول موعظة ألقاها بوذا عن (الحقيقة الخالدة) كانت في الهواء الطلق ، في حديقة غزلان ، قرب (بنارس) ، وتعرف هذه الموعظة في التراث البوذى بـ (موعظة تحريك عجلة الدهاما Dhama - الحقيقة الأزلية) .

قال في هذه الموعظة : (الميلاد مؤلم ، والشيخوخة مؤلة ، والمرض مؤلم ، والموت مؤلم ، والحزن والعويل واليأس والابتئاس مؤلة كلها ، والاتصال بما لا يسر من أشياء مؤلم ، وعدم حصول المرء على ما يرغب مؤلم) .

ويمكن (العثور على المتعة هنا وهناك ، ويتركز بالذات في اشتهااء الشهرة ، واشتهااء الوجود ، واشتهااء العدم) .

وقد أشار (جوتاما) إلى تعاليمه ، ناعثاً إياها بأنها (الطريق الوسط) بين حياة الشهوات ، وهى (منحطة وسوقية وعادية ودنيئة وباطلة) ، وبين حياة الزهد المنطوى على تعذيب الذات ، وهى (أليمة ودنيئة وباطلة) .

* لقد زعم لنفسه (الاستنارة) ، لكنه لم يدع الوحي ، فما قال قط للناس إن إلهاً كان يتكلم بلسانه ، وهو فى جدله مع خصومه كان أكثر صبراً ومجاملة من أى معلم آخر .

(وتلك - أيها الرهبان - هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم ، إنها السبيل السامية ذات الشعب الثمانى ، ألا وهى : سلامة رأى ، وسلامة النية ، وسلامة القول ، وسلامة الفعل ، وسلامة العيش ، وسلامة الجهد ، وسلامة مانعنى به ، وسلامة التركيز) .

إن السلوك الأخلاقى يقوم على أساس الحب والحنان ، وينبع من الحكمة ، أو من عقل مستنير ، ولكن لتحقيق الحكمة ، ولمراعاة الحب والحنان ، فإن انضباط النفس يعد أمراً مطلوباً . . وهكذا فإن السلوك الأخلاقى والانضباط والحكمة هى الحقائق الثلاث للحياة الخيرة .

والحكمة لا تتوقف عند كشف طبيعة الأشياء ، وأسباب المعاناة ، بل تلح على قهر المعاناة ، من خلال تنحية كل ضروب الرغبة والأنانية ، وغرس حب شامل فى عمقه ومداه .

ولا تتحقق الحكمة دون انضباط ، ومن ثم يمارس المرء الجهد الحق ، والانتباه العقلى الحق ، والتركيز الحق ، حتى تكون : ١- الحيلولة دون نشوء الشر ، وحالات القصور الذهنى . ٢- التخلص من مثل هذا الشر وتلك الحالات الموجودة بالفعل . ٣- إحلال الخير ، وحالات الصحة الذهنية . ٤- تطوير الخير ، وحالات الصحة الذهنية الموجودة بالفعل والارتقاء بها نحو الكمال .

ويتمثل الانتباه العقلى الحق فى كون المرء واعياً بمختلف نشاطه ، ومُتنبهاً له ، وذلك يشمل نشاط الجسم ، والحس والشعور ، والإدراك ، والتفكير والوعى .

وكون المرء واعياً بنشاطه ، ومُتنبهاً له ، يعنى فهم طبيعة النشاط ، كيف ينشأ ، وكيف يختفى ، وكيف يتم تطويره ، والسيطرة عليه ، والتخلص منه . أما سلامة التركيز فمسألة تتعلق بإعادة خلق ذات المرء ، بوصفه شخصاً

مستتيراً ، فالجهل والاستنارة والمعاناة والسعادة تضرب جذرها في نشاط المرء العقلي ، وقد ورد في (الدهما بادا) أن :

(العقل يسبق كل حالات القصور ، وهو عمادها ، فهي جميعها مفعمة بالعقل ، وإذا ما تحدث شخص ما ، أو تصرف بعقل دنس ، فإن الشقاء سيلاحقه ، كما تلاحق عجلات العرب حافر الثور ، والعقل يسبق حالات الكمال ، وهو عمادها ، فهي جميعاً مفعمة بالعقل ، وإذا ما تحدث أو تصرف بعقل نقى ، فإن السعادة ستتبعه كظله الذي لا يفارقه) .

وعادة ما يتم التمييز بين أربع مراحل من التركيز . . وفي المرحلة الأولى يركز المرء على التخلص من الشهوة ، وسوء النية ، والكسل ، والهم ، والقلق ، والشك ، وهذا النشاط الذهني القاصر وغير الصحي تحل محله مشاعر البهجة والسعادة .

وفي المرحلة الثانية يركز المرء على النفاذ ببصيرته عبر النشاط الذهني ، والوصول إلى ما وراءه ، على الرغم من احتفاظه بالوعي بالبهجة والسعادة .

وفي المرحلة الثالثة يمضي المرء إلى ما وراء النشاط الذهني المسئول عن البهجة ، ويحقق اتزاناً تتخلله السعادة .

وفي المرحلة الرابعة يكون اتزان كامل ، ووعي كلي ، يتجاوز السعادة والتعاسة في آن معاً .

وسلامة القول تعني - بصفة عامة - تجنب كل قول يفضي إلى التعاسة ، واستخدام العبارات التي تجلب السعادة ، ويشمل التطبيق السلبي : لا كذب ، لا غيبة ، لا اغتياب ، ولا حديث يجلب الكراهية أو الغيرة أو العداء ، أو الفرقة ، ولا حديث يتسم بالشدة أو الوقاحة ، أو يشوبه الخبث ، أو ينقصه الأدب والاحتشام ، ولا ثرثرة بسبب من الكسل أو الخبث أو الحمق . . والتطبيق الإيجابي : يتمثل في قول الحق ، والتحدث بركة وود ، وأن يتضمن الحديث فائدة ، ومراعاة الوقت المناسب والمكان المناسب ، وإلا فالصمت النبيل .

وسلامة السلوك تعنى تجنب الإيذاء ، والبعد عن أى نشاط يضر بالنفس ،
أو بالآخرين .

وسلامة العيش باستبعاد المهن التى تؤذى الآخرين ، مثل الاتجار فى
الأسلحة ، والخمور ، والمخدرات ، والسموم ، والدعارة . . . إلخ - الفكر
الشرقى القديم ص ١٩٨ / ٢٠١ .

* ولقد سبق (جوتاما) البسطامى الصوفى المسلم إلى إدراك حقيقة مايعتمل
فى الذات من إيمان ، وهو ما لا يُحوج إلى شواهد ونُصُب ، (لا حاجة بك
إلى السفر إلى «جايا» ، أيها البرهمى ، كن رحيماً بالكائنات جميعاً ، فإذا أنت
لم تنطق كذباً ، وإذا أنت لم تقتل روحاً ، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يعط لك ،
ولبت آمناً فى حدود إنكارك ذاتك - فماذا تجنى من الذهاب إلى «جايا» ؟ إن كل
ماء يكون لك عندئذ كأنه «جايا») .

لقد رفض أن يبدى رأياً عما إذا كان للعالم بداية أو نهاية ، أو إذا كانت
النفس هى البدن أو شيئاً متميزاً عنه ، أو إذا كان فى الجنة ثواب للناس حتى
أقدس القديسين من بينهم . . وهو يسمي هذه المشكلات (غاية التأمل النظرى
وصحراء ، وبهلوانه ، والتواءه ، وتعقيده) .

وهو بهذا لم يخرج عن (جوهر) الفلسفة (الجاتية) ، وإن كان قد عمل
على تطويرها ، ونحايها منحى إيجابياً ، وإن كان محدوداً .

قيل إن أحد أتباعه سأل : سيدى ، هل هناك إله ؟ فأجاب : أترانى قلت إن
هناك إلهاً ؟

دهش السائل ، وراجع قائلاً : إذن ليس هناك إله ، ياسيدى ، فأجاب :
أترانى قلت ليس هناك إله ؟

ومع أن الخبر روى عن كونفوشيوس وأحد تلاميذه ، فإن المفكرين الكبيرين
جمع بينهما الواقع المعيش ، والبحث عن طريقة لتجنب الشرور ، أو لتيسير
الحياة ، دون الوقوف عند تدخل قوى غير مرئية .

* دنا أحدهم من الآلهة التى تتألف منها حاشية براهما قائلاً : أين

يا أصدقائي تذهب العناصر الأربعة الكبرى - التراب والماء والنار والهواء - بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟) .

أجابت الآلهة التى تؤلف حاشية براهيم : (إننا - يا أخانا - لاندري من ذلك شيئاً ، لكن هناك براهيم ، براهيم العظيم ، الواحد العلى ، الواحد القدير ، الواحد البصير ، من بيده الأمر والتدبير فى جميع الشئون ، فهو ضابط كل شئ ، وخالق كل شئ ، وسيد كل شئ . . هو السابق للزمان ، وهو والد كل ما هو كائن ، وكل ماسيكون ، إنه أقوى وأعظم ، سلّه يجبك) .

- أين إذن هذا البراهما العظيم ؟

- (إننا - يا أخانا - لاندري أين يكون براهيم ، ولا لماذا كان ، ولا من أين جاء ، ولكن - يا أخانا - إذا ما بدت لنا بوادر مجيئه ، إذا ما أشرق الضوء ، وسطع المجد ، عندئذ سيتبدى للناظرين ، لأن بادرة ظهوره هى إشراق الضوء ، وسطوع المجد) .

ولم يمض وقت طويل حتى تبدى براهيم العظيم ، فدنا منه أخونا ذاك ، وسأله ، وكرر السؤال ثلاثاً ، فأخذ براهيم العظيم السائل ، ونحاه جانباً ، وقال :

(إن هذه الآلهة التى تتألف منها حاشية براهيم تعتقد أنى - يا أخى - أرى كل شئ ، وأتبين كل شئ ، ولهذا لم أجبك فى حضرتهم ، لكننى - أيها الأخ - لست أدري أين تذهب هذه العناصر الأربعة الكبرى ، بحيث لا تترك وراءها أثراً) .

هذه السخرية المريرة من الآلهة ومن الفلاسفة هى معيار انقطاع الإنسانى عن الإلهى ، أو هى ثمرة الشعور بعدم القدرة على اعتناق الحياة ، واستثمار خصوبتها . . إنه العقم والجفاف والضياع .

سئل الإمام على : أين يذهب ضوء الشمعة ؟ فأجاب : وأين يذهب دهن المريض ؟

إنها محاجة لا تقوم على (العلم) ، بل على الاعتراف بعدم العلم ، أو على عدم الاعتراف بالجهل .

وما دام الجهل سابقاً على الحاجة ، وما دام العقل لا يملك كل المفاتيح ، فكل شئ مباح ، وأوسع الأبواب ستظل مغلقة .

* كان بوذا يقول لتلاميذه : (انتشروا فى الأرض كلها ، وانشروا هذه العقيدة ، وقولوا للناس : إن الفقراء والمساكين والأغنياء والأعيان كلهم سواء ، وكل الطبقات - فى رأى هذه العقيدة - تتحد لتفعل فعل الأنهار ، كلها تصب فى البحر) .

ولكن هل تصب فى البحر لتجدد ماءه ، أو لتقلل من ملوحته ، أو لتزيد من سعته ، أو لتعوضه عن البحر ، أو لتفقد فعاليتها ، وتعلن نهاية رحلتها ؟ !
لقد رفض بوذا التضحية فى سبيل الآلهة ، وفزع أشد الفزع لرؤية الحيوان يذبونه ليقيموا طقساً لا ينتفع به غير الكهنة .

ورفض كل اعتقاد وكل عبادة لكائنات أعلى من هذه الطبيعة .

وربأ بنفسه عن الرقى والعزائم والتراتيل .

جاء فى (قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٨١ / ٨٤) : إنه (يقدم للناس ديناً حراً أكمل الحرية ، بدلاً من جمود الفكر ، ومن صناعة الكهنوت ، ويفتح طريقاً للخلاص ، للكافرين والمؤمنين أن يسلكوه على السواء) .

لماذا ؟ أليس هذا (السلوك) غاية ؟ أتكون الغاية هى الزهد فى الحياة ، وكف النفس عن الاستمتاع بها وإعلائها ؟

أحسب أن هذا الرجل كان أقدر على الاعتراف بأن (ما وراء الواقع) هو ما نجهله ، وهو ما لا سبيل إلى معرفته ، وما علينا إلا أن نتعامل مع الواقع ، مع ما نعلمه ، حتى إذا جد جديد ، وانكشف غطاء (الماوراء) أو الميتافيزيقا ، وصارت (فيزيقا) ، فإن ديننا لن يتغير ، لأننا من البداية نتعامل فى حدود معرفتنا .

(إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سبباً فى سعادتك أو شقاكتك ، لأن السعادة والشقاء دائماً نتيجة سلوكنا نحن ، وشهواتنا نحن) .

هذا جميل ، ولكن كيف ؟ أتكون السعادة فى عدم الحاجة إلى السعادة ؟
أهى وضع النفس فى بالون ينطلق من قمة الهميلايا الباردة إلى شعاب الغيب ؟
وأين نحن من الناس ، ومن العوامل البيئية والطبيعية ، ومن تسلط الحكومات ؟
إنه يابى أن يبنى تشريعه الخلقى على عقوبات تفرضها (قوة وراء الطبيعة) ،
كائنة ما كانت تلك العقوبات ، ولا يجعل جزءاً من عقيدته جنة ولا مطهراً ولا
جحيماً .

فهل تتحقق مسيرة المجتمعات البشرية دون ثواب وعقاب ؟
ولو أن الناس عاشوا فرادى (جزراً معزولة) ، وتخلوا عن طبيعتهم
(الاجتماعية) ، ألا يعنى هذا نهاية العالم ، أو بمعنى آخر (قتل الحياة) ؟!
إن من طبيعة (الحى) التعلق بالحياة ، حتى وهى تتسرب من شفثيه وأطرافه .
ليس من السهل التخلّى عن (الوجود) ، وإلا ففيم كانت العلوم
والفنون ؟ أليست هى أقوى المحاولات التى توصل إليها الإنسان لاستمرار
(البقاء) ؟!

إن إرادة الاستمرار التى صنعت العلوم والفنون هى التى صنعت الشرور
والآثام ، وصنعت القوانين وقواعد السلوك ، وصنعت كذلك اللجنة والمطهر
والجحيم . . فإذا عجزت الدنيا عن تحقيق (العدالة) التى هى قوام الحياة
الكريمة ، فلا بد من التعلق بحياة أخرى تتحقق فيها هذه (العدالة) .
هذا هو النزوع الروحى والنزوع العقلى معاً . . لكن بوذا عمل على سجن
الروح ، وعلى سجن العقل معاً .

إنه يرى أن (هذا العقل الذى ينسج خُيوط إحساساتنا وإدراكاتنا فى نسيج
من الفكر ، إن هو إلا شبح توهمناه ، وكل ما هو موجود حقاً هو الإحساسات
نفسها ، والإدراكات نفسها ، تتكون بصورة آلية ، فى هيئة تذكارات ، وأفكار ،
حتى هذه « الذات » النفسية ليست كائناً قائماً بذاته ، متميزاً من سلسلة الحالات
العقلية . . ليست الذات سوى استمرار هذه الحالات ، وتذكر الحالات اللاحقة
للحالات السابقة ، مضافاً إلى ذلك ما يتعوده الجسم العضوى من عادات عقلية

وسلوكية ، وما يتكون لديه من ميول واتجاهات . . إن تعاقب هذه الحالات لا تسببه « إرادة » أسطورية تضاف إليها من أعلى ، بل تقرره الوراثة والبيئة والظروف .

(إن هذه النفس ، أو هذه الذات ، أو هذا العقل ، يستحيل أن ينطبق عليه معنى الخلود ، إذا فهمنا من هذا المعنى استمرار الفرد في وجوده ، فليس القديس بل ليس بوذا نفسه بخالد بعد موته خلوداً يحفظه بشخصه) .

ليكن ، فما جدوى هذا العقل ؟ وما جدوى الخواص والتذكارات التي تزود العقل بوقود حركته ؟ وأين تذهب (الميول والاتجاهات) ؟ أين تفرغ الميول والاتجاهات طاقتها ؟ وكيف يفكر في الخلود من لا يفكر في الوجود ؟ إن العدمية تلغى كل شيء ، كل شيء !!

ومع هذا يقع في هاوية (التناسخ) ، مع تناقضها الكامل مع (العدمية) ، إذ هي صورة من صور (البقاء) المتجدد في الدنيا (على الأقل) .

وكما يقول ديورانت : (لا يحاول أبداً أن يزيل التناقض بين علم نفسه العقلي ، وبين قبوله للمذهب التقمص قبولاً أعمى) .

(إن هذا الإيمان بحقيقة التناسخ ، أو تقمص الروح في أجسام متتالية ، له في الهند قوة وشمول ، بحيث يعتنقه كل هندوسى ، على أنه بديهة أو فرض ، لا بد من التسليم بصحته ، ولا يكاد يكلف نفسه عناء التدليل عليه) .

يحكى البيرونى عن ملك من ملوكهم (أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته في موضع لم يحرق فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعاً كذلك فأعياهم ، حتى وجدوا صخرة من البحر ناتئة ، فظنوا أنهم ظفروا بالبغية ، فقال لهم اسيديو : « إن هذا الملك أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة ، فافعلوا ما تريدون ، فقد قصد إعلامهم ، وقد قضيت حاجته) .

وترتبط عقيدة التناسخ (سمسارا) ارتباطاً وثيقاً مع شريعة كارما - الأعمال الصالحة - التي تقول إن خلق الإنسان ومركزه الاجتماعى وثروته إنما تحددها هذه الشريعة ، وهى تنص على أن المرء يحمل عبء أخطائه ، كما يجازى على

أعماله الصالحة إلى الأبد ، وأن الروح تمر من تجسيد إلى تجسيد حتى تصل به في النهاية إلى (الموكشا - الخلاص) ، وأن من يحيا طبقاً للقواعد ، طاهراً ، سيد نفسه ، منعزلاً ، صادقاً ، مستوفياً واجبات طبقته ، فسوف يرتفع في كل تجسيد إلى درجة أعلى في الطهارة ، وفي ترتيب طبقته .

وهكذا ، إلى أن يصل إلى مرحلة تؤهله لأن يدرك الحقيقة ، حيث تتلقى روحه الوحي بشخصية البراهمان ، وهنا فقط تتوجه روحه عن التجسيد .

والخلاص النهائي - تبعاً للنظرية الهندوسية - لايعنى فقط الانسحاب من الحياة اليومية ، بل من العالم أجمع ، بما في ذلك الجنة ، وعالم الآلهة . . فالعالم ما هو إلا (عجلة) تدور معها الولادة والوفاة ، حتى أبد الأبدين ، أما الحقيقة الدائمة فهي الروح .

فكيف إذن تتخلص الروح من هذه العجلة ، يستحيل على الروح تحقيق ذلك إلا بعد استفادها لعقيدتي (الكارما - الأعمال الصالح) ، و(السمسارا - تناسخ الأرواح) - الهند . . عقائدها وأساطيرها ص ٦٩ / ٧٠ .

* صارت البوذية ديانة ، لكن هذا لم يكن من عمل بوذا نفسه ، بل من عمل أتباعه .

حين دعا إلى (النرفانا) لم يضع لها معالم ، فجاء أتباعه وفسروا الكلمة بكل ما يمكن أن يقع تحت الشمس من ضروب التفسير المقدسة ، وما أوسع مجالات المجاز .

إنها حالة من السعادة يبلغها الإنسان بأقتلاعه شهوات نفسه اقتلاعاً تاماً ، وهي اتحاد الفرد بالله ، وهي انعدام شعور الفرد بفرديته ، وهي تحرير الفرد من عودته إلى الحياة ، وهي فردوس من السعادة بعد الموت .

والحديث عن الاتحاد بالله ، أو السعادة بعد الموت ، يتجاوز فلسفة بوذا التي لا تؤمن بالخلود ، وهذا دليل على تطور في المذهب ، وتأثر بغيره من المذاهب .

وعلى الرغم من ازدياد بوذا للمعجزات ، انتحل تلاميذه ألف حكاية من الأعاجيب التي تمت على يديه ، فقد سار عبر نهر الجانج في لمحة بفعل السحر ،

وأسقط من يده شظية من الخشب كان يخلل بها أسنانه فنبئت شجرة ، وعندما اختتم وعظه ذات يوم (اهتز العالم من أقصاه إلى أقصاه) .

* ولما دنت حياته الطويلة - ٨٠ عاماً - من ختامها ، راح أتباعه يؤلهونه ، وحدثت في تعاليمه تحويرات وإضافات وأساطير لم يكن بوذا ليرتضيها . . لم ينتظروا في ذلك موته ، على الرغم من أنه كان دائماً يحفزهم على الشك في صحة مايقول ، حتى يفسح لهم مجال التفكير الحر . . وكانت آخر كلماته لرهبانه : إن كل ما هو مركب مصيره إلى الفساد ، فجاهدوا جهاد المخلص الجاد) - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٦٥ / ٨٨ .

وكان أتباعه خلال الأربعين سنة التي قضاها في ممارسة نشاطه العام - من جميع الطبقات ، ومن كافة المهن والأعمال .

وبعد سبعة أيام من وفاته ، في مدينة كوشنجارا ، أو كوزنجارا ، جنوب حدود نيبال ، وتسمى الآن (كازيا Kasia) - تم إحراق جثته ، وأقيم احتفال مهيب ، على غرار ما كان يحدث في حالة وفاة الملك في تلك الأيام ، وقسم رماد جثته بالتساوي على ثمانى مجموعات ، ونقلت كل مجموعة نصيبها حيث أقامت فوقه ضريحاً مقدساً ، على غرار أشكال تخليد وتكريم الموتى المعروفة في الهند باسم (ستوبا Stupa) ، وأصبح الضريح مركزاً لعبادة عامة البوذيين ، ثم تطور إلى الصورة التي عرفت في جنوب شرق آسيا باسم (باغودا Pagoda) .

ويصر البوذيون على أنك (إذا أردت أن تفهم العقيدة البوذية فلا بد أن تمارسها) ، لأن تعاليم العقيدة أريد لها - منذ البداية - أن ينفذها أولئك الذين ارتبطوا بالحياة البوذية ، وأن ترتبط بمواقف الحياة عند التلميذ خطوة خطوة . . وهذا لون من الاعتذار عن فشلها في موطنها الأصلي ، وتغلب البرهمية عليها .

* وفي عام ٣٢٦ ق.م تصدى الملك الهندى فور Forus لجيوش الإسكندر ، ومع أنه هزم فقد أعجب به الإسكندر لشجاعته ، وولاه على جميع مافتح من بلاد الهند ، وبقيت حامية مقدونية ، ثار عليها الأمير الشاب جندرا كوفنا (٣٢٢ / ٢٩٨ ق.م) ، وانتصر عليها ، ومد فتوحه ، وأسس سلالة عظيمة حكمت الهند وأفغانستان زهاء ١٣٧ عاماً (٣٢٢ - ١٨٥ ق.م) .

واشتهر من هذه السلالة الملك أشوكا Ashoka (٢٧٣ - ٢٣٢ ق.م) ، الذى اعتنق المذهب البوذى ، وجعله المذهب الرسمى فى الدولة ، وكان لها بمثابة الإمبراطور قسطنطين فى مساندة المسيحية . . واستطاع أشوكا أن يمد فتوحه لتشمل معظم أجزاء الهند .

ويعد حكمه الذى دام ٢٨ عاماً من العهود المجيدة فى التاريخ البشرى ، لما قام به من أعمال ومشروعات عمرانية ، وأسس المستشفيات والجامعات والحدائق العامة ، وخصص مزارع لإغناء الحشائش والعقاقير الطبية ، وأوجد وزارة تعنى بشئون الطوائف المنبوذة فى الهند ، وشرع فى تعليم النساء ، وعنى بالبحوث والتأليف ، ووجه الكتبة البوذيين إلى نقد الديانة البوذية وتطهيرها من الخرافات والأساطير ، وبعث البعث التبشيرية إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية . . وبسبب اهتمامه بالأخلاقيات حفر مبادئها على الصخور واللوحات الحجرية ، ونشرها فى جميع أنحاء إمبراطوريته الواسعة ، وتبشر هذه التسجيلات بالتسامح الدينى ، ويعمل الخير لكل ما هو حى ، وبالتحلى بالصبر والأناة ، وبالحث على الامتناع عن الحسد .

وقد جاء فى أحد مراسيم أشوكا :

(إن قانون التقوى شئ جميل ، لكن ، م يتكون قانون التقوى ؟ يتكون من هذه الأشياء : قليل من عدم التقوى ، وكثير من الأفعال الخيرة ، والرحمة ، والإحسان ، والصدق ، والصفاء) .

لكن ما حدود (التقوى ، والخير ، والرحمة ، والإحسان ، والصدق ، والصفاء) ؟ ألا تحتاج إلى معايير تنسل خيوطها من خيوط أضدادها ، أو تلون كل قيمة بلون خاص بها ؟

ومع هذا كانت الظروف (العالمية) مهياة لنشر التعاليم البوذية : بالرغم من عدم نضجها ، وساعد على هذا الانتشار ما تتمتع به من شاعرية ودغدغة للمشاعر البائسة .

ولم تعش إمبراطورية الموريا (الأشوكية) طويلاً من بعده ، فقد اكتسحتها

جَحَافِل متعاقبة من المهاجرين ، مخترقة ممرات الجبال فى الشمال الغربى للهند ،
حاملة معها أجناسا ونفوذاً أجنبياً جديداً .

وكان من بين هؤلاء المهاجرين الإغريق الذين تخلفوا فى شمال الهند عند
غزو الإسكندر ، ثم تلاهم الإسكديون ، وهم من الشعوب الرحل ، أتوا من
شمال آسيا ، ثم الكوشان من وسط آسيا .

وقد أسس الكوشان مملكة شمالى الهند ، بلغت أوجها فى القرن الثانى
للميلاد ، وامتدت حدودها من الشمال الغربى حتى حوض نهر (بنارس)
جنوباً ، ونحو الشمال والشرق حتى وسط آسيا ، وبذلك صارت ملتقى
الحضارات الهندية والصينية والفارسية والإغريقية الرومانية .

وقد ساهم اعتناق الكوشان للبوذية فى تغلغل تعاليمها إلى الصين وكوريا
واليابان ، وفى عهدهم تطور الفكر عن بوذا ، من بوذا النبى إلى بوذا الإله ، ولم
يعثر على تمثال واحد لبوذا من العصر الكوشانى .

* كان كل مقصد البوذية تطهير النفس من شهواتها ، وتحليتها بكمارم
الأخلاق فى معاملة الناس .

لهذا لم تكن البوذية تحتفل بالطقوس البرهمية الرسمية ، من الغسل فى
الأنهار المقدسة ، والمداومة على الصيام ، والاشتغل بالعبادات المجهدة ،
والجولان عراة حفاة ، والتزين بزى الرهبان ، من حلق الرؤوس أو تلبيد الشعر
وتتريب الجسد ، وعرض النذور والقرايين . . فكل ذلك لم يكن له حظ فى
النجاة عند البوذية .

يقول بوذا : (التعرى وتلبيد الشعر والتعهد بالأوساخ والصوم وتتريب
الجسد . . الخ ، كل ذلك لا يطهر فانياً لم يقهر شهواته) ، ثم يقول : (لا يطهر
نهر رجلا متعهداً للسيئات ، مضمرّاً للمقت ، مرتكباً للجناية) ، ويقول :
(النجاسة يستحدثها الغضب وشرب الخمر والغرور والحقد ، لا أكل اللحم) -
الهندوسية تحرم أكل اللحم - والعمل الصالح فى البوذية هو تطهير الباطن ، من
حُب النفس ، والشح ، والحقد ، والغلظة ، والشهوة ، والغضب . . كما أنه
غضُّ البصر عن عيوب الناس ، والتأسى بهم فى أحزانهم وأوجاعهم ،

والأخذ بالتقوى فى شعابها المتعددة ، من الامتناع (عن قتل كل ذى روح ، وعن سلب أموال الناس . وعن النظر إلى نساءهم ، وعن قول الزور ، وعن شرب المسكرات ، وعن التعدى بالجوارح) - تاريخ الإسلام فى الهند / النمر ص ٥٤ / ٥٥ .

ومن هنا لم يقطع البوذى صلته بالمجتمع ، فهناك علاقات متبادلة بين الرهبان وعامة الناس ، والناس يزودون الرهبان بالطعام والثياب ، ويعينون الدير بطرق شتى ، بينما يقدم الرهبان خدمات مختلفة لمن حولهم .

والراهب المتجول ، لا يملك شيئاً ، ولا عمل له ، يتعفف عن اللذات الدنيوية ، الجنس والغناء والخمر والرقص ، ويمتنع عن التوابل والملح والعسل ، ويتسول فى صمت ، ويقضى أكثر وقته فى التأمل والتفكير .

وهو ليس - كالراهب البرهمى - صانع معجزات ، أو وسيطاً بين الله والإنسان ، إنما هو نائب نادم فى المقام الأول ، ثم هو واعظ ، موجه للضمائر ، معلم للدين ، أو هو مبشر ، متواضع ، لا يملك شيئاً ، ولا عائلة له .
ومع هذا فالأديرة البوذية غنية بما يقدم إليها من تبرعات ، منذ أن كان بوذا حياً .

وللبوذية أديرة كثيرة واسعة تأوى فيالق من الرهبان ، وتهتم بالنصب التذكارية ، لتخليد البقع المقدسة التى مر بها بوذا والقديسون الأوائل ، وتهتم البوذية بالمعابد والصور الضخمة الغنية بالزخارف والصور والتماثيل . . ومع هذا ظلت العبادة بسيطة ، تتمثل فى شعائر الإيمان ، والولاء ، وتقديم الأزهار ، والاحتفاظ بمصابيح مشتعلة أمام صورة بوذا أو هيكله . . ولهم معابد مشيدة تحت الأرض تصل إلى ألف معبد .

وبعد التعليم أبرز الخدمات المعتادة ، فالدير مدرسة يذهب إليها البنون والبنات من أبناء القرية لتعلم القراءة والكتابة . . والدير يقدم إرشادات منتظمة للجماهير أخلاقية واجتماعية ، ويقوم بتنظيم الاحتفالات الاجتماعية ، والدينية ، ويؤدى رهبانه أدواراً قيادية لإقامة مشروعات محلية .

* وقد يسرت البرهمية سبيل العودة للبوذيين الخارجين عليها بأن اعترفت

بيوذا إلهًا (اعتبرته مجسّدًا للإله فشنو) - وأقلعت عن التضحية بالحيوان ، وقبلت فى صميم طقوسها مذهب البوذيين فى تقديس حياة الحيوان بأسره . . وهكذا أخذت البوذية تختفى فى هدوء وسلام من الهند ، إيان خمسة قرون ، كانت خلالها نهبًا لعوامل التدهور البطئ .

وكان للغزو الإسلامى أثر كبير فى تضيق نشاطها ، وتهجير دعائها .

لكنها انتعشت أخيراً إثر اعتناق أفواج من المنبوذين الهندوس لها ، وعلى رأسهم الدكتور أمبديكار الذى اعتنق البوذية مع مائتى ألف من المنبوذين فى حفل جماعى .

وبعد أن حصل البوذيون على امتيازات خاصة انحسرت موجة الإقبال على البوذية .

والطائفة البوذية فى الهند لا تتعدى الآن خمسة ملايين .

وفى سيلان (سريلانكا) - منذ عهد أشوكا حتى انحلال البوذية فى القرن التاسع الميلادى - ظل الناس ألفى عام يعبدون شجرة التين المقدسة عند البوذيين ، وكان المعبد المقام على قمة جبال كاندى كعبة يحج إليها مائة وخمسون مليوناً من البوذيين فى آسيا .

وحدث فى القرن السابع الميلادى أن دعا حاكم (التبت) طائفة من الرهبان البوذيين فى الهند لينشروا البوذية والتعليم بين شعبه ، فأقيمت آلاف الأديرة فى الجبال ، وعلى النجد الفسيح ، ونشر كتاب تشريعى عظيم يضم الكتب البوذية ، ويقع فى ثلاثة وثلاثين وثمانمائة مجلد ، حفظت للعلم الحديث كثيراً من نصوص هذه الكتب التى كانت قد ضاعت أصولها الهندية منذ زمن طويل ، وها هنا فى (صومعة) التبت التى أغلقت أبوابها دون العالم بأسره - راحت البوذية تتطور فى شبكة معقدة من الخرافات والرهبنة والكهنوت .

يقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية مج ٢ ص ٥٠٠) : لو أن (جوتاما) بعث من قبره حياً لذهب من أقصى التبت إلى أقصاها باحثاً عن تعاليمه بلا جدوى ، وسيجد هناك ذلك الطراز العتيق من حكام البشر . . سيجد ملكاً

متوجّاً فى شخص (الدالاي لاما - المعلم الروحانى ، أو بوذا الحى) ، وسيجد فى (لهاسا) معبداً فخماً غاصاً بالكهنة ، والرهبان ، واللامات (المعلمين الروحانيين) ، وإنه ليشهد فوق هيكل مرتفع صنماً ذهبياً ضخماً يسمى (جوتاما بوذا) ، ويسمع صلوات ترتل أمام ذلك الرب ، ويرى نواميس وسنناً فيها آثار مبهجة لأشياء مألوفة لديه ، وتلعب الأجراس والبخور والسجود دورها فى هذه المراسم المدهشة ، ويدور جرس فى لحظة من لحظات الصلاة ، وترفع مرأة ، بينما تزيد الجماعة بأسرها فى انحنائها إمعاناً فى المهابة والتوقير .

واللاما (المعلم الروحانى) هو الشخصية الكبرى فى العقيدة ، فيه تتقمص روح البوذا ، فإن مات انتقلت الروح إلى طفل ولد فى نفس يوم وفاته ، ويغدو هو اللاما الجديد .

جاء فى رحلات (هك Huc) كيف تحير فكره وفكر زميله فى البعثة الدينية ، لما شاهداه فى العبادات من التقاليد المشتركة بين الشرق والغرب ، حيث يقول : (إن الصليب وتاج الأسقف والثوب الكهنوتى الرسمى والبطرشيلى التى يلبسها اللامات العظام فى رحلاتهم ، أو عندما يقومون بطقوس خارج المعبد ، والصلاة المصحوبة بجوقتين من المرتلين ، وترنيم المزامير ، والتعويذات ، والرقى ، والمبخرة المدلاة من خمس سلاسل ، والتى تستطيع أن تفتحها وتغلقها ، والبركات التى يمنحها اللامات بمد أيديهم اليمنى على رأس المؤمنين ، والسبحة ، والعزوبة الاكليروسية ، والانزواء الروحى ، وعبادة القديسين ، والصيام ، والمواكب ، والأوراد الكنسية ، والماء المقدس ، كل هذه مماثلات يشترك معنا فيها البوذيون) - المصدر السابق ص ٤٩٠ .

* والبوذية فى (بورما) أخلص ما بقى من ألوان البوذية من الشوائب الدخيلة ، وكثيراً ما يدنو رهبانها من المثل الأعلى الذى ضربه بوذا . . واستطاع أهل بورما البالغ عددهم ثلاثة عشر مليوناً (١٩) أن يبلغوا - بفضل تعاليم أولئك الرهبان - مستوى من العيش أعلى مما فى الهند بدرجة ملحوظة - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٢٠١ .

وفى الضاحية الشمالية من (رانجون) أقيم مركز عظيم للعبادة البوذية (الباغودا الذهبية) من كتلة من الحجارة الدائرية المركزية ، تُغطّيها تماماً صفائح رقيقة من الذهب الخالص ، ويبلغ ارتفاعه قدر ارتفاع قبة كاتدرائية القديس بولس فى لندن ، ويحيط بالمبنى رصيف دائرى مكشوف من المرمر ، أقيمت على أطرافه الخارجية مجموعة متنوعة من الهياكل والأديرة ، وهو مكان يؤمه الحجاج البوذيون من كل أنحاء جنوب شرقى آسيا ، ولاسيما مدن وقرى بورما .

وقد زارت بعثة مجلة العربى (يوليه ١٩٩٦) المعبد الفضى (وات بنوم) فى العاصمة (بنوم بنه) من (كمبوديا) ، فوجدت (مدينة دينية كاملة ، تتناثر فى رحابها صروح وأبراج ، تغطيها نقوش زخرفية بديعة من الحجر الرملى الرمادى ، توحى لمن لا يدقق أو يقترب منها ، بأنها زخارف محفورة فى الرخام ، وفى المبنى الرئيسى الذى لا يسمح لأحد بصعوده إلا حافياً ، تغطى أرضه خمسة آلاف « بلاطة » من الفضة الخالصة ، وفى الصدر ينهض تمثال لبوذا من الذهب الخالص ، وزنه ٩٠ كيلو جراماً ، ترصعه تسعة آلاف وخمسمائة ماسة) .

وفى عام ١٩٨٢ كان فى تايلاند ٢٤ ألف دير ، و ١٧٥ ألف راهب وراهبة ، وحوالى ١٠٠ ألف راهب تحت الإعداد ، والسبب فى تأرجح أعداد الرهبان أن كثيراً من الناس لا يلجئون إلى حياة الأديرة إلا فى مواسم المطر فقط . . وقد زرتُ معبداً فى بانجكوك مذهب القباب ، كتبت وصورت على جدرانه إحدى الملاحم الهندية الدينية .

ومنذ عام ١٩٠٢ وجماعة (السنغا Sangha) ، المشرفة على نظام الجماعة ، تدبر أعمالاً مستقلة عن الحكومة ، من خلال (مجلس السنغا الأعلى) ، رغم أن الملك التايلاندى بوذى ، حام للنظام .

وقد تم إرسال بعثات تبشيرية بوذية إلى ماليزيا ، والهند ، ولاوس ، وبنجلشرا ، وأدت الأديرة واجباتها الاجتماعية والتعليمية والصحية على خير وجه .

راما وكرشنا

لما كان من طبيعة الهندوس تمثيل المعانى فى صور حسية ، لعدم قدرتهم على تعمق المعانى العليا وإدراكها ، أو لتيسير فهم هذه المعانى على الآخرين - ذهبوا إلى أن الإله يحل فى صورة مادية ، يتخذونها معبودات لهم ، ويقدسونها تقديسهم الإله لنفسه ، وغالباً ما ينسى الناس الأصل ، ويتجهون إلى الرمز .

وأشهر ما عرف من الأبطال الذين حل فيهم الإله فشنو (راما) و(كرشنا) .

(راما) تحول إلى إله معبود ، بعد أن حل فيه (فشنو) ، وحدث أن اعتدى ملك الجن على زوجة (راما) ، حيث خطفها من الهند إلى بلاده فى (سيلان) ، فاجتهد راما حتى عرف مكان زوجته ، بمساعدة أحد القروء ، وهجم على ملك الجن ، تساعده القردة والدببة ، وعاد بزوجه راكبين المركبة السحرية ، وأصبح القرد - لهذا السبب - حيواناً مقدساً ، وأصبح استرجاع (سيتا) ، وانتصار (راما) عيداً دينياً يحتفل به كل عام - تاريخ الإسلام فى الهند ص ٤٤ / ٤٥ .

وتقول (أساطير العالم القديم ص ٢٥٦ / ٢٦٠) : كان (راما) نموذج الأرستقراطية الزمنية ، أميراً تنزه عن العيوب ، كما كان معبوداً للزراع ، وممثل وظيفة الإخصاب السماوية ، على حين كانت زوجته (سيتا) تمثل الأرض المنتجة .

وإذا كان راما تجسيداً لفشنو فإن سيتا تجسيد لأكشمى قرينة فشنو .

قبل أن يبلغ راما السادسة عشرة من عمره ، خرج فى سلسلة من المغامرات ، وتزوج أثناءها عديمة النظير سيتا ، بنت الملك جاناكا ، حيث ظفر بها ، حين ثنى

قوساً لم يستطع أحد ثنيها ، وما لبث الملك (داساراتا أن نزل عن العرش ، ليتبوأه راماً) .

ظل راماً يحكم عشرة آلاف عام ، ولم يكن ثمت موت فى مملكته ، ولا مرض ، ولا جريمة ، وأنتجت الأرض إنتاجاً وفيراً ، وساد السلام .

لهذا يتمتع اسم راماً بالبركة فى كل أنحاء الهند ، وحينما اغتيل غاندى ، لفظ أنفاسه وهو يردد اسم راماً ، وقد نقش هذا الاسم على نصبه التذكارى فى دلهى .

وتقام فى جميع أنحاء الهند احتفالات (الدوسيرا) التى تستمر لمدة عشرة أيام متوالية ، إحياء لذكرى انتصار راماً على الشيطان راقنا (رأس أوغاد رامايانا) ، تعبيراً عن انتصار الخير على الشر .

* وتقول (أساطير العالم القديم ص ٢٦٢ / ٢٦٧) : فى مينورا ، كان يحكم الملك الشرير (كانسا) الذى ولدته الملكة زوجة الملك (أوحراسينا) ، ولم يكن ابن أوحراسينا . . كان أحد المردة قد أغرى الملكة بعد أن تمثّل فى صورة أوحراسينا ، ثم اغتصب كانسا العرش ، وصار طاغية عاتياً ، بحيث فزعت الأرض فى صورة البقرة ، طالبة العون من الإله إندرا ، فكان أن ذهب هذا الإله ومعه جمع من الآلهة إلى براهما ، طالباً الإغاثة ، فأرسلهم براهما إلى شيقا ، الذى أرسلهم بدوره إلى قشنو ، الذى وعد بتجسيد جزء من نفسه فى صورة (كرشنا) ، ليدمر (كانسا) .

وفى حياة كرشنا يتمثل عدد كبير من قصص الطفولة والشباب ، يدل بعضها على قواه الإلهية ، ويصور الآخر سحره الذى لا يقاوم .

كان فى المحلّ الأول انتصاره على المخلوقات التى أرسلها كانسا لتدمره ، وانتصاره على الآلهة الغيورة التى حاولت إزاله .

وقد اشتبك فى صراع مع إله المطر (إندرا) ، لأن كرشنا نصّح الرعاة ألا يعبدوه ، فأرسل إندرا سيلاً هائلاً ليقضى على الرعاة وماشيتهم ، لكن كرشنا رفع فوقهم جبل (جوفاردانا) ، وسنده بإصبعه ، حيث سترهم بذلك تحته سبعة أيام

بلياليها ، وكان أن اعترف إندرا بقوة كرشنا ، وأوقف الطوفان .

وبمرور الوقت نسجت حول كرشنا مجموعة من الأساطير والعجائب ، تشبه ماجاء فى الأنجيل عن السيد المسيح ، فكرشنا ولد من عذراء اسمها (ديفاكى) ، وأحيطت ولادته بالعجائب ، فالأرض سبّحت ، وظهر نجمه فى السماء ، وترنمت الأرواح (الملائكة) فرحاً وطرباً ، ورتل السحاب أنغاماً جميلة ، وقد ولدته أمه فى غار ، أضاء عند ولادته بنور عظيم ، وصار وجه أمه يرسل أشعة نور ومجد ، وزعموا أنه كان لأمه قبيل ولادته خطيب لتكون زوجة له .

وتبين أساطير الصبا كرشنا طفلاً جذاباً ، تعبده المخلوقات الطيبة كلها ، وتساعده إذا احتاج إلى العون ، ويساعدها بدوره فى قضاء حاجتها . . إنه طفل ذو حيل ذكية تأسر القلوب ، يُحِبُّ وَيُحَبُّ ، يستبدل الحب بأقصى طاقة يستطيعها طفل .

أما فى شبابه فهو المحب الذى لا قبل لأحد بمقاومته ، ولا يحسده أحد ، فإذا عزف على الناي ، أوركص مع (الجويبات) عاش حياة سرور بغير قيود ، مع رفاقه ، فى أرض أبد الأبد ، حيث يمارس المسرات البسيطة ، إنه تأليه الهند للطفولة والشباب .

إنه حب الإله ، هذا الشامل لكل شئ ، هو الكنه الأساسى فى أسطورة كرشنا ، الذى حُبب البطل الراعى إلى ملايين العباد .

وكم ألهمت قصة حبه الفلاحة الجميلة (رادا) الفنانين والموسيقيين والشعراء ، ويرمز هذا الحب للهندوس إلى الامتزاج الصوفى بين النفس الأدمية والروح الأبدية .

* وقد عقد صاحب كتاب (العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية) موازنة بين أقوال الهند فى كرشنا وأقوال المسيحيين فى المسيح ، فتقارب الاعتقاد ، حتى أوشكا أن يتطابقا . . وإذا كانت البرهمية أسبق من النصرانية المحرفة ، فقد تبين الأصل وما جرى مجراه .

وقد أورد الشيخ أبو زهرة فى كتابه (الديانات القديمة ص ٢٦ / ٣٧) موازنة

بين أقوال الهنود في كرشنا ابن الله ، وأقوال المسيحيين في يسوع ابن الله ، ليبين العلاقة بين الأصل والفرع .

ويقال إن كرشنا أعلن أن هدف الحياة هو معرفة الله ، وأنه هو الله ، وأن السبل إلى الله عديدة ، واحد منها بالأعمال ، وذلك بأن يؤدي المرء واجبه على الوجه الأكمل ، بغير أثره ، وبغير التزام ، ولا ينشد هدفاً إلا أداء الواجب من أجل الواجب . . وثمة سبيل آخر هو المعرفة ، عن طريق التأمل المركز ، وهو طريق لا يستطيع سلوكه إلا القلة القليلة . . والسبيل الأسهل والأحسن هو التسليم لله عن حب ، فمن اتبع ذلك تقبله الله .

وخير وسيلة إلى الله تكون بالإخلاص محبة ، لأن الله محبة .

إن تأثير كرشنا في التراث يفوق كثيراً تأثير أى من التجليات الأخرى .

وها هو يعلن - باعتباره الرب الأعلى - لأرجونا :

(كل الكائنات تنشأ من « طبيعتى » / ألا فلتعرف ذلك عنها جميعها / وعن العالم بأسره / إننى الأصل والفناء ما من شئ أسمى منى على قيد الوجود / يا أرجونا) / حولى نُظَمَ هذا الكون بأسره / مثلما تنظم اللآلىء فى العقد) .

ويعلن : (أيا كان ما يحظى به كائن من مجد وجلال ، فاعلم أنه فى كل الحالات صدر عن كسرة من مجدى) .

وقد اهتم سفر (جيتا) بعرض أفكار (كرشنا) فى صورة حوار مع (أرجونا) ، قال كرشنا :

(من لا يؤدي واجباته فى الدنيا ، ولا يخدم بنى الإنسان ، ولا يحاول قضاء مطالبهم وتوفير الأسباب لراحتهم وطمأنيتهم ، فلن يحرز النجاح ، ولن يسعد أبداً ، لأن هدفه الوحيد فى الدنيا يجب أن يكون خدمة بنى الإنسان) .

وقال : (إذا اختلج فى صدرك ما يراودك إلى تحقيق رغبة من الرغبات ، فلا تستجب له أبداً ، بل يجب أن تقف دونه كصخرة شامخة لا تتزعزع ، ولا تتزلزل ، ثم تتجه إلى الله سبحانه . . كما يجب أن تكون دائم السعى فى

إقناع قلبك ، وربط جأشك ، والتغلب على رغباتك ، فإذا استطعت ذلك كنت مهتدياً ، وأصبحت شخصية مثالية خالدة) .

وقال : (إن كل من استطاع التغلب على الغضب والبغض والخوف ، والتمس مرضاة ربه ، فستنعكس في قلبه معرفة الله ، فالنجاة ليست في حاجة أبداً إلى العبادات والطقوس والمراسيم ، وإنما تحصل بعد التغلب على البغض والخوف والغضب ، فمجرد العبادة والطقوس تفرق بني الإنسان إلى شيع وطوائف ، وتقيم بينهم جسراً من التعصب) .

وقال : (إذا نظرنا إلى ذات الله نجده منزهاً تنزيهاً كاملاً عن الأشكال والألوان والأشياء والأمثال ، وهو خالد لا يزول ولا يفنى ، لا يحيا ولا يموت ، كما أنه يحيط بنا من كل جانب ، من يمين وشمال ، ومن فوق ومن تحت ، فإذا بلغ الإنسان هذه الغاية من التصور والتفكير في الله ، فإنه يكون قد وصل إلى غايته) .

مقتطفات تعبر عن (إنسانية) مؤمنة موحدة ، بعيدة عن دعاوى الأساطير ، وعن أوهام الخيال والضللال .

تطوُّر ..

وظهر فى الهند قديسون زاهدون .. اشتهر منهم :

(« شواسا مفيديو بانشاد » الذى رأى أن ما يحكم الأشياء كلها هو « الطبيعة » التى تبتدع ، و « الزمان » الذى يهدم ، وهما لا يأبهان بفضيلة أو رذيلة ، حين يقسمان بين الناس أنصبتهم من السعادة والشقاء .

ورأى أن الناس تخذعهم حلاوة الكلام ، إذ يعتنقون الاعتقاد فى الآلهة والمعابد والكهنة ، مع أنه لا فرق فى الواقع بين قشنو و كَلْب !!

إفراد هذا القول يدين صاحبه بالسطحية ، وبعدم التوفيق فى اختيار ألفاظه ، مع أن الإدانة قد تكون رهناً بسوء الاقتباس ، وبسوء الترجمة .

(ورأى المعلم البوذى « نجاسينا » أن الدين لا ينبغى أن يتخذ مجرد وسيلة فرار يلوذ بها المعذبون ، بل يجب أن يكون سعى الزاهد ، حتى يبلغ مرحلة القداسة والحكمة ، دون أن يزعم وجود جنة أو إله) - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٢٢٩ / ٢٣٠ .

وهذا القول يمكن تطويعه لمثل قول رابعة العدوية : عبدتك لا رغبة فى جنتك ولا خشية من نارك ، ولكن أحبك (حب الهوى ، وحباً لأنك أهل لذلك) ، لكن صيغة المعلم البوذى - كما أوردها النص - تأبى الارتقاء إلى هذا التطويع .

* وظهر فى الهند فلاسفة براهمة :

كان (چوتاما) بمثابة أرسطو ، و (كانادا) بمثابة ديمقريطس .

العالم فى مذهب (كانادا) ملئ بطائفة من الأشياء ، لكنها لاتزيد عن كونها تركيبات مختلفة من الذرات ، صيغت فى هذا القالب أو ذاك ، وتتغير القوالب ، لكن الذرات يستحيل عليها الفناء .

ويذهب كانادا - كما ذهب ديمقريطس - إلى أنه ليس فى العالم إلا (ذرات وفراغ) ، وأن الذرات لا تتحرك وفق إرادة إلهية عاقلة ، بل بدافع من قوة غير شخصية ، هى القانون .

وكان الأنصار المتأخرون لمذهب فايشيشيكا (الجزئية) يعجبون كيف يمكن لقوة عمياء أن تخلع على الكون نظاماً ووحدة ، فوضعوا عالماً من أنفس دقيقة جنباً إلى جنب مع عالم الذرات ، ثم جعلوا فوق العالمين إلهاً عاقلاً .

وتشير النصوص البوذية ، كما تشير (مهابهاراتا) كثيرآ إلى (كايبلا) الذى يقول عنه (ونتر نتر) إنه يرى آثاره فى فيشاغورس .

كان كايبلا يكتب - كأنه عمانوئيل كانت - أن الخالق المشخص يستحيل أن يقيم عليه الدليل عقل بشرى ، لأن كل ما هو موجود - فى رأى الشكك الدقيق - لا يخرج على أحد فرضين ، إما أن يكون مقيداً ، وإما أن يكون حراً ، ولا يمكن لله أن يكون هذا أو ذاك ، ولو كان الله كاملاً لما مسّت الحاجة به إلى خلق العالم ، ولو كان ناقصاً لما كان إلهاً ، ولو كان الله خيراً ، وله قدرات إلهية ، لما أمكن قط أن يخلق عالماً على هذا النقص الذى نراه فى العالم القائم الذى يغص بكثرة ما فيه من آلام ، ولا يأخذه التردد فى الموت .

ويتحدث كايبلا عن مبدأ نفسى قائم بذاته ، موجود فى كل الوجود ، أزلى ، أبدى ، عاجز عن الفعل بذاته ، لكنه - رغم ذلك - لا يستغنى عنه فى أى فعل .

وهو - كسائر المفكرين الهنود - ينظر إلى الحياة على أنها خير مشكوك فيه إلى حد كبير ، بل قد لا تكون خيراً على الإطلاق ، (والعبودية تنشأ عن غلطة عدم (التمييز) بين النفس التى تعانى الآلام وبين الروح المحصنة ، بين السطح المضطرب وبين الأعماق التى تظل ممتنعة على كل اضطراب وتغير .

فلتبتين الروح استقلالها عن الأشياء ، وستظفر بالحرية من فورها . . إن عملية إدراكها لهذه الحقيقة كافية في حد ذاتها - أن تهيم لها الفرار من سجن المكان والزمان والألم ، والعودة إلى التجسيد من جديد .

وإننا لنلمس أثر كاييلا في مثالية بوذا المصطبغة بالإلحاد ، وبالبحث عن كيفية وصول الإنسان إلى معرفته بالعالم ، كما نلمس أثره في فكرة بوذا عن (النرفانا) ، وكذلك نلمس أثره في (المهابهاراتا) ، وفي تشريع (مانو) - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٢٥١ / ٢٥٩ .

وكاييلا - بهذه الصورة التي أوردتها ديورانت - شأنه شأن كل الفلاسفة ، يضربون في متاهات لا يعودون منها بطائل ، وإن كانوا يشيرون فينا الدهشة والإعجاب معاً ، لجراهم الفكرية ، ولمناهجهم في تناول القضايا الكبرى التي لا سبيل إلى الاطمئنان إلى ثمارها إلا من خلال ما جاءنا عن طريق الخالق جل جلاله ، أما أن (العقل العاجز) الذي يستمد قدراته من الحواس المحدودة إلى توصيف الله وتحديد كيانه ، وإلي الرجم بالغيب فيما هو وراء الحس ، فهو أشبه بقول كاييلا : (لو كان الله كاملاً لما مسّت الحاجة به إلى خلق العالم) ، مع أن الكمال يتجلى في هذا الخلق ، وما كان الله ليعرف بدون خلقه ، كما قال سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أو إلا ليعرفوني ، لأنه لا عبادة بدون معرفة ، وهو ما عبر عنه الصوفية على لسان الله جل شأنه : (أردت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فبي عرفوني) .

إن من السهل أن تصل بنا التأملات إلى أبعد مما تصل إليه الأدخنة الزرقاء ، وسنجد - دون شك - من يصفق ويرقص طرباً ، ولكن ماذا بعد ذلك ؟ وإذا كنا من البداية اتفقنا على عجز العقل ، وعلى محدودية الحواس ، فإن أى اختراق لعالم الغيب ، أو لعالم ما هو خارج القدرة الإنسانية - إنما هو أشبه بأحلام العراة في الشتاء .

* الأفيدانتا ، أو ختام القيدات ، أو اليوبانشاد ، يطلقها الهندو اليوم على المذهب الفلسفى الذى حاول أن يدعم بالمنطق بناء الفكرة الأساسية التي وردت في كتب اليوبانشاد ، وهى أن الله (براهما) ، والروح (أتمان) شئ واحد .

وقد استطاع شانكارا (٧٨٨ - ٨٢٠ م) - في حياته القصيرة - أن يحقق الاتحاد بين شخصيتي الحكيم والقديس ، بين صفتي الحكمة والرحمة ، وهو اتحاد يتصف به أسمى ما أنجبت الهند من صنوف الإنسان .

ألف (بها جافاد - جيتا) الذى هاجم فيه بحماسة دينية ، ودقة أسكولائية ، طوائف الزنادقة فى الهند ، وأعاد للبراهمة زعامتها الفكرية التى سلبها إياها (بوذا) و (كايلا) .

وأقام شانكارا أساس فلسفته عند نقطة دقيقة ، لم يستطع أحد بعد أن يدركها إدراكاً واضحاً ، حتى قيض الله لها - بعد ألف عام - عمانوئيل كانت ، فكتب كتابه (نقد العقل الخالص) ، ذلك أنه ألقى على نفسه سؤالاً ، هو ، كيف تمكن المعرفة ؟ إن كل علمنا - فيما يبدو - آت من الحواس ، فهو لا يكشف عن الواقع الخارجى ، كما هو فى ذاته ، بل يكشف طريقة تشكيلنا لذلك الواقع بحواسنا ، وربما بلغ التشكيل حد التغيير من الصورة الأصلية تغييراً أساسياً ، إذن فبالحس وحده يستحيل أن تعرف (الحقيقى) معرفة تامة ، وكل ما قد نعرفه عنه هو العلم به ، وهو فى ثوب المكان والزمان والسببية ، وقد يكون ذلك الثوب نسيجاً خلقتة حواسنا وعقولنا ، فصورته ، أو طورته ، على نحو يتيح له أن يتصيد ثباتاً من هذا الواقع السيل المفلت ، وأن يمسك بهذه الصورة الثابتة عنه ، مع أننا - إن استطعنا أن نحسد بوجود ذلك الواقع الخارجى - لانستطيع أن نصف خصائصه الموضوعية ، كما تقع فى ذاتها ، ذلك لأن أسلوبنا فى الإدراك سيظل إلى الأبد ممتزجاً بالشئ المدرك امتزاجاً لا سبيل إلى عزل الواحد عن الآخر .

وليس هذا بالذاتية الجوفاء التى يقول بها من يريد أن يغلق على طويته ، دون أن يجد سبيلاً لاتصاله بالعالم الخارجى ، والذى يظن أنه مستطيع أن يحطم العالم تحطيماً ، إذا تركه واسترسل فى النعاس .

إن العالم موجود ، لكنه (مايا) ، وليس معنى الكلمة أنه وهم ، بل هو ظواهر ، هو مظهر اشتراك عقل الإنسان فى تكوينه .

وعجزنا عن إدراك الأشياء إلا فى صورها التى تعرض علينا ، وهى فى

الزمان والمكان ، ثم عجزنا عن التفكير فيها ، إلا على أساس السببية والتغير ، إن هو إلا قصور في طبائعنا ، هو (أفيديا) ، أو جهل مرتبط ارتباطاً شديداً بطريقة إدراكنا نفسها . . وعلى ذلك فهو جهل كتب على الجسد أن يصاب به .

إن (مايا) و (أفيديا) هما الجانبان الذاتى والموضوعى للوهم الأعظم الذى يحمل العقل على الظن بأنه يعرف حقيقة العالم .

إننا نرى كثرة فى الأشياء ، وتياراً من التغير ، بسبب (مايا) و (أفيديا) ، أعنى بسبب ما ورثناه منذ الولادة من جهل محتوم ، وحقيقة الأمر أن ثمة كائناً واحداً ، وما التغير إلا (مجرد اسم) نطلقه على تغير صور الأشياء فى سطوحها الظاهرة ، و وراء (المايا) ، أى النقاب الذى يحجب عنا الحقيقة ، والذى قوامه تغير الأشياء - تستطيع أن تنفذ إلى الحقيقة الكلية الواحدة ، (براهما) ، لا بطريق الحواس ، ولا بقوة العقل ، بل بالبصيرة النافذة ، والإدراك الفطرى المباشر ، من روح مرنت على ذلك الضرب من الإدراك .

إن الفروق بين الأفراد ، والتمييز بين الشخصيات ، مرتبطان بالجسم والمادة ، وهما من خصائص عالم التغير الذى يشبه فى تغيره تصاوير (الكاليدوسكوب) ، وهذه النفوس التى لا تزيد على مجرد ظواهر زائلة ، ستمضى بانقضاء الظروف المادية التى هى جزء منها ، أما الحياة الكامنة وراءها والتى نحسها فى دخائلنا - حين ننسى الزمان والمكان ، والسببية والتغير - هى جوهرنا الصميم ، وحقيقتنا الأصيلّة ، تلك هى (أتمان) التى نشترك فيها مع سائر النفوس والأشياء ، والتى لا تتجراً ، ولا يخلو منها مكان ، وهى وبراهما ، أى الله ، شىء واحد بعينه .

مثل هذا الإله فى مذهب المفكر الذى سبق (كانت) فى تفكيره - لا يمكن البرهنة عليه بالعقل ، وكل ما نستطيع أدائه هو أن نفرض وجوده فرضاً ، باعتباره ضرورة عملية ، يهب الطمأنينة لعقولنا القاصرة والتشجيع لأخلاقنا المتهاففة .

و (براهما) فى جوهره محايد ، يرتفع عن كونه شخصاً ، مذكراً أو مؤنثاً ، وهو يسمو على الخير والشر ، وهو فوق كل الفوارق الخلقية ، وكل أوجه الاختلاف بين الأشياء ، وكل الخصائص والصفات ، وكل الشهوات والغايات .

إن (براهما) هو السبب والمسبب معاً ، هو جوهر العالم الخفى الذى لاتحده قيود الزمان .

يقول شانكارا : (إن براهما لا يشبه العالم ، ومع ذلك ليس ثمة شئ ما عدا براهما ، وكل ما يبدو أنه موجود خارج حدوده يستحيل أن يكون له وجود «خارج عنه» ، اللهم إلا وجوداً وهمياً ، كالسراب الذى يبدو فى الصحراء ماء).

وهذا فكر الصوفية الإسلامية ، وما كان لشانكارا أن يصل إلى هذا المدى من التنزيه والتجريد للإله الواحد ، وإلى وحدة الوجود ، وفناء الموجود ، لمجرد أنه وريث الثقافة الهندية العريقة التى تأثرت بثقافات أخرى عريقة كالصينية والفارسية واليونانية والآرية ، لأن كل هذه الثقافات كانت تخبط رءوسها فى حائط الغيب ، أو كانت تصطنع للغيب أسواراً إنسانية تتقافز فوقها ، أو كانت تفضل الانشغال بالواقع المعيش عن الانشغال بما وراء هذا الواقع .

ومن ثم كان الاحتمال الكبير أن يكون هذا الشاب النابغة (مات فى الثانية والثلاثين) ، بعد أن امتدت أذناه وعينه إلى الفكر الإسلامى - وهو فى ذروة ازدهاره - الذى كان يضرب فى عهده شواطئ الهند والصين ، وتخطى حدودهما الجبلية ، بعد أن استقر وتطور فى كل من فارس ووسط آسيا ، أو فى جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية القديمة ، قبل أن تصبح أرضاً إسلامية .

ولأن فكر شانكارا نقل إلى الهندية قمة ما وصل إليه الفكر الإنسانى ، فقد نشأت بعد موته عشر جماعات دينية تحمل اسمه ، واعتنق فلسفته كثير من طلاب المعرفة ، ثم ارتقوا بها .

* من هنا يمكن القول إن اليوبانشاد سليله فكر شانكارا ، أو سليله البيئة التى استقى منها هذا الرجل فكره ، مع أن صاحب (الفكر الشرقى القديم ص ٥٤ / ٦١) يرى أنه لم يكن لدى حكماء اليوبانشاد تصور واضح عما يبحثون عنه . . كانوا يعرفون أنه لابد من وجود ذلك الذى عن طريقه وجدت كل الأشياء ، وهذا الذى جعلها عظيمة يسمى (براهمان) ، (ذلك الذى يضىف العظمة) ، وكانت هناك محاولة للتعرف عليه عن طريق الرموز ، والطقوس

الدينية ، وعن طريق الأشياء الطبيعية ، مثل الشمس والقمر ، وعن طريق وظائف سيكولوجية مُعَيَّنة للموجودات البشرية .

وعندما بدأ الحكماء يدركون أن براهمان لا يمكن وصفه على نحو مناسب ، حاولوا تحديد هذا الواقع بالسلب .

يقول باجنافاكا : (إن براهمان لا سبيل إلى تصوره ، فهو لا يتغير ، ولا يناله أذى ، ولا يمكن إدراكه) .

وجاء في **اليوبانشاد** : (لا سبيل إلي رؤيته ، أو الإحاطة به ، لا نسل له ، ولا لون ، بلا عين ولا أذن ، وبلا أيد ولا أقدام ، يتخلل كل شيء ، وهو كلى الوجود . . إنه الواحد الذى لا يتغير ، الذى ينظر إليه الحكماء باعتباره مصدراً للموجودات) .

أما مسألة ما يمكن الكيان الجسدى من أن يوجد ، فذلك موضوع آخر ، فقد أبدؤ كياناً جسدياً ، ولكن هل هذا ما هو أنا عليه حقاً ؟ وهل (الأنا) الذى يُظن (الذات) كيان جسدى ؟ أليس من المناسب أن نقول إن (الأنا) هو الذات أكثر من أن نقول إنه الجسد ؟

تلك هى أنواع الأسئلة التى طرأت على أذهان حكماء اليوبانشاد .

ولقد استرشد بحثهم عن الماهية العميقة للإنسان بهذه الوصية :

(إن الذات - أتمان - المتحررة من الشر ، والمتحررة من الشيخوخة ، والمتحررة من الموت ، والمتحررة من الخوف ، والمتحررة من الجوع والظمأ ، والتى تنشذ الواقعى ، والتى تواكب أفكارها الحق ، ينبغى أن يسعى إليها من يرغب فى الفهم ، ومن يعثر على هذه الذات ويتفهمها يظفر بكل العوالم وال رغبات) .

وفى غمار السعى لفهم الطبيعة المطلقة للعالم والنفس ، تم اكتشاف أن كل الأشياء موجودة فى داخل (أتمان) ، وأن كل شخص يحتوى كل الأشياء فى داخل النفس الأكثر عمقاً ، وما على المرء سوى أن يعرف نفسه لكى يعرف كل شيء ، والنفس يمكن أن تعرف بأكثر الطرق يقينية ، فهى يمكن أن تتجلى ،

عندما يتم تجاوز موضوعات الوعي التى تحول دون الاستنارة الذاتية .

وهذا ساق الحكماء مساق الصوفية الإسلامية التى تقول (احفر فى قلبك تتفجر ينابيع المعرفة) ، وهذه الصوفية التى تعتقد فى (العلم اللدنى) قدمت من شخصيات حكمائها رجالاً أميين على مثال (ابن ماخللا) الذى ينطق الحكمة مصوغة صياغة أدبية راقية .

ينقل البيرونى عن الحكيم باسديو الهندى : (إذا تجردت النفس عن المادة كانت عالمة ، فإذا تلبست بها كانت بكدورتها جاهلة ، وظنت أنها الفاعلة ، وأن أعمال الدنيا معدة لأجلها ، فتمسكت بها ، وانطبعت المحسوسات فيها ، فإذا فارقت البدن كانت آثار المحسوسات باقية ، فلم تفصل عنها بالتمام ، وحتت إليها ، وعادت نحوها) .

ونظرية باسديو - مع أن لها ظلالاً صوفية إسلامية - طغت عليها الثقافة الهندوسية التى اصطحبت مفاهيم (التَّقْمُص) خلال تطورها .

ومن نصوص اليوبانشاد - كما جاء فى (الفكر الشرقى القديم ص ٨٥ / ٨٩) - (أن براهمان قد خلق الكون ، ثم دخل فيه) . . وهذا تعبير فلسفى غريب ، لأنه يريد أن يجيب على كثير من الأسئلة الفلسفية التى عاناها الفلاسفة خلال عصورها المختلفة ، وعلى مستوياتها المتباينة .

إنه يريد أن يقفز فوق الحدود الزمانية والمكانية ، المطلق والنسبى ، الواحد المتعدد ، المجرى المادى ، الواقع وما وراءه ، أو الفيزيقي والميتافيزيقي .

وتتصل هذه المحاولة بما يسمى (نظرية السانحايا) ، أى أن النتيجة موجودة مسبقاً فى السبب ، ذلك :

١- لأن ما ليس بموجود لا يمكن أن يتم إنتاجه .

٢- لأن هناك علاقة محددة بين السبب والنتيجة .

٣- لأن الكل ليس ممكناً .

٤- لأن الكفاء لا يمكن أن يقوم إلا بما هو كفاء له .

٥- لأن السبب هو من جوهر المسبب نفسه .

والنتيجة واقعية بقدر واقعية السبب ، ذلك لأن النتيجة هي تحول السبب ، وما من نتيجة يمكن معرفتها قبل أن تحدث فعلاً ، لكن إذا عرف السبب يمكن أن تعرف النتيجة ، لأنه إذا كانت النتيجة تنتمى إلى السبب ، فلا بد من الإقرار بأنها توجد مسبقاً فى السبب .

وهذا كله قائم على (المنطق المادى) الذى تحكمه الحواس ، ومن ثم إذا كان هذا من (فكر) ما بعد شانكارا عد انتكاساً ، لأن فكر شانكارا انتقد تحكيم العقل والحواس فيما هو أبعد من تناول العقل والحواس .

إننا - إلى اليوم ، بالرغم من التقدم العلمى (الهائل) فى جميع المجالات - لا نزال نقف حائرين أمام أسئلة (مادية) عن الكون الكبير (العالم) ، وعن الكون الصغير (الإنسان) ، فلا نجد جواباً ، ونكتفى بأن الزمان كفيل بالكشف عن إجابة كثير من الأسئلة التى نقف أمامها حائرين ، فكيف بما فى الكونين ، الكبير والصغير ، من أسرار غير مادية ، وكيف بما وراء هذين الكونين من أكوان لا علم لنا بها ، ولا غم لك نفيها أو إثباتها !!

* وظاهرة (هندية) أن كثيراً من الشعراء خاضوا مخاض الفلسفة الدينية ، وإن كنا نعرف شعراء خارج حدود الهند تناولوا (قشوراً) فلسفية ، فذلك بسبب من طبيعة التأمل الإنسانى ، بصورة عامة ، وانشغال الطبيعة الإنسانية بما هو عن البداية والنهاية ، وما يرى وما لا يرى ، لكن أن ندخل ابن سينا فى الشعراء والمعرى ودانتى وملتون فى الفلاسفة ، فالأمر بعيد مما نحن بصدده ، وأما ما هو من أمر العلاج وابن الفارض وابن عربى فقد تمس الحاجة إلى سعة من القول . . ولعل السبب يرجع إلى سيطرة الفكر ذى الجذور السماوية على غير البيئة الهندية ، بالرغم من كثرة الملاحظة فى غير الهند ، وهذا ما دعا إلى القول إنها خصوصية هندية .

هذا تولسى داس ، أنبغ شعراء الأدب المكتوب باللغة الهندوسية المتداولة اليوم ، ويوشك أن يكون معاصراً لشيكسبير - كتب فى بنارس ملحمة الدينية (راما شارتا - ماناسا) ، أى (بحيرة من أعمال راما) ، أخذ فيها يقص قصة (راما) مرة أخرى ، وقدمه للهند باعتباره الإله الأسمى الذى لا إله إلا هو .

يقول : (ثمة إله واحد ، هو راماما ، خالق السماء والأرض ، ومخلص الإنسانية . . ومن أجل عبّاده المخلصين ، جسد ماله نفسه في إنسان ، فبعد أن كان « راماما » إلهاً صار ملكاً من البشر ، ثم من أجل تطهيرنا عاش بيننا عيش رجل من عامة الناس) .

ومع أن الجذر الفكرى موجود فى أسفار القيدا ، وبخاصة فيما يتصل براما وكرشنا ، فإن الصياغة لا تبعد عن تناول المسيحى على يد بولس ومن اهتموا بهديه .

ولأن الحظوظ تمسك بأهداب الجمادات ، كما تمسك بأقنية الحيوانات ، فقد صارت هذه الملحمة - كما يقول ول ديورانت - (أهم شخصية فى الأدب الهندى كله ، وهى لأهل الهندوستان بمثابة إنجيل شعبى ، فيه ما يرجع إليه الناس من لاهوت وأخلاق) .

يقول غاندى : (إننى أعد « الرامايانا » التى نظمها « تولسى داس » أعظم كتاب فى الأدب الدينى كله) .

وجاء (كابر) أعظم شاعر غنائى فى الهند الوسيطة ، وهو نساج ساذج من بنارس ، أعدته الطبيعة للمهمة التى اضطلع بها ، وهى توحيد الإسلام والهندوسية ، ذلك لأنه - كما يقال - من أب مسلم وأم برهمية .^(١)

يقول (كابر) : (هناك - يا أخى - عالم لا تحده الحدود / وهناك « كائن » لا اسم له ، ولا يوصف بوصف / ولا يعلم عنه شيئاً إلا من استطاع أن يصل إلى سمائه / وإنه لعلم يختلف عن كل ما يسمع وما يقال / هناك لا ترى

(١) جاء فى كتاب (الديانات القديمة ص ٩٠ / ٩١) أنه ولد لأبوين هندوسيين فقيرين ، توفى والده وهو طفل ، فكفله رجل مسلم اسمه (نيرو) كان يعمل نساجاً ، فأحسن تربيته ، ولما كبر أرسله إلى أفضل المعلمين فى بنارس ، فأحب كابر الدراسة ، ولما بلغ السادسة عشرة كان قد تعلم كثيراً من عقائد المسلمين والهندوس ، وتأثر بتعاليم (راماناند) الشاعر الحكيم الذى كان يشير بأنه ليس هناك سوى إله واحد ، وأن هذه الحقيقة هى أكبر صديق للبشر ، وأن الحياة البسيطة هى الطريق إلى النيرفانا .

أخذ كابر ينظم شعراً على غرار (راماناند) فى الوقت الذى كان يعمل فى صناعة النسيج مع (نيرو) .
التف الناس حول كابر ، وصار له أتباع ومريدون ، وبعد أن توفى جمع أتباعه أشعاره وحكمه فى كتاب أسموه (بيجاك) ، ويبلغ عددهم الآن فى الهند حوالى مليون نسمة .

صورة / ولا جسداً . ولا طولاً ، ولا عرضاً / فكيف لى أن أنبئك من هو ؟) .
وقد رفع بعضهم (كابر) إلى مصاف الآلهة ، وإنك لتجد اليوم طائفتين
صغيرتين متنافستين تتبعان مذهب هذا الشاعر ، وتعبد اسمه ، إحداهما من
الهندوس ، والأخرى من المسلمين .
هذا ، مع أن (كابر) سبق بتجربة الإمبراطور المغولى (أكبر) ، وتلا كابر
ماصنعه (نانك) زعيم السيخ .
* وصار راماكشرنا (١٨٣٦ / ١٨٨٦) البرهمى البنغالى الفقير مسيحياً
حيناً من الزمان .

زعم ول ديورانت أنه أحس جمال المسيحية ، وظل إلى آخر أيامه يعترف
بربوبية المسيح ، لكنه أصر على أن (بوذا) و (كشرنا) وغيرهما كانوا كذلك
مجسّدات للإله الواحد ، واعتنق الإسلام حيناً ، (وأدى صلاة المسلمين بما
تقتضيه من خشونة وعنف) ؟ ! لكن قلبه التقى سرعان ما عاد به إلى الهندوسية ،
بل عاد به إلى (عبادة كالى الفظيعة) ؟ ! وجعل نفسه كاهناً من كهانها ، وصورها
فى صورة الإلهة الأم التى تفيض نفسها فيضاً بالرحمة والحب ، ونبذ أساليب
العقل ، وبشر بمذهب (بهاركتى - يوجا) ، وهو مذهب يدعو إلى الحب .
ومن أقواله : (إن المعرفة لا تستطيع الدخول إلا فى الحجرات الخارجية لله ،
وليس يستطيع الدخول فى غوامض الله الباطنية إلا محبّ) .
ولما سأله منطقى منتفخ الأوداج : (ما المعرفة ؟ وما العارف ؟ وما
المعروف ؟) ، أجابه : (إنى - ياصاح - لا علم لى بهذه الدقائق من علم
المتفهمين ، إن كل ما أعرفه هو إلهتى الوالدة ، وأننى ابنها) .
وقال : (إن كل الأنهار تتدفق فى المحيط ، فاندفق حتى تخلق الطريق
لاندفاق الآخرين) .

وجاء ترانت دوت (١٨٦٣ - ١٩٠٢) أحد أتباع راماكشرنا ، وقال : (الله
موجود فى الكائنات جميعاً ، فهذه الكائنات صوره الكثيرة وليس وراءها إله آخر
يبحث الإنسان عنه ، ليس هناك سبيل إلى خدمة الله سوى خدمة سائر
الكائنات) .

(إن أولى العبادات كلها هي عبادة من يحيطون بنا . . . هؤلاء هم آلهتنا الذين لا آلهة لنا سواهم ، أعنى أفراد الإنسان والحيوان ، وأول ما ينبغي لنا أن نعبد من هؤلاء الآلهة هم بنو وطننا) - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٤٠١ / ٤١٠ .

وهكذا هبط راماكروشنا وتلميذه تارانت بالفكر الدينى هبوطاً ربما كان سببه الحالة النفسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع الهندى ، فى ظل الاحتلال الإنجليزى البغيض .

* ومع هذا ، فقد أدى هذا الاحتلال البغيض إلى نشر اليوبانشاد فى أوروبا ، حتى تصور (فخته) مذهباً مثالياً على شبه كبير بمثالية شانكارا ، وأوشك شوبنهاور أن يدخل فى فلسفته مذاهب البوذية واليوبانشاد والثيدانتا ، إدخالاً يجعلها جزءاً لا يتجزأ من فلسفته ، وكانت اليوبانشاد فى رأى شلنج - وهو فى شيخوخته - أنضج ما وصل إليه الإنسان من حكمة - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٢٨٠ .

لكن الاتجاهات العقلية (التنويرية) التى ظهرت فى القرن الثامن عشر بأوروبا ، ظلت مع هذا - فى رأى الميتافيزيقى الهندى - محاولة سطحية عابثة لإخضاع الكون الذى يستحيل حساب دقائقه لتصورات سيدة رقيقة ممن يرتدن (الصالونات الأدبية) .

وكما تقول اليوبانشاد : (فى ظلام دامس يمضى أولئك الذين يعبدون الجهل ، وفى ظلام أشد دماسة يتخبط أولئك الذين يطمثون نفساً بما لهم من علم) .

ويقول دكنسون : (ليس هناك قديس هندى واحد نظر إلى المعرفة المكسوبة بالعقل أو بالحواس بغير احتقار) .

ويقول كيسرلنج : (إن حكماء الهنود لم يقعوا أبداً فى الخطأ الذى يمثلنا أصدق تمثيل ، وهو أن تأخذ أى شئ مما يركبه العقل أخذاً جاداً بالمعنى الميتافيزيقى للكلمة ، فهذه التركيبات العقلية لاتزيد جوهرها على أى تركيب آخر مما تعرضه علينا « مايا » ، أى عالم الظواهر) - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٢٧٨ .

السيخ Sikh

مؤسس هذه الديانة المعلم ناناك (١٤٦٩ - ١٥٣٩) الذى ولد لأبوين هندوسيين فى مقاطعة البنجاب التى كانت تخضع للحكم المغولى الإسلامى .
أخذ يدرس الدين الإسلامى ليعرف سرقة الغزاة ، ويستخرج منه العناصر التى تساعد على تقوية دينه ، بحيث يتيح لقومه التحرر من تسلط المغول .
كان يقول : (لا يقتصر الدين على الكلمات فقط ، إنه العمل الصالح والمساواة بين الناس) .

(لا يقتصر الدين على الحج وزيارة المقابر والمحارق ، أو الجلوس والتأمل) .
(احتفظ بطهارتك وسط دنس العالم ، حتى تهتدى إلى طريق الله) .
وأدرك أن الله واحد ، هو الخالق ، المفارق ، المتعالى ، الذى يجب أن يرتبط به ارتباطاً وثيقاً أولئك الذين يبحثون عن الخلاص . . والسعى من أجل الخلاص هو شاغل (ناناك) ، فعن طريقه تشكل تعاليمه .

ويعبر (ناناك) عن فهمه لله بعدة مصطلحات ، تتجلى فى عدة صفات إلهية : أولاً : أن الله لا شكل له ، وثانياً : أنه الأزل ، وثالثاً : أنه لا يوصف .
وقد استخدم المعلم كلمات لا حصر لها للتعبير عن أهمية الصفة الأخيرة ، فكيف يمكن للمرء أن يعرف الله ؟

قال : إن المرء لا يستطيع أن يعرف الله ، لأن فى كماله يجاوز كثيراً فهم الموجودات الفانية .

وحتى يبلغ العابد الانسجام النهائي يجب أن يدخل في نظام للعبادة ،
ويثابر على تطبيقه ، وهذا النظام لا علاقة له بالشعائر الخارجية ، كطقوس
المعبد ، أو صلاة المسجد ، أو الحج ، أو الزهد . . إن المقصد الوحيد المقبول
للحج ، (والبيت الوحيد الذي يمكن قبوله للعبادة هو القلب البشري الذي ينطق
فيه المعلم الروحي بالكلمة الإلهية) .

حتى (التأمل) لا يكفي وصفاً للممارسة الدينية ، فالمثل الأعلى هو التعرض
الكامل لكيان المرء أمام الاسم الإلهي ، والتطابق الشامل لكل ما يكونه المرء
ويعمله مع النظام الإلهي الذي يجد التعبير عنه في الاسم الإلهي .

ونتيجة التطبيق المنظم (تذكر اسم الله) هو النمو نحو الله ، والنمو في
الله ، وهي عملية متدرجة ، شَبَّهها المعلم ناناك بسلسلة من المراحل الصاعدة ،
وخامسة هذه المراحل وآخرتها ، هي المسماة (عالم الحقيقة) ، وهي الإنجاز
الأخير ، حيث تجدد الروح اتحادها الصوفي بالله ، وفي هذا الوضع الذي تشعر
فيه بسعادة لا توصف تبلغ الروح مرحلة الانعتاق المطلق باندماجها في الله .

* وبعد موت ناناك خلفه أحد تلاميذه ، وخلال أكثر من قرن ونصف انعقد
لواء القيادة لسلسلة من المعلمين الروحيين ، انتهت بموت المعلم العاشر (جوبند
سنغ عام ١٧٠٨) . . وكان الأتباع يسمون (المتحدين مع ناناك) ، ثم سرعان ما
حملوا اسم الشيخ بمعنى التلميذ ، وأصبح لقب (جورو) - أي المعلم أو
الأستاذ - خاصاً بناناك وخلفائه في قيادة الطائفة .

وتحول شعب (التلاميذ) - بمرور الزمن - إلى طائفة تجمع بينها اللغة ،
والثقافة ، والعادات والتقاليد ، ويتجاوز تعدادها عشرة ملايين .

وقد جمع الجورو الخامس كتابهم المقدس المسمى (آدي جرانت Adi Grant)
من كتابات وتعاليم الجورو الأول ناناك ، وهو يتضمن نصوصاً إسلامية
وهندوسية .

ووضع هذا الكتاب في (المعبد الذهبي) الذي شيده وسط بركة كبيرة في
مدينة (أمرتسار) ، وهي المدينة التي أنشأها والده الجورو الرابع (رام داس) ،
وتعتبر هذه المدينة بمثابة (مكة) عند المسلمين .

وتقول الأساطير : إن رام داس اختار هذا الموقع عام ١٥٧٧ ، عندما شاهد فيه بركة عطرة الرائحة ، حطّ عليها عصفور مكسور الجناح ، فما لبث أن طار ، كما يقول إن الغربان تتحول فيها إلى بجعات بيضاء ، وإن ماءها يشفى من البرص ، والآن يتطهر حجاج السيخ بمائها المقدس تبركاً .

ويقع داخل المعبد الذهبى الهيكل المرصع بالجواهر النفيسة ، وليس بداخله غير كتابهم المقدس^(١) ، ويطوف الحجاج حوله ، وهم يستمعون إلى التلاوات المنغمة التى لم تتوقف لحظة ، ليلاً أو نهاراً ، منذ إقامة المعبد ، ثم يتناولون (العشاء الربانى) من جفنة (ماجور) كبيرة تفيض بالسمن السائل الذى تُعوم فيه كتل الدقيق (السيمولينا) .

وفى داخل المعبد أكبر مطبخ فى العالم ، يطعمون فيه كل يوم عشرة آلاف جائع بالمجان ، لا يفرقون بين جنس أو دين أو لون .

والجورو (آرجون) هو الشهيد الأول لطائفة السيخ ، أعدمه الإمبراطور المغولى جاهانجير عام ١٦٠٦ ، وعلى أثر إعدامه جمع خليفته جيشاً صغيراً للمقاومة .

أما الجورو التاسع فقد أطاح برأسه الإمبراطور المغولى أورنجزيب عام ١٦٧٥ لرفضه اعتناق الإسلام^(٢) .

* ومن السمات الرئيسية فى هذا النظام تحريم تدخين الغليون ، والامتناع عن قص شعر الرأس واللحية مدى الحياة ، واستخدام مشط لتصفيف الشعر ، وحمل خنجر أو مدية ، ولبس سوار فى المعصم من الصلب أو خلخال أسفل الساق من الفولاذ ، ولبس سروال قصير لا يتجاوز الركبة .

أما العمامة الضخمة ذات الألوان البراقّة الزاهية فهى عَلمٌ عليهم فى كل

(١) جمع الجورو الخامس أقوال نانك وعظاته ، وأشعار راماناند ، وأشعار كابر ، فى كتاب واحد ، سماه (صاحب المواهب) ، وأصبح الكتاب المقدس للسيخ .

(٢) أهدت طائفة السيخ (موشى ديان) سيفاً مرصعاً بالجواهر ، فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ، إعجاباً بقدرته على التنكيل بالعرب والمسلمين .

مكان ، ويحتاج لفها على رؤوسهم إلى خبرة ودراية لا يسهل على غيرهم محاكاتها .

وقد جرى تنظيم على يد المعلم العاشر جوبند سنغ عام ١٦٩٩ سماه الخلسا Khalsa ، وهو نظام من الأخوة تندمج فيه الواجبات الدينية والعسكرية مع الواجبات الاجتماعية في نظام واحد ، وعلى جميع الذين ينظمون في جماعة الخلسا (الأبرار) الالتزام التام بالمحرّمات السابقة ، وأن يحمل الرجل اسم (سنغ Singh) أى أسد ، والمرأة اسم (كور Kaur) .

اليوجا ..

وأبرز ما اشتهرت به الهند (اليوجا) ، أو النير ، إذ المقصود إخضاع الإنسان لنير النظام التقشفى المتزهد الذى يلتزمه الطالب ليبلغ ما يريد لنفسه من طهارة الروح من كل أدرا ن المادة ، وقيودها ، ويحقق ما يسمو على الطبيعة من ذكاء وقوة .

وليس فى وسع الذكاء الإنسانى ، أو التدليل المنطقى ، أن يجد لها صيغة تعبر عنها ، (فلا سبيل إلى معرفة اليوجا إلا عن طريق اليوجا) .

اليوجا تكسب إدراكًا وقدرة خارقتين للطبيعة ، لأنه إذا نفضت عن الروح كل آثار الخضوع للجسد ، واشتباكها فيه ، فإنها لا تتحد مع براهما فقط ، بل تصبح نفسه ، إذ إن براهما ليس إلا ذلك الأساس الروحى والخبئى ، ذلك الروح اللارمادى الذى لا يتفرد بنفس ، والذى يبقى بعد أن تطرد بالرياضة أعلاق الحواس . . . إلى هذا الحد تستطيع أن تكون براهما ، بحيث تمارس ذكاء برهميا ، وقوة برهمية .

ويعتقد (اليوجى) أنه بواسطة (اليوجا) يستطيع أن يخدر أى جزء من أجزاء جسمه ، بتركيز فيه ، وبذلك يجعله تحت سلطانه ، فيمكنه إن أراد أن يخفى عن الأبصار ، أو أن يحول بين جسده وبين الحركة ، مهما كان الدافع إليها ، أو أن يمر فى أية لحظة شاء من أى جزء من أجزاء الأرض جميعًا ، أو أن يحيا من العمر ما شاء أن يحيا ، أو أن يعرف الماضى والمستقبل ، كما يعرف أبعاد النجوم .

وعلى المتشكك أن يعترف بأنه ليس فى هذه الأشياء كلها ما هو مستحيل ،

ففى وسع المجانين أن يبتكروا من الفروض ما يستحيل على الفلاسفة أن يدحضوه .

يقول ول ديورانت : والهند عرفت هؤلاء الناس مدى ألفين وخمسمائة عام ، ويجوز أن يرجع عهدهم إلى ما قبل التاريخ ، حين كانوا للقبائل الهمجية - فيما نظن - بمثابة الأولياء ، وهذه الطريقة فى التأمل الزاهد التى تعرف باسم (يوجا) كانت موجودة أيام (الثيدات) . . و (اليوباتشاد) ، و (المهابهاراتا) كلتاهما اعترفتا بهذه الطريقة التى ازدهرت فى عصر بوذا .

نراهم جالسين القرفصاء ، وقد لفّوا ساقا على ساق ، لا يتحركون ، ويركزون أبصارهم فى أنوفهم أو سررهم ، بعضهم يحدقون فى الشمس ساعات متوالية ، بل أياماً متعاقبة ، فيفقدون أبصارهم شيئاً فشيئاً ، وبعضهم يحيطون أنفسهم باللسنة حامية من اللهب فى قيظ النهار ، وبعضهم يمشون حفاة على جمرات النار ، أو يصبون الجمرات على رؤوسهم ، وبعضهم يرقدون عرايا الأجسام مدى خمسة وثلاثين عاماً على أسرة من حراب الحديد ، وبعضهم يدحرجون أجسامهم على الأرض آلاف الأميال ، حتى يصلوا مكاناً يحجون إليه ، وبعضهم يصفدون أنفسهم بالأغلال فى جذوع الأشجار ، أو يزوجون بأنفسهم فى أقفاص مغلقة حتى يأت بهم الموت ، وبعضهم يدفنون أنفسهم فى الأرض إلى الأعناق ، ويظلون على هذا النحو أعواماً طويلاً ، أو طول الحياة ، وبعضهم يُنفذون سلكا خلال الصدغين ، فيستحيل فتح الفكين ، وبهذا يحكمون على أنفسهم بالعيش على السوائل وحدها ، وبعضهم يحتفظون بأيديهم مقبوضة حتى تنفذ أظافرهم من ظهور أكفهم ، وبعضهم يرفعون ذراعاً أو ساقاً حتى تدبل وتموت . . إلخ - قصة الحضارة مج ١ ج ٣ ص ٢٦٣ / ٢٦١ .

وروى ابن بطوطة أنه - فى الهند ، فى بلدة بروان ، وهى مركز لنفر من السحرة يسمون الجولية (الذين يقومون بممارسات اليوجا ورياضتها) - شهد رجلين (تربع أحدهما ، ثم ارتفع عن الأرض ، حتى صار فوقنا فى الهواء مُترَبِّعاً ، فعجبت منه ، وأدركنى الوهم ، فسقطت إلى الأرض ، فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقت وقعدت ، وهو على حاله متربّع ، فأخذ صاحبه

نعلّاه من شكارة كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمغتاط ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المترّبع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلاً قليلاً ، حتى جلس معنا ، فقال لى السلطان : إن المترّبع هو تلميذ صاحب النعل ، ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت) .

* ولعل اليوجا أخذت طريقها إلى الصين ثم اليابان ، عن طريق هندى وصل إلى الصين فى القرن الخامس الميلادى ، ونقل ممارسة التأمل خلال الجلوس ، وتعاليم الاستناره المفاجئة ، وسُمى هذا النظام (الزازن) الذى يشكل القاعدة الرئيسية لممارسة (الزن Zen) ، لتحقيق الحد الأمثل من الظروف الملائمة للتطلع مباشرة إلى نفس المرء ، واكتشاف الطبيعة الحقيقية لكل وجود من خلال نقاء وجود المرء . . . وتقتضى هذه القاعدة افتراض السيطرة الكاملة على القدمين ، واليدين ، والساقين ، والذراعين ، والجذع ، والرأس ، وتنظيمها . . . ويلى ذلك ضرورة تنظيم النفس ، بحيث يمكن السيطرة على أنشطة العقل ، وخلال سلاسل من الأشكال الخاصة من التركيز يتم تجميع أنشطة العقل ، وتوحيدها ، وتسكينها ، وتتم كذلك السيطرة على الانفعالات والتزاعات وتنسيقها مع الذهن . . . وبعد تحقيق هذا كله يبقى غرس ما يسمى عادة بالصمت العميق ، فى أعماق أبعاد كيان المرء .

وهناك ثلاثة أهداف رئيسية للزازن : الأول زيادة قوى التركيز ، بالتخلص من كل العناصر المشوشة ، وكل الازدواجيات ، وعادة ما تتبعثر طاقات العقل فى العديد من الاتجاهات ، الأمر الذى يخلق طوفاناً من التشويشات التى تجعل التركيز مستحيلاً ، على وجه التقريب ، وعن طريق توحيد العقل ، فإن هذه التشويشات يمكن التغلب عليها ، وتركيز طاقة العقل الديناميكية بصورة كاملة على الأشياء موضع التناول ، وتنمية قوة الوعى المركزة هذه تعطى المرء الحرية والاتزان اللذين يخلقان شعوراً بأن المرء على ما يرام ، حتى فيما هى تعدّه للساتورى Satori (الاستنارة باليابانية) ، أو الهدف الثانى من أهداف (الزازن) .

وتحقيق الساتورى هو صحوة الاستنارة ، أو النظر إلى نفس المرء المطلقة ، واكتشاف الطبيعة الحقيقية للواقع ، وكمال الوجود .

والهدف الثالث هو إدماج الاستنارة الكاملة للنفس الكلية فى كل الأنشطة اليومية .

يقول دوجن : (دراسة الطريق هى دراسة للنفس / ودراسة النفس نسيان لها / ونسيانها استنارة بالأشياء كافة / والاستنارة بالأشياء كافة إزالة / للحواجز بين نفس المرء والآخرين) - الفكر الشرقى القديم ص ٢٩٦ / ٢٩٩ .

ويقول بن هوى فى حوار مع كونفوشيوس : (إنى أرخى أوصالى ، وأنفصل عن كل من الجسم والذهن ، وأتوحد مع التا والعظيم) .

وهذه اليوجا التاوية بمثابة فى روحها لممارسات التأملية البوذية المستعارة من تراث اليوجا الهندية - المصدر السابق ص ٢٩٠ .

الصين

طبيعة خاصة

كانت البيئة الطبيعية التي ظهرت فيها الحضارة الصينية بيئة قاسية : الأهوار ، والأحراج ، والصحارى الفاصلة ، والجبال العالية ، والفيضانات الغامرة ، والحر اللافتح ، والبرد الزمهرير ، والجفاف الفاصل ، والسيول الجارف . . ومن ثم كان الدافع إلى (التحدى) ، فروّض الإنسان هذه البيئة ، وجعل منها مهداً للحضارة عريقة .

وفى إطار أعظم إقليم جغرافى ، فى قارة آسيا ، يحيط به أعظم المحيطات من الشرق والجنوب الشرقى ، كما يحده أعلى الجبال وأوسع الصحارى (صحراء كوبي) - حدث ما ظنّ أنه العزلة والثبات والركود ، من حيث عدم القدرة على متابعة ما يجرى داخل (السور) الطبيعى لعالم الصين ، ولكن كانت الحقيقة على خلاف ذلك ، لأن من المستحيل - داخل هذا المخزون البشرى الكبير - أن يكون ثبات أوركود أو عزلة ، فقد أثبت التاريخ امتداد الفيض البشرى الصينى إلى كافة الأقاليم المجاورة ، غزو سلمى كاسح ، منذ فجر التاريخ ، داخل اليابان وكوريا ولاوس وفتنام وكمبوديا وبورما وتايلاند وسيريلانكا وماليزيا ، والهند ، وجزر المحيط الهادى (إندونيسيا والفليبين) .

كما أثبت التاريخ أن دولاً غير صينية الأصل نشأت داخل الصين ، واستقرت بها ، وصارت جزءاً رئيسياً من تاريخها .

إن بالصين أكثر من ٥٥ قومية ، وإن شكلت قومية (هان) ٩٣.٣% من عدد السكان الإجمالى ، لكن كلا من القوميات الصغيرة ماتزال تحتفظ بخصائصها المميزة ، ولم تتلاش فى هذا الخضم البشرى الهائل ، مما يفيد وقوعها تحت

مؤثرات داخلية وخارجية شجعت على عدم (الدوبان) ، وإن كانت لم تشجع على الانفصال .

وإذا كانت بقايا الإنسان القديم فى الصين ، المعروف باسم إنسان بكين ، يشير إلى أقدم استيطان للإنسان فى العصور الحجرية القديمة - مع أن لفظ (أقدم) ليس علمياً - فليس ما يؤكد أن هذا الإنسان سقط (من السماء) فى هذه المنطقة .

وكان أن تطورت الصين بنفسها ، لأنها تملك أسباب التطور ، فى داخلها خمسة آلاف نهر ، وتتعلق بها ألفا جزيرة ، وترقد على ظهرها ثروات زراعية هائلة ، وفى جوفها ثروات طبيعية بلا حصر . . لهذا لا تعجب إذا كان انقلاب العصر الحجري المتأخر قد حدث فى الصين فى نفس الوقت الذى حدث فى مصر ووادى الرافدين والهند ، حيث عرفت زراعة الحبوب ، ولا سيما الأرز ، وتدجين الحيوان ، ولا سيما البقر والخنازير ، وعرف التعدين والحزف ، والكتابة الصورية ، والعربات التى تجرها الخيول فى الحرب .

ولسعة المساحة ، وعمق الحضارة ، وصعوبة القفز فوق الأسوار الطبيعية ، ومشقة الحصول على خيرات البلاد ، وطول المعاناة مع التغيرات البيئية - اكتسب الصينى صفات لازمة ، فى عاداته وتقاليده ، وفى فنونه ، وفى لغته ، وفى علاقاته بالآخرين .

فى عام ١٩٨٠ - تقريباً - دعى كاتب مصرى لحضور حفل شاي صغير بدار السفارة الصينية فى الكويت ، فصحبه الملحق الصحفى إلى قاعة واسعة كل ما فيها صينى : السجاد ، والمقاعد ، والطاولات ، واللوحات المثبتة على الجدران ، والزهرىات الموزعة على الأركان . . قال الكاتب المصرى جلسنا نتبادل عبارات المجاملة ، بينما أخرج القنصل من جيب سترته علبة سجائر صينية ، وعلبة كبريت صينية ، وضعها إلى جوار المنفضة الصينية ، وجاء الشاي الصينى الأخضر الخالى من السكر ، فى كوب صينى ، على صينية لست بحاجة إلى وصفها - الإسلام فى الصين ص ١٦ - هذا ، على حين لو دخلت بيت السفير المصرى لوجدت متحفاً فيه من كل بستان زهرة !!

ولقد زرتُ أحياء صينية فى أكثر من بلد من بلدان شرق آسيا ، فوجدت الطابع الصينى هو المسيطر ، هذا على حين تسير فى أى حى من أحياء القاهرة فلا تجد إلا كرنفالا من (قطع الغيار) العالمية !!

إن هذا (الالتزام) الصينى يتمثل فى لغة لا تربطها صلة بأى جماعة لغوية أخرى ، وتكتب بخط لا يشبه غيره من خطوط الكتابة ، خط تعبر رموزه عن الأفكار لا الأصوات ، ولذا يمكن قراءته فى جميع أنحاء الصين ، بغض النظر عن (لهجة) المتكلم ، بل إن الكتب التى كتبت بهذا الخط - قبل ألفى سنة - يمكن قراءتها اليوم دون مشقة ، وقد قامت اللغة وطريقة كتابتها بدور قوى فى إحساس الشعب ، لا بالوحدة والهوية فقط ، بل كذلك بالاستمرار والاتصال .

ولو أننا قارنا هذا الحال بما أصابنا لكان البون الشاسع ، والغباء الناصع ، لافتات محالنا لا تنتمى إلى جنس واحد ، شرفات منازلنا لا تنتمى إلى أى نسق هندسى ، أسماء بناتنا لا تنتمى إلى بلادنا ، برامج تليفزيوننا ، مناهج فنوننا وآدابنا ، كلها فسيفساء مستوردة . . ولما دعونا إلى (الانفتاح) صار كل شىء مباحا ، حتى اللحوم الفاسدة ، والبذور الفاسدة ، والأدوية الفاسدة ، وحتى صار كل شىء يتحرك بحركة القروض و (الخبراء) والعملاء ، وصارت التجارة فى كل شىء (!!) . وصارت الضرائب تثقب جيوب الكادحين ، وتلحس أفقيتهم ، وتُحفى أقدامهم ، تلاحق الأحياء والموتى ، الراكبين والراجلين ، هذا على حين تتحرك شبك الصيد فى أعالي البحار تحمل اللائى والعمولات والآثار .

ولما كان الدين آخر جدار نحتمى به ، وإن كان هذا الجدار أقرب إلى معرض للفنون ، علقت عليه صور شتى لله (؟!) والملائكة والنبين والأولياء الصالحين وغير الصالحين - فقد تحول هذا الجدار إلى لوحة إعلانات ، تُدين وتتهم ، وتعلق الأجراس فى رقاب القطط التى لا تجد مأوى ، ولا تجد مايمسك رفقاً ، حتى (المواء) صار جريمة ، والاحتفاظ (بالمخالب) خيانة عظمى .

أما فى الصين ، ومنذ كانت حضارة الصين ، فإن التدين بينهم من أصول المعاملة ، وأدب البيت ، وتنظيم السلوك ، وأشيع المعتقدات عبادة الأسلاف

والأبطال فى طريق واحد وخطوات متناغمة . . السماء والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة ، أكبرها إله السماء (شانج لى) ، تليه الشمس إلهًا ، وبقية الأجرام السماوية والعناصر الأرضية ، وامتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية ، حين تسمى عاهل الصين باسم (ابن السماء) .

ولقد ألبس الصينيون آلهتهم ملابس الحكماء ، لتكون الآلهة فى خدمة أبناء الصين ، (تجدد كل واحد من الآلهة يصلح هندامه ، ويجلس بوقار ، إنه من الحكماء الأجلاء ، ومثال للأخلاق ومعيارها ، إنهم يغيثون المحتاجين ، ويواسون المنكوبين ، ويتمتعون بالانضباط الذاتى الصارم ، وأخلاق الحكماء النبيلة) - الصينيون المعاصرون ج ١ ص ٩٠ - وهذا يدل على رغبة الصينى فى تطويع كل شئ لإنقاذه من كثافة ما يعانيه .

* يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ١ ج ٤ ص ٢٥٦ / ٢٦١) :

(لم يشهد التاريخ شعبًا من الشعوب أشد من الشعب الصينى استمساكا بالخرافات ، أو أكثر منه تشككًا ، أو أعظم منه تقى ، أو أكثر انصياعًا لحكم العقل ، أو أقوى منه دنيوية) .

حكم يحمل فى طياته بطلانه ، لأنه يعتمد على (التعميم) فى أكبر تجمع بشرى ، يصل إلى خمس سكان العالم ، وفى مساحة شاسعة من الأرض ، مُتنوعة الإمكانيات الطبيعية . . وهذه أسباب تعين على (تصور) وجود هذه الأحكام فى (قارة الصين) ، لكن بشكل جزئى ، وبغير حدود مكانية وزمانية .

ويقول : (لم توجد على ظهر الأرض أمة تماثل الأمة الصينية فى التحرر من سيطرة الكهنة ، ولم يسعد قوم - غير الهنود - بالهتهم ، أو يشقوا بها ، بمثل ما سعد الصينيون أو شقوا) .

هذا مع أن فكر (لو - دزه) ، و (كوئنج - فو - دزه) لم يكن وليد الإيمان بالآلهة ، بل بالطبيعة ، وبما تعود به الطبيعة على المجتمع من خير وشر ، وإن كان هذا الإيمان يتضمن الإيمان بخالق الطبيعة ، إلا أن هذين الحكيمين المعلمين لم يعنيا بأمر الخالق ، بل المخلوق ، وترويض حياته بالفضيلة ، أو بالثقة .

أجل ، (لم يكن دين سكان الصين « البدائيين » يختلف - بوجه عام - عن دين عبدة الطبيعة ، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة ، وعبادة الأرواح الكامنة فى جميع نواحيها) .

(وكانت الأرض والسماء فى هذا الدين البدائى مرتبطتين إحداهما بالأخرى ، لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة ، وكانت صلة إحداهما بالأخرى أشبه ماتكون بصلة - الرجل والمرأة ، وصلة السيد والتابع) .

وهذا متمثل فى كل الديانات التى سبقت الديانة الصينية ، والتى عاصرتها ، لأن أثر السماء فى الأرض واضح للعيان ، وغلبة السماء على الأرض لا يحتاج إلى برهان .

(وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها) ، شمساً وقمرًا ونجومًا ، ورعدًا وبرقًا ومطرًا ، أو قوة وراء كل هذا ، قادرة على الاحتجاب والظهور ، ولعل الليل الموحش الملى بالأرواح والأشباح ، والمطلّ (أحيانًا) بوجه القمر ، وبعيون النجوم - أخطر المظاهر لهذا الإله الأكبر الذى يتخذ هذا الرداء الأسود ، وهو يجوس الديار ، يقطف الأرواح قبل الأوان ، وينشر الأوجاع والآلام والشور ، ويفرض الخوف على الناس ، (هذا النظام الأخلاقى ، وهذا الترتيب القدسى ، الذى يشمل بين طياته الناس والجماد ، ويحدد العلاقات الحقيقية بين الأطفال والآباء ، والزوجات والأزواج ، وبين الأتباع والسادة ، والسادة والإمبراطور ، والإمبراطور والإله) .

(ومن هاتين البدايتين نشأ العنصران اللذان يتألف منهما الدين الصينى القومى ، وهما عبادة الأسلاف المنتشرة بين جميع طبقات الأمة ، وعبادة السماء ، وعظماء الرجال التى تدعو إليها الكونفوشية) .

(وكان الصينيون يُقربون فى كل يوم قربانًا متواضعًا للموتى ، ويكون فى العادة شيئًا من الطعام ، ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم ، ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يعيشون بعد موتهم فى مملكة غير محددة ، أو واضحة له ، وأن فى مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه) .

(وما من شك فى أن هذا الدين كان يسبب للصينيين بعض المتاعب والمضايقات ، من ذلك أنه ملأ البلاد بما لا يحصى من القبور الضخمة التى لا يمكن انتهاك حرمتها ، فعاقبت هذه القبور إنشاء الطرق الحديدية ، وفتح الأرض الزراعية) .

(إن هذا النظام المتغلغل فى كيان الأمة الصينية قد أفاض عليها وحدة روحية زمانية ، رغم ما فيها من عوامل التفرق والانفصال التى تحول دون وحدتها المكانية ، وأهمها المسافات الشاسعة ، وضعف وسائل المواصلات ، وبفضل هذه الوحدة ارتبطت الأجيال بعضها ببعض برباط قوى من وحدة التقاليد) .

(وقد خلا هذا الدين الرسمى من كل إشارة للخلود ، فلم تكن السماء مكاناً ، بل كانت إرادة الله ، أو نظام العالم) .

(وكان الصينيون - كغيرهم - يجمعون الحقائق الواقعية العادية بخوارق الطبيعة الشعرية ، وكانوا يحسون بأن آلافاً من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم فى الهواء المحيط بهم ، وفى الأرض التى تحت أقدامهم ، وكانوا يحرصون على أن يردوا عداوة هذه القوى الخفية ، أو يستعينون عليها بالأدعية وبالرقى السحرية ، وكانوا يسأجرون المتنبيين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم ، من سطور أصداف السلاحف ، أو حركات النجوم) .

* ويقول ول ديورانت : (المصدر السابق ص ٢٦٣) : (أكبر ما يهتم به الصينى أن يعيش بخير فى هذه الحياة الدنيا ، وإذا صلى فإنه لا يطلب فى صلاته أن ينال نعيم الجنة ، بل يطلب الخير لنفسه فى هذا العالم الأرضى ، وإذا لم يستجب إلهه لدعائه فقد يطلق فيه لسانه بالسباب ، ثم يقذفه آخر الأمر فى النهر) .

وهذا قول متجاوز ، وبخاصة فى إطلاقه ، فليس ثمة شعب دنيوى وآخر أخروى ، إنما هى ظروف المعاناة القاسية التى تطلب اليوم قبل الغد ، و (عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة) . . . وليس الشعب الصينى بدعاً فى هذا ، فشعوب العالم كلها عرضة لأن تصنع الآلهة من التمر ، فإذا جاعت أكلتها .

والمثل الصينى الذى يقول : (ليس من صانعى التماثيل والصور من يعبد الآلهة ، فهم يعرفون من أى مادة تصنع) - يبين واقعية هؤلاء القوم وبعد نظرهم ، فهم لا يعبدون آلهة مصنوعة ، وحتى يعرفوا الإله الخالق القادر الذى بيده ملكوت كل شئ ، فإنهم - دون شك - سيؤمنون بتعاليمه ، ويحرصون على تنفيذ أوامره ونواهيه .

* نعم ، إن أهل الصين لا يدينون لرسل وأنبياء ، بل يكتفون بالمربين والحكماء ، ذلك لأنهم أقاموا على أرض الواقع ، يعالجون همومهم بامكانياتهم المحدودة ، ومن ثم كان الاهتمام بالإنسان . . علاقته بالإنسان ، وعلاقته بالكون المادى ، مع اهتمام قليل بالأصول الكونية . . إنهم لا ينكرون وجود الله ، ولا الملائكة ، ولا الأرواح الشريرة والخيرة ، لكنهم فى شغل عن هذا كله بالحياة ، بمقاومة الآفات الإنسانية والطبيعية ، ولعل من هذا القول (ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع) ، أو لعل هذا من قبيل أن الدين تنظيم للسلوك الاجتماعى ، فما كانت الشرائع إلا فى خدمة البشرية ، ومن ثم تتطور وتتجدد بتطور الحياة البشرية وتجددها . . قد نعدهم فى الكافرين ، لكنهم أقرب إلى (الصحة النفسية) من أولئك (الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) أولئك الذين (اشتروا الضلالة بالهدى) ، فخسروا الدنيا والآخرة . . وإذا كان هؤلاء الذين وقفوا عند حدود الواقع قد خسروا ما وراءه ، فإن من يخسر ما يجهله لا يكاد يشعر بما خسره ، على حين تكون فداحة خسران ما يتعلق المرء به ، ويكون على يقين من أنه نهاية الطريق .

* ومن الخصائص المميزة للفكر الصينى التأكيد على التكامل . لا التناقض ، وهذا يمثل جانباً آخر من (الصحة النفسية) . . ومن البداية فإن اختلاف الآراء والمبادئ لا يمثل تناقضاً ، بل تنوعاً ، قوامه أساس مشترك ، ومن هنا كانت الدعوة إلى (ترك مائة زهرة تتفتح) ، لأن تنوع الأزهار يساعد على تأصيل اللوحة الفنية ، وتوسيع دائرة الجمال ، وتضمين أكبر مساحة بالعُطور . . بالإضافة إلى تربية الذوق ، وتهذيب الحس ، وإثراء الفكر ، وإشاعة الرضا ، والتوق إلى الكمال .

قالوا : إن الأساطير غير الصينية تتميز بالعنف ، والمرح العاصف ، وراقصات الموت ، والاهتمام بالجنس ، على حين تكاد تخلو الأساطير الصينية من هذا كله ، وتميل إلى الاعتدال - أساطير العالم القديم ص ٣٦٢ .

إن الاعتدال لا يمثل ضعفاً ، ولهذا جاء المثل الذى يقول (يعطى الله القوة لمن يصونها) ، وساقوا فى هذا المساق الجمل والفيل والحمار ، على حين تتمثل الشراسة فى فصيلتى القطط والكلاب ، وفى الحشرات السامة ، وفى المصابين بالبواسير والأمعاء الغليظة ، وفى المدمنين .

ومن هذا الاعتدال كان الاهتمام بالجانب التعليمى والخلقى فى الآداب الصينية ، وكان حرص كتاب الصين على تدوين التاريخ ، متحرين تسجيل حقائق الحياة المجردة ، وفق ما اعتقدوا .

وقد كثرت السجلات التاريخية التى خلفها لنا مؤرخو الصين القدماء ، وإن كانت هذه السجلات القديمة لاتخضع ، أو لا تثبت أمام النقد التاريخى ، فيما قبل عام ٧٧٦ ق.م ، أى فيما قبل عهد الإقطاع ، فى عهد أسرة تشو .

ومعروف أن أشهر حكام الصين يتمثلون فى أسرة شانج (١٧٦٦ - ١٠٢٧ ق.م) ، وأسرة تشو (١٠٢٧ - ٢٢١ ق.م) ، وأسرة هان (٢٠٦ ق.م - ٢٢٠ م) .

وخلال هذا التاريخ الطويل (لم يعرف علماء الصين - فى تفسير الروايات الأسطورية - غير طريقة التفسير التاريخى للأسطورة ، وذلك بحجة استخراج اللب التاريخى من مثل تلك الروايات ، فهم يحذفون عناصر الروعة التى تبدو لهم بعيدة الاحتمال ، ولا يحتفظون بغير بقية لا لون لها ، حيث يتحول الآلهة والأبطال إلى أباطرة حكماء ، ووزراء حكماء ، والوحوش إلى متمردين أمراء ، أو شريين وزراء) - أساطير العالم القديم ص ٣٢٢ .

وهذا لا يرجع إلى قصور فى الخيال ، أو إلى عدم استبطان الرموز ، إنما هى طبيعة الاعتدال ، أو الارتباط بالواقع المعيش ، وقد يكون ثمة وعى سياسى من المتسلطين بمحاصرة المارد النائم خشية أن يصحو .

سأل أحد المريدين : أكان حقاً للسيد الأصفر القديم أربعة وجوه ؟

فأجاب كونفوشيوس : ليس بحق أبداً ، وإنما المراد أن السيد الأصفر قد كان يستخدم أربعة من الموظفين لحكم الأرباع الأربعة من إمبراطوريته ، وبذلك كان ذا أربعة أوجه ، بمعنى أن الجوانب الأربعة من إمبراطوريته قد كان يديرها هؤلاء الموظفون بالنيابة عنه .

وجاء في (أساطير العالم القديم ص ٣٣٧) أن عام ٢٢١ ق . م كان الخطّ العظيم الفاصل في تاريخ الصين القديم ، وذلك لأنه الوحدة النهائية للصين الإقطاعية في إمبراطورية مركزية . . فقد كانت البلاد - قبل ذلك العام - مقسمة إلى دويلات مستقلة يحارب بعضها بعضاً ، ويحكم كلا منها بيت وراثي ، ينقسم بدوره إلى أملاك صغيرة ، تقبض أزمّتها أسر نبيلة ، ويقال إن عدد هذه الولايات وصل في بعض الأحيان إلى خمس وخمسين .

كان أغلب ما قبل العصر الإمبراطوري هذا - من الوجهة السياسية - تحت أسرة تشو ، وشهدت البلاد - بعد ٢٢١ ق . م ، لبضعة قرون - شكلاً جديداً لإمبراطورية مركزية ، حيث قامت سلطة غير وراثية ، من الموظفين المعيّنين من قبل السلطة المركزية ، فكان أهل الترف واليسار ، من أصحاب الأرض ، على عهد تشو ، وظل غطت الإمبراطورية المؤسسة يومئذ هو الطابع المألوف ، حتى بداية القرن الحالى ، وإن كان الطابع التقليدى من التاريخ الصينى قد أوفى على نهايته بانحلال أسرة هان سنة ٢٢٠ م ، لكن البلاد أخذت طريقها ، بحكم القصور الذاتى ، وبانشغالها بالغزو المغولى ، ثم بالأطماع الاستعمارية ، أوربية وأمريكية ويابانية .

* وخلال العهود الطويلة - سواء أكان الحكم مركزياً أو غير مركزى ، وطنياً أو غير وطنى - عانت الجماهير الصينية معاناة قاسية لدرجة السقوط تحت سيطرة العصابات المسلحة التى كانت تشارك فى مسيرة الحكم أحياناً ، بطريق مباشر ، أو بالتأثير على سياسة الحاكمين .

ولأن الشعب كان يُلجِم إيمانه بهذا الواقع ، فقد سهل عليه أن يتقبله ، أو أن يجد ما يبرر قبوله .

وقد استطاع هذا (الزحام) الجماهيرى أن يؤلف معتقداً هو مزيج من الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية ، التى لا حيلة له فيها أو معها إلا الرضا بقضائها ، والصبر على نازلتها ، ومحاولة تخفيف ويلاتها .

وليس عجباً أن تمتزج الظواهر الإنسانية بالظواهر الطبيعية فى معتقد ، ذلك لأن الظواهر الإنسانية من نواتج الظواهر الطبيعية ، حتى تشاكلتا وتبادلتا الأسماء ، هذا بالإضافة إلى أن المعاناة الكبرى كانت من (العصابات المسلحة) التى كانت تجوب المزارع والمقاطعات ، وتفرض الإتاوات ، وتهلك الحرث والنسل وهذه العصابات تكونت من المطحونين والموتورين والأقنان الذين تحملوا من قسوة الإنسان والطبيعة معاً مائباً بهم إلى التمرد والانتقام ، وأكثر ما يكون هذا الانتقام من أولئك الذين على مثالهم من المطحونين والموتورين والأقنان !!

من هنا نشأت الأسطورة التى لم تكد تتجاوز هذا الواقع المهيمن .

قالوا فى خلق العالم : كانت السماء والأرض يوماً ممتزجتين امتزاجاً لا انفصام له ، كبيضة الفرخ ، حيث أنجب داخلها (با ان كو) - القدم المتراكم - وبعد ١٨ ألف سنة انفطقت هذه الكتلة البدائية ، فأما ما كان براقاً لطيفاً فقد شكل السماء ، وأما ما كان مظلماً كثيفاً فقد شكل الأرض .

وفى ١٨ ألف سنة أخرى طفقت السماء تزداد كل يوم عشرة أقدام فى الارتفاع ، والأرض تزداد كل يوم عشرة أقدام فى الكثافة ، ويزداد (با ان كو) بينهما كل يوم عشرة أقدام فى الحجم .

وبعد أن مات (با ان كو) تحولت أنفاسه ، فصارت الرياح والسحب ، وصوته الرعد ، وعينه الشمس والقمر ، وأطرافه أقسام الأرض المختلفة ، ودمه الأنهار ، وعضلاته وعروقه طبقات الأرض ، ولحمه التراب ، وشعر رأسه ولحيته الأفلاك ، وجلده وشعر جسده النبات والشجر ، وعظمه المعادن والأحجار ، ونخاعه الذهب والأحجار الكريمة ، وعرقه المطر ، أما الطفيليات على جسده فقد صارت الناس بعد أن لفحتها الرياح - أساطير العالم القديم ص ٣٤١ .

ربما لا تكون هناك أسطورة أخرى تفسر خلق العالم ، وربما كانت هناك أساطير لا تبعد عن هذا التفسير ، وهو دليل على انصراف القوم عن (الميتافيزيقا) ، أو عن زهدهم فيها ، لأنها لا تصنع لهم حلاً ولا تسعى إلى تغيير ما هم عليه منذ آلاف السنين . . وحسبهم - منذ وعوا - أنهم مجرد (طفيليات تلفحها الريح) ، وتتقاذفها أقدار (طبيعية) ، وأقدار إنسانية .

* يبدأ التاريخ المسجل للصين بأسره شانج Shang (١٧٦٦ - ١٠٢٧ ق.م) ، وكانت سجلاتها تتألف من مجموعة من العظام نقش عليها نبوءات ، وتم اكتشافها قرب نهاية القرن التاسع عشر للميلاد ، حيث أصبحت منذ ذلك الحين المصدر الرئيسي لتاريخ أسرة شانج .

كانت هذه العظام إجابات عن أسئلة قدمت إلى العرافين ، وقد تم إنقاذ مئات الآلاف من شذراتها . . كانت الأسئلة تُحفر على عظام الحيوانات والقواقع والأصداف ، وتوجه إلى الأرواح طلباً للهداية والإرشاد ، وبعد أن يحفر السؤال ، يقوم العراف بتسليط النار على ثقب يحدثها العظم ، ثم يؤول ما ينتج عن الحرارة من تصدعات ، بأن الأرواح تجيب ببشائر خير أو نذر شؤم .

أما القوى التي يستشironها في عملية التنبؤ بالغيب ، فهي أرواح الموتى من الملوك ، وكذلك أرواح الأسلاف .

ومن الأسئلة التي تطرح حول آداب تقديم القرابين ، وتأدية الطقوس ، نعرف أن آلهة التلال والأنهار وغيرها من آلهة الطبيعة والأرواح الحارسة كانت تعبد إلى جانب أرواح الموتى ، ولم يكن الموتى وحدهم هم الذين يسألون عن الهداية والإرشاد في مسائل السلوك ، بل كان يتوسل إلى قوتهم الداخلية (Mana) ، حتى تكفل خصوبة الرجال والنساء والمحاصيل والحيوانات - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢٧٠ / ٢٧١ .

وهذا لا يفسر معتقداً بقدر ما يفسر عمق (الخوف) الذي يحضر في قلوبهم ، ويقدر ما يفسر مدى الحيرة التي عشت في أفقهم ، ذلك أن ملوك الصين الأوائل أخذوا على الشعب كل طريق ، كانوا ملوكاً وكهنة في آن واحد ، وتعتمد سيادة الملك على أن السماء هي التي قلده مهام منصبه ، وعندما ثار (ون Wen)

على أسرة شانج تولى ابنه (وو Wu) الملك (١٠٢٧ - ١٠٢٥ ق.م ، وأسس أسرة Chou ١٠٢٧ - ٢٢١ ق.م) ، التى حكمت بمشيئة السماء ، فالسماء هى التى أزاحت أسرة شانج ، وكلفت أسرة تشو بتولى الحكم . . وهذه الدعوى سبقتها إشاعات ضد آخر ملوك شانج أنه كان وعداً ظالماً ، يتهمكم على الآلهة ، ويغش فى تقديم القرابين ، مع أنه كان حريصاً على أداء الطقوس الدينية ، ولم يكن ضالاً متلاعاً .

لكنها حجة الذئب الذى تهيأ لابتلاع الحمل .

فلما سيطرت القبيلة البدائية ، أمسكت بمقادة كل شئ ، وكانت الوظائف الكهنونية للملوك تعتمد على تقديم القرابين للموتى (من أبناء الأسرة الحاكمة) ، كما تعتمد على تقديم تقرير لله عن مسار الأحداث الدنيوية ، والانخراط فى طقوس إيمائية ، مثل : حرث الأرض ، وبذر البذور ، أو غزل شرائق الحرير من شجرة التوت ، لكى تبدأ من جديد دورة الحياة وتجدد السنة .

ويساعد الملك - فى تأدية واجباته على النحو الذى يرضى الإله - مجموعة الكهنة والمرتلين ، فهم (الخبراء) فى أشكال الطقوس ، والقادرون على المراقبة الفلكية ، لاختيار الوقت المناسب لقبول القرابين ، وفى الوقت نفسه كانوا القوامين على (صناعة) التقويم .

وكذلك كان يفعل أمراء الإقطاع ، إذ كانت لهم سيادة محلية بتفويض من الملك ، وكانوا بدورهم يفوضون الإقطاعيين التابعين لهم بالقيام بواجبات معينة .

وهكذا ، كان الهرم الإقطاعى كله لأسرة تشو (الأكثر بدائية) يقوم من القمة إلى القاع على إرادة السماء .

وصف قائد مظفر - فى نقوش على آنية مقدسة - المراسم النموذجية التى شارك فيها ، وكانت فى جانب منها عبادة ، وفى الجانب الآخر حفلاً ملكياً . . قال :

فى اليوم الأول ، وقبل الشروق ، يقوم الكهنة الكبار بتجهيز الملك فى

قصره ، ثم يتقدم الملك إلى معبد الأسلاف ، وقد وقف أمراء الإقطاع العائدون من حملات عسكرية أمام البوابة الجنوبية ، ثم يدعون إلى الفناء الكبير ، حيث يعرضون أسراهم . . عندئذ يُضْحَى بالأسرى كقرايين فى معبد الأسلاف ، ويتقدم المشاركون نحو الفناء الرئيسى ، حيث يُلقَى تقرير عن الحملة . . ثم يسير الملك من الفناء الرئيسى إلى المعبد ، لتقديم القرابين للأسلاف الملكيين .

وفى اليوم الثانى تُوكَّم للرعايا المجتمعين وليمة من اللحوم والخمر التى سبق تقديمها مكافأة لهم من الملك .

ومن الترانيم التى كانت تتلى فى هذه المناسبات الدينية :

(بهدوء جليل ، وانسجام مهيب / يسجل الوزراء والفرسان الحاضرون / فضائل سيدهم المنشئ / المتكفل بنا من قبل السماء / الملك العظيم ون Wen / آه يامولاي ، لعلك تجد وأنت فى جلالك العظيم / فى العمل المتزن ، والكلمة المهذبة / مديحاً لا يغضبك من بشرفانين / جليل ولا حد لجلاله / هو تكليف السماء / فضيلتك أيها الملك الشهير « ون » / تهبط ليغمر بالبركة / خدماً على الأرض / ليس علينا إلا أن نتلقى عطفك وإحسانك / فليحفظها من يأتون بعدنا / إننا نأتى - بتواضع - بما لدينا من قرابين / حتى نصون عطف الملك ، ونحافظ على طريقنا المستقيم) - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢٧٣ / ٢٧٥ .

الترنيمة لم تَصْنَع من الملك إلهاً ، ولا من الإله ملكاً ، إنما هى تتحدث عن الملك (ون) ، بصفات البشرية ، وهو بين رجاله ، ولا يزيد ذكر (السماء) عن كونه (لمسة) كهنونية لإضفاء قدر من التميز والتفرد على الملك ، حتى يحتفظوا لأنفسهم بدور التطفل والنفاق فى معية الملك .

ولعل عبادة الأسلاف ما جاءت إلا من هذا الطريق ، شأن الذين يهتمون اليوم بتدوين (شجرة الأسرة) ليجدوا شيئاً يتباهون به . . أما من ناحية الملك فهو يريد أن يصنع لأسرته تاريخاً يغرسه فى قلوب الناس ، ويغرسه فى عيونهم ببعض الشواهد والأنصاب ، وبالطقوس والمراسم والقرابين ، والناس على دين

ملوكهم ، يحاولون أن يصنعوا بأسلافهم شيئاً على شاكلة ما صنع الملوك والأمرء والإقطاعيون .

ولعل افتقاد الأمن والمعاناة الاقتصادية كانا من دواعي ترابط الأسرة وتمجيد الماضي ، ذلك لأن عشق الماضي يروج مع عدم الاطمئنان إلى الحاضر والمستقبل . . ومن هنا كان الاهتمام الشعبى بشجرة نسب العشيرة ، وشجرة الأسرة ، (وغالباً يعود أصل تاريخها إلى عشرات الأجيال) .

(يرى عالم الاجتماع سون بين وين أن خصائص العشيرة الصينية تظهر فى) :

١- النظام الأبوى ، وسلطة الأسرة ، والتركيز على رب الأسرة ، ويجب على الأبناء الطاعة العمياء لرب الأسرة ، واحترامه .

٢- توارث النظام الأبوى ، واحترام الرجال ، وعدم المساواة بين الرجل والمرأة .

٣- تطبيق نظام إعلاء شأن الزوجة الأولى ، وعدم المساواة بين الأشقاء ، وقصر الإرث على الابن الأكبر للزوجة الأولى .

٤- الاهتمام بالعلاقة التى تربط بين أقارب العشيرة .

٥- بر الوالدين ، وحب الإخوة ، وعبادة الأجداد) .

وأكثر الأدبيات الصينية تؤكد هذه القيم ، باعتبارها وسيلة (الأمان النفسى) وترابط الكيان الصينى ، ويتمثل هذا فى حرص دونج تشونج شو (١٧٩ - ١٠٤ ق . م) على إبراز أهمية الأركان الثلاثة : (سلطة الملك على الرعية ، وسلطة الأب على الابن ، وسلطة الزوج على الزوجة) ، وعلى إبراز المكارم الأزلية الخمس : (البر ، الاستقامة ، الأب ، الحكمة ، الإخلاص) كمعيار للأخلاق - الصينيون المعاصرون ج ١ ص ٩٢ / ١٢٤ .

وقد يذهب الظن بأن هذه الأبيات إملاءات (فوقية) لصالح التسلط الحاكم ، لكنها فى الوقت نفسه لاتبعد عن أن تكون من واقع (الافتقار) الشعبى .
* وسرعان ما أصبحت أرواح الأسلاف (بعامه) تؤدي دوراً فى حياة

(الأشباح) ، وحتى يكون هذا الدور أكثر فاعلية فقد تمثلت الأرواح بعناصر الطبيعة ، واقتضى هذا - مع مرور الزمن - قدرًا من التصديق والاقتناع ، واستوجب قرايين من الأغذية والأشربة والأكسية ، والطيوب ، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التي تحتاج إلى كل ما كانت تحتاج إليه في عالم الأجساد .

يروى الأستاذ العقاد أن تسمية عاهل الصين باسم (ابن السماء) كانت من وحى كاهن ياباني أراد أن يزدلف إليه ، فعلمه مراسم تأليه الميكاد في بلاده ، فنقلها العاهل إلى بلاط الصين - الله ص ٧٣ .

وهذا (وهم) لا مبرر له ، لأنه من إفرازات البيئة (المتجاوزة) ، وإلى يومنا هذا - في نهاية القرن العشرين - نجد من يصف الحاكم في (الدول النامية) بما يخرج عن نطاق البشر ، ولقد دون التاريخ العربي (الإسلامي) من قال في الحاكم (الفاطمي) : (ما شئت لا ماشاءت الأقدار .. فاحكم فأنت الواحد القهار) ولم يجد الحاكم الفاطمي غضاضة ، بل انتشى ، وأغدق على الشاعر من أموال (الرعية) !!

إنه إذن (مرض) أخلاقي لا يحتاج إلى استيراد ، وبخاصة أن أسرة (تشو) تركت لزعماء القبائل والإقطاعيين والقادة العسكريين حقَّ العبث بحقوق العامة والأقنان ، مما زاد في أطماعهم ، فانقلب بعضهم على بعض ، وخرج العامة والأقنان يعملون لحساب هذا أو ذاك ، ثم يعملون لحسابهم الخاص ، مشكِّلين عصابات تخرب وتنهب وتسفك الدماء .

وبحلول عام ٧٧٠ ق.م كانت الأمور قد تردت إلى حد تمكن معه تحالف من الإقطاعيين من مهاجمة عاصمة التشو ، وقتل الملك ، واغتصاب سلطته .

وشكل العنف والتآمر الطابع السائد في الساحة السياسية ، وتغلَّبت المنفعة على (الأخلاق السوية) ، وشكل الغش والخداع أسلوب الحكم السياسي ، وسيطر الفقر والخوف والشعور بالضياع .

وفي مثل هذا الإطار يصبح النفاق (سيد القرار) ، وعنه تتوالد كل عناصر

الشرور ، وتنشأ أفكار بلا جذور ، وتتعاظم رؤى و (أيديو لوجيات) بأقدام خشبية كما يقول جلال الدين الرومى .

* ويلاحظ أن القوانين تكثر مع كثرة الفساد ، وبخاصة (فساد القمة) .

وكان السياسى العبرى الذى وضع لولاية (تشى) نظامها هو (جوان جونج) مستشار الدوق (هوان) .

وبين نبلاء الإقطاع نشأت شيئا فشيئا تقاليد من الأخلاق والاحتفالات ومراسم التكريم بلغت من الدقة حدا يكفى لأن تحمل محل الدين عند الطبقات العليا فى المجتمع ، ثم وضعت أسس التشريع .

وأصدرت دوقيتا (چنچ) و (تشين) - بين عامى ٥٣٥ / ٥١٢ ق.م - كتباً فى القانون ملأت قلوب الفلاحين رعباً ، وتنبئوا بما سيحل بهم من عقاب سماوى شديد على هذه الجريمة الشنيعة ، إذ كانت قائمة على محاباة طبقية .

واستمر تنظيم الولايات يجرى فى مجراه ، وجمعت قواعد هذا التنظيم فى (دستورچو) ، وهو مجموعة من الشرائع تعزوها الروايات إلى (چو چونج) عم دوق (چو) الثانى وكبير وزرائه . . يقول ول ديورانت : (وهو بالطبع قول لا يقبله عقل ، لأن هذه الشرائع لا يمكن أن تكون من وضع رجل واحد) - قصة الحضارة مج ١ ج ٤ ص ٢١ .

ولعل (چو) هذا هو شانج يانج ، الذى يدعى كوئنج سون يانج (ت سنة ٣٣٨ ق.م) - ويعدده صاحب (الفكر الصينى من كونفوشيوس إلى ماوتسى تونج ص ٢١٠ / ٢١١) أعظم المشرعين الأوائل ، ويضيف : جاء فى (السجلات التاريخية) التى دونت فى عهد أسرة هان : (كان قانونه ينادى بأن يرتب الناس إلى مجموعات من الأسر التى يجب أن تكون مسئولة بالتبادل عن السلوك الطيب إزاء البعض ، وتشارك بعضها البعض فى العقوبات ، وكل فرد لا يبلغ عن مجرم يجب أن يشطر شطرين عند الوسط ، وأى فرد يبلغ عن مجرم يتلقى نفس المكافأة التى يتلقاها الشخص الذى يقطع رقبة جندي من الأعداء ، وكل من يأوى مجرماً يتلقى عقوبة من يستسلم للعدو ، والأسرة التى بها فردان بالغان يجب أن تقسم أو تدفع ضرائب مزدوجة ، والبسالة العسكرية تكافأ بالقباب النبالة طبقاً

لجدول ثابت ، ومن يتقاتلون لحزازات شخصية يعاقبون طبقاً لجسامة اعتداءاتهم ، ويجب أن يجبر الكل على العمل فى الفلاحة والنسيج ، والكسالى والمعذبون يصبحون عبيداً ، وأفراد الأسرة الحاكمة يجب ألا يعتبروا متممين إليها إلا بقدر مواهبهم العسكرية ، ومن لا يملك موهبة لا يمنح امتيازاً ، ولو كان غنياً) .

يقول ول ديورانت : وقد ظل تشريع چو (أوكونج) مدى ألفى عام يمثل فكرة الصينيين عن النظام الحكومى ، وقوامه إمبراطور يحكم نيابة عن الخالق ، وأنه (ابن السماء) ، يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح ، وإلى جانب الإمبراطور أعيان ، بعضهم بحكم مولدهم ، وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم - يصرفون أعمال الدولة ، وشعب يرى أن واجبه فلاح الأرض ، يعيش فى أسرة أبوية ، ويتمتع بالحقوق المدنية ، ولكن لا رأى له فى تصريف الشؤون العامة ، ومجلس من ستة وزراء ، كل واحد منهم على ناحية من النواحي الآتية ، وهى : حياة الإمبراطور وأعوانه ، ورفاهية الشعب ، وزواج أفراده المبكر ، والمراسيم والتنبؤات الدينية ، والاستعداد للحرب والسير فيها ، وتوزيع العدالة بين السكان ، وتنظيم الأشغال اليدوية .

ويقول ديورانت : (يكاد هذا القانون يكون قانوناً مثالياً ، وأكبر الظن أنه نبت فى عقل فيلسوف أفلاطونى مجهول ، لم يحتمل أعباء الحكم) - قصة الحضارة مج ١ ج ٤ ص ٢٢ .

* قامت حكومة تشن Ch'in ، وتوحدت الصين لمدة خمسمائة عام ، وقد استلهم حكام تشن مذهب التطبيق الحرفى للقانون ، فى فرض نوع من الحكم الشمولى ، فوحدوا دول المدينة فى دولة واحدة تمثل الأمة . . ونجح أول إمبراطور من أسرة تشن فى إخضاع الأمراء والشعوب السابقة لدول المدينة ، وجعلهم رعاياه هو وحده ، بل سعى لكى يثبت لهم أن سيادته المطلقة تمتد إلى المذابح فى المعابد ، وإلى الآلهة التى يعبدونها . . ولقد قام بسلسلة رحلات طاف فيها حول الإمبراطورية صاعداً جبالها المقدسة ، زائراً هياكلها ، مقدماً القرابين المناسبة للآلهة المحلية .

ولما تقدم الإمبراطور الأول في العمر سعى لصداقة الشامانيين^(١) من مختلف أجزاء الإمبراطورية ، باحثاً عندهم عن عشب الخلود ، على أمل إطالة عمره .

ومات الإمبراطور مصاباً بجنون العظمة ، وبألوان أخرى من الجنون .

وجاءت أسرة هان (٢٠٢ ق.م - ٢٢٠ م) فو رثت البيئة والمؤسسات التي أقامت أسرة تشن ، لكنها نبذت قوانين أسرة تشن القاسية ، كما نبذت التطبيق الحرفي للقانون وما فيه من إجحاف وتسلط .

كانت أسرة هان تبشر باقتراب فترة غنية من منجزاتها العقلية والثقافية ، ولا يزال الصينيون حتى اليوم يحبون أن يطلقوا على أنفسهم (رجال أسرة هان) .

وخلال هذه الفترة أصبحت الكونفوشية هي العقيدة الرسمية ، كما أصبحت التاوية ديانة شعبية ، وقرب نهاية أسرة هان ظهرت البوذية في الصين لأول مرة .

واشتهر من أسرة هان الإمبراطور وو Wu الذي حكم من سنة ١٤٠ إلى ٨٧ ق.م ، وقد تعلم على يد الكونفوشيين ، واقترح أن تكون الكونفوشية هي الفلسفة الوحيدة للحكومة ، وعين موظفين رسميين في البلاد ، من أجل دراسة الآداب الكلاسيكية الكونفوشية وتفسيرها ، بل أنشأ جامعة إمبراطورية لتدريس الكونفوشية ، وكان اختيار ضباط الدولة من خريجها .

(١) Shaman من يشتغل بالطب والكهانة والسحر عند الشعوب البدائية .

الحكيم ..

لا ريب فى أن ما تمتع به فلاسفة الصين - من قبل كونفوشيوس ، ومن بعده - لم يكن مقصوداً على ما جبل عليه الشعب الصينى من حكمة وصبر ورضاً بالمصير ، فما كانت الأرض الصينية لتشع إشعاعات تغير من التكوين البيولوجى والنفسى لشعب هو أكثر العالم عدداً ، ولعله أكثر تنوعاً مناخياً ، مما يفيد إمكانية التنوع الفكرى ، والاختلاف المذهبى ، وإذا كان ثمة توافق بين الفلاسفة ، أو كانت خطوط الاتصال أقوى من خطوط الانفصال أو الاختلاف - فما ذلك إلا بسبب من (خطيئة) الانتخاب التاريخى التى وقفت عند بعض (الرموز) دون أخرى .

كان (لو - دزه) أعظم فلاسفة الصين قبل كونفوشيوس ، أكثر حكمة من (تنج شى) ، فقد كان يعرف حكمة الصمت .

يقول ول ديورانت : (وما من شك فى أنه عمر طويلاً ، وإن لم تكن واثقين من أنه عاش حقاً ، لكن الروايات والأقاصيص التى لاتخفى عليها خافية تقول : إنه عاش سبعة وثمانين عاماً ، ولم يبق لنا منه إلا اسمه وكتابه وقد لا يكون هذا أو ذاك له) - قصة الحضارة مج ١ ج ٤ ص ٣٠ .

هذا التشكيك الذكى الظريف يرجع إلى ما عرف ديورانت من طبيعة التأريخ ، قبل التدوين أو بعده ، ومن طبيعة الانتخاب المعنوى ، فى لون من التكامل البطولى ، متمثلاً فى (شخص) أوتى (حظاً) وقيراً .

وقد نسب إلى (لو - دزه) أنه قال : شر أنواع الحكومات التى يمكن تصورها

حكومة فلاسفة ، ذلك أنهم يقحمون النظريات فى كل نظام طبيعى ، وأكبر دليل على عجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب ، والإكثار من الآراء ، (ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته يُنكَل بها ، ويفسد شئونها ، أما الذى لا يفعل هذا فهو نعمة وبركة) .

ولمّا كان صاحب الفكر خطراً على الدولة لأنه لا يفكر إلا فى الأنظمة والقوانين ، فهو يرغب فى إقامة مجتمع على قواعد هندسية ، ولا يدرك أن أنظمتها إنما تقضى على ما يتمتع به المجتمع من حرية وحيوية ، وما فى أجزائه من نشاط وقوة ، أما الرجل البسيط الذى يعرف من تجاربه ما فى العمل الذى يتصوره ويقوم به بكامل حريته من لذة ، وما ينتجه من ثمرة ، فهو أقل من العالم خطراً على الأمة ، إذا تولى تدبير أمورها ، لأنه لا يحتاج إلى من يدلّه على أن القانون شديد الخطر عليها ، وأنه قد يضرها أكثر مما ينفعها .

وهذا قول أنضج بكثير من الأفكار المعاصرة ، ولعل هذا سر تشكيك ديورانت فى وجود صاحبه ، ذلك لأننا فى مصر المعاصرة جربنا حكم الساسة وحكم التكنوقراطيين ، فإذا الجامعيون المتخصصون أضرب بسير المؤسسات ، وأبعد من النجاح ، لم يتبينوا - وهم يصنعون (غابة) من القوانين والقرارات الإدارية - أنهم إنما يصنعون شباكاً تصطاد الأسماك الصغيرة ، دون غيرها ، وقد يكون لهم عذر فى أنهم (مأمورون) أكثر من كونهم (أمريّن) ، ويزعمون أن القيادة العسكرية تعودت أن تُملّى (وعليك أن تنفذ ثم تتظلم) ، وهذا التظلم كثيراً ما يصل بك إلى (السجن الحربى) أو إلى (قهوة النشاط) ، وقد يصل بك إلى (ما وراء الشمس) ، و (أنت وبختك) ، لأن كل شئ رهن (المزاج) الخاص ، أو رهن (تقارير) المخابرات !!

يقول (لو - دزه) : (لما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق) ، وعدد القضاة ، وعدد طرق التقاضى ، ولم يعد يسهل التمييز بين من هو خارج الأسوار ومن هو فى داخلها .

ومن الآراء الحكيمة النافذة البصيرة ، ما نسب إلى (لو - دزه) : (ليس فى العالم شئ ألين أو أضعف من الماء ، ولكن لا شئ أقوى من الماء فى مغالبة الأشياء الصلبة) .

وهذا ما نجحت فيه سياسة اليابان بعد الحرب العالمية الثانية ، حتى احتوت الدولة (المستعمرة) بقوة اقتصادها ، وهو ما فشلت فيه دول كثيرة تتخذ شعار (ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة) .

(إن كل ما فى الطبيعة من أشياء تعمل وهى صامته ، وهى توجد وليس فى حوزتها شئ ، تؤدى واجبها ، دون أن تكون لها مطالب ، وكل الأشياء على السواء تعمل عملها ، ثم تراها تسكن وتخدم ، وإذا ما ترعرت وإزدهرت عاد كل منها إلى أصله ، وعودة الأشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قُدر لها أن تؤديه ، وعودتها هذه قانون أزلى ، ومعرفة هذا القانون هى الحكمة) .

هذه الحكمة عبرت عنها شعوب بقولها (تمسكن حتى تتحكم) ، وهذا أيضاً هو ما فعلته اليابان ، حتى أنها رفضت - فى مرحلة من مراحل نموها - أن تنفق على دفاعاتها ، مكتفية بدفاعات محتلها ، مستثمرة كل طاقاتها فى مجال التكوين والتشييد والإنتاج ، حتى غزت العالم كله بهذا الإنتاج ، مزوداً بالحناءة وابتسامة رقيقة .

(إذا كانت هناك دولة مجاورة قريبة منا ، نراها بأعيننا ، وتصل إلى آذاننا منها نقنقة الدجاج ، ونباح الكلاب ، فإننى لن أجعل للناس - وإن طال عمرهم - صلة بها إلى يوم مماتهم) .

وهذا لا يعنى العزلة والانقطاع عن المؤثرات الخارجية ، بل الإقبال على العمل ، وعلى جودة الإنتاج ، فإذا وثقنا من قوة الدولة ، وسلامة البناء ، وصلابته ، فلا ضير من أن نخترق (حاجز الصوت) لنقارن بين ضجيج الدجاج وضجيج الآلات .

إن هذا الفيلسوف لم يذكر دولة الدجاج والكلاب عبثاً ، إنما يعنى طبيعة الدجاج والكلاب ، فالدجاجة حين تبيض تعلن عن نجاحها بكثرة النقنقة والقاقأة ، وإذا بقيت الدجاج الذى لم يبيض يندفع فى (تظاهرة) صاخبة تعلن عن العبثية ، واحتفالات النشامى والصناديد بالانتصارات فى (أم المارك) ، كذلك الشأن مع الكلاب ، وبخاصة حين يرخى الليل سدوله ، وتملاً الأشباح عيون

الكلاب ، فإذا الرعدة تهز الحبال الصوتية لكلب هزيل ، وإذا كل الكلاب - حتى
من يقيم بين الجدران والقضبان - يعلن عن وجوده بهذا النباح !!

المعلم ..

/يتكون اسم كونفوشيوس من لفظين : كونج Kung اسم القبيلة التي ينتمى إليها ، ثم فو تزي Fu-tze بمعنى الرئيس ، أو المعلم .

ذلك أن والده (شوليانج - هي) عاش مع زوجته الأولى زمناً طويلاً دون أن ينجب ، وكان إذ ذاك حاكماً على مدينة (تسيو) ، فلما بلغ السبعين تزوج ثانية ، وأنجب كونفوشيوس ، وتوفي وابنه في الثالثة ، والأسرة تعاني شظف العيش .

ولد سنة ٥٥١ ق.م في مدينة (تشو - فو) ، إحدى البلاد التي كانت تكون وقتئذ مملكة (لو Lu) ، التي تكون الآن ولاية شانج تونج .

وتصف الأقاصيص الصينية - كما قصت الأقاصيص الهندية عن بوذا - كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده ، وكيف كانت الهولات التي تحرسها ، والأرواح الإناث تعطر لها الهواء ، وهي تلده في أحد الكهوف .

وتقول تلك الأقاصيص إنه كان له ظهر تين ، وشفتا ثور ، وفم في سعة البحر ، وأنه ولد من أسرة هي أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة ، لأنه - كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون - من نسل الإمبراطور العظيم (هوانج - دي) .

نشأ الصغير في خدمة أحد الأمراء الذي كلفه رعى الأغنام ، فتفانى في الخدمة ، مما أدى إلى زيادة إنتاج الغنم ، ومن ثم رقى إلى منصب المشرف على الحداثق العامة بالولاية ، فتزوج وأنجب ولداً وبنتاً ، ثم اضطر لترك مسقط رأسه ، مودعاً زوجته وولديه ، إلى الولايات المجاورة ، لأنه شعر أن هذه الأعمال لا تناسب مواهبه . . ولما أعياه التجوال ، ولم يثمر ثمرته ، عاد إلى

حيث نشأ ، فأقام فى داره - وهو بعد فى الثانية والعشرين - مدرسة يعلم فيها أصول الفلسفة الأخلاقية والسياسة والتاريخ والشعر ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أدائه من رسوم .

جاء فى كتاب (المحاورات) : (انصرفت إلى طلب العلم ، وأنا فى الخامسة عشرة من سنى ، وفى الثلاثين التزمت جادة الفضيلة ، وفى الأربعين لم يكن فى نفسى أى ريب فى حقائق الأشياء ، وعلمت القضاء والقدر وأنا فى الخمسين ، وأصغت أذنى إلى الحق ، عارفاً فاهماً فى الستين ، ولم أتجاوز حدود السلوك القويم وأنا فى السبعين) .

وكان يقول : (السياسة فى الإصلاح ، فإن جعلت نفسك أسوة حسنة لرعيئك ، فمن الذى يجترئ على الفساد ؟) .

(إن أخلاق الرؤساء كالريح ، وأخلاق المرءوسين كالعشب ، وإلى أى جهة هبت الريح مال العشب) .

أحيا التعاليم الدينية القديمة ، ودون أصولها ، ولم يتعرض فى دراسته الخاصة لمناقشتها ، ولم يكن له مذهب يدعو إليه ، ويحث الناس على اعتناقه ، بل كل عنايته كانت تقوم على السلوك المستقيم ، والدعوة إليه .

لم يكن مدعياً رسالة ، ولم يكن رسولاً مبعوثاً ، بل كان حكيماً يشر بمذهب أخلاقى ، ويستمسك أشد الاستمسك به . . أما عقيدته فلم تتجاوز عقيدة الصينيين القدماء ، المتمثلة فى السماء ، والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء ، وأرواح الآباء .

كان الطريق الكونفوشى فى جوهره طريق (چين Jen) ، أو طيبة القلب وتعاطفه مع الآخرين ، وقد فسر كونفوشيوس الچين بأنه (حب البشر) ، وقال :

(يرغب كل إنسان فى الثروة والشرف ، ولكن إذا تم تحقيقهما عن طريق مخالف لمبادئ الأخلاق فإنه لا ينبغى الإبقاء عليهما . . ويكره كل إنسان الفقر وتواضع المرتبة ، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تجنبهما إلا بمخالفة المبادئ الأخلاقية فإنه لا ينبغى تجنبهما ، وإذا ما نأى أى شخص رفيع المكانة عن الإنسانية - چين -

فكيف يمكن أن يحقق تلك المكانة ؟ ذلك أن الإنسان الرفيع المكانة لا يمكنه قط التخلي عن الإنسانية - حين - حتى ولو من أجل وجبة طعام واحدة ، فهو في لحظات التعجل ، وهو مسرع ، يعمل وفقاً لها ، وهو في أوقات الشدة والاضطراب يعمل وفقاً لها) .

* أصبح كونفوشيوس - إلى جانب التدريس - مستشاراً لكثير من الولاة والأمراء والنبلاء في الشؤون السياسية ، ووجد الفرصة سانحة لتطبيق آرائه السياسية ، ثم شغل منصب وزير للأشغال العامة ، بعد أن اشتغل قاضياً في بعض الولايات . . . وذاع نبأ سياسته وحكمته في إدارة الشؤون القضائية والسياسية فعينه حاكم ولاية (لو) سنة ٤٩٦ ق.م . رئيساً لوزرائه ، فأصبحت ولاية (لو) من أقوى الولايات وأغناها ، وأكثرها استقراراً وأمناً ، مما أدى إلى حقد حكام الولايات الأخرى ، فاتفق بعض الحكام على إرسال وفد نسائي يقوم بالرقص أمام حاكم (لو) ووزرائه ، ونجحت الخطة في إفساد رجال الحكم في الولاية ، فاضطر كونفوشيوس إلى الاستقالة .

ثم أخذ في التجوال بين الولايات الصينية ، يتصل بالولاة ، ويقدم النصائح ، ويدرس لتلاميذه ، ويناظر العلماء والأدباء . . . وامتدت فترة التجوال هذه بين حوالي ٤٩٣ ق.م إلى وفاته سنة ٤٧٩ ق.م ، بعد أن عاش ٧٢ عاماً .

وأصبح اللامعون من تلاميذه الذين بلغوا ثلاثة آلاف من قادة الفكر والسياسة ، واتصل بعضهم حوالي سنة ٥٢٤ ق.م بالفيلسوف لاوتزي Laotze الذي يعزى إليه المذهب التاوي (Tao) ، القانون السماوي الأعظم الذي يبعث الحياة في الموجودات .

* وقد تمثل أكبر جهد كونفوشيوس في نقله التراث الصيني ، في لغة بسيطة سهلة ، حتى يفيد منها أكبر عدد من الصينيين ، وحتى يعملوا على إعادة مجد أسلافهم .

| وأدت جهوده إلى تأليف خمسة كتب ، يعرض فيها تاريخ الصين القديم ، وأصول ديانات الأسر الصينية وعشائرها ، ودرّس فنون المعرفة الستة التي كانت

سائدة فى عصره : الطقوس ، والموسيقا ، والرماية ، وقيادة العربات والجياد ، والقراءة ، ثم الرياضة والحساب .

لهذا كان يلقبه تلاميذه (معلم الجنس البشرى) ، بل كانوا يعدونه أعظم معلم أنجبته العصور ، وكانوا ينقلون آراءه ، ويعلقون عليها ، ويشرحونها ، مما ساعد على تكوين مدرسة كبرى ، هى المدرسة الكونفوشية .

والكتب الخمسة التى ألفها هى :

١- كتاب الأغاني ، أو الشعر ، ويحتوى على ثلاثمائة أغنية وخمسة ، بالإضافة إلى التراتيل الدينية ، وتعود أشعار هذا الكتاب إلى عهد تشو .

٢- كتاب التغيرات ، الذى بين سبب تطور الحوادث ، وفيه استطاع أن يحول علم التنجيم إلى دراسة علمية لسلوك الإنسانى ، وكيف يتأثر الإنسان بالظروف الطبيعية والاجتماعية التى تكتنفه ، ومن ثم يمكن التنبؤ بسلوك الفرد ومُستقبله .

٣- كتاب التاريخ ، ويشمل الوثائق التاريخية الخاصة بالصين فى عصورها القديمة (من ٢٠٠٠ إلى ٧٠٠ ق.م) ، ولا سيما الأوامر والمراسيم الملكية والإمبراطورية .

٤- كتاب الربيع والخريف ، وقد عالج فيه تاريخ الصين بالتفصيل بين سنتى ٧٢٢ و ٤٦٤ ق.م تقريباً .

٥- كتاب الطقوس ، أو التقاليد ، وهو يبين النظام السياسى لأسرة تشو القديمة ، وهى من الأسر التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الصين .

وثمة كتب أخرى كتبها تلاميذه ، وإن كانت تنسب إلى منشيوس ، تلميذه الروحى ، الذى تتلمذ فعلاً على حفيده تزيى Tsesze ، ويعد منشيوس أكبر شخصية فى تاريخ المذهب الكونفوشى .

ومن هذه الكتب :

١- مختارات كونفوشيوس ، وقد قام تلاميذه بجمعها وتنسيقها .

٢- العلم العظيم ، ويضم تعاليم كونفوشيوس .

٣- عقيدة الوسط ، ويقدم تعاليم تنسب إلى كونفوشيوس حول تنظيم الحياة .

٤- كتاب منشيوس ، وهو شروح كتبها منشيوس على متن كونفوشيوس .

ونسب إلى تلاميذه أنهم اهتموا بالأشكال الشعائرية ، ووضعوا تفاصيل الاحتفالات الرسمية ، وقيل إن بعض تلاميذه أصروا على أن يرتدى الكونفوشي الحق نوعاً خاصاً من الثياب .

* وقد أتاحت ظروف العمل لكونفوشيوس أن يرى عن قرب معاناة عامة الشعب ، وأن يستشعر آلامهم ، بسبب من تجبر السادة وتسلطهم . . وفي هذا يقول :

(من الصعب أن تتوقع أى شئ من أناس يمتثلون من الطعام طوال اليوم ، فى حين أنهم لا يستعملون عقولهم فى أى سبيل على الإطلاق ، بل إن المقامرين يفعلون شيئاً ، وفى هذه المرتبة هم خير من هؤلاء الكسالى) .

(حيثما يذهب المرء عليه أن يعامل كافة الناس كما لو كان يستقبل ضيفاً هاماً ، وإذا صار موظفاً فى الحكومة وجب أن يتعامل مع الناس كما لو كان يقدم قرباناً عظيماً) .

(الرجل الفاضل حقاً هو من يرغب فى تثبيت أقدام الناس كما يرغب فى تثبيت قدميه ، يريد لنفسه النجاح ، ويكافح ليساعد الآخرين لينجحوا ، ويجد فى أمنيات قلبه المبدأ لسلوكه تجاه الغير فى منهج من الفضيلة الحقيقية) .

(لو حاول أحد أن يرشد الناس عن طريق سنّ القوانين ، ويحافظ على النظام عن طريق فرض العقوبات ، فسيسعى الناس لتجنب العقوبات فحسب ، دون أن يكون عندهم إدراك للالتزام الأخلاقى ، ولكن ، لو أن فرداً قادهم عن طريق الفضيلة - سواء عن طريق الإدراك أو عن طريق القدوة - واعتمد على «لى» فى الحفاظ على النظام ، لأحسن الناس إذن بالتزامهم الأخلاقى بأن يقوموا ما بأنفسهم) .

لقد أصبح (الخير) جوهر الفكر الكونفوشى ، لأنه ليس المثل العليا السياسية

والاجتماعية ، ونموذج الأخلاق السامية فحسب ، بل هو جوهر الشخصية المثالية ، والمنزلة الرفيعة لذوى الأخلاق الحميدة .

تساءل تسي تونج : (إذا قدم الإنسان الجميل والمعروف للشعب على نطاق واسع ، واستفاد منه عامة الشعب ، هل يمكن أن يستحق لقب رجل الخير ؟) .

فأجاب كونفوشيوس : (بل إنه يستحق أكثر من أن يكون خيراً ، يجب أن نسميه حكيماً ، لأن الحكماء فى العصر القديم مثل « ياو » و « شو » كان من الصعب عليهم أن يفعلوا ذلك ، إن الإنسان الخير يجب أن يقدم المساهمات والإنجازات ، ويساعد الآخرين على أن يقدموا ذلك أيضاً ، كما يجب عليه أن يصل إلى أعلى درجات السلوك الاجتماعى والاحترام ، ثم يساعد الآخرين على أن يحذو حذوه ، ثم يستطيع كل إنسان أن يفهم الآخرين بنفسه ، ومن ثم نستطيع القول إن ذلك يعتبر منطق سلوك الإنسان الخير) .

وقد أشار كتاب (سجل المراسم . . مقال سلوك الكونفوشيين) : إلى ست عشرة ميزة للشخصية المثالية ، هى :

- ١- الاعتماد على النفس . ٢- الملامح الأخلاقية . ٣- التأهب والاستعداد . ٤- التردد إلى الناس . ٥- الاستقامة . ٦- الطباع القومية الحازمة . ٧- الإخلاص . ٨- تولى الوظيفة الرسمية . ٩- الإحساس بتاعب الشعب . ١٠- التسامح ولين الجانب . ١١- تزكية الأكفاء . ١٢- تقبل المسؤولية وتحملها . ١٣- العمل النزيه المنفرد . ١٤- الأدب والسلوك الحسن . ١٥- التصادق . ١٦- الاحترام والتواضع .

وجاء فى كتاب (العلم الكبير) :

(إذا كنت تريد أن تكون إنساناً حكيماً ينشر الأخلاق النبيلة فى الأرض ، يجب عليك تهذيب الذات ، كما يجب فى المقام الأول تقويم أعماق الذات حتى يتحقق تهذيبها ، وتقويم الذات يحتم إخلاص الأفكار التى يعبر عنها الإنسان ، ويجب إغناء المعرفة الذاتية وتعميقها ، إن تعميق أبحاث حقيقة كل الأشياء وإدراكها إدراكاً كاملاً هو بلوغ الغاية القصوى للمعرفة ، وذلك يعنى حقيقة

الأفكار التى تعبر عنها الذات التى تسيطر على أعماق النفس ، وتعمل على تهذيبها ، إن تقويم الأفكار يعنى تهذيب الذات أيضاً ، إن بلوغ الإنسان مرحلة التثقيف الذاتى ضرورة لإصلاح بيته وتقويمه ، حتى يستطيع بعد ذلك إدارة شئون الدولة ، وتعميم الهدوء والاستقرار فى كل أنحاء البلاد ، ويرى الجميع - من الإمبراطور ابن السماء حتى عامة الشعب - أن تهذيب الذات أساس كل شئ ، وإذا لم يتحقق تهذيب الذات الذى هو أساس كل شئ يكون من المستحيل إدارة شئون الدولة ، وتعميم الهدوء والاستقرار فى أنحاء البلاد) - الصينيون المعاصرون ج ١ ص ١٢٧ / ١٣١ .

* لقد آمن كونفوشيوس بوجوب أن تعمل الحكومة على رفاهية الناس أجمعين ، ورأى أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تولى شئون الحكم أعظم الرجال كفاءة ، ومثل هذه الكفاءة لا علاقة لها بالمولد أو الثروة أو المكانة ، وإنما هى خاصة بالمعرفة وحسن السلوك ، وهما ثمرة التربية الحقيقية ، ولهذا يجب انتشار التربية والتعليم ، حتى يمكن إعداد الكثيرين للاضطلاع بمهام الحكم .

وقد قال لدوق (لو) : (إذا كانت سياسة الحاكم طالحة ، ولم يعارضه أحد ، فإن هذا التراخى كفى بالقضاء على الدولة) .

ولما سأله (تشى كانج تزو) رئيس أقوى عائلة فى ولاية (لو) ، كيف يمكن معاملة اللصوص بطريقة فعالة ؟)

أجابه : (إنك ياسيدى ، إذا لم تطمع فى أشياء لاتخصك فإنهم لن يسرقوا ، حتى لو أنك استأجرتهم لذلك) .

وسئل عن صفات الحكم المثالى ، فأجاب : (إنه الحكم الذى يجد الناس تحت ظله غذاء كافياً ، وجيشاً يحميهم ، وثقة عظيمة فى حكامهم) .

فسئل عما يمكن الاستغناء عنه من هذه الأمور الثلاثة إذا دعت ضرورة إلى ذلك ؟

فقال : (أفضل أولاً الاستغناء عن الجيش) .

فسئل عما يمكن الاستغناء عنه بعد ذلك .

فقال : (أفضل الاستغناء عن الطعام ، فما أكثر من ماتوا جوعاً منذ وجد الإنسان ، ولكن لم يحدث أن عاشت أمة بدون ثقة فى حكامها) .

وأوصى الحاكم بأن يستمع إلى نصيحة الشعب ، (لأن ماتراه السماء وتسمعه ليس شيئاً آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه ، وما يعده الشعب جديراً بالثواب والعقاب هو ما تعده السماء جديراً بالثواب والعقاب ، فهناك اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب ، وعلى من يدبرون شئون الشعب أن يراعوا ذلك ويتدبروه) .

ينسب إلى الرسول محمد العظيم قوله (لاجتمع أمتى على ضلالة) ، وهذا يعنى أن الهدف الأسمى من السياسة هو القيام على حاجة الرعية ، (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) ، إنه إذا استهان الراعى بحق الرعية وجب عزله ومحاكمته على التفريط فى حق من تولى أمرهم ، إنه لم يكتسب بتوليته القيادة (حقاً مقدساً) ، إنما هو حقّ مرهون بالحفاظ على حقوق الآخرين (المقدسة) ، فإن تجاوز سقط ، وإن فسد فسد كل شئ بفساده .

وكل هذا فكر نظرى ، لأن التطبيق يراعى احتمال أن تدول دولة الأحداث ركوباً على كتفى الشعب ، ومن ثم كان التغاضى عن جرائم (السابق) ، حتى يحظى (اللاحق) بهذا التغاضى ، مهما نهب وسلب واجترأ على أخطر المقدسات .

وقد جاء فى كتاب التاريخ : (إن توكيل السماء للحاكم ليس أبدياً ، وهذا يعنى أن الحاكم يظل متمتعاً بهذا التوكيل الإلهى طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير ، ويفقد الحاكم هذا التوكيل عندما يتبع سياسة الظلم) .

(إن بقاء الحاكم أو الأمير يتوقف على رغبة الله أو إرادته ، وإرادة الله هى إرادة الشعب ، فإذا نال الحاكم عطف الشعب وحبه فإن الله العلى السامى ينظر إليه بعين الرضا ، ويوطد عرشه ، أما إذا فقد حب الشعب وعطفه فإن الله العلى السامى يصب غضبه عليه ، ومن ثم يفقد دولته) .

ومن واجبات الحاكم عند كونفوشيوس :

١- أن يتحلى بكل ما سبق بيانه من أخلاق . ٢- أن يحترم الأفراد الجديرين باحترامه . ٣- أن يتودد إلى من تربطه بهم صلة القربى ، وأن يقوم بالتزاماته إزاءهم كاملة . ٤- أن يجلّ وزراء ولايته وإمبراطوريته . ٥- أن يعامل موظفى دولته بالحسنى . ٦- أن يجعل من الصالح العام صالحه الشخصى ، وأن يجعل من نفسه أباً للشعب . ٧- أن يعمل على تشجيع الحرف والصناعات والفنون والنهوض بها . ٨- أن يعطف على رعايا الدول الأخرى المقيمين فى دولته . ٩- أن يهتم برفاهية أمراء الإمبراطورية .

سأل تلميذ : (كيف يجعل الحاكم رعاياه يجلسونه ، ويثقون به ، ويتواصون بالخير فيما بينهم ؟) .

قال كونفوشيوس : (إذا قابلهم بالسمت والوقار أجلوه ، وإذا كان باراً بوالديه ، شفيقاً على قومه أخلصوا له . وإذا رفع الصالحين ، وأعان العاجزين تواصوا بالخير) .

وقال ناصحاً : (آمن بالحق ، وأحب العلم ، واتبع الفطرة ، ولا تقم فى مملكة سادتها الفوضى ، واطلب المنصب إذا كانت البلاد محكومة بسياسة حكيمة ، واعتزل إذا كانت تحت سياسة غاشمة ، فمن العار أن تفتقر وتبتعد والبلاد تحت سياسة عادلة ، ومن العار أن تغنى وتعتز والبلاد تحت سياسة غاشمة) .

(لا يكن همك أن تتولى المنصب ، بل ليكن همك ما يؤهلك لهذا المنصب ، ولا تهتم بجهل قدرك ، بل اهتم بالفضل الذى تريد أن يعرفوك به) ، ثم إنه يوجب على طالب المنصب ألا يجعل عنايته موجهة إلى مقدار المرتب من المال ، ولكن ليجعل عنايته فى القيام بالواجب لذات الواجب : (من يخدم الأمراء فليجعل العناية بأداء الواجب فى المحل الأول ، وأمر الراتب فى المحل الثانى) .

* كان اهتمامه الأكبر بالتربية الأخلاقية ، فإننا (إذا علمنا كل أسرة كيف تتخلق فإن المجتمع كله يتعلم كيف يتخلق ، وإذا تعودت كل أسرة على العطف والشفقة تعود المجتمع كله على العطف والشفقة ، وإذا عملت كل أمة على إصلاح حالها فإن الانسجام والوئام سيسودان المجتمع الإنسانى بأسره) .

(الرجل الذى لا يصلح خطأه يرتكب خطأً جديداً) .

(الرجل الذى يعشق الحق أفضل من الذى يعرف الحق ، وذلك الذى يجد سعادته فى الوصول إلى الحق أفضل ممن يعشق الحق) .

(إذا وجدت شخصا يستحق أن تتحدث معه ولم تخاطبه فإنك قد افتقدته ، وإذا وجدت شخصا لا يستحق أن تتحدث معه وخاطبته فإنك تكون قد أضعت كلامك سدى ، والرجل العاقل هو من لا يفتقد الرجال ، ولا يضيع كلامهم سدى) .

(إن الإنسان هو الذى يجعل الصدق عظيماً ، وليس الصدق هو الذى يجعل الإنسان عظيماً) .

(إن الرجل ذا الأخلاق الكريمة لا يقول إلا كلاماً جيداً ، ولكن الرجل ذا الكلام الجيد لا يكون دائماً ذا أخلاق كريمة) .

* قيل إن طريقة كونفوشيوس فى التأليف أن يذكر أمثلة وقصصاً مسرودة الواحدة بعد الأخرى ، لا رابطة بينها ، وليس ثمة تبويب أو تصنيف للموضوعات التى يحتوى عليها كل كتاب . . ومن ثم يستحيل استخلاص مذهب فلسفى أو اجتماعى من كتاباته .

وهذا يمثل رؤية خارجية ، ورؤية جزئية ، لأن مذهب الرجل قد يتمثل فى (الحين) الذى تدور حوله كل أفكاره وتعليماته ، إنها فلسفة تطبيقية لا ترتبط بطريقة التأليف ، ولكن بالطريقة نفسها التى حُكم على سقراط من بعد بأنه فيلسوف ، مع أنه لم يدون كتاباً ، إنما كان حوار سجله تلميذه أفلاطون ، ولعل ذلك بعينه ما حدث مع كونفوشيوس ، فضلاً عن أن كونفوشيوس كان يسير على أرض الواقع ، يرشد الحكام ، ويرشد المحكومين ، والهدف محدد هو إصلاح البشرية ، وتخليصها من الشرور والآثام ، وسواء تم هذا الهدف عن طريق المشاركة فى الحكم ، أو فى نصيحة الحاكم ، أو فى تربية جيل من التلاميذ ، وبثه بين الناس ، أو عن طريق الجلوس إلى الآخرين يسألون فيجيب ، وسواء كانت الإجابة بالرمز والإشارة ، أو بالقصة والمثل - فإن الغاية المرجوة لم تتغير .

(إن كل نظام للقوانين الأخلاقية لابد أن يتخذ أساسه من ضمير الإنسان نفسه وظروفه ، وهو الضمير الذى تؤيده التجارب الإنسانية للأجيال المتعاقبة ، كما تؤيده تجارب عامة الناس ، وكل نظام اجتماعى ناجح يجب أن يقوم على الدين ، إذ الحكام والأفراد إذا قاموا بالطقوس الدينية وتقديم القرابين ، فإن هذا يؤدي إلى توكيد الروابط الاجتماعية فيما بينهم ، كما يؤدي إلى إشاعة الحب والمودة بين الناس ، وبالتالي إلى تأكيد الإخلاص والثقة بين أفراد المجتمع ، فالله أو السماء هو صانع هذا العالم بما فيه وفق قوانين منتظمة لا تقبل التخلف ، إذ الشمس والقمر مثلاً يسيران فى تتابع منتظم ، والأشياء توجد وتعيش وتغنى بانتظام ، ودون أى تدخل من جانبنا ، وتلك الظواهر كلها تمثل القانون الإلهي ، والرجل العاقل هو الذى يسير وفق هذا القانون الذى يمثل فى الوقت نفسه القانون الأخلاقي ، إذ عندما يطيع الابن أباه فإنه يحترم فى نفسه الله ، فالحياة الفاضلة ليست إلا تأكيداً للقانون الإلهي الذى هو فى الوقت نفسه تأكيد للطبيعة الإنسانية ولقانون الطبيعة العام) .

هذه الفقرة من ترجمة الدكتور حسن شحاته سغفان (الكتب الخمسة لكونفوشيوس ص ٣٠) ، وقد توحى بأن المترجم قد طبع فكر نفوشيوس بثقافته الإسلامية ، ومزج بين الكونفوشية والتاوية ، والسبب فى هذا أننا وقفنا عند الفكر التجريبي لكونفوشيوس ، مغفلين تماماً الفكر الدينى ، مع أنهما واحد ، كما تقول الفقرة ، ثم إن الاهتمام بالواقع المنظور لا يمكن معه إغفال الواقع غير المنظور ، لأن الفكر الصينى بعامة لم يغفل (السماء) جملة ، لكنه أثر عدم الحديث عن دورها بالتفصيل الذى هو شاغل الفلاسفة فى جميع أنحاء العالم ، وحسبنا أن نستمع إلى كونفوشيوس يقول : (إن الحق المطلق غير قابل للتجزئة ، ولما كان غير قابل للتجزئة فهو خالد ، ولما كان خالداً فهو موجود بذاته ، ولما كان موجوداً بذاته فهو لا نهائى ، ولما كان لا نهائياً فهو واسع وعميق ، ولما كان واسعاً وعميقاً فهو متعال وروحي) - المصدر السابق ص ٢٢ .

ماذا تقول الفلسفة الميتافيزيقية أكثر من هذا ؟ لكن (المعلم) لم يرد أن يشغل باله بأكثر من حلول المشكلات (المادية) التى كان يعانىها الشعب الصينى ، ولهذا

كانت دراسته للتاريخ والشعر والموسيقى ، وكان اهتمامه بالتربية والتعليم ، وكان اتصاله بالحكام ليعرض مشورته وخدماته .

جاء فى كتاب (العلم العظيم) :

(إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا الفضائل فى أنحاء الإمبراطورية قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا تهذيب نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يظهر قلوبهم عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء ، فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ، ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة) .

بالرغم من أن (الفقرة) تقوم على أساس (خيالى حالم) ، لأن البحث عن (حقائق الأشياء) وصولاً إلى (العلم الكامل) مجرد استغراق فى (حلم دافئ) لا علاقة له بالواقع ، لكن الأحلام مهما اتسع خيالها هى خطوة على الطريق ، ورغبة (عارمة) فى الوصول ، وسواء صح هذا أو لم يصح فهو دعوة إلى صدق الظاهر والباطن ، إلى (تصحيح المعانى) أو (تحرير الألفاظ) ، ذلك لأن (الأشياء التى يتأثر بها الإنسان كثيرة لا حصر لها ، وإذا لم يكن ما يحب ويكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته إلى طبيعة الأشياء التى تعرض لها) .

قد نقول إن الرجل تختلط تأملاته بأحلامه ، بسبب من حبه الناس ، وحرصه على الخروج بهم من (سرايب) المعاناة النفسية والمادية ، يبين هذا قوله :

(إن العالم فى حرب ، لأن الدول التى يتألف منها فاسدة الحكم ، والسبب فى فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعى الطبيعى الذى تهيئه الأسرة ، والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا

النظام الاجتماعي الطبيعي ، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوموا نفوسهم ، وهم يعجزون عن أن يقوموا نفوسهم لأنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الدنيئة الفاسدة ، وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين في تفكيرهم ، لا يقدرّون الحقائق قدرها ، بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حد مستطاع ، يبحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء ، فليسع الناس إلى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا في تفكيرهم ، وليخلصوا في تفكيرهم تتطهر قلوبهم عن الشهوات الفاسدة ، وبتطهير قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ، وبإصلاح نفوسهم تصلح أحوال أسرهم ، وليس الذي تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التي تحت على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذي يصلحها هو ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة ، وبتنظيم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والإخلاص والقدوة الصالحة يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسها نظام اجتماعي يتيسر معه قيام حكم صالح) .

هذا التحليل النفسي يكشف عن (معلم) دقيق الملاحظة ، واسع التجربة ، لا يقف عند إطلاق الشعارات مثل (اعرف نفسك) ، بل يرسم الطريق لمعرفة هذه النفس ، ويحدد الصعوبات التي تشغل الطريق ، إنها شبكة التفاعلات الاجتماعية ، معرفية وسلوكية ، من القمة إلى القاعدة ، ومن القاعدة إلى القمة . . لكن فاته أن يقف عند (الأهواء التي تشوه الحقائق) ، و (المعارف المنزهة عن الهوى) . . إن المرء لا يستطيع (وحده) التمييز بين الخير والشر ، ولو أنه استعان (بالقدوة الصالحة) ، فإن حدود الصلاح قد تتداخل مع حدود الهوى ، ومن ثم احتاجت البشرية إلى من يضع الحدود ، حقوقاً وواجبات ، من خارج الدائرة البشرية .

لقد وضع كونفوشيوس (المعرفة البشرية) في درجات :

- ١- درجة رجل وهبته السماء المعرفة ، وأوتى الإلهام ، وهي أعلى الدرجات .
- ٢- درجة رجل لم يؤت إلهاماً ، ولكن فيه ذكاء ، فتعلم ووصل إلى أقصى ما يتعلمه من لم يؤت إلهاماً .

٣- درجة رجل لم يؤت ذكاء ، بل فيه غباء ويطلب المعرفة ، وينال منها بقدر طاقته .

٤- درجة رجل حائر بائر ، فيه غباء وبلادة ، فلم يعرف ، ولم يحاول معرفة ، وهى بالدرك الأسفل .

لكن هذه الدرجات تمثل أخطر ما فى (شبكة التفاعلات الاجتماعية) من صعوبات ، لأن الاختلاف فى القدرات يوهن القوى ، وينشر الفتن ، وهو ما يمثله الاختلاف فى خيوط النسيج ، فما وهن منها لا ينفع معه قوة ما اشتد قتله ، وخلصت مادته ، (إن الرجل الكامل الخلق يطلب الفضيلة ، والرجل الناقص الخلق يطلب اللذة) ، وشتان بين من يبني ، ومن يهدم ، وبخاصة إذا كان من يهدم من أولئك الذين أتوا نصيباً من (الذكاء والإلهام) الشيطاني ، (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً ، شياطين الإنس والجن) ، فكيف تميز بين النبي والشيطان ، ولكل أدواته المبهرة (الخارقة) إلا عن طريق خير هذا وشر ذاك ، والخير فى الاعتدال ، لا فى طلب المثل الأعلى ، (فالقناعة مع الجسد من غير استسلام فضيلة ، واللين من غير ضعف فضيلة ، والرحمة مع العدل والتسامح مع المسيء فضيلة) .

ينبغي أن يوضع فى الاعتبار ما بين الناس من تفاوت ، ولهذا كانت (الرحمة أخص ما يجب أن يسود الناس من صفات ، فهى الرابطة التى تربط أبناء المجتمع ، وتجعل الناس متحابين سعداء) ، وقد تكون الرحمة فى الحزم والشدة ، الرحمة ليست مجرد قيمة ، قد تشتبه بالعدل والتسامح والشفقة والعون ، ومن ثم وجب (تحرير الألفاظ) ، كما قال المفكرون الإسلاميون .

سأل أحد التلاميذ كونفوشيوس : (بأى شئ تبتدى سياستك إن توليت حكم الإمارة ؟) .

قال كونفوشيوس : (لابد من تصحيح الأسماء) .

دهش التلميذ من هذا الجواب ، فقال المعلم : (إذا لم تكن الأسماء صحيحة ، لا يوافق الكلام حقائق الأشياء ، وإذا لم يكن الكلام موافقاً

للحقائق وقع الخلط فى اللغة وفسدت الأمور ، فلا تزهو الآداب ولا الموسيقى ، ويضطرب التفكير ، ولا تنزل العقوبات على من يستحقها ، وإذا لم تنزل العقوبات على من يستحقها ، لا تعرف الرعية كيف يحركون أيديهم وأرجلهم ، ولذلك يرى الرجل أن من الضرورى أن توافق الأسماء مسمياتها ليتمكن أن يتكلم بها ، وأن يعمل بما يتكلم ، والرجل الكامل الخلق لا يستهين بكلامه ، ولا يهمل فى تعبيره) .

إن (تصحيح الأسماء) ، أو (تحرير الألفاظ) يعنى أن تصبح الكلمة التزاماً ، فتتجرد من الاحتمالات والتأويلات والوقوع فى إصر الالباس والغموض ، و(المعنى فى بطن الشاعر) ، والأرقام الزائفة ، وبيانات الحاكم التى تخالف ما جرى تنفيذه .

* ولعل من هذا قوله : (إنى لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يمكنه فى صدره ، وإذا ما عرضت ركناً من موضوع على إنسان ، ولم يستطع ما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الباقية فإنى لا أعيد عليه درسى) .

(المعلم) متفهم واع لأصول التربية الناجحة ، فليس معنى (العلم للجميع) فتح أبوابه لكل (من هب ودب) ، فللعلم قدراته ومواهبه ، ومن الخطأ أن نعتمد على حشو الرءوس بالدروس العامة والخاصة ، لأنها لن تخرج إلا بيغاوات لا تلبث أن تنسى ، أو تفقد معنى ما حشيت به ، ومن ثم تكون (الحالقة) للمعالم ، والحالقة للقيم ، ومن هنا تتخلق كل المبادئ الرخيصة ، وتتعاظم كل المبادىء النقيصة ، ولهذا قيل (لا تعلموا أولاد السفلة العلم) ، لأنهم يهبطون بما يعملون إلى ما يعملون ، ويستثمرون علمهم فى إشاعة الفساد حقداً ونقمة وكسبا رخيصاً .

يقول الله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغِيرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ، أى إن حركة التغيير لا تأتى من الخارج ، لابد من أن تنفعل النفوس ، وتتمخض أقدارها ، من يترك نفسه لأيدى الآخرين فإنهم لن يحرصوا على تمام تكوينه ، وهذه خطيئة خضوع التربية والتعليم للخبراء الأجانب ، ليس أحد أعرف بك

منك ، والطبيب لا ينجح فى العلاج ما لم ينجح المريض فى تشخيص الداء ، وهذا سر فشل العملية التعليمية فى بلادنا ، جملة وتفصيلاً ، فما نزال نعتد على الكم ونتباهى به ، مع أن أرقام الأمية فى ازدياد . . ومنذ صار التعليم (كالماء والهواء) ، دون صيانة (الماء والهواء) من التلوث - فسد كل شئ . . إن من الواجب أن يكون الاهتمام بالفضيلة قبل الاهتمام بالكمبيوتر ، لأن الكمبيوتر بدون فضيلة يخرب كل شئ ، فالمواد التى (يلتقمها) يمكن أن تتحول إلى خلايا سرطانية لا تلبث أن تنتشر فى جميع أجهزة الدولة .

* ولا فضيلة بدون جمال ، (إنه لم يُرَقَطْ إنسان يحب الفضيلة بقدر ما يحب الجمال) .

يعلق ول ديورانت على قول كونفوشيوس هذا بأن (من أغلاط الطبيعة التى لا تغتفر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً ما يأتیان منفصلين لا مجتمعين) - قصة الحضارة مج ١ جء ص ٤٧ .

ولو أن قول ديورانت خلا من السخرية لجانبه الصواب ، لأن الفضيلة فى حد ذاتها جميلة ، والجمال فى حد ذاته فضيلة ، فالفضيلة قيمة معنوية جميلة لا تلبث أن تكون سلوكاً قوياً ، والجمال قيمة معنوية أيضاً لا تلبث أن تأخذ شكلاً حسياً مريحاً ، والسلوك القويم والشكل الحسى المريح كلاهما يساعد على سعادة الآخرين . . لهذا (إذا أتقن الإنسان الموسيقى ، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها ، وعلى هديها ، تطهر قلبه ، وصار قلباً طبيعياً سليماً ، رقيقاً ، عامراً بالإخلاص والوفاء ، يغمره السرور والبهجة) .

ولهذا كانت عناية (المعلم) بالموسيقى والفنون ، وبخاصة الشعر ، والطقوس الدينية ، حتى يحقق الانسجام داخل الفرد ، وداخل المجتمع .

يقول فى كتاب الشعر : (عندما تسود الألفة بين الزوج والزوجة والأولاد ، فما أشبه المنزل برعاية وعود قد تألفت أنغامهما . . وعندما يعيش الإخوة فى تألف وسلام يظل المنزل فى وحدة وانسجام) .

(إذا علمنا كل أسرة كيف تتخلق فإن المجتمع كله يتعلم كيف يتخلق ، وإذا تعودت كل أسرة على العطف والشفقة ، تعود المجتمع كله على العطف

والشفقة ، وإذا عملت كل أمة على إصلاح حالها ، فإن الانسجام والوئام سيسودان المجتمع الإنساني بأسره) .

والمعروف أن الموسيقى تأليف وتنظيم وانسجام ووئام بين ألحان ، (وفي القلب الإنساني أوتار مختلفة ، كل منها مرتبط بانفعال نفسى خاص ، فعندما تمس الحوادث الجارية وترافى القلب ، فإن الإنسان يعبر عنه بنغم معين ، فالنغم الذى ينتج عن وتر الحزن الموجود فى القلب يكون بائساً حزيناً ، والنغم الذى ينتج عن وتر الغضب يكون خشناً ، والنغم الذى ينتج عندما تمس الحوادث وتر الحب يكون رقيقاً . . وهكذا ، وهذه الأنغام تنتج إذن من التقاء الحوادث بالقلب الإنسانى ، فالموسيقى إذن تعبر عن النفس الإنسانية وما يعترىها من انفعالات ، ونستطيع بشكل عكسى أن نؤثر على الحالات النفسية عن طريق الموسيقى ، فنهديء النفوس أو نشيرها أو نقلقها أو نحزنها أو نفرحها عن طريق الأنغام الموسيقية ، وعلى ذلك نستطيع إصلاح النفوس بالموسيقى ، وترقيق مشاعر الأفراد ، وتحسين علاقاتهم الاجتماعية ، ومن ثم استطاع تدعيم التضامن الاجتماعى بين الأفراد عن طريقها ، ودراسة نفسية أى شعب ، ومعرفة مدى تقدمه أو تأخره ، إذ إن موسيقى الشعوب التى يعمها الرخاء والسلام تكون موسيقى هادئة ، على حين تكون موسيقى الشعوب التى تعمها الفوضى مضطربة صاخبة ، وموسيقى الشعوب المغلوبة تكون حزينة كثيفة مليئة بالمرارة والأسى . . ولا تعكس الموسيقى النفس الإنسانية فحسب ، بل هى تعكس النظام الكونى كله) .

(لذلك يجب على الجميع أن يتعلموا الموسيقى ، وأن يأتلف كيانهم بها ، لأنها تؤدى إلى مداواة الأدواء ، وتجعلهم أقرب إلى فهم القانون الإلهى والقانون الأخلاقى ، ومن ثم تجعلهم أقرب إلى الفضيلة) .

والموسيقى فن الفنون : الشعر والرسم والرقص والتشخيص ، إنها جميعاً وسائل إزالة القشور التى لا تزال تراكمها الأيام والأحداث حول القلوب والعقول ، ولعل الفضيلة فى جماع هذه الفنون ، أو فى إزالة القشور وجلاء الفطرة النقية الطاهرة .

* يلخص صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢٨٦ / ٢٨٧) أفكار كونفوشيوس فيما يلي :

(هناك طريق على الأمير أن يتبعه ، وهو طريق الملوك السابقين ، ولما كان الملوك السابقون - فى نظر كونفوشيوس - قد سلكوا فى حكمهم وفق ما أمرت به السماء ، فقد قدموا نماذج تحتذيها الأجيال القادمة ، وقد فعلوا ذلك ، لأنهم كانوا مهذبين . . ومن ثم كانت صفات مثل : احترام الآخرين ، والأدب ، والولاء للأسرة ، والإخلاص للأمير - من صفات الرجل المهذب الذى لا يتدمر ولا يشكو من المحن ، وهو جريء واضح فى مسألة الحق ، لكن هذه كلها مجرد نموذج متعال لم يبلغه إلا حكماء الماضى .

وعلى الأمراء أن يحكموا عن طريق الفضيلة التى هى مركز رفيع تُجاوز قوته كثيراً القوة البدنية أو القهر ، والشخص الخير يمارس الفضيلة فيتحول الآخرون إلى الخير .

وشريعة السلوك المهذب تتحكم فى ارتداء الثياب ، وفى المراعاة الدقيقة للآداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة ، بصفة عامة ، بل فى التصرفات والإيماءات والإشارات ، بحيث يضاف المظهر الخارجى الملائم إلى السلوك الأخلاقى) .

كان تركيز كونفوشيوس على (الملوك السابقين) مثالا لصحة السلوك ، أقرب إلى ما نفعله حين نردد القول المأثور (سبق الأولون بالفضل) ، وكما نترحم على السابقين لأنهم ترفعوا عن الدنيا التى نرتع فيها ، وهذا وهم كبير ، لكنه دعوة تربوية لصناعة القدوة والمثل .

يقول أحد الباحثين - الفكر الشرقى القديم ص ٣٦٥ : (لكى يتم الإبقاء على ثبات المجتمع يتعين أن يكون له قادة يمكن الوثوق بهم ، وإن القادة الوحيديين الذين يمكن الوثوق بهم هم الرجال ذوو الشخصية ، وتلك الشخصية يمكن تطويرها من خلال التربية التى يتم اكتسابها من الآخرين ، ومن ضبط النفس معاً . . إنه ما من أب أو معلم أو صاحب منصب عام يحق له أن ينظر

باستخفاف إلى مسؤولياته عن توجيه سلوك من يرعى أمرهم ، وذلك من خلال الإدراك الحسى والقواعد والمثل التي يضربها لهم) .

وهذا أشبه بالقول (لو لم يكن الله موجوداً لوجب إيجاده) حتى يتحقق الخوف والرجاء ، وحتى تستقيم كفتا الميزان ، كذلك لابد من صنع المثل الأعلى ، حتى تقوى الخوافز إلى الفضيلة والطموح إلى المجد ، إننا ننشد النجوم فى طلب الرفة ، وإن كان أقصى جهدنا فى طلوع شجرة أو فى صعود قمة .

قال أب لابنه : ماذا تريد أن تكون ؟ أجاب الولد : أن أكون مثلك ، قال الأب : بئس الولد أنت ، حين كنت فى سنك طلبت أن أكون وزيراً فإذا أنا أدير أحد مكاتب البريد .

* يقول هـ.ج. ويلز (معالم تاريخ الإنسانية مج ٢ ص ٤٩٦ / ٤٩٧) : لقد قدم كونفوشيوس بالفعل إلى زمانه المثل الأعلى للرجل المخلص الذى وقف حياته على الخدمة العامة .

كان مفكراً سياسياً إنشائياً أكثر من (جوتاما) أو (لاوتسى) ، وكان ذهنه فى شغل شاغل بحالة الصين ، فحاول أن يخلق الرجل الأرسطراطى ، مبتغياً إنشاء الدولة النبيلة ، وفى ذلك يقول :

(من المستحيل أن يعتزل المرء العالم ، وأن يخالط الطيور والوحوش التى لا يجمعنا وإياها مشاكل ولا تألف ، فمن ذا الذى ينبغى لى أن أخالطه من الناس إن لم أخالط من يتألمون ويشقون ؟ إن هذه الفوضى التى تعم الدنيا هى ما يحتاج إلى تغيير حالتها) .

لقد صارت تعاليمه تفرض على الناس كافة ، وهى (مراسم ومرعيات فى كل جزء من تفاصيلها ، كالتى لا ترى إلا فى بلاط الملوك ، وقصور عليّة القوم ، وأصبحت كل شئون الحياة اليومية خاضعة لقواعد جامدة ، حتى الطعام الذى قد تتناوله الطبقات المختلفة امتدت إليه يد التنظيم ، وقد فرق بين الذكور والإناث فى الطرقات ، بل إن سُمك النعش وشكل القبور وموقعها قد خضعت هى أيضاً للتنظيم) .

ويقول هيرث Hirth : (لا مجال للريب فى أن كونفوشيوس كان له فى تطور الخلق الصينى أثر أعظم مما لكثير من الأباطرة مجتمعين ، فالذى بشر به معاصريه لم يكن جديداً كل الجدة عليه ، بيد أنه - بعد أن سمع بنفسه أثناء دراسته للسجلات المدونة القديمة صوت حكماء الماضى خافتاً - أصبح بوقاً يُسمع الصم ، وحاكياً ينقل للشعب تلك الآراء التى استخلصها من التطور الأول للشعب نفسه) .

* ولما مات كونفوشيوس (٤٧٨ ق . م) أقاموا له الهياكل ، وعبدوه على سنتهم فى عبادة أرواح الأسلاف الصالحين ، وأوشكوا أن يجعلوا عبادته (رسمية) ، على عهد أسرة (هان) فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه فى المدارس ومعاهد التعليم ، وكانت هياكله فى الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس ، كما يؤمونها لأداء الصلاة . . ولم تزل عبادته قائمة حتى القرن العشرين ، فخصّوه سنة ١٩٠٦ م بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكبر (شانج تى) ، إله السماء ، لأنه فى عرفهم (ند السماء) ، وقد جعلوا يوم ميلاده (٢٧ أغسطس) عيداً قومياً يحجون فيه إلى مسقط رأسه ، وينوب عن الدولة موظف كبير فى محفل الصلاة أمام محرابه - الله للعقاد ص ٧٣ .

روى أنه قال لأحد تلاميذه : (إن البلاد قد خلت من العدل والاستقامة من زمن بعيد ، وستتخذ السماء أستاذكم ناقوساً لها) .

ولما جلس على العرش (تاى ذرونج) الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكونفوشيوس فى كل مدينة وقرية ، فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأن يقرب له فيها القرابين العلماء والموظفون .

وفى عهد أسرة (دزونج) نشأت مدرسة قوية للكونفوشية الجديدة ، أضافت شروحاً وتعليقات ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها فى بلاد الشرق الأقصى .

وظلت مبادئ كونفوشيوس - من قيام أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو - ما يقرب من ألفى عام تسيطر على العقلية الصينية وتصوغها فى قالبها .

واستطاعت الصين - بفضل هذه المبادئ - أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متألّفة ، وأن تبعث فى نفوس أبنائها إعجاباً شديداً بالعلم والحكمة ، وأن تنشر ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها ، وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التى اجتاحت البلاد .

وكان يمكن لما أحدثته ثورة سن يات سن ، وشيانج كاي شيك ، وماوتسى تونج - من انقلاب خطير فى طريقة التفكير ، وفى أسس العلاقات الاجتماعية ، أن يأخذ الشعب طريقاً غير الطريق ، وأن يتحول كل التحول عن هذا (التراث القديم) ، لكن الحضارة الصينية العريقة ما تزال تعمل عملها فى السلوك والعلاقات الاجتماعية ، ولم تكد تحدث (المبادئ الاشتراكية) والعلوم الحديثة أكثر مما أحدثته الأطعمة الأمريكية فى الأجسام اليابانية .

الصوفى / المعلم العجوز

التاوية Taoism تنسب إلى الحكيم الصينى (لاوتزو Laotzu) الذى عاش فى الفترة ما بين (٦٠٤ - ٥١٧ ق.م) تقريباً ، قبيل ظهور كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٨ ق.م) ، وذلك فى عصر كثر فيه الحكماء والفلاسفة والمفكرون . . ويبدو أنه كان يبشر بنوع من السلوك (الرواقى) ، والرجوع إلى حياة البساطة .

كان لاوتزو أميناً للمكتبة الملكية فى مقاطعة هونان ، فى عهد أسرة (تشاو) ، ولما عين بداية انهيار الدولة ، هاجر إلى مكان قصى ، جنوب الصين ، حيث كانت النفوس تنزع إلى التصوف ، ولا تتقبل النزعة العقلية الجامدة .

ثم خرج إلى الناس بدعوة تقوم على إظهار جمال الفعل البشرى ، متحرراً من الأنانية ، مجتنباً فضائل الشفقة والتواضع والتسامح ودفع السيئة بالحسنة ، كما دعا إلى اكتساب العظمة بالتوحد مع المنهج الداخلى للكون ، وتطوير الإنسانية من خلال السلوك القويم .

وفى ذلك يقول : (إنه ما لم يعرف المرء ويحيا وفقاً لقوانين الكون الداخلية - الثوابت - فإنه ينتهى بكارثة) .

(إن من يعرف الثابت يتحرر ، ومن يتحرر يخلُ من الهوى والتحيز ، ومن يخل من الهوى والتحيز يتسع إدراكه ، ومن يتسع إدراكه يصبح رحب الأفق ، ومن يصبح رحب الأفق يكن مع الحقيقة ، ومن يكن مع الحقيقة يستمر إلى الأبد ، ولا يعرف الفشل على امتداد عمره) .

إن الاختبار الحقيقى للفلسفة هو قدرتها على تحويل دعائها إلى مثل و(نماذج

بشرية) تقتدى ، وتكون منارات ، ومن ثم يجب أن يظل الدعاة بمنأى عن التجربة المباشرة ، لأنهم إذا سقطوا سقطت الجماهير بسقوطهم ، (إن أسوأ الحكومات هى التى يتولى الفلاسفة فيها الحكم ، كما أن المثقف خطر على الدولة ، لأنه يريد أن تسيّر الأمور ، والدولة نفسها ، بموجب نواميس مطردة) ، وهذا يعنى أن الدعوة شئ والواقع شئ آخر ، وهذا يتمثل فى (البرامج) الانتخابية التى يستحيل تنفيذها ، فلو أن الدعاة مارسوا التطبيق وفشلوا دمروا آخر حصون المقاومة ، وملئوا قلوب الحالمين بالرصاص .

لم يكن (التاو) مجرد درب أو سلوك معيشى يخضع للريح والخسارة ، للنصر والهزيمة ، للقوة والضعف ، للسيطرة والاستسلام ، للخير والشر . . إنه الحياة المثالية ، الحياة البسيطة المتناسقة ، الحياة التى تقوم على كبح الرغبات ، والتعالى على الشهوات .

(التاوية) وحدة الإنسانية والطبيعة ، الإنسانية متضمنة فى شمول الكون وقدرته على العطاء فى غير مقابل .

وهى المعرفة التى تتجاوز حدود المدركات والتصورات ، معرفة مباشرة وفورية ، لا تعتمد على ثنائية زائفة بين الذات العارفة والموضوع المعروف .

وهى المبادئ التى ينبغى أن ترشد الحياة ، وأن تنظم أفعال البشر ، المبادئ التى تنظم الطبيعة ، فالحياة لاتعاش بصورة طيبة إلا عندما يتوافق الناس بصورة كاملة مع الكون بأسره ، وعندما تغدو أفعالهم هى أفعال الكون متدفقة عبرهم ، ومؤسسات المجتمع تنتظم من خلال السماح لهم بأن يكون ما هم عليه بصورة طبيعية ، فالمجتمع بأسره يتعين عليه بدوره أن يتوافق مع الكون - الفكر الشرقى القديم ٣٧٥ .

كأنه يتحدث عن وحدة الوجود باللهجة الصينية ، أو عن التناغم الموسيقى الكونى الذى أحسه فيشاغورس بعد ذلك بقرون ، أو كأنه الذى أوحى إلى أفلاطون أن النشاط الموسيقى يحدث نشاطاً فَوْضَوِيًّا اجتماعياً وسياسياً ، أو كأنه يستوحى قول الله سبحانه ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ ، ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .

ويلخص (الفكر الشرقى القديم ص ٣٧٦ - ٣٧٧) تعاليم لاوتزو المتعلقة «بتاو» الإنسانية فى تسعة مبادئ :

- ١- يتحرك الناس بصفة عامة لتحقيق رغباتهم .
 - ٢- ينتج عن محاولات الأفراد لإشباع رغباتهم حدوث التنافس والصراع .
 - ٣- لإقرار السلام بين المتنافسين يجب التوصل إلى معايير للاستقامة والأخلاق الإنسانية .
 - ٤- وضع المعايير الأخلاقية لا يحل المشكلات ، لأن عدم إشباع الرغبات يدعم الشر ، ويوسع دائرة الخطأ .
 - ٥- قد يكمن الحل فى التخلّى عن هذه المعايير .
 - ٦- لا يمكن التخلّى عن الأفعال الصادرة عن الرغبات إلا عندما يتبنى الناس (الطريق السهل) للفعل .
 - ٧- (الطريق السهل) للفعل يفترض مقدّمًا التناغم مع الكون ، والتصرف وفقًا للتأوى الكونى الشامل .
 - ٨- ينبغى أن يكون تنظيم المجتمع وحكم الناس وفقًا للطريق الطبيعى السهل ، كما ينبغى أن يدعم الطريق الطبيعى فى نفوس الناس .
 - ٩- بما أن خيارات معظم الناس وأفعالهم تنطلق من رغباتهم ، وتسترشد بإشباع هذه الرغبات ، فإن أكثر المبادئ الأساسية تنظيمًا للفعل هو تحقيق هذه الرغبات .
- ولتنظيم التنافس وتقليل الصراعات يتم إدخال القواعد الأخلاقية كمرشد يهذى السلوك الإنسانى .
- الخير لا يتحقق من خلال الفعل الذى تحركه الرغبة ، إنما يحققه الإحجام عن الفعل الذى يستمد وحيه من بساطة (التأوى) ، ولا ينبغى أن تفرض الرغبات على الطبيعة ، بل أن نتبع مبادئ الطبيعة .
- * يؤمكّن تبسيط هذا المذهب فى قول أحد الصوفية (الإسلاميين) - حين

اشتكى أصحابه من غلاء اللحم - (أرخصوه) ، أى لا تشتروه ، لأن (الطبيعة الإنسانية - التاو) لا تعتمد عليه ، بل قد تصح بدونه ، وكذلك الشأن مع بقية الرغبات التى تثير الإحن والشجن ، وكما قال الكاتب الإسلامى مصطفى الرافعى : (فرق ما بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء ساعة جوع وساعة عطش) ، والشاعر العربى يقول : (النفس راغبة إذا رغبتها ، وإذا ترد إلي قليل تقنع) .

الحياة الإنسانية لا تقوم على كثرة المال ، ولا على سعة الجاه ، ولا على قوة السلطان ، وهذا ما أدركه صوفية المسلمين ، وفقراء الهنود ، ورهبان الأديرة فى بطون الصحارى ، وفوق ظهور الجبال .

يقول صاحب (التاريخ كيف يفسرونه ص ٧ - ٨) : إن أقرب شئ فى الصينية إلى (التاو - الطريق) هو معنى الانتظام ، وبخاصة فى عمليات الطبيعة ، ذلك لأن من يعيشون عيشة الفلاحة يهتمون به ، من حيث تعاقب الفصول ، والترتيب المتجلى فى نمو النباتات وإثمارها وتصويحها وتلفها ، والتكرار المتسق لحركات الأجرام المساوية .

وكان الناس يحسون أنهم جزء من (الطبيعة) ، مع انطباعة مباشرة باستمرار الفضاء المحيط بهم إلى ما لا نهاية ، واشتماله على كل شئ .

وربما كانت يقظة (التاو) تدل على (الكل) الضخم الجامع للأشياء التى تدرك حسياً (فيزيقياً) ، لأن (التاو) - بوصفه (الكل) - يسيطر على كل ما وقع داخله ، ولما لم تكن ثمة جدوى من مكافحته انتشر بينهم جميعاً اتجاه عام إلى تقبل سلبي لمجريات الأمور ، بيد أن الصينيين لم يكونوا يعدّون أجزاء (الطبيعة) ، ولا الطبيعة بأكملها ، موأناً مجردة من الحياة ، ومهما بلغ من إبهام تصورهم للفكرة فإن كل شئ كان يعامل ويتجاوب معه بوصفه شيئاً له حياة داخلية ، كالتى يحس بها الناس أنفسهم ، وإن قدماء الصينيين كثيراً ما تحدثوا عن (أرواح) الأنهار والأشجار ومعظم ما عداها من أشياء . . وأسمى الأرواح منزلة هو (شانج تى) رب السموات ، وهناك (زمالة) أو قران بين الناس وهذه الأرواح اللابشرية ، تجرى فى المناسك الزراعية والمنزلية ، وفى الشعائر الدينية ،

وترامى الأمر فى النهاية إلى أن أصبح الحاكم الأعلى للصين يلقب بلقب (ابن السماء) .

وشاع بينهم الاعتراف بثنائية الوجود Dualistic ، يعبر عنها المصطلحان (ين Yin) المبدأ الأنثوى ، و (يانج Yang) المبدأ الذكورى ، ذلك أن (ين) يمثل حالة التلقى والاستيعاب والسلبية النسبية ، فى حين يمثل (يانج) الناحية (الإسقاطية) الإيجابية الناشطة ، ويكمل كل منهما الآخر .

ومن هنا كان التنظيم والترتيب ، والاتزان ورباطة الجأش ، فى الخضوع للإيقاع العام الصاعد من (ين يانج) ، أو (چانج Jang) ، بمعنى (يدعن ، يتخلى عن ، يستسلم ، يتنازل عن الموقع الأفضل ، يدعو) - موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين ص ١٦٣ .

وقد ظل الشعب الصينى بأسره (تقريباً) يمارس - على مدى تاريخه كله - عبادة الأجداد ، وهى تومئ إلى الإيمان بأن أرواح من ماتوا لاتزال تواصل العيش ، محتفظة بحاجاتها البشرية ، ولن تتضح للأذهان أشكال القرابين وزيارات المقابر وشعائر الأسلاف المنزلية إلا مقترنة بذلك المعتقد ، ويبدو أن فكرة الخلود الشخصى ضمنية هنا ، لكن لم يحدث أن الصينيين - بطبعهم الأصلى - عاجلوا هذه الحياة بوصفها تمهيداً وإعداداً لأخرى فى عالم آخر ، ولا بوصفها مرحلة كمال لا بد من بلوغها فى سلسلة متتالية من الحيات ، ولم يخض مفكرو التاوية ولا الكونفوشية غمار أى بحث جدى فى الخلود الشخصى ، ولا التمسوا فى التاريخ أى معنى من ناحية تلك الفكرة .

وهذا (الزهد أو العزوف) لا يمثل إنكاراً ، بل هو كما قال كونفوشيوس : (لا يعرف الناس كيف يدبرون شئون البشر ، فكيف يتسنى لهم العلم بشئون الآلهة والأرواح ؟) .

ومن هنا لا نستطيع الذهاب بعيداً بقول لاونزو : (طرائق البشر تقررهما طرائق السماء ، وطرائق السماء تقررهما طرائق التاو ، والتاو اكتسب كينونته من تلقاء ذاته) .

إنه الإيمان بالنظم الكونية التى تخضع لها كل المخلوقات ، بشراً وشجراً ، حيواناً وجماداً ، على السواء ، أما كيف كانت هذه النظم ومنذ متى ، وإلى أين ، ومن المنظم ، وما صفاته ، وما علاقته بهذه النظم - فأمر أبعد من القدرة الإنسانية ، كما قال : كونفوشيوس ، والانشغال بمعرفة الغيب إهدار للطاقة ، وإضعاف للإيمان ، وهروب من الواقع .

إن أولئك الذين شغلوا أنفسهم بحجاب الغيب - على مدى التاريخ الفلسفى - لم يزيدوا على أن (سودوا) صفحات (بيضاء) ،

والإرتباط بأرواح الكون فى شكل عبادة ، أو فى شكل تنظيم السلوك ، ليس بدعاً صينياً ، وإن أخذ فى الصين شكلاً يلائم البيئة ، ويلائم الذين انطبوعوا بهذه البيئة .

* ينقل صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٠١ - ٣٠٢) عن شوانج تسو (٣٦٩ - ٢٨٦ ق.م تقريباً) قوله : (يمضى الخير - فى حالة الوجد - ممتطياً صهوة الريح ، تحمله عربات السحب إلى اللامتناهى ، فىرى أن السماء والأرض ظهرا إلى الوجود معى ، ومعى أصبحت الأشياء جميعاً شيئاً واحداً) .

تعبير شعرى ، أو رؤية تجعل كل الأشياء نسبية ، فتتألف جميع الأضداد ، وتنسجم جميع المتقابلات ، لتكون التلقائية الشاملة (التاو) لجميع الأشياء . . كل شئ هو كذلك من ذات نفسه ، ومن ثم (يستطيع التاو أن يفعل كل شئ بألا يفعل شيئاً) .

من هنا يعارض (الخبير) المؤسسات والقوانين الأخلاقية والحكومية ، بوصفها حياءً بشرية تعترض الدور الحر للتاو ، وتعرقله ، لذلك كانت أفضل طريقة لحكم العالم هى ألا تحكمه ، وقل مثل ذلك فى فن الحياة ، فالسعادة يمكن بلوغها بالتَّرك ، بالسماح للتاو بالقيام بدوره الحر ، بالانغماس فى أنشطة ليست أفعالاً ، إن الصفات والقيم نسبية ، وما هو موجود فهو خير . . (الحياة والموت شئ واحد ، وكذلك الصواب والخطأ) ، وهذا هو ما يحرر الإنسان من قيوده وأغلاله .

يقول لاوتزو : (التاو كوعاء ، رغم إنه فارغ يمكن أن يسحب منه بلا نهاية ، وليس فى حاجة إلى أن يملأ ، أنه عظيم جداً ، وبالغ العمق ، حتى ل يبدو أنه أقدم من كافة الأشياء ، إنه فى سكونه كالخلود نفسه ، إننى لا أعرف ولید من هو) .

والقول بأن (التاوخاو) إشارة إلى أنه بلا سمات ، أو خصائص ، إنه خاو من كل خصوصية ، لأنه إمكانية ، ومصدر كل خصوصية ، وعلى الرغم من أنه خاو من أشياء محددة فهو الأكثر نفعاً بين كل الأشياء .

ولمساعدة الحاكم (التاو) لا يستخدم المرء القوة والعنف ، لأن ذلك من شأنه أن يحدث انقلاباً أو عكساً للأمور ، لأنه (عندما تغدو الدنيا باردة للغاية فإن عكساً للأمور يحدث ، ويبدأ الدفء فى القدوم ، وعندما يتفاقم الحر ، فإن عكساً للأمور يحدث مجدداً ، ويبدأ البرد فى الانعدام ، وهذا هو طريق الطبيعة على نحو مادي تعاقب فى الفصول) .

وهذا القول نقله الدكتور إمام - مترجم (الفكر الشرقى القديم) - على علاقاته ، دون نظر إلى أن هذا يحدث بسبب دوران الأرض حول الشمس ، مع اتساع دائرة الدوران وضيقها ، أو مع القرب من الشمس والبعد عنها ، وإلا فارتفاع درجة حرارة المريض - دون تدخل خارجى - يؤدى إلى الموت ، واشتداد برودة القطبين لا يؤدى إلى مزيد من التجمد ، وحين نترك القدر يغلى على النار لا تنخفض درجة الغليان .

ومن العجيب أن ينسب إلى لاوتزو - بناء على هذه القاعدة - قوله (كلما زادت المحرمات والضوابط فى العالم غدا الناس أكثر فقراً) ، و (كلما فرضت قوانين وزواجر إضافية زاد عدد اللصوص وقطاع الطرق) ، مع أن هذا القول يقوم على أن أكثر المحرمات والضوابط تغل القدرة على الإنتاج ، فيكون الفقر ، وكثرة القوانين دليل على ضعف سيطرة الحاكم ، أو على سوء علاقته باللصوص ، ومن هنا كانت كثرة عدد الخارجين على القانون ، فالأمر لا يرجع إلى قاعدة (إذا زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده) إلا من خلال الممارسة الأخلاقية ، فالإنسان ليس مجرد مادة كثرة الطرق عليها يزيد لها ليونة ، أو يفتتها ، إن ثمة قدرة على (التكيف الحيوانى) ، وثمة قدرة على (التمرد) ،

وثمة ما هو من المراوغة وسعة الخيلة والدهاء والنفاق ، وقد نذهب مذهباً صوفياً ، فتحدث عن القدرات النفسية التي تتحدى - وهي فى (صورة) الهدوء والصمت والسكون - أعتى القوى المادية .

ولا علاقة لهذا بالقول (إن الأضداد متكاملة) ، لأن هذه القاعدة تتمثل فى أن (ما هو موجود يتضمن ما ليس بوجود) ، وكما يقول شوانج تسو (إنه عندما تكون حياة يكون موت ، وعندما يكون موت تكون حياة ، وحين يكون هناك إمكان تكون استحالة ، وحين تكون استحالة يكون إمكان ، وبسبب الصواب يكون خطأ ، وبسبب الخطأ يكون صواب) ، إن هذا قد يمثل قصوراً فى الحكم ، وعجزاً عن الإحاطة ، وعدم إدراك لماهية الوجود ، وعدم الإلمام بكل خصائص المادة ، لكنه فى الوقت نفسه ينزع منزع قولهم (إن الأسد مجموعة من الحملان) ، لأن قوته نشأت من افتراسها ، أو (كل الأنهار تصب فى البحر والبحر ليس بماء) ، أو ما يقال عن دورة الحياة .

يقول شوانج تسو : (ذات مرة حلمت ، أنا شوانج تسو ، بأنى كنت فراشة ، وكنت سعيداً باعتبارى فراشة ، وكنت أعى أننى مسرور تماماً بنفسى ، ولكنى لم أكن أعرف أننى تسو ، وفجأة استيقظت ، وهناك عرفت بجلاء أننى تسو ، ولم أدر ما إذا كان تسو يحلم بأنه فراشة ، أم أن الفراشة هى التى تحلم بأنها تسو) .

إن عدم التمييز بين الحلم والحقيقة ، بين الصواب والخطأ ، قد يستدعى - كما يقول شوانج تسو - أن تنسى (التمييز بين الصواب والخطأ ، وأن تستريح فى عالم اللامتناهى) ، لكنه لون من الهروب الصوفى القائم على الفناء فى المطلق ، لأن هذا لا يمثل إلا حالة انقذاح الشرارة من الزند ، وما هى إلا الملح (لا إرادية) ، فقد يبرد الزند ، ولا تنقذح له شرارة .

ثم ، (كيف يمكن أن نعرف أن ما ندعوه معرفة ليس فى حقيقة الأمر معرفة) ؟

(إن الإطار المعرفى المؤلف غير مقنع وغير كاف ، ولا بد من تبني إطار معرفى جديد ، إطار معرفى شامل ، للإفلات من قيود المشروع المعرفى المحدود الذى يتم توظيفه عادة) ، ولكن كيف ، والأمر نسبى ؟

لهذا يجب الوقوف فى (اعتدال) عند قول لاوتزو : (إذا أردت ألا تسكب النبيذ فلا تملأ الكأس أكثر مما ينبغى ، وإذا أردت لنصلك أن يحتفظ بحده فلا تتجاوز حدود المضاء ، وإذا لم ترد أن يقتحم دارك اللصوص فلا تملأه بالذهب . . الشراء والجاه والخطرة تدفع إلى الدمار ، فإذا ما أدت عملك ، وقمت بما يجب عليك نحو الآخرين ، انسحب ، هذا هو طريق السماء) .

* يقول صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣١١ - ٣١٣) :
طورت الكنيسة التاوية ضرباً من الطقوس والخدمات الدينية التى تقام للتكفير عن الخطيئة ، وكفارة المرض الذى (يُعتقد أنه حدث بسبب الخطيئة ، ويقوم الكاهن بتلاوة بعض التعاويذ على الماء ، ثم يقدمه إلى التائب ليشربه ، فإذا فشلت هذه العملية فى تحقيق الشفاء يعزى الفشل إلى نقص الإيمان) .

وفى الكنيسة الغربية (غربى الصين) يدفع المؤمن خمسة مكيالات من الأرز فدية مالية ، (وقد ظلت الكنيسة الغربية - لعدة قرون - تعرف على المستوى الشعبى باسم « عقيدة مكيالات الأرز الخمسة ») . . وتدون الخطايا كما تدون الاعترافات ، وتعد ثلاث نسخ توجه إلى السماء والأرض والماء ، توضع واحدة على قمة جبل ، بينما تدفن الثانية فى باطن الأرض ، وتلقى الثالثة فى عمق . . والخطايا التى يكفر عنها بهذه الطريقة هى : السكر ، والفسق ، والسرقة .

كانت الديانة التاوية والكنيسة التى تدعو لها - فى نهاية أسرة هان - أبعد ما تكون عن مدرسة التصوف التى كانت تحمل اسم (التاوية) فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ، فقد تحولت التاوية من نظرية فلسفية تقوم على أساس الحدس الصوفى إلى ديانة للخلاص ، ومن مسألة تأمل شخصى وخاص إلى منظمة ذات نظام كهنوتى تصاعدى وأتباع .

وفى نهاية أسرة هان تحولت التاوية إلى ديانة ، على نحو ما كانت عليه البوذية ، وما صارت إليه الكونفوشية ، وكانت استجابة الناس لها على نطاق واسع .

وقد ظلت ديانة ذات شأن خلال ست أسر حاكمة ، حتى أسرة تانج Tang ، بل إنها حظيت فى بعض الأحيان بالرعاية الإمبراطورية .

لقد عمد بعض (الفقهاء) الشعبيين إلى هذه العقيدة (الغامضة) فصاغوها تدريجياً في صورة (دين) ، واتخذ الناس (لوتزو) إلهاً يعبدونه ، وأضافوا عليها مسحة سماوية ، فذكروا أن أمه حملت به حملاً سماوياً ، وأنه ولد كامل العقل ، طاعناً في السن ، لأنه أقام في بطن أمه ثمانين عاماً .

ولقد عبّد دين التاوية هذا للمؤمن عدة طرق توصل إلى الجنة ، ولما كان المؤمن المخلص - في صورته الشعبية البسيطة - شديد الفقر ، بحيث يعجز عن المشاركة فيما ابتدع الكهنة من أساليب ، ولما كان محدود الثقافة ، أو من الجهل بحيث لا يمكنه أن يتابع البحوث (الموضوعية) عن الاتحاد والجذب الصوفي - فقد أقنعه الكهنة بأنه عن طريق التقوى والاعتراف والتكفير ، و (طاعة الكنيسة) ، يمكنه البقاء فترة في العالم السفلي ، ثم يتم إنقاذه ، فينقل إلى الجنة .

وفي مرحلة عليا من التدين ، يستطيع المؤمن بالإحسان ، والتقشف ، وتأدية الخدمات للكنيسة ، أن يبلغ مرحلة يلحق فيها بطبقة الموظفين الرسميين في العالم السفلي ، ومن خلال هذه (الخدمة) يضمن دخول الجنة .

والسالك الحق كان يسعى إلى تجنب الموت ، والعبور مباشرة إلى عالم الخالدين ، في السماء ، فهناك أساليب متعددة ونظم كثيرة ، يمكن بواسطتها بلوغ مرتبة الخالدين ، لكن هذه المرتبة مقصورة على فئة معينة من كبار رجال الطريق (التاو) .

وهذه النظم تشمل عادات خاصة بالغذاء ، وتمارين التنفس ، وضبط العملية الجنسية ، وما شابه ذلك ، حتى تحل في الجسد الفاني عناصر أثيرية معتل العناصر المادية الفانية .

وعن طريق التأمل ، والتركيز العميق ، يدخل في حالة السكون والطمأنينة ، ويستطيع الاتصال مع الأرواح الخيرة ، التي تؤدي بالتدريج - كلما تقدمت الرؤية - إلى تحقيق الخلود .

التلاميذ ..

تمثل أفرع الفكر التاوى فى الأجزاء المختلفة من كتب (شوانج تسو) ، و (ليه تسو) ، و (لاوتى تشنج) ، و ثمة أسس مشتركة وأفكار أساسية تتحرك فيها جميعاً .

ولعل (شوانج تسو) أبرز هؤلاء الثلاثة بكتابه التى يقدم أفكاره فى صورة أمثولات ، أو حكايات رمزية ، وحوارات متخيلة بينه وبين نقاده ، وانتقادات لاذعة لأحاديث المقاطعة ، وقصص عن القديسين التاويين تمثل شكلاً من أشكال المعرفة لا يلم به إلا الخبير ، أو (سالك الطريق) فحسب .

موتزو Motzu (٤٨٠ - ٣٩٠ ق.م تقريباً) .

يظن بعض العلماء أنه ولد فى ولاية (لو) ، شأن أستاذه كونفوشيوس ، لكنه كان من أصل متواضع نسبياً .

درس على أولئك الذين نقلوا مبادئ كونفوشيوس ، وأحس أن الكونفوشية لم تصل إلى جذور المشاكل التى تسببت فى شقاء الناس ، فانشق عليه ، وأسس مدرسته الخاصة .

كان يتحدث عن (التاو) كثيراً ، كما كان يفعل كونفوشيوس ، وكان يقول :
(إن الذين يعرفون الطريق سيعلمون غيرهم دون أن يحسوا) .

وكان يرى - كما كان يرى كونفوشيوس - (أن الحكومة يجب أن تستهدف تحقيق رغبات الشعب) .

كما كان يرى (وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب) ، وفى هذا يقول :
(لنفرض أن حاكماً أراد أن يصنع رداء ، فسيبحث عن خياط ماهر ، وإذا أراد
أن يشفى جواداً فسيبحث عن بيطرى ماهر ، ولن يستخدم قريبه ، أو أحد الأثرياء
النبلاء الذين تعوزهم المهارة . . لكن إذا كان الموضوع حكم دولة فإنه يختار
الأقارب والأثرياء بلا مواهب ، لمجرد حسن مظهرهم . . هل هذا الحاكم تهمة
الدولة مثل اهتمامه بلبس أو جواد ؟) .

وذهب إلى أن المجموع الكلى للتجربة البشرية يشهد بوجود إله ، وأن الإله
غاية وإرادة ، ويمكن تصور الغاية والإرادة فى الحب والرحمة ، والنظام هو
التجلى النهائى للرحمة الإلهية . . وأصر على أن (السماء) هى التى استوجبت
الحب الشامل بين الناس ، وأن (السماء) تثيب الأفراد أو تعاقبهم بقدر طاعتهم
لإرادتها أو عصيانهم لها .

ويقول : (إن الناس جميعاً متساوون فى أعين السماء ، السماء تمطر على
العادل والظالم ، البر والفاجر ، والسماء تنشر حبها على الناس جميعاً ، بغض
النظر عن اختلاف معتقداتهم ، واختلاف أعمالهم ، لهذا ينبغى أن يحب الناس
بعضهم بعضاً ، بلا تمييز ، وبقدر متساو) .

وقد بدا هذا التفكير - لمنشئوس - مدمراً للحياة ذاتها ، ولهذا احتج قائلاً :
(إنها إهانة للمشاعر البشرية كلها) .

وعلى الرغم من اعتراضات الكونفوشية على نظرية المحبة العامة ، فقد
واصل (موتزو) عرض فكرته ، موضحاً أن الناس يفهمون ما الذى يجلب لهم
النفع ، وما الذى يسبب لهم الضرر ، ولو أتيت لهم الفرصة لاختاروا المحبة
الشاملة الجامعة ، لأن المعيار هو الصالح العام ، وهذا الصالح العام لا يكون إلا
بالمحبة الشاملة الجامعة .

إن الفعل الأخلاقى الأسمى للفرد - فى مذهب موتزو - إنما يوجد فى
التضحية من أجل الجميع .

* ولقد كون مع تلاميذه - لتحقيق هذه الغاية - جماعة متعاهدة ، انخرطت
فى مذهب متطرف من الزهد ، وارتدوا ثياباً خاصة ، ووضعوا شعارات مميزة ،

وأذعنوا تماماً لرئيس الجماعة .

كانت الحرب هي النقيض الصريح للحب الشامل ، ومن ثم انتقدت الجماعة أى ضرب من ضروب العدوان ، هذا على حين رأى خصوم الجماعة أن الحرب سوط عذاب في أيدي الصالحين ، وأن القتال في سبيل قضية عادلة هو نفسه عدالة ، ويبدو أن الجماعة تأثرت بحجة الخصوم ، فرأت أن أعظم قدر من الخير قد يكون في دفع العدوان . . ولقد كرس فرع من الجماعة نفسه لتحقيق (دفع العدوان) ، عن طريق دراسة فنون الدفاع عن المدينة ، وكان من أعجب النتائج الجانبية لهذا الهدف اختراع عدد من وسائل التحصين . . وتتضمن (قوانين المنطق) - عند هذه الجماعة - إشارات عديدة إلى الميكانيكا ، ومبادئ علم البصريات ، وهذا بسبب الاهتمام بالهندسة الحربية ، وهي إشارات من أقدم الملاحظات العلمية في التراث الصيني .

منشيوس Mencius (٣٧١ - ٢٨٩ ق . م تقريباً)

تفرق تلاميذ كونفوشيوس بعد موته ، ونشأت منهم مدارس كونفوشية متعددة ، وأهم شخصيتين بينهم كان منشيوس الذي هو بمثابة أفلاطون من سقراط ، وهسون تزو الذي يشبه أرسطو .

كان منشيوس - مثل أستاذه - مُعلِّماً شغوفاً أن ينال منصباً في بلاط دولة من دول المدينة ، فبحث عن أمير (يضع طريقه - التاو - موضع التطبيق) ، وممر بتجارب محبطة عندما أخفق في العثور على هذا الأمير ، وبعد أن خدم فترة وجيزة وزيراً في ولاية (تشى) اعتزل العمل ليعيش حياته الخاصة مع تلاميذه المخلصين .

وبعد وفاة منشيوس جمع أتباعه أقواله وتعاليمه ، وبقي نص بعنوان (أعمال منشيوس) ، على غرار (مختارات كونفوشيوس) ، يحتوى على أقواله ، في صورة جمل وفقرات ، وحكايات توضيحية ، وحكم وأمثال سائرة .

والهدف الذي نذر له نفسه - كما فعل معلمه - أن يستوعب حكمة القدماء ، دون أن يبدع شيئاً من ذات نفسه .

كان كونفوشيوس يقول : (أنا ناقل ولست مبدعاً) ، لكن عملية (النقل دون إبداع) تحولت فى تاريخ الكونفوشية إلى (إبداع عن طريق النقل) ، فقد كان منشيوس يتحدث إلى عصره ، مؤولاً حكمة القدماء بما يحتاجه العصر ، وفى هذه العملية يكمن إسهامه المميز فى الكونفوشية .

أدخل منشيوس - من خلال تأكيده على العدالة - الاهتمام بالشعب ، على حين لم يكن لدى كونفوشيوس ما يقوله عن الشعب إلا أقل القليل ، وأصبح ضمان وصول الشعب إلى حقوقه هو واجب الأمير عند منشيوس ، وكان لدى منشيوس ما يقوله عن الاقتصاد ، إذ كان يرى أن حلقة الاتصال بين الاقتصاد والأخلاق محكمة ، (فالذهن الثابت بلا معيشة ثابتة أمر مستحيل) ، وهكذا يصبح واجب الحكومة (توفير ضرورات الحياة بكميات كافية) .

وكان يذكر أن جميع الناس ينطوون بطبيعتهم على إحساس بالرحمة نحو الآخرين ، وأن بهم إحساساً بالخجل يصرفهم عن الشر ، وإحساساً بالحياء ينتجه نحو المجاملة ، وإحساساً قادراً على التمييز بين الصواب والخطأ ، وإحراز هذه الصفات هو الذى يميز بين الناس والكائنات الأخرى .

وكان يرى أن الشر الموجود فى العالم له ثلاثة مصادر : ١- الظروف الخارجية . ٢- التخلي عن الخير الفطرى . ٣- عدم تغذية المشاعر والحواس بالمعرفة .

ومن أقواله : (لو أن شخصاً بذر بذوراً مثالية فى أماكن متفرقة ، فإن البذرة التى تقع على تربة غنية مشبعة برطوبة كبيرة ستغل محصولاً وفيراً ، فى حين أن التى تنمو فى تربة فقيرة ، ويصيبها قدر يسير جداً من المطر ، يكون محصولها سيئاً ، والناس كذلك يختلفون باختلاف البيئة التى ينشئون فيها) .

(إذا أردت طفلاً يتحدث بلهجة « تشى » فمن الأفضل أن تبعث به إلى ولاية « تشى ») .

(الحاكم العاقل الذى يرغب فى أن يكون شعبه فاضلاً عليه أن يهتم بالبيئة التى ترعى الفضيلة ، لأن الفقر المدقع يترك ندوباً فى عقول الناس وقلوبهم ، فضلاً على أنه يضنى أجسادهم) .

ولكى يبين أن التدخل فى نظم الطبيعة يفسدها ، ضرب مثلاً برجل من (سولنج) أصابه الحزن لأن حنطته ليست أطول عوداً مما هى عليه ، فراح يجذب العيدان لأعلى ، وحين عاد إلى بيته بدا فى غاية الحمق ، وهو يقول لأهله : (أنا اليوم مرهق ، إذ كنت أساعد الحنطة على النمو) ، فجرى ابنه ليرى الحنطة ، فإذا هى ذابلة كلها .

هسون تزو Hsuntzu (٣٢٠ - ٢٣٥ تقريباً)

ولد فى ولاية تشاو Chao ، ودرس الفلسفة فى ولاية Ch'i ، حيث كُرم تكريماً سامياً ، بوصفه من العلماء ، وأسند إليه منصب فى البلاط ، حيث كان ممثلون لفلسفات عديدة ، فأثار (تزو) عداوات عجلت بمغادرته (تشى) .

وهو - شأن كونفوشيوس - لم يتجه إلى إنكار الغيبيات ، بل اقتصر على تجاهلها ، (إن طريق السماء ، وإن يكن عميقاً ، فإن هذا الإنسان يأبى أن يركز عليه عميق التفكير ، وهو - وإن يكن شيئاً عظيماً - لن يستخدم قدرته فى فحصه وبحثه ، وهو - وإن يكن حافلاً بالأسرار - يأبى أن يتقصى أسرارهِ) .

كان يهاجم ميول منشيوس المثالية ، مفضلاً نظرة واقعية للمشكلات .

بدأ من مقدمة قاسية تقول : إن البشر ولدوا شريرين ، لكنه فى الوقت نفسه يؤكد أن فى استطاعتهم أن يصبحوا أخياراً بالتربية والتهديب الأخلاقى . . وتستمد التربية والتهديب الأخلاقى من النصوص الكلاسيكية ، ومن النظر إلى حكماء الماضى ، باعتبارهم قدوة ، وهؤلاء الحكماء لا يختلفون عن سائر البشر فى طبيعتهم ومواهبهم الأساسية ، وإنما هم نماذج لما يمكن بلوغه بالفهم والبصيرة الأخلاقية ، إذا تم استخدام العقل استخداماً سليماً .

وكان يقول : لا سبيل للناس إلى إشباع كل رغبة يشتهونها ، على أن فى إمكانهم الحصول على كل ما يهيئهم له وضعهم الاجتماعى ، (فالصغير يخدم الكبير ، والوضيع يخدم الرفيع ، والمنحط يخدم الشريف) ، تلك هى قاعدة العالم السارية ، (فلو ترك الناس مراكزهم ، ولم يخدم بعضهم بعضاً ، فالعاقبة هى الفقر ، وإذا قامت جموع الجماهير بلا تقسيم اجتماعى ، فالعاقبة هى الفوضى) .

إن العقل هو الميزان ، وهو صماء الأمان ، لكن بشرط أن تفسح أمامه الطريق ، وأن تيسر له سبل المعرفة ، (حين يسير شخص في الظلام ، يرى الحجر القابع على الأرض فيظنه ثمرًا رابضًا ، ويرى مجموعة من الأشجار فيظنها رجالًا منتصبين ، ذلك أن الظلام يغرر ببصره . . ولقد عاش في جنوب مصب نهر «هسيا» رجل يدعى «جوان - شو - ليانج» ، وكان مخبولاً رعديدًا ، وذات ليلة خرج والقمر ساطع ، فأحنى رأسه على حافة الماء ، ورأى ظله ، فظنه شيطانًا يتعقبه ، ثم رفع بصره فرأى شعره منتفشًا تعبت به الريح ، فظنه غولًا واقفًا ، فجرى هاربًا) .

إن النظام الأخلاقي والكمال البشري يبدأ من العقل ، بل إن العقل البشري - في نظره - يعد مركز الكون .

وقد قادته هذه الفكرة إلى نظرة إنسانية عقلانية للدين ، فأدان بغير تحفظ بعض الممارسات الدينية ، وعدها من قبيل الخرافات . . ومن ذلك : الصلاة استجلابًا للمطر ، وطرد المرض بالرقى والتعاوين ، وقراءة بخت المرء من ملامح وجهه ، لكنه أباح التنبؤ بالغيب ، شريطة أن تقوم التأويلات على العقل البشري ، وأنكر وجود الأرواح الشريرة والأشباح الضارة . . وأصبحت أرواح الأسلاف وقوى الطبيعة عنده تجليات للسمو الخلقى ، وبالفهم الكامل للطبيعة يستطيع الناس في رأيه أن يسيطروا على الكون وعلى بيئتهم .

وهكذا أصبح هسون تزو أعظم الفلاسفة العقلانيين في الكونفوشية .

وآراؤه في الحكومة مماثلة لآراء كونفوشيوس ، فالحكومة للشعب ، وليست للحاكم ، وإفقار الناس وسوء معاملة العلماء مما يشجع على الاضطراب . . ولا يمكن أن يفوز أى حاكم في حرب وليس بينه وبين شعبه مودة واتلاف .

الدين القومي ..

كان (هان - كاو - تسو) أول أباطرة (الهان) الذي قام سنة ١٩٥ ق.م بتقديم قرابين هامة في معبد أسرة (كهونج)، تكريماً لكونفوشيوس .

وفي عهد أسرة هان (٢٠٢ ق.م - ٢٢٠ م) طعمت الكونفوشية بقدر كبير من مختلف الأفكار العلمية الزائفة ، بل وبأعمال السحر ، وقد صار هذا اللون الجديد من الكونفوشية - كما قال هوشيه Hushih - (ديانة مركبة عظيمة ، امتزجت فيها كافة عناصر الخرافات الشعبية ، وعبادة الدولة ، وأدخلت فيها النزعة العقلية ، للتخلص من القليل من المبادئ التي يستحيل قبولها ، والمستترة بدقة تحت سماء الدراسات القديمة للكونفوشية والسابقة عليها ، لكي تبدو مبجلة وجديرة بالثقة ، وبهذا المعنى كانت الكونفوشية الحديثة في إمبراطورية «هان» الديانة القومية للصين بحق) .

ويبدو أن الإمبراطور ون Wen (١٧٩ - ١٥٧ ق.م) - رابع حكام أسرة هان - قد تأثر كثيراً بمبادئ الكونفوشية ، فعمل على تحقيق رفاهية الشعب ، خفض الضرائب حتى وصلت إلى حدها الأدنى ، وأعتق عبيد الحكومة ، وقاوم فساد الموظفين ، وخفف من شدة القانون ، حتى صارت عقوبة الإعدام نادرة التنفيذ ، وأجرى معاشات على المسنين ، وألغى القوانين التي تحظر نقد الإمبراطور ، قائلاً إنه يود أن يعرف أخطائه ، واقترح - طبقاً للمبادئ الكونفوشية - ألا يتولى ابنه العرش ، وأنه يجب البحث عن أفضل شخص في الإمبراطورية ليجلس مكانه . . وقد عاش عيشة مقتصدة ، وطلب عندما يتوفى أن يقتصد في نفقات العزاء .

وفى عهد الإمبراطور (وو Wu) الذى حكم من ١٤٠ إلى ٨٧ ق. م ، وتعلم على يد الكونفوشيين - قُدم اقتراح بأن تكون الكونفوشية هى الفلسفة الوحيدة للحكومة ، وعُيّن موظفون فى البلاط لدراسة الآداب الكلاسيكية للكونفوشية وتفسيرها ، بل أنشئت جامعة إمبراطورية لتدريس الكونفوشية ، واختير ضباط الدولة من بين خريجيها ، بل إن تعيين الموظفين كان على أساس امتحان فى الدراسات الكونفوشية القديمة . . وهكذا تم بالتدريج طرد أتباع غير الكونفوشية .

وتحت حكم الإمبراطور (هسوان Hsuan) الذى حكم من ٧٣ إلى ٤٩ ق. م ، دُعِيَ مجلس من ثقات الكونفوشيين ليناقدش - على مدى ثلاث سنوات - مشكلات تأويل الآداب الكلاسيكية ، وكتبت مداولات المجلس فى مذكرة رفعت إلى الإمبراطور . . وفى عام ٥١ ق. م صدق الإمبراطور على مضمونها ، ومنذ ذلك الحين استقرت عقيدة رسمية ، وتأويل رسمى للآداب الكلاسيكية الكونفوشية التى أصبحت لها سلطة رسمية فى الحكومة .

وانقسمت الكنيسة التاوية إلى جماعتين ، واحدة فى الشرق بتوجيه شانج شوه Chang chueh وأخويه ، وأخرى فى الغرب بتوجيه الشانجيين Changs من أسرة (شانج لينج) ، ولقد قيل إن الكنيسة الشرقية فى عصر ثورة أصحاب (العمامة الصفراء) حصلت على ثمانية أقاليم ، أى ثلثي إمبراطورية (هان) ، وإنها جندت ٣٦٠ ألفاً من أتباعها . . وكان للكنيسة التاوية فى هذه الأقاليم الثمانية ٣٦ منطقة ، وكان على رأس النظام الهرمى الإخوة الثلاثة Changs ، قائد وحاكم السماء ، وقائد وحاكم الأرض ، وقائد وحاكم الإنسان ، والخير - أو (السالك الأعظم) - هو المسئول عن المناطق الواسعة ، مع أكثر من عشرة آلاف من المريدين - أما المناطق الصغرى فتخضع لمسئولية (الخبير الأصغر) .

وكان هناك تقسيم مماثل فى الكنيسة الغربية ، يشرف عليها شانج هنج Chang heng ، وشانج لو Chang Lu .

وامتد النظام الدينى التصاعدى هابطاً إلى المجتمع الفردى ، مشكلاً مراتب من الكهنة وجمهور التابعين .

ومع هذا ، ظلت الشريعة الكونفوشية لألفى سنة هي العصب الرئيسى لمنهج التربية والتعليم فى الصين .

وفى جزء كبير من تاريخ الصين كان الاعتقاد أن الكونفوشية والتاوية مظهران أصيلان للروح القومى ، لا مجرد دعوة إلى الهداية ، تتطلب الانتماء والالتزام الشخصى .

* وقد ظهرت مع دخول البوذية - فى بداية العهد المسيحى - فكرة الدين ، بوصفه مؤسسة رسمية منتظمة ، فطورت (التاوية) - كرد فعل عاجل على البوذية - مؤسسات على نحو ما كان للبوذية من نظام كهنوتى هرمى ، وصارت لها معابد وأديرة وشريعة مقدسة . . غير أن القصر الإمبراطورى والمؤسسة الحاكمة ظلّا كونفوشيين ، وتأصلت الكونفوشية ، بوصفها الفلسفة السائدة بين الطبقات المسئولة عن الإدارة ، وفى المراسم والطقوس الرسمية ، وما تقدم الدولة من قرايين . . وبهذه الطريقة أصبحت جزءاً من الجهاز الحكومى ، بل عقيدة الدولة .

ومع هذا ، كانت هناك عناصر دينية كامنة فى كثير من مظاهر التنظيم العائلى والاجتماعى ، وفى طقوس وممارسات الجماعات الاقتصادية وغيرها ، وفى الحكم المحلى ، كما كان لها وجود مع الآلهة المحلية ، والمذابح الخاصة ، والمعابد المنتشرة فى القرى .

* وفى عهد أسرة سونج Sung - خلال القرن الحادى عشر الميلادى - ازدهرت الدراسات الكونفوشية ، كما عقد العزم على خطة إصلاح ذى طابع قومى خاص ، وقد شرع فلاسفتها ، أمثال شاويونج ١٠١١ - ١٠٧٧ م ، الذى طور نظرياتها على نحو رياضى ، عندما ذهب إلى أن الأعداد هي أساس الوجود كله . . وتشينج آى ١٠٣٣ - ١١٠٧ م ، الذى قال : (المعرفة الحقيقية ، والمعرفة المألوفة ، مختلفان . . لقد رأيت ذات مرة فلاحاً جرحه ثمر ، وعندما قال أحدهم إن النمر عاكف على إلحاق الأذى بالناس استبد الفرع بالجميع ، لكن محيا الفلاح استجاب على نحو مختلف . . إن الصبى الصغير يعرف أن النمر بمقدورها إلحاق الأذى بالناس ، لكنها ليست معرفة حقيقية ، المعرفة لا تغدو حقيقية إلا

عندما تكون من نوعية معرفة الفلاح . . من هنا فإن الناس حين يعرفون الشر ، ويواصلون اقترافه ، لا تكون معرفة حقيقية ، لأنها لو كانت كذلك لتوقفوا عن اقتراف الشر) .

وهذا قول يخالف بين المعرفة التجريبية والسماع ، ويدعو إلى الاستفادة من المعرفة التجريبية ، وإلا خرجت عن حدود التجريب الصحيح إلى مجرد مباشرة (سطحية) ، كذلك الطبيب الذى حفظ علوم الطب ، دون دراية بالتشريح ، ودون دراية بخصائص العقاقير ، وكذلك الشأن مع العالم الذى لم يدخل مختبراً ، ولم يتعرف إلى طبيعة العناصر وتفاعلاتها .

وشوتون آى ١٠١٧ - ١٠٧٣ م ، الفيلسوف الذى أصبحت أفكاره الأخلاقية والميتافيزيقية ممثلة للفكر الصينى لما يقرب من ألف عام ، فقد عبر عن أفكار تدور حول الجنس البشرى ، والكون .

ثم اكتمل هذا الفكر النظرى فى صورة نهائية على يد أعظم فلاسفة الصين شوهس Chu - Hsi ١١٣٠ - ١٢٠٠ م ، الذى أصبحت الكونفوشية بعد وفاته العقيدة الرسمية ، وظلت كذلك على مدى ألف عام ، حتى امتد أثرها إلى كوريا واليابان ، وقد أطلق على شوهس لقب (توما الإكوينى) الكونفوشىوسى .

والكونفوشية الجديدة - كما جاء على لسان شوهس - تذهب إلى (أنه يوجد فى أى عقل بشرى ملكة للمعرفة ، كما يوجد فى أى شئ مبرر وجوده ، ويرجع نقص معرفتنا إلى عدم كفاية بحثنا عن علة كل شئ ، ولا بد للطالب أن يذهب إلى جميع الأشياء الموجودة تحت قبة السماء ، بادئاً من المبادئ المعروفة ، وساعياً للوصول إلى أسسمى المبادئ ، وبعد بذل الجهد الكافى يأتى اليوم الذى يصبح فيه كل شئ واضحاً ومفهوماً) .

ثم إذا وانج منج ١٤٧٢ - ١٥٢٩ م يقول : إن (المعرفة هى بداية الفعل ، والفعل هو تمام المعرفة ، وعندما تتعلم كيف تكون حكيماً فستعرف أن ذلك لا يقتضى إلا جهداً واحداً هو أن المعرفة والفعل لا ينبغى فصلهما) .

(إن الرجل العظيم ينظر إلى السماء والأرض وحشد الأشياء باعتبارها

كياناً واحداً ، وهو يرى العالم أسرة واحدة ، والبلد شخصاً واحداً ، أما أولئك الذين يفصلون بين الموضوعات ، ويميزون بين النفس والآخرين ، فإنهم من صغار الناس) .

(كما أن الأطفال والأبوين يكونون أسرة واحدة ، فإن صلة الحب الأسرى التى تنطلق من إنسانية الفرد هى التى تخلق وحدة العائلة ، وفى العالم تخلق الوحدة ، من خلال رابطة الحب العظيم ، التى تنطلق من « چين » الكون ، وعند الرجل العظيم يتحد « چين » الكون مع « چين » الفرد ، وهناك وحدة لكل الأشياء تشكّل كياناً واحداً) .

(يتمثل تجلّى الشخصية الحقيقية فى محبة الناس ، ومحبة الناس هى الطريق لتجلّى الشخصية الحقيقية ، ومن هنا فإننى عندما أحب أبى ، وآباء الآخرين ، وآباء كل البشر - يمكن لإنسانيتى حقاً أن تشكل كياناً واحداً مع أبى ، وآباء الآخرين ، وآباء كل البشر) .

إذن (لا بد من حب كل شئ ، ابتداء من الحاكم ، والوزير ، والزوج ، والزوجة ، والأصدقاء ، إلى الجبال والأنهار ، والكيانات الروحية ، والحيوانات والنباتات ، حباً حقيقياً ، لكى أحقق إنسانيتى التى تشكل كياناً واحداً مع الجميع ، وعندئذ تتجلّى شخصيتى الحقيقية فى كامل صورتها ، مشكلة كياناً واحداً مع السماء والأرض وكل الأشياء) .

(إن الخير الأسمى هو المبدأ المطلق لتجلّى الشخص ومحبة الناس ، والطبيعة التى جعلتنا السماء عليها هى طبيعة نقية وكاملة ، وحقيقة كونها واعية وصافية ويعيدة عن الضبابية تبدو واضحة فى نشوء الخير الأسمى ، والكشف عنه ، والجوهر الأصلى للشخصية الحقيقية هو الذى يسمى المعرفة الفطرية للخير) .

والطبيعة الخيرة - بأشكالها جميعاً - يمكن ممارستها فى هذه الحياة ، (وذلك أن أساسها يكمن فى طبيعة العقل الجوانية ، فأما الظروف المتغيرة للوجود فلا حاجة لأن يكون فيها ، أو لا ينبغى أن يكون فيها أى نقص فى الاتزان الجوانى بسبب ما يعترى المرء من إخفاق أو نجاح ، وذلك أن المتحلى بالفضيلة ، أو الحكيم ، يعد الإخفاق ، أو النجاح ، أو الموت فى ريعان الشباب ، أو طول

العمر - إرادة اقتضتها السماء ، فهي من ثم شئ لا يبهج العقل ولا يزعجه) .

وذهب وانج منج إلى أن الكونفوشيين الخالصاء - لا البوذيين - هم الذين يتحلون حقاً بصفة الاتزان ، (ويدل ادعاء البوذيين بخلوهم تماماً من كل تعلق بالظواهر على أنهم بالفعل أصحاب تعلق بتلك الظواهر ، كما أن عدم ادعائنا - نحن الكونفوشيين - بأنه ليس لنا أى تعلق بالظواهر يدل على أننا لسنا أصحاب تعلق بها . . ويخاف البوذيون من المتاعب التى تنطوى عليها العلاقات الإنسانية ، وبهذا يهربون منها ، وهم مضطرون إلى الفرار ، لأنهم متعلقون فعلاً بها) .

وقال وانج منج : (إن العلوم الطبيعية فى بلاد العالم كله إذا اجتمعت لا تستطيع تفسير حقيقة غصن خيزران ، أو حبة أرز) .

إنه يقترب من الحقيقة الإلهية ، وإن لم يصل إليها ، أو لم يفكر فى الوصول إليها ، لأن الحواجز البيئية ، والتراث (الدنيوى) لم يساعده على البحث عن السر الأعظم خلف (غصن خيزران أو حبة أرز) ، ولو أنه وجد من يعينه على تفسير القوانين الإلهية ، وعلى واضع هذه القوانين ، لسهل عليه القفز فوق (سور الصين) إلى رحابة العالم الإلهى .

قال لأحد تلاميذه : (إن الغرض الذى تهدف إليه السماء من وراء عملية الخلق ليتمثل فى الأزهار والحشائش ، فهل لدينا طريقة نفرق بها بينهما ؟ قد نقول : إن هذه خير وتلك شر ، فإن كنت أيها الطالب يسرك أن ترى الأزهار قلت : إن الأزهار حسنة ، والحشائش رديئة ، أما إن كنت ترغب فى أن تنتفع بالحشائش ، فإنك ترى فيها الخير كل الخير ، وهذا النوع من الخير أو الشر إنما ينشأ مما هو كامن فى عقلك من حب هذا الشئ أو كرهه ، ومن هذا أعرف أنك مخطئ) .

قال التلميذ : (وفى هذه لا يكون ثمة خير أو شر ، فهل هذا صحيح ؟) .

قال المعلم : (إن الاطمئنان الناشئ من سيطرة القانون الطبيعى لهو حالة لا يفرق فيها بين الخير والشر ، على حين أن استشارة الطبيعة العاطفية هى الحالة

التي يوجد فيها الخير والشر كلاهما ، فإذا لم تثر تلك الطبيعة العاطفية ، لم يكن ثمة خير أو شر ، وهذا هو الذى يطلق عليه اسم الخير الأسمى) .

قال التلميذ : (إذن فالخير والشر لا يوجدان قط فى الأشياء نفسها) .

قال المعلم : (إنهما لا يوجدان إلا فى عقلك) - قصة الحضارة مج ١ ج ٤ ص ١٦٢ / ١٦٤ .

العبارة الأخيرة لا تسد الطريق إلى المعرفة ، بل تفتحها ، وإن كانت لاتدل عليها ، فالمعلم يعرف أن العوامل النفسية تتدخل فى الحكم ، وتميل به . . . ولو أننا تغلبنا على هذه (العوامل النفسية) - ذاتية أو تراثية - لأمكن للعقل الوصول إلى (الخير الأسمى) ، إلى البارئ المشرع الفارق بين الخير والشر ، المثير على الخير ، والمعاقب على الشر .

يقول (لن يو تانج) فى كتابه (أهمية العيش) : (لن توصف فلسفة بالتمام ، ولا فكرة عن حياة الإنسان الروحية بالكفاية - ما لم نربط أنفسنا بوثائق علاقة مرضية ومنسجمة مع حياة الكون المحيط بنا) .

ويقول : (إن الوثنى الصينى من الأمانة بحيث يترك خالق الأشياء متربعا فى هالة من الأسرار ، فى حين يشعر بإزائه بضرب من التقوى والتوقير المشوبين بالرهبة . . وحسبه هذا الشعور) .

البوذية فى الصين

بالرغم من سيطرة الكونفوشية والتاوية على الفكر الصينى لم تجد البوذية صعوبة فى التسلل إلى حصونهما ، واحتلال مواقع ذات أهمية .

فى عهد الإمبراطور منج تى Mingti أخذ البانديت كاسيابا ، رسول البوذية ، طريقة إلى الصين ، ثم تلتها سلسلة من المعلمين القادرين . . . وكان الرسل والجنود الصينيون قد خدموا فى البلاد البوذية فى آسيا الوسطى . . هذا بالإضافة إلى وجود (جاليات) من البلاد البوذية استقرت فى المدن التجارية الصينية . . ثم ظهرت قرب نهاية القرن الأول الميلادى جماعة بوذية فى لويانج Loyang العاصمة . . فلا غرو أن نجد فى سجل بلاط أسرة هان عام ٦٥ م ما يشير إلى وجود جماعة بوذية .

وفى سنة ١٤٨ م وصل مبعوث بارثى (خراسانى) اسمه شيه كاو Shihkao إلى لويانج ، وتعاون مع الجماعة البوذية هناك فى تأسيس كنيسة بوذية ، وأكب على ترجمة الكتب البوذية المقدسة إلى الصينية .

وفى سنة ١٦٦ م أقام الإمبراطور هوان Huan - من أسرة هان - مراسم تاوية وبوذية فى القصر الإمبراطورى ، وفى هذا اعتراف (رسمى) أو (سياسى) بالوجود البوذى .

ولكن أيام الدعاية البوذية العظيمة فى الصين كانت فى القرنين الثالث والرابع ، ثم لقيت اضطهادات محزنة ، ثم عادت فنشطت من جديد ، وأخذت تبرز وتشتهر قبل ظهور أسرة (تانج) .

كانت التاوية والبوذية عقيدتين متناقضتين في عدد من الجوانب الأساسية ، فالتاوية تسعى لإدامة الشخصية الإنسانية ، في حين تنكر البوذية وجودها ذاته ، فلا يوجد عن البوذيين ما نسميه (نفساً) أو (أنا) ، والتاوية تتطلع إلى خلود الجسد المادى ، بينما تنظر البوذية إلى الجنس البشرى - على نحو ما تنظر لجميع المخلوقات - من حيث هو عابر زائل .

على أن هذه الخلافات العقائدية كانت في البداية مبهمة غامضة لدى الصينيين ، إذ كان للبوذية - في ممارستها الدينية - أشياء متشابهة في ظاهرها مع التاوية ، فهي تمارس عبادة شعبية بغير قرايين ، وتضفى أهمية على التأمل ، وممارسات اليوجا ، وتهتم بالصوم والتقشف . . وقد ظل الاعتقاد شائعاً في الصين لعدة قرون أن (لاوتزو) ، أبا التاوية ، هو الذى علم بوذا ، وأن البوذية ببساطة صورة أجنبية من التاوية .

وعلى مدى أربعة قرون حل محل (الوحدة) زمن أسرة (هان) عهد من التمزق والاضطراب ، عرف بفترة الممالك الثلاث ، والأسر الست ، واستمر التفكك حتى توحدت البلاد في عهد أسرتي (سوي Sui) و (تانج Tang) .

وكانت فترة التفكك السياسى بداية عصر الإيمان فى الصين ، فقد أرخت حالة الاضطراب قبضة الكونفوشية عن المثقفين ، وازدهرت الكنيسة التاوية ، وأخذت البوذية تقوى وتنتشر .

وفى مرحلة التفكك هذه قصرت الكنيسة البوذية معظم طاقاتها على ترجمة الكتب البوذية المقدسة ، وأدخلت تنظيم جماعة الرهبان ، وأخذت تتغلغل فى الطبقات الحاكمة لتحظى بالرعاية والحماية .

وخلال القرنين الرابع والخامس للميلاد نجحت الكنيسة البوذية فى تشكيل صفوف كهنوتية عقلية من الرهبان الصينيين والأجانب الذين أخذوا يدعون لبوذية متكيفة مع ظروف البلاد ، حتى تمكنت من النفاذ إلى الطبقات الصينية العليا ، وأصبحت تمثل تحدياً قوياً للتاوية .

وعندما أعد كوماراجيفا - وهو بوذى من آسيا الوسطى - مكتباً للترجمة ،

بمساعدة الإمبراطور ، مع حشد ضخمة من المساعدين ، استطاع أن يخرج كتباً مقدسة جديدة ، وأعاد ترجمة المترجمات السابقة بعبارة أقرب إلى الوجدان الصيني ، فقد أضفت رشاقة لترجمات كوماراجيفا - بلغت ٩٨ كتاباً بقي منها ٥٢ - على الكتابات البوذية سحرًا جديدًا اجتذب المثقفين الصينيين الشغوفين بالأدب .

وفتحت مكاتب أخرى للمترجمين ، وبخاصة مكتب (بارامارثا) الهندي البرهمي الذي ترجم حوالي ٧٠ كتاباً ، منتصف القرن السادس ، ومكتب (هسوان تسانج) - من طبقة الموظفين الصينيين - الذي حج إلى الأماكن المقدسة بالهند سنة ٦٤٥ م ، وترجم عدة نصوص مقدسة جمعها في رحلاته ، برعاية الإمبراطور .

وبعد وفاة هسوان تسانج ، زار الهند عن طريق البحر (آي شنج) ، وجمع نصوصاً عكف على ترجمتها .

ومن هنا انتشر الاعتراف بطريق بوذا إلى النرفانا ، (الوجود المطلق غير المشروط ، والوجود الذي يدوم دون أن يُقضى إلى الموت ، أو إلى ميلاد جديد) ، ويأتي الخلاص عن طريق الاعتراف بالإيمان ، (إنني أجد ملاذ في بوذا ، إنني أجد ملاذ في الشريعة ، إنني أجد ملاذ في جماعة الرهبان) .

ومن تعاليم مدرسة تشان Ch'an (التأمل) الأساسية القول بأن (الخلاص يأتي من الاستنارة الداخلية ، وتأتي هذه الاستنارة في لحظة خاطفة ، على نحو ما حدث لبوذا ، إنها تحول فجائي يمكن بلوغه هنا والآن ، وهي تعلمنا أن الحقيقة الوحيدة هي طبيعة بوذا ، وعندما نستدير إلى داخل نفوسنا بنظرنا الفاحصة نستطيع أن نرى ذلك ، وبرؤية واحدة نهائية تنكشف لنا بغتة) .

وهكذا نجد أن (تشان) تعادى ما أصبح تراثاً في البوذية ، وتنظر نظرة عدائية إلى الصور والكتابات المقدسة ، وتنبد النظر الميتافيزيقي ، وكذلك النظرية ، لصالح الفكر العيني ، وبذلك تخلت عن عمليات التجربة الدينية المتدرجة ومستوياتها في سبيل لحظة واحدة ، وتجربة شاملة . . ولقد جمعت (تشان) في هذه الأمور أشياء كثيرة مشتركة مع تعاليم الطاوية الصوفية .

وبهذا أصبحت (تشان) مدرسة مستقلة إلى بداية القرن الثامن ، وبحلول عام ٧٥٠م كان لديها نظام خاص بالأديرة وقواعد الحياة فيها ، وقد زعمت أنها ترتبط بأصول موغلة في القدم - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣١٥ - ٣٢١ .

* وجاءت مدرسة الأرض الطاهرة Ch'ingtu ، لتبين أن من يعجز عن بلوغ الاستنارة بنفسه يمكن أن يصل إليها عن طريق الإيمان بفاعلية بوذا ، والتضرع البسيط لاسم أميتابها Amithabha (النور اللا متناهي ، بوذا صاحب الحياة الأبدية) - مقرونا بالإيمان بفاعليته - يضمن للمؤمن الميلاد من جديد في الأرض الطاهرة .

وتتطلب مدرسة الأرض الطاهرة إيماناً بسيطاً ، وابتهاالات بسيطة ، من المؤمن المتواضع الذى يرتبط بعمله اليومي ، فهو أفقر من أن ينغمس فى دراسة الشعائر الدقيقة وممارستها .

ولقد كانت هذه المدرسة - بقدر ما بقى فى الذاكرة الحية - أكثر صور البوذية شعبية بين العامة .

وما إن حلت سنة ١٠٠٠م حتى جذبت مدرسة تشان شنج تو ولاء الغالبية العظمى من الرهبان الصينيين .

* وثم أسس شيه يى Chih - yi ٥٣٨ - ٥٩٧م مدرسة (تيان تاى) ، وهو تلميذ هوى سو Hui - su ت ٥٧٧م ، الراهب الذى عمل بهمة للمحافظة على الآداب البوذية . . وكانت تعاليم (شيه يى) الذى كان فى بداية حياته مفسراً وشارحاً للشان (التأمل) - تقول : إن الخلاص لا يكمن فى عملية واحدة فحسب ، وإنما يكمن فى توازن دقيق للتأمل والتركيز ، ودراسة الكتب المقدسة ، والنظام الأخلاقى ، ومراسم الطقوس . . وهذا الرفض للتطرف ، بجانب الدور الذى خصص لدراسة الشريعة المقدسة ، كانا مبعث جاذبية خاصة شدت الكونفوشية .

ولقد أخرجت هذه المدرسة كثرة من الباحثين المتمكنين ، كما كتب (شيه يى) عدداً من الشروح والبحوث عن البوذية ، أثارت اهتمام الكونفوشيين ، بفضل اعتدالها وتفسيرها المنهجى البسيط .

وتستند مدرسة (تيان تاي) - وهذا الاسم مستمد من سلسلة جبال تيان تاي جنوب شرقي الصين - إلى : ١- أن الأشياء جميعها تفتقر إلى حقيقة أنطولوجية . ٢- للأشياء وجود مؤقت عابر . ٣- الأشياء موجودات غير حقيقية ومؤقتة في آن معاً .

وكل واحدة من هذه الحقائق تتضمن سواها ، وكان أول من علم هذه الحقيقة الثلاثية هوى ون Hui Wen - ٥٥٠ / ٥٧٧م - لكن الرئيس الثالث لهذه المدرسة (تشيه يى) هو الذى نظم الشريعة البوذية بطريقة جديدة - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٢٤ / ٣٢٥ .

وأشهر إلهة فى الصين (بوذيساتفا) هى (كوان ين Kuan Yin) التى كان يطلق عليها (إلهة الرحمة) ، توجد صورتها فى كل بيت تقريباً ، ومعابدها منتشرة فى أنحاء الصين .

يقول لويس هودوس : (إن بعض الصور الصغيرة لهذه الإلهة قد صورت تصويراً أنيقاً على الخشب والعاج والخزف ، وهى جميلة جداً وجذابة ، حتى كادت تحولنى إلى البوذية) .

وهناك شخصية (البوذا المنتظر) الذى تمثله الصورة يحمل حقيقة تحوى سعادة مقبلة للجميع ، وهو يضحك ، لأنه يعلم - بغض النظر عما تكون عليه الأمور من سوء - كم سيكون كل شئ عجبياً فى المستقبل المبارك .

والبوذية الصينية لم تقدم خلاصاً للصالحين والمؤمنين فحسب ، بل صورت فى عبارات واضحة العذاب الذى ينتظر الأشرار فى نيران البوذية المتأججة .

ويقول الأستاذ العقاد (الله ص ٧٥) : أراد الفيلسوف (شوهس) - فى القرن الثانى عشر - أن ينشئ بوذية صينية توافق مذهب بوذا فى أمور ، وتخالفه فى أمور ، فدعا إلى دين لا إله فيه ، ولا خلود للروح . . ووضع (لى) موضع (كارما) الهندية ، أو القانون ، أو القضاء والقدر ، وسمى دولاب الزمن (كايشى) لأنه المحرك لجميع الكائنات ، وجعل القانون والدولاب والمادة ،

أو (دوشى) ، قوام العالم ، ظاهره وخافيه ، فالمادة تحد من القانون ، والقانون خالدا لا وعى له ، ولا يسمع ولا يجيب ، وإنما ينشأ الوعى أو الإدراك فى الإنسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من الزناد ، فيخرج الشرر ، ثم ينطفئ فيموت ، وتزول الأرواح كما تزول الأجساد ، متى نضجت ، كما تنضج الثمرة فى أجلها المعلوم ، وقد يبطن النضج فيطول بقاء الروح ، فهى إذن طيف أو شبح ، كأنها الثمرة فى حالة العفن والإهمال .

وليقل (شوهس) ما شاء ، فقد خلقت الأفواه بلا أفعال ، وغاية ما وصل إليه هذا الفيلسوف - فيما أورد الأستاذ العقاد - إنما هو من تاريخ الفكر الصينى القديم . . أما عن قدح القانون للمادة ، فقد ورد فى أكثر من لسان فى التراث الإنسانى ، وثمة من المفكرين العرب من يقول : إن لكل إنسان دوراً ينتهى أجله بأدائه ، فإذا لم يكن له دور مات طفلاً ، وإذا ظل قادراً على الأداء امتد به الأجل .

وكل هذا لا يعدو أن يكون تأملات (خيالية) تصنعها ليالى الصيف ، وما أكثر الفلاسفة الذين تعتر بهم هذه النوبات الفكرية ، فيقدحون زناداً يورى شرراً ، ولا يصنع ناراً ، أو يورى شرراً يرمض العيون ، ويحرق الثياب .

هـــــــــــــــــامش ..

نتيجة التقاء الفكر الصينى التقليدى بالبوذية الوافدة ، ونتيجة تفاعل الديانتين بالفكر المسيحى ، نشأت طقوس كثيرة ، يشوبها بعض التعقيد الذى لم تألفه التقاليد الصينية منذ فجر تاريخها .

نقل الأستاذ بوكيه عن كتاب الأناشيد Shi King حفل قربان ظلت الأجيال تتوارثه حتى قيام الجمهورية سنة ١٩١٠ . . وهذه صورته كما جاءت فى كتاب (مقارنة بين الأديان ص ١٧٩ / ١٨٣) :

إن المذبح - فيما يقال - أعظم مذبح صنعه الإنسان إلى اليوم ، يتكون من ثلاث شرفات ، تركز الواحد على الأخرى ، وأعلاها يبلغ قطرها تسعين قدماً ، والوسطى قطرها مائة وخمسون قدماً ، والدنيا مائتان وعشر أقدام . .

والمظنون أنه أقيمت به الصلوات من سنة ٢٥٠٠ ق.م ، وفى مكانه أقيم مذبح من الرخام سنة ١٤٢٠ م ، على أن المعبد الذى يراه السائح اليوم يقال إنه بنى فى منتصف القرن التاسع عشر ، وهو بوضعه الحالى ذو جمال رائع ، رخامه يتلألأ بياضاً ، وكل شرفة فيه محاطة بحاجز منحوت ، وعلى جوانب الشرفات ما لا يقل عن ثلاثمائة وستين لوحة ، وفى كل جهة من الجهات الأصلية سلم ذو سبع وعشرين درجة ، كل تسع درجات توصل إلى شرفة ، وحول المذبح كله فناء دائرى قطره ثلاثمائة وخمس وثلاثون قدماً ، يسوره جدار صغير مزين بالطوب الأزرق ، وفى كل جهة فتحة ذات ثلاثة أبواب ، وجميع المعبد محاط بفناء مربع ، كل ضلع من أضلاعه طوله تسع وأربعون وخمسمائة قدم ، يسوره جدار ذو حمرة كثيفة .

وأثاث هذا المعبد يتضمن عدداً من المصابيح موضوعة على قوائم ، وفرناً كبيراً من الطوب الأخضر لحرق الضحية ، ومناضد توضع عليها الهبات وقناني الخمر ، وخزانة للهدايا ، وحجرة يرتدى فيها الإمبراطور ثوبه ، وكذلك مختلف المنابر لكبار الرسميين وكبار الكهنة ، وأماكن المرتلين ، وأماكن الحرس الإمبراطورى .

وترتيب الحفل يشبه أى حفل تتويج حديث ، والنظام يشبه نظام القداس البابوى للعشاء الربانى . ومنصة المذبح بنيت بدقة فائقة تتفق مع نظرية توزيع الصوت ، بحيث يسمع الترتيل فى المعبد كله .

وفى اليوم السابق ليوم القربان يقام عرض فخم يتقدم إلى ساحة المعبد ، تتمثل فيه الأساطير والتاريخ الدينى للشعب الصينى ، يتقدم فيه الإمبراطور ، يحيط به الحرس والموسيقيون والراقصون والقواد وأصحاب الأعلام والمظلات والرياش والريش .

وفى الليل يظل الإمبراطور ساهراً صائماً ، بينما يقوم رئيس الكهنة ومساعدوه بتنظيم مختلف الأشياء ، ويضاء مصباح ذهبى ، ويكوم الخشب لحرق الضحية ، وتوضع على منضدة مستقرة أجسام الضحايا ، وقبل شروق الشمس يتخذ الإمبراطور وحاشيته أماكنهم ، وكذلك جماعة الموسيقيين من ثلاثمائة

موسيقى ، والراقصون المائة والثمانون ، وحملة المباخر ، وحملة الخمر والحريز
والوسائد ، وكذلك المراقبون المشرفون على صحة أداء الشعائر .

وتبدأ الإجراءات بقيام الإمبراطور بالغسل المقدس ، بينما تنشد ترتيلة
مزمارية ، ثم توقد الأخشاب لتشوى الضحايا ، ثم يقدم الإمبراطور البخور ،
وبعد ذلك يقدم قربان الزمرد والحريز ولحم الضحية والحساء ، ويقوم الزامرون
ذوو الريش برقصة مقدسة ثم يتم حرق نوع معين من الطعام المقدس ، وكل ما
تبقى من القرايين يحرق في الفرن ، كل هذا يصاحبه إنشاد التراتيل . وفي أثناء
الغسل المقدس تنشد الترتيلة الآتية :

(بإجلال نتلقى بركات السماء / كم هي تتلأأ في روعة / الدولة في سلام
من أبعد الآماد / والشعب بين البحار الأربعة في اتحاد / نقدم مخلصين قرباناً
عظيماً / خضوعاً لأحكام الاثنتي عشرة منضدة ننسق الأنواء / وسيمنح حكم
السماء عديم النظير نعمة نعماء / وستنظر السماء إلى نفسى الوضيعة بعطف /
وسأنظر إلى الكرم السامى بتقدير عميق / متمنياً أن أعان للوصول بأفعال
السماء إلى التمام / لقد أعددتنا الضحايا مرتبة / وبالنهار وبالليل نبدي رغباتنا
للسماء / تنتظر عرباتنا كالسحب زمناً طويلاً) .

(الخيول والعربات تملأ الفضاء ، بأعداد كبيرة / الأعلام الزرقاء ترفرف في
الهواء بانتظام عظيم / يقفون منتظمين في صفوف لاعداد لها / وبخشوع تبدأ
مشاعرنا تتلاءم مع الفرع / وتنظر بإجلال نحو القبة الزرقاء / وأنتم أيها
الأرواح المائة ، تعطفوا بمنح حمايتكم / للحكام الذين يطهرون أنفسهم / وأنتم
ياشن ، تعالوا إلى المأدبة واستمتعوا / شانج تى بصير / وهم جميعاً يتلأئون
بالرحمة والعطف ، ويعطفون من بعد على فضائلى) .

وبعد تلاوة النشيد المعد خصيصاً لهذه المناسبة ، توضع اللوحة المسطور عليها
النشيد في سلة أمام لوحة (شانج تى) ، ثم ينحني المنشد وينسحب ، وبعد ذلك
يذهب الإمبراطور إلى الشرفة الثانية ، ويقدم القرايين للوحات الآلهة الصغار ،
ثم يعلن المنادى عن القربان الثانى للخمر ، فيوجه الإمبراطور إلى الشرفة العليا ،
وأثناء سيره تنشد ترتيلة ، ويقوم الزامرون برقصة مقدسة .

وبعد قربان الخمر يستقبل الإمبراطور ما يسمى (لحم النعمة) ، وهذا الطعام المقدس كان يوضع على منضدة أمام لوحة (شانج تى) ، وكان الإمبراطور يوجه إليه بوقار ، ثم يعطيه حَبْران مقدسان قطعاً يأكلها بالانحناءات المعتادة ، وفى هذه الأثناء يرتل أحد الأناشيد .

وهذا الحفل كان الصينيون فى عصورهم القديمة المختلفة يعدون له كل إعداد ، ليأتى رائعاً مهيباً ، وكانوا يحتفظون بتقاليده الموروثة بتعصب شديد ، أقنع الباحثين أنه تقليد دينى عرفته الحياة الدينية على مختلف أزمانها .

اليابان

الشتوية

يقول جوزيف نيدهام (موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين ص ٦٩) :
 حقيقة وصول الصينيين إلى اليابان ، واستقرارهم هناك ، وإسهامهم فى تركيبها
 السكانية وفنونها - أمر يبدو واضحاً من الشواهد الحديثة للغاية ، التى وفرتها لنا
 دراسة أسنان الهياكل العظمية الأثرية ، فأسنان الجماجم اليابانية شبيهة من عدة
 أوجه بأسنان هياكل شعب شانج الصينى ، بينما أسنان شعب جومون (السكان
 الأوائل لليابان) أشبه بأسنان شعب (أينو Ainu) الحالى الذى يقطن الآن جزيرة
 هوكايدو ، وهو شعب بدائى يتصف تكوينه البدنى بالقصر والامتلاء ولون
 البشرة الفاتح ، والانتشار الكثيف للشعر على الجسم ، أما لغته فلا تمت بصلة
 لأية لغة معروفة ، وقد تناقص عدد الأينو كثيراً ، نتيجة الزواج المختلط ،
 وامتصاصهم فى المجتمع اليابانى ، ولعل الدماء الصينية فى العروق اليابانية هى
 التى أورثت اليابانيين ما نعرفه عنهم من قدرات خلاقة ، أو ينبغى أن نقول إن
 اختلاط الدماء اليابانية بالدماء الصينية أكسب اليابانيين هذه القدرات ، لأن
 عملية (التهجين) فى النبات والحيوان يحدث (تحسيناً) فى السلالة ، وهو ما
 دعا العرب إلى (الاغتراب) فى الزواج ، وقد أثبت العلم الحديث أن زواج
 الأقارب يخلف عللاً وآفات جسميّة ونفسية . . لكن ، هل يخلو شعب من
 هذا (التهجين) ؟ حتى (شعب الله المختار) اختلطت دماؤه بدماء الأميين ،
 وفسد الزرع المقدس . . الأمر إذن قد يرجع إلى طبيعة (التحدى) التى
 فرضتها قسوة الحياة - بيئياً ومناخياً - على هذه الجزر .

ومهما قيل عن (عزلة) هذا الشعب - مع أن حياته تقوم على الصيد ، حتى

صار له أكبر الأساطيل فى بحار الله السبعة ، ومع أن حياته تقوم على التجارة الخارجية ، بحيث لا تجد أرضاً مأهولة فى بر وبحر إلا وقد نفشت فيها غنم القوم - فقد تتلمذت اليابان على الفكر الصينى ، فقد كان معتقد اليابانيين - قصة الحضارة مج ١ ج ٥ ص ١٣ - أن الأرواح سارية فى كواكب السماء ونجومها ، وفى نباتات الحقول وحشراتها ، فى الأشجار والحيوان والإنسان .

ويعتقدون أن عدداً لا يحصى من الآلهة يحوم حول الدار وساكنيها ويرقص مع ضوء الصباح ووجهه . . ولا ريب فى أن هذا كله من صناعة الهواجس التى بعثها الخوف من الزلازل والبراكين والعواصف والأعاصير ومياه المحيط وأسماكه المتوحشة التى كثيراً ما تبتلع الخارجين فى طلب الرزق ، هذا بالإضافة إلى (الخواء الدينى) الذى تتطلب (الفطرة) شغله ، فلا تجد سوى هذه الخيالات والأوهام التى تفرزها طبيعة البيئتين المادية والروحية .

وكان التقرب إلى هذه الآلهة الكثيرة العاتية بإحراق عظام غزالة ، أو قوقعة سلحفاة ، وبفحص العلامات والخطوط التى تحدها النار فحصاً تستمد فيه المعونة من دعاة المعرفة .

كانوا يخافون الموتى ويعبدونهم ، لأن غضبهم قد ينزل بالعالم شراً مستطيراً ، فلكى يسترضوا الموتى كانوا يضعون النفائس فى قبورهم ، كأن يضعوا سيفاً إذا كان رجلاً ، ومراً إذا كانت امرأة ، وكانوا يؤدون الصلاة ، ويقدمون فاخر الطعام أمام صور أسلافهم كل يوم .

وكانوا يلجئون إلى التضحية البشرية ، أنا بعد أن ، توسلاً لإيقاف مطر غزير ، أو ضماناً لثبات بناء تهدده الزلازل .

وكان يحدث أحياناً أن يدفن الأتباع مع سيدهم الذى مات ، ليدافعوا عنه فى أول مراحل حياته الآخرة ، وهذا يعنى الإيمان بالبعث ، وإن لم تأخذ الصورة إطارها الصحيح .

ومن عبادة الأسلاف نشأت أقدم ديانة قامت فى اليابان ، وهى (شنتو Shinto) ، أى (طريق الآلهة) .

(ولم تكن عبادة « شنتو » بحاجة إلى تفصيل مذهبي ، أو طقوس معقدة ، أو تشريع خلقى ، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها ، ولم تذهب إلى ما يبعث العزاء فى نفوس الناس ، من خلود الروح ، ونعيم الفردوس) .

وهذا قول غير مسلم به على إطلاقه ، وإن كان يفيد أن اليابانيين لم يرتفعوا بديانتهم إلى المستوى الذى وصلت إليه الديانات السماوية ، إذ كان لديهم الاستعداد دون (الدليل) الذى يحقق الهداية .

يقول سوندرز (أساطير اليابان القديمة ص ٣٧٢ / ٣٧٩) : (تنحى اليابانيون بعامة عن تشخيص الكوارث ، وترد الصراعات فى رواياتهم الأسطورية مخففة اللهجة ، تسودها روح التوفيق) .

(وهذا التناغم مع الطبيعة يكون العنصر الجوهرى فى المشاعر اليابانية ، فالطبيعة كالناس متحركة مشبعة بروح حيوية ، وكان كل شئ ذى قوة أو جمال ، أو ذى شكل يفوق المعتاد - موضعاً للإجلال) .

وهذا لا يمثل طبيعة يابانية خاصة إلا بقدر ما نعرف عن بيئة يابانية خاصة ، ذلك أن مجموعة الجزر اليابانية معروفة بكثرة الكوارث الطبيعية وفداحتها ، مما أحدث تقبلاً لهذه الكوارث ، أو عدم سخط ونقمة عليها ، لأنه لا سبيل إلى تجنبها ، فكان لون من الاستسلام للقضاء ، لأنه الأقوى ، وكان توجه إلى الدعاء والصلاة للأرواح والقوى غير المرئية ، التى لا تفتأ تعلن عن قدرتها بصورة (مرئية) . . وهذا يتجلى فى الآداب التى (انفردت) بها التقاليد اليابانية ، وجعلت من هؤلاء المغالين فى توقيير الآخرين واحترامهم (الأقدر) على التضحية وركوب المخاطر .

ويقول سوندرز : إن جملة الأساطير اليابانية الأولى جُمعت فى بداية القرن الثامن الميلادى فى مجموعتين : الكوجيكى ، أو (سجلات الأمور القديمة) سنة ٧١٢م ، والنيهونجى ، أو (حوليات اليابان) سنة ٧٢٠م ، وقد كُتب كل من المجلدين بالصينية ، مما يفيد قوة الوجود الصينى فى العروق اليابانية ، وفى ثقافتها ، حتى هذا الزمن المتأخر .

وأسطورة الخلق لا تكاد تبعد عن مثلها في الصينية ، ففي البدء كانت الهيولى كمحيط من زيت ، أو كبيض غير مُحَدَّدة الشكل ، لكنها تحوى بذرة الحياة ، ومن هذا الخليط انبعث شئ أشبه ببرعم البوص ، لكنه حوى معبوداً ، وأعطى اسماً ، وفي نفس الوقت خرجت آلهة أخرى تنوعت وفق أمور مختلفة ، وهى تشخص القوى المتفاعلة كالطين والأبخرة والبذور .

وظهر إيزاناغى وأخته إيزانامى ، وبأمر الآلهة السماوية وقف إيزاناغى وإيزانامى معاً على جسر السماء الطافى ، وغوراً رمحاً سماوياً محلى بالجواهر فى الماء الهيولى المالح من تحتهم ، وطفقا يتركان ، حتى تخثر السائل وغلظ وعندئذ جذبا الرمح ، فكان أن تكونت من قطرات الماء المتساقط فى المحيط جزيرة .

ونزل إيزاناغى وإيزانامى على هذه الجزيرة الجديدة ، وجعلها (العمود المركزى) للأرض ، ويعجب كل منهما بجسم الآخر ، وأدى الإعجاب إلى الجماع والإنجاب .

وواصلت إيزانامى إنجاب أنواع من الآلهة ، من بحر وأمواج وجبال ، وأخيراً أنجبت إله النار ، ونشأت من عيني إيزاناغى كل من الشمس والقمر .

هذا الذى حكاه سوندرز يبدو أنه (تشكيلة) من الأساطير والأفكار ، قد ترمز إلى القدرة على إضافة أرض جديدة إلى الجزر ، وهو ما يحدث حتى اليوم ، وقد ترمز إلى تفوق الكائن اليابانى وقدرته على تشكيل الحياة ، وهو ما تحاول اليابان إثباته زراعياً وصناعياً ، بالرغم من ضالة ثرواتها المادية .

ويقول الأستاذ العقاد (الله ص ٧٥ / ٧٦) : اختار اليابانيون ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى ، وتلك الربة هى (أميتراسوا - أموكامى) التى لاتزال معبودة إلى اليوم .

ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون ، أو خلقت الإنسان ، لأنهم يعتقدون أن عهدها قد سبقته عهود طويلة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب ، وهذه الأرباب عندهم بمثابة الأرواح والملائكة والجن والشياطين ، من

قوى الخير والشر عند الأمم الكتابية ، ويسمون الواحد منهم (كامى) ، وهى كلمة تطلق على كل رائع خارق للعادة ، بالغ فى القوة أو الجمال ، ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل ، وصار الأمر إلى الربة الكبرى ، برضوان من خالق السموات والأرض .

ثم يقول : فالديانة اليابانية الأصلية ديانة شمسية سلفية ، جمعت معنى التوحيد أولاً فى إله السماء ، حيث تصورته أباً للخليقة بمفرده ، أو بمشاركة زوجته ، ثم جمعتها فى الربة الواحدة ، على اعتبارها ربة مختارة بين أرباب .

وهذا القول لا يسهل الشك فى صدقه ، ولا يسهل إعلانه معتقداً عاماً ، لأن الذين جمعوا الأساطير لم يفصلوا بين البيئات المختلفة أشد الاختلاف فى اليابان ، فالجزر ليست متماثلة ، والعلاقة بيماء المحيط تختلف من جزيرة إلى أخرى ، وساكنو الجبال غير ساكنى الشواطئ ، وتمتد مناطق شديدة الحرارة وأخرى جليدية ، هذا إلى أن الصينيين والكوريين حملوا إلى اليابان أساطير ومعتقدات .

من هنا يصعب الجزم بشئ عن هذه (الديانة) ، وبخاصة أن كلاً من اللغتين الصينية واليابانية لغة رموز وأشكال وطريقة خاصة بالنطق والإشارة .

لهذا يحسن عدم الإيغال فى المعتقد القديم ، والاكتفاء بما تحدث به مجموعة الطقوس التى تتجه جميعاً إلى عبادة روح الطبيعة القادرة على جميع مظاهرها ، سواء فى الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجمد ، فالأباطرة العظام لهم معابد تعبد فيها أرواحه ، كذلك الأبطال ، كما توجد معابد تعبد فيها السيوف التى خاض بها أصحابها معارك وحققوا انتصاراً ، على أساس أن للسيف روحاً مكنت صاحبه من الانتصار ، وهناك معابد للجبال ذات الشكل المتميز ، مثل جبل فوجى ، وثمة أشجار مقدسة ، وملابس . . الخ ، وتعتبر المرأة مقدسة لأنها تعكس الشمس ، جدة العائلة الإمبراطورية .

وعلى الرغم من التقدم التكنولوجى اليابانى فإنهم لا يزالون يصرون على التمسك بهذه الموارث الطقسية .

* يقول د. ل. فليبي (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٤٤) : كان على الكهنة في كل هيكل إعداد صلوات يرونها ملائمة لكل مناسبة ، وظلت هذه العادة قائمة حتى عصر مييجي (١٨٦٨ - ١٩١٢ م) ، وقد تولى الإمبراطور مييجي (١٨٥٢ - ١٩١٣) حكم اليابان سنة ١٨٦٧ ، وقام بتحديث البلاد ، وإضفاء الطابع الغربي عليها ، ومنذ سنة ١٨٧٥ قدمت الدولة صلوات رسمية تؤدي في الأعياد والطقوس المقررة ، ومنذ سنة ١٩٤٦ بدأت (جمعية هياكل الشتو) - التي يرتبط بها أكثر من ثمانين ألف هيكل - في إعداد الصلوات ، وإن تركت للكهنة حرية تأليف صلواتهم الخاصة بهم إذا رغبوا في ذلك .

ودخلت عبادة الشتو المنزل من خلال هيكل المنزل ، وكان من المؤلف أن توجد فيه تماثيل مجلوبة من هيكل (آيس Ise) ، وهو الهيكل الذي اصطبغ بصيغة قومية مع توحيد الأمة ، بوصفها أسرة واحدة مع الإمبراطور الذي يقوم بدور الأب ، ومن هنا سمي (هيكل العشرة) ، أو الهيكل المحلي ، ولا بد من تقديم القرابين كل صباح وكل مساء ، لألواح الهياكل ، وألواح الأسلاف ، في آن واحد ، ولا بد للمتعبد الورع أن ينحني - بعد مراسم الطهارة - أمام الهيكل ، ويصفق بيديه مرتين ، ثم ينحني مرة أخرى في صمت لمدة دقيقة .

وتخلو ديانة الشتو من الصور ، أما الرموز فهي وفيرة ، وأكثرها شيوعاً ثلاثة : المرأة التي تربط الأساطير بينها وبين الإلهة أماترسو Amatersu إله الشمس ، والرمزان الآخران هما السيف والجوهر اللذان وهبتهما أماترسو لحفيدها عندما هبط إلى الأرض .

وتعد الشتوية (الخدسية = الإدراك الباطني السريع للحقيقة بغير مقدمات) مظهرًا واضحًا من مظاهرها ، مع الاهتمام بالتجربة الدينية أكثر من المبادئ اللاهوتية . . ونادرًا ما يسأل الشتويون أسئلة أنطولوجية ، تتعلق بطبيعة الوجود بصفة عامة ، مثل هل هذا الوجود الذي نعيش فيه يتألف من عنصر واحد ، أو عنصرين ، أو أكثر ؟ وهل هو عنصر رוחي ، أو مادي ، أو محايد ؟ إلى آخره . . بل هم بالأحرى يشعرون بحقيقة الكامي Kamy وواقعته ، لأن

المروء بتجربة مباشرة مع الألوهية ، والإدراك المرفف للسر الغامض ، أكثر أهمية لهم من النظر العقلى لدقائق العقيدة .

ومع أن كامى كثيراً ما تترجم بآله أو آلهة ، وقد تطلق على الوحوش ، والطيور ، والنباتات ، والبحار ، والجبال ، وظواهر الطبيعة ، كالعاصفة ، والريح ، والصدى - فهو فى العقيدة الشنتوية يجسد الاستقامة والأمانة الجوهريتين ، ومن ثم فهو تقدير سماوى يجعلنا نعيش حياة سعيدة وأمنة تنسجم مع إرادة الكامى ، الروح فى الطبيعة ، والإخلاص فى الإنسان ، والفضيلة الرئيسية فى فكر الشنتو .

البوذية فى اليابان

دخلت البوذية اليابان حوالى سنة ٥٣٩ م ، عندما عقد حاكم مملكة كورية صغيرة تحالفًا مع حاكم ياماتو Yamato ، ولكى يرضيه أرسل إليه تمثالاً صغيراً لبوذا ، وبعض النصوص البوذية (سوترا Sutra) التى وصفها بأنها (أعظم كنوز يمكن أن يرسلها إليه) . . وكانت اليابان متأثرة - إلى حد كبير - بالفكر والثقافة الصينية ، وبخاصة من خلال إدخال النظام الصينى فى الكتابة سنة ٤٠٥ م ، كما أن عبادة الأسلاف الصينية قد أثرت أيضاً على موقف اليابانيين من الماضى ، واتحدت مع عناصر السحر التاوى ، والتنبؤ بالغيب فى معتقدات شنتو الوطنية .

ومع آن دخول البوذية جاء عن طريق كوريا ، فإن استمرار الاتصال كان مع الصين ، حيث تكيفت البوذية بالفعل مع صور من الفكر الكونفوشى والتاوى ، ومن ثم كان من الطبيعى أن تدخل الصورة الصينية للبوذية إلى اليابان ، وهى بوذية (المهايانا) ، مع قدر من التأثير بتعاليم (الهنايانا) .

عارضت الكهانة الشنتوية بشدة - فى البداية - الإيمان الجديد ، وعندما انتشر الطاعون نسب الكهنة انتشاره إلى أن العبادة اتجهت إلى (كامى) أجنبى ، وأدى هذا الاتهام إلى حرق المعابد البوذية ، وتحطيم تماثيل بوذا .

غير أن الديانة الجديدة لقيت دعماً من دوائر البلاط ، فقد أدخل أحد القادة المرموقين فى الثورة الثقافية والدينية - وهو الأمير شوتوكو (٥٩٣ - ٦٢٢ تقريباً) الذى كان وصياً على العرش الذى كانت تجلس عليه عمته - دستوراً جديداً يقوم على مبادئ البوذية ، فأصبحت البوذية بهذا الدستور ديانة تعترف بها الدولة ،

(وظهر - فى ذلك الحين أو بعده - ميل إلى التوحيد بين البوذية والقوانين الوطنية ، مما جعل الدولة تتكفل بحماية الدين ، وتنال حق التصديق الدينى فى وقت واحد) .

وقد بنى الأمير شوتوكو المعابد والأديرة ، بوصفه بوذياً ورعا ، ومن بينها معبد هوريوجى Horyuji القريب من مدينة (نارا) ، وهو معبد يتميز بالجمال الهادئ ، ويعد من أقدم المباني الخشبية فى العالم . . وقد خلف شوتوكو وراءه ثروة من اللوحات البوذية الجميلة ، كانت بمثابة الوثائق التاريخية لذلك العصر . . وقد أرسل الأمير بعثات إلى الصين لتلقى التعليم مباشرة من منبع هذه الثقافة الرفيعة ، وأخذ ينقل عن الصين نظام مؤسساتها السياسية .

وقد أظهر شوتوكو سعة اطلاع وقدرة على البحث ، عندما نشر شروحا على بعض النصوص المقدسة (Sutra) ، وساعد على إلحاق (مستوصفات) للإنسان والحيوان بالأديرة ، ونُزك للمرضى ، واليتامى ، والمسنين .

واحتاج الأمر إلى وقت طويل حتى يستوعب الناس تعاليم البوذية ، فلا تظهر بمظهر الديانة (الأجنبية) ، وكان أيسر على الغالبية العظمى فهم الجوانب الثقافية للبوذية ، أكثر من فهمهم الجوانب المذهبية والميتافيزيقية ، الأكثر صعوبة .

* ورغم أن دخول البوذية إلى اليابان - على المستوى الرسمى - كان يعنى تطوراً واسع المدى لديانة منظمة ، فإن التراث غير التقليدى للقائد الملهم ازداد رسوخاً ، وسعى (رجال مقدسون) - من خارج المؤسسات الدينية الرسمية - إلى تقديم الحياة الدينية لعامة الناس ، ويسمى هؤلاء الرجال Hijivi ، وهم يركزون كثيراً على التقوى الفردية ، وقد سار كثير منهم على نهج النساك البوذيين . . وكان الاعتقاد السائد أن الناسك يستطيع أن يبلغ قوة سحرية تفوق قوة البشر ، نتيجة الميزة التى حصل عليها من خلال ممارساته الدينية الصارمة . . وكان بعض النساك يتنقلون من قرية إلى قرية ، ويعملون (كشامانيين) ، لهم قدرة خارقة على شفاء المرضى ، والاتصال بالعالم العلوى ، وارتبطت طريقة النساك بعبادة الجبال الشنتوية البدائية ، ولا يزال متسلقو الجبال هم السحرة

الذين يسعون إلى حالة (الإلهام) ، أو الوجد الصوفى ، أثناء تسلقهم . . وقد جاء فى الفكر البوذى أن صعود الجبال يوازى الصعود فى الطريق ذات الشعب الثمانى التى تؤدى إلى الاستنارة .

وكان چيوچى Gyogi (٦٧٠ / ٧٤٩م) واحداً من النُساك المبكرين غير التقليديين ، ثم أصبح بوذياً بدرجة تعادل درجة (المطران) ، وقد نظر إليه - أثناء حياته - على أنه (بوذا المنتظر) ، وارتبطت صور الشنتو الأقدم عهداً مع خلفائه بطقوس السحر البوذية وشعائرها ، وبالحرافات الشعبية التأوية .

وترددت فى تراث (الرجال المقدسين) أفكار الاستحواذ على Kami أو على بوذا ، كما أن الرجال الأفذاذ الملهمين ينتقلون - فى بعض الحالات - من جيل إلى جيل ، داخل الأسر ، كما هو الحال مع يامابوشى (الإله الذى كان يعمل مرشداً للحجاج الذين يقومون بزيارة الجبال المقدسة التى تسكنها آلهة الشنتو) ، أو كما هو الحال مع (ميكو) كاهنة هيكل الشنتو ، وقد يعملون وسطاء بفضل موهبة خاصة لديهم .

وصار المعبد الرسمى (إنجرياكوچى) مركزاً للنشاط البوذى فى اليابان ، لمدة ثمانمائة سنة تقريباً ، وفى هذه الأثناء امتلأ منحدر الجبل بالمعابد والرهبان الذين كان بوسعهم غزو العاصمة عن طريق تشكيلات مسلحة .

* يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ١ ج ٥ ص ٨٤) :

ولم يتعذر على البوذية أن تخلق من نفسها مكاناً فى لاهوتها ، وفى عداد آلهتها ، لمذاهب (شنتو) وآلهتها ، فاندمج بوذا عندهم بـ (أمانيراسو) ، وخصص مكان متواضع فى المعابد البوذية لضريح شنتو .

وكان الكهنة البوذيون الذين ظهوروا فى القرون الأولى يتمثل فيهم الولاء ، كما يتمثل العلم والرحمة ، وكان لهم أثر عميق فى تقدم الآداب والفنون فى اليابان ، حتى لقد كان منهم رسامون أو نحّاتون من الطراز الأول ، كما كان منهم علماء أخذوا على أنفسهم ترجمة الأدب البوذى والصينى .

وقد أكد الكهنة للعباد المؤمنين بأن الرجل فى سن الأربعين يمكنه أن يشتري

عقدًا آخر من السنين يضيفه إلى حياته ، إذا هو دفع رسومًا لأربعين معبدًا تدعو له بذلك ، ويمكن للرجل في سن الخمسين أن يشتري عشر سنين أخرى إذا دفع الرسوم لخمسين معبدًا تدعو له ، وفي سن الستين يستأجر ستين معبدًا ، وهكذا ، حتى يموت بسبب ما قد يكون في تقاه من نقص .

وكان الرهبان في عهد (توكوجاوا) يشربون الخمر إلى درجة الإسراف ، ويحيط بهم الغانيات صراحة ، ويمارسون اللواط ، ويبيعون أحسن مناصب الدين إلي من يدفع ثمنًا أعلى .

يقول مردوخ : (كان الرهبان في دير «كيوتو» و«نارا» العظيمين يبلغون ذروة مجدهم المادى فى الأوقات التى كان الشعب يتضور فيها جوعًا ، بل يموت عشرات الآلاف من الوباء ، لأن المؤمنين بالدين يسخون فى هداياهم وعطاياهم أعظم سخاء فى أمثال هذه الأوقات) .

ويقول مردوخ : (فى سنة ١٤٥٤م كان الصبية يباعون للكهنة ، وكان الكهنة يحلقون لهم حواجبهم ، ويزينون وجوههم بالمساحيق ، ويلبسونهم أردية النساء ، ويستعملونهم أسفل ضروب الاستعمال ، لأنه من عهد «يوشيمتسو» الذى ضرب مثلاً سيئًا فى هذا الصدد ، وفى كثير غيره من الأمور ، واللواط يزداد شيوعًا ، وخاصة فى الأديرة ، ولو أنه لم يكن مقصوراً على الأديرة وحدها) .

ومع هذا الفساد المتفشى فى القمم الدينية فقد كان ثمة محاولات لاقتحام هذا السد الصفيق العتيق .

يقول كيوسو : (لا تظنوا أن الله بعيد عنكم ، ابحثوا عنه فى قلوبكم ، لأن القلب هو مقر الله) .

ويقول إكن : (إن حمقى الناس يؤدون صلواتهم لآلهة مشكوك فى وجودها ، وطلبًا لسعادة أنفسهم ، فى الوقت الذى تراهم فيه يقتربون الموبقات) .

ويقول ناكابى توجو : (إن عقل الإنسان هو عقل العالم الذى يخضع فى

سيره لمنطق العقل ، لكن هناك عقلاً آخر يسمى الضمير ، وهذا هو الجانب الذي لا ينتمى إلى عالم الأشياء ، بل هو لا نهائى وأبدى ، لأنه لما كان الضمير فينا هو نفسه العقل الإلهى ، أو الكونى ، كان بغير بداية أو نهاية ، فإذا ما سلكنا فى أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل ، أى بالضمير ، كنا بمثابة التجسيد اللانهائى والأبدى ، وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد) .

ولأن هذا الفكر لم يتطور حتى مع الصحوة اليابانية فى نهاية القرن التاسع عشر ، إذ كانت الصحوة مسوقة سوقاً مادياً - قال ول ديورانت : (إنها الحكمة التى أسماها موليير : « الفضائل التى تجلب النعاس ») .

* وشهد القرنان الحادى عشر والثانى عشر تطوراً جديداً هاماً تمثل فى اهتمام عامة الشعب اليابانى بالمعتقدات البوذية ، ومن أهمها خلاص الروح ودخولها الجنة بالإيمان البسيط بضرورة الاعتماد على أى إله من الآلهة البوذية العديدة ، ولم تكن تلك المعتقدات سوى انعكاس كامل لجوهر العقيدة البوذية القائلة باتحاد الذات الإنسانية فى الكون ، عن طريق التدريب القاسى للنفس وصولاً إلى مرحلة الاستنارة .

وقد نتج من تلك الأفكار ظهور حركات مذهبية جديدة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . . أما الفرسان فقد فضلوا - من بين مذاهب الديانة البوذية - مذهباً آخر عرف باسم زن Zen ، نقل عن الصين فى أوائل عهد نظام (كاما كورا) .

ويركز مذهب (زن) على فلسفة التأمل والبساطة والالتصاق بالطبيعة ، وينادى بتقشف الفرسان ، والانضباط النفسى الصارم ، من أجل ممارسة فلسفة (زن) فى التأمل ، كوسيلة لتنمية إرادة التحكم فى النفس ، والوصول إلى الشخصية الحازمة ، وهو الهدف من الحياة .

وقد اتخذ أباطرة أسرة (أشيكاجا) من رهبان (زن) مستشارين لهم ، خصوصاً فيما يتعلق بعلاقاتهم واتصالاتهم بالصين ، ومن خلال هؤلاء الرهبان شهدت اليابان نهضة كبيرة فى مجال العلوم والآداب الصينية .

وفى أواخر العصور الوسطى وضع رهبان (زن) نظاماً جمالياً متكاملأً أصبح فيما بعد من العناصر الدائمة فى الثقافة اليابانية ، ارتكز هذا النظام على الاهتمام بقيمة أى عنصر بسيط طبيعى ، وغير منسق أيضاً أكثر من اهتمامه بالعناصر المصنوعة الفخمة المتناسقة ، وكانت التشكيلات الطبيعية الخشبية وجذوع الأشجار الدائرية ذات قيمة كبيرة بالنسبة لهم أكثر من قطع الخشب محددة التشكيل والمطلية بالألوان . . وكانوا يفضلون التشكيلات المعمارية البسيطة غير المنتظمة ، والتي لاءت مستويات الأرض المختلفة أكثر من الطراز المعمارى الصينى الثابت المتوازن المتسم بالأبهة والفخامة ، وفى مجال الحدائق صمموا نماذج للحدائق الصغيرة التى تعبر عن روعة الطبيعة الوحشية فى صورة مصغرة ، وهو اتجاه يتناقض تناقضاً شديداً مع ولع الغربيين بأنماط الحدائق الكبيرة ذات التنسيق الهندسى ، ولعل أبرز مثال لهذا الاتجاه هو حديقة الصخرة الشهيرة المعروفة باسم (رويوانجى) فى مدينة كيوتو ، والتي تمثل بحق المذهب اليابانى .

وشهد القرن الثالث عشر نهضة زاهرة فى فن النحت ، وظل تماشى بوذا العظيم القائم فى مدينة كاماكورا رمزاً لذلك العصر ، وهو من أكبر التماثيل البرونزية فى العالم - اليابانيون ص ٨٦ / ٨٨ .

* وقد عرف المعبد البوذى بأنه بناء يحيط به سياج ، وقد يشكل البناء أكثر من معبد ، ويحرس مدخل المعبد عادة تماثيل منفردة ذات وجوه عابسة ، حتى تمنع الشرور ، وتُغطى المعابد عادة بالورق ، لأن المتعبدين يكتبون التماساتهم على قصاصات من ورق يقدفون بها إلى التماثيل ، بعد أن يلوكوها بأفواههم ، وإذا التصقت بالتماثيل وثق المرء من إجابة التماسه ، وكثيراً ما يحتوى المعبد على (باغودا Pagoda) ترتفع من ثلاثة إلى أربعة طوابق مزخرفة ومنمقة فى العادة ، ويحتوى المحراب الرئيسى على مذبح به شموع مضاءة مع تماثيل لبوذا ، والبوذات المنتظرين (بوذا ساتفا) ، وآلهة الهند (ديفا) ، وحول المذبح صناديق تشتمل على السوترا (النصوص) . . ولا تحصل فرقة واحدة على الشريعة (الصينية) كلها ، بل يكون لكل فرقة أن تنتقى من النصوص ما تعتقد أنه النصوص المعتمدة ، وتختلف الصورة المركزية فوق المذبح تبعاً لكل فرقة .

ويقوم الكهنة بإنشاد النصوص ، وتلاوة الصلوات ، بمصاحبة الطبول والأجراس ، وحرق البخور ، ونادراً ما يحضر المؤمنون العاديون هذه الصلوات/ فعبادة هؤلاء شخصية إلى حد كبير ، وهى تنحصر - فى كثير من الأحيان - فى مذبح الأسرة بالمنزل ، وهو صورة مصغرة مما يوجد فى المعبد .

وتقدم كثير من المعابد - بصورة أساسية - وجبات ، وفقاً لحاجة الناس ، كما تزودهم بتذكارات ، وتنقش أسماء المساهمين فى موارد المعبد المالية على بعض الأشياء المقدسة ، أو الزخارف التى يمكن وضعها فى مذبح الأسرة فى المنزل .

ويتأكد الجو الصوفى الغامض للمعبد بتوزيع التماثيل والرقى ، مع شئ خاص بالمعبد البوذى ، هو ميدالية تشبه القديس كريستوفر الذى (كان يرعى المسافرين فى القرن الثالث الميلادى ، وفى القرن العشرين يرعى ركاب السيارات وسائقها) .

وتباع هذه الميدالية لسائقى سيارات الأجرة فى طوكيو ، أما الكهنة فى معظم المعابد فهم على استعداد لتأدية الطقوس العامة ، والشعائر الخاصة ، التى تنحو نحو التوسل أكثر من التوقير الخرافى لصحة النصوص الدينية .

وبغض النظر عن الحقيقة التى تقول إن عقيدة الأناتا Anatta (اللاذات) للأرواح تكمن فى قلب البوذية ، فإن قوة عبادة الأسلاف - كما تمثل فى القيام بالطقوس الجنائزية والتذكارية للمتوفى - تشغل الكاهن أكثر مما يشغله التعليم المنتظم للبوذية .

ولقد ظهرت لوحات الأسلاف فى مذبح الأسرة ، ووجدت لها مكاناً فيه ، ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى ، فأصبحت تعبد جنباً إلى جنب مع التماثيل الصغيرة لبوذا ، ونسخ من النصوص المقدسة ، والمتعبد الشنتوى يتطلع إلى أن يصبح روحاً (Karma) عندما يموت ، كما أن البوذى ينتظر أن يصبح بوذا (مستنيراً) ، وليس ثمة فرق بين التصورين ، لأنهما تغذيا من ثدى واحد .

أما بالنسبة لموضوع قرايين الندور ، فهناك فارق على المستوى الشعبى بين

ممارسى الشنتوية ، فهناك نذور للشفاء من المرض ، ونذور للحمل السهل ، أو الولادة الآمنة للطفل ، كما يقدم نموذج للثدى قرباناً أثناء الصلاة ، ليكون لبن الأمن غزيراً ، وتقدم مغرفة للطفل أثناء الصلاة ، لكن إذا كان قاع المغرفة غير صالح فإن الإجهاض يكون موضوع التوسل ، وتقدم شخصيات الدهارما Dharma (المؤسس المزعوم لبوذية زن ، أو الجوهر الأزلى الذى يحرك العالم) بغير عيون ، حتى يستجاب الطلب .

ويضيف صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٤٢ / ٣٤٣) أنه إذا كانت زيارة الهيكل خاصة سار المتعبد على قدميه (حافياً) بمجرد أن يتخطى البوابة الأولى ، ولا بد أن يغسل يديه وفمه من نبع طبيعى فى مجمع الهيكل ، أو من حوض الماء المحفور فى الصخر ، مستخدماً أوانى يزوده بها الهيكل ، ثم يصفق المتعبد - ذكراً أو أنثى - وهو يحنى الرأس إجلالاً ، أثناء توسلاته ، غير أن التوسل يمكن أن يكتب فى ورق ، ويعلق على إحدى أشجار السكاكى Sakaki المقدسة .

وتتضمن العبادة الرسمية أربعة عناصر ، وهى :

- ١- فعل التطهير بالإضافة إلى الاغتسال ، عندما يلوح الكاهن بفرع من شجرة السكاكى على المتعبد .
 - ٢- القربان الذى يكون رمزياً فى صورة غصن من شجرة السكاكى ، كما يكون من الحبوب والشراب ومن المال .
 - ٣- طقوس الصلاة .
 - ٤- الوليمة الرمزية ، دلالة على تناول الطعام مع (كامى) ، وكثيراً ما يشمل هذا العنصر رشف قطرات من خمر الأرز المقدس الذى يقدمه الكاهن ، ويمكن لجماعة المتعبدين أن تطلب أيضاً تأدية الرقصة المقدسة للمعبد ، التى يوجد منها خمس وثلاثون رقصة تعبر عن الأساطير القديمة .
- وثمة صلاة ضاربة للكامى من أجل محصول وفير : (ليت الحبة الأخيرة من الأرز التى ستحصد / بحبات العرق من سواعدهم / وتشد مع الوحل العالق

بالفخذين / ليت هذه الحبة تزدهر بفضلك أنت / وتفتح سنابل الأرض التي تتوق إليها الأيدي الكثيرة / فتكون أولى الثمرات في الشراب وأعواد النبات) .
وأخيراً ..

تأسست في اليابان ديانة سيكاكيسكو (ديانة إنقاذ العالم ، أو العالم المنتظر) على يد أو كاداموكيشي (١٨٨٢ / ١٩٥٥) عندما انشق عن فرقة أموتو ، وقد اعتقد أنه وهب القدرة على الأعمال الخارقة ، وهي قدرة كانون Kannon (بوذا المنتظر ، صاحب الرحمة) ، وتذهب إحدى القصص التي تروى عنه إلى أن هذه القدرة تتضمنها لؤلؤة صغيرة داخل جسمه ، ويشع نور من هذه اللؤلؤة يقتل البكتريا ، كما يعتقد أن لديه القدرة على شفاء الأمراض ، وإثراء المحاصيل ، وبسبب ذلك سمي هيكارى - سان ، أى رجل النور ، ويزعمون أن لديه القدرة على تحويل القوة الشافية إلى قصاصات من ورق ، تكتب عليها العلامة اللغوية الدالة على (النور) ، وهناك محاولة داخل مراكز هذا الدين لإقامة (المملكة) ، فالشغل الشاغل لهذه الفرقة هو (إزالة المرض ، والفقر ، والحرب ، من هذا العالم ، وتحويله إلى جنة أرضية) .

ويسمى الإله باسم ميروكو Miroku (بوذا المنتظر) ، كما يقال إن الصحة والثراء والسلام هي عناصر مملكته ، وتقول إحدى الترانيم : (تعال يا ميروكو ، يأيها الإله العظيم ، مزوداً بقوة عظمى / قوة الثلاثة فى واحد : النار والماء والتراب / ميروكو ، يأيها الإله العظيم ، لقد أنشأت السماء / فوق الأرض ، من قديم الأزل / ميروكو ، يأيها الإله العظيم ، حتى عندما يتسلل لص ، فإنك / تكون قد ولدت تحته بطريقة خفية / تاركاً خلفك العرش المجد الرفيع / فأنت دائماً تولد تحته لكى تجلب الخلاص) .

فى ١٨ أغسطس ١٩٩٦

١٤ ش عبد القادر المغربى - النزهة - مصر الجديدة

الفهرست

الصفحة

9 آفة التاريخ	١- العراق
23 آلهة على حدود الرافدين	
30 آلهة وادي الرافدين	
43 الحضارة السومرية	
49 ملحمة جلجامش	
55 آلهة بابل وآشور	
69 التشريع	
80 آداب	
85 نهاية مرحلة	
90 المجوس	٢- فارس
94 مشرا	
102 زارادشت	
112 الأبستاق	
123 عبادات وطقوس	
131 ترانيم زارادشت	
138 مانى	
142 مزدك	
147 من قبل	
153 الفيدا	٣- الهند

الصفحة

157	آلهة الفيدا
174	الهندوسية
190	خاجوراهاو
192	الجانتيه
199	البوذيه
219	راما وكرشنا
224	تطور
236	السيخ
240	اليوجا
245	طبيعة خاصة
263	الحكيم
267	المعلم
288	الصوفي
298	التلاميذ
304	الدين القومي
311	البوذيه في الصين
321	الشتويه
328	البوذيه في اليابان

مصادر ومراجع

- 1- معالم التاريخ الإنسانية - ه. ج. ويلز
- 2- قصة الحضارة - ول ديورانت
- 3- فجر الضمير - جيمس بريستيد
- 4- أساطير العالم القديم - صمويل كيرير
- 5- المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفري بارندر
- 6- الله - عباس العقاد
- 7- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - طه باقر
- 8- تاريخ الكتاب - ستيثشفيتش
- 9- مختصر دراسة التاريخ - توينبي
- 10- تاريخ الحضارة الإسلامية - فاسيلي بارتولد
- 11- ترانيم زارادشت - ت. فيليب عطية
- 12- سفر نامه - ناصر خسرو
- 13- السحر والعلم والدين - مالفينوسكي
- 14- التاريخ وكيف يفسرونه - ويد جري
- 15- الشاهنامه - الفردوسي
- 16- ملحمة جلجامش - طه باقر
- 17- جماليات ملحمة جلجامش - دياكونوف وترافيموف
- 18- عشتار ومأساة تموز - فاضل عبد الواحد
- 19- حمورابي ملك بابل وعصره - هورست كلنجل
- 20- محاكمة جلجامش - عبد الغفار مكاوي
- 21- نهاية الأرب - النويري

- 22- مروج الذهب - المقدسى
23- الملل والنحل - الشهرستانى
24- تاريخ الرسل والملوك - الطبرى
25- القصة فى الأدب الفارسى - أمين عبد المجيد
26- جولة فى الشاهنامه - أمين عبد المجيد
27- من روائع القصص فى الأدب الفارسى - أمين عبد المجيد
28- تاريخ اليمن القديم - محمد عبد القادر بافقيه
29- كتاب التيجان فى ملوك حمير - عن وهب بن منبه
30- الفكر الشرقى القديم - جون كولر
31- الديانات القديمة - محمد أبو زهرة
32- ابن بطوطة ورحلاته - حسين مؤنس
33- تاريخ الإسلام فى الهند - عبد المنعم النمر
34- الأساطير الإيرانية القديمة - يارشاطر
35- الهند . . عقائدها وأساطيرها - عبد الرحمن حمدى
36- تراث الإنسانية (عدة بحوث) - محمد إسماعيل الندوى
37- تراث الإنسانية (بحث عن البيرونى) - أحمد الساداتى
38- موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين - نيدهام
39- الإسلام فى الصين - فهمى هويدى
40- نشأة الكون ووحدة الخلق - محمد فتحى عوض الله
41- الفكر الصينى . . من كونفوشيوس إلى ماوتسى تونج - كريل
42- الكتب الخمسة لكونفوشيوس - حسن شحاتة سعفان
43- كتب غيرت الفكر الإنسانى - أحمد الشنوانى
44- أساطير اليابان القديمة - سوندرز
45- الصينيون المعاصرون ج1 - وو - بن
46- اليابانيون - أدوين رايشاور
47- الفلسفة الشرقية - محمد غلاب
48- الأديان القديمة - رشدى عليان

- 49- فى العقائد والأديان جابر الحينى
50- فجر العلم الحديث - توبى هاف
51- مجلة الهلال - يونية ١٩٧٢
52- مجلة العربى - يولية ١٩٩٦

كتب للمؤلف

كتب مطبوعة:

- 1- المنهج البيانى فى التفسير الحديث للقرآن الأنجلو المصرية
الكريم بمصر
- 2- التراث . . واجبنا نحوه »
- 3- أمين الخولى فى مناهج تجديده المجلس الأعلى للفنون
- 4- أمين الخولى . . حياته وأعماله والآداب
- 5- سبحان الله الهيئة العامة للكتاب
- 6- الذين يلحدون فى آيات الله دار المعارف
- 7- قراءة فى ديوان ابن الرومى »
- 8- آيات بينات من الهدى والفرقان »
- 9- اليهود تاريخاً وعقيدة »
- 10- هوامش تراثية دار الاعتصام
- 11- فى صحبة أبى العلاء »
- 12- الساعة الخامسة والعشرون دار الأمين
- 13- دراسة فى التوراة والإنجيل »
- 14- محاكمة النص القرآنى دار الفضيلة
- 15- قبل أن تفيض الكأس رواية
- 16- حتى مطلع الفجر »
- 17- عبر الأسلاك الشائكة »
- 18- الإدانة . . شاهد من أهلها » توزيع دار المعارف

- 19- في مرقص الظلال شعر
20- الأرض لاتنبت أغصانا جافة »
21- حتى تعود الابتسامة »
22- من تجارب الشعر والشعراء جا
23- هذا أبو الطيب شاعر المعاناة والتمرد
24- مسيحية بلا مسيح
25- الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
26- الشيخ أمين الخولي (كتب للشباب)
27- الشيخ على عبد الرازق »
- توزيع دار المعارف
»
المجلس الأعلى للثقافة
دار الأمين
دار الزهراء
دار الفضيلة
دار الأمين
الدار المصرية اللبنانية
»

كتب معدة للطبع:

- 1 - من تجارب الشعر والشعراء
(ج ٢ في العصر العباسي)
2 - كنانة الله يافعون
(دراسة في معتقدات مصر القديمة)
3 - معتقدات يونانية ورومانية
4 - حالة مخاض رواية
5 - الأرض والجردان رواية
6 - حين ينزعون اللحاء رواية
7 - لله لا لقيصر (دراسة في الإمامة)
8 - اليهود من الجيتو إلى الفاتيكان
- دار الأمين
دار الندى
دار الندى
دار الفضيلة
»

رقم الإيداع : 99 / 2077

الترقيم الدولي : 977-5936-08-x

